

ثلاثة رفاق



ذائق
التنوع ٩

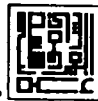
أريش ماريا ريمارك

ثلاثة رفاق

رواية من ألمانيا

المحرر
الياس خوري

ترجمة
ليلي نعيم



مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

* اريش ماريا ريمارك : ثلاثة رفاق .

* الطبعة العربية الأولى ، ١٩٨٣ .

* جميع الحقوق محفوظة .

* الناشر : مؤسسة الأبحاث العربية ، ش.م.م.

ص.ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) بروت - لبنان .

هاتف ٨٠٤٢٥٧ ، تلکس ٢٠٦٣٩ دلنا ، لبنان .

* تصميم الغلاف : دار المثلث . ش.م.م. بيروت - لبنان

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية :

Erich Maria Remarque: *Dreikameraden*. Ullstein Buch.

مقدمة

الكاتب والكتاب

ولد إيريش ماريا ريمارك ERICH MARIA REMARQUE (واسمه الحقيقي ERICH PAUL REMARK) في ٢٢ / ٦ / ١٨٩٨ في مدينة اوزنابروك في ألمانيا . كان والده يعمل في تجليد الكتب ، وهي مهنة توفر للعائلة معيشة متواضعة . وكانت والدته معتلة الجسم ، تشكو المرض دائماً . ولم يطل بها العمر ، فقد توفيت وهي في الثانية والأربعين . وغالباً ما كانت تفكر بمستقبل أبنائها وتتمنى لو يلتحقون بعمل يؤمن لهم على الأقل معاشاً تقاعدياً ثابتاً ، فالحياة قاسية لا ترحم ، وتقلباتها المفاجئة كثيرة ، ومسيئة غالباً . لذا التحق ريمارك بالمدرسة الكاثوليكية التي تؤهله لممارسة مهنة التدريس ، لكنه كان يريد أن يصبح موسيقياً أو رساماً وليس معلماً . ورغم علاماته الجيدة في الامتحان النهائي ، اتخذ ريمارك قراراً كان من شأنه تغيير مسار حياته كلياً، فقد ترك الدراسة وتطوع ١٩١٦ في الجيش ، حيث أرسل بعد التدريبات الأساسية إلى الجبهة الغربية . هناك عاش أهوال الحرب ورعبها ، رأى الموت والدمار والأمراض وعایش القصف والغازات السامة والخوف ، وجرح مرتين وسقطرفاقه وأصدقائه من حوله ، منهم بالغاز ومنهم برصاصه طائشة ومنهم من لم يتبق منه أي أثر بعد القصف المدفعي .

انتهت الحرب ، وعاد الجنود الى أوطانهم . ورغم أن ريمارك قد نجا وعاد إلى مسقط رأسه ، إلا أن الحرب بالنسبة له لم تنته أبداً ، بل ظلت حية في داخله ، تؤرقه تجاربها وصورها وذكراياتها ، بحيث لم يستطع الاستقرار في أي مكان أو مهنة ، وبدأ بنشر أولى محاولاته الأدبية وهي قصص قصيرة تستوحى ذكريات الحرب . خلال هذه الفترة عمل ريمارك مدرساً ، لكن الملل من هذه المهنة الرتيبة عاوده ، فتركها ليعمل عازفاً على الأرغن في مصبح للأمراض العقلية . لم يطل به الأمر في هذا الجو الغريب ، إذ انتقل منه إلى آخر أكثر إثارة ، فأخذ يبيع شواهد القبور . ثم اشتغل

محاسباً ، فمراسلاً ، فتاجراً جوالاً إلى أن استقر في مكتب للدعاية تابع لصحيفة « إشوكونتيننتال - صدى القارة » بالقرب من هانوفر . وخلال عمله هذا زار ريمارك إيطاليا وسويسرا ودول البلقان وتركيا . ومع ذلك ضاق الصحفي الشاب بجو الصحيفة فانتقل إلى برلين حيث حالفه الحظ بمنصب محرر في جريدة « الرياضة المصورة » مما أتاح له فرصة لا تعوض للعيش في العاصمة - برلين ما بعد الحرب - بتناقضاتها الاجتماعية والاقتصادية وأمسياتها الصاخبة وأجوائها الثقافية المغرية . وبينما كان كل من وما حوله يمثل محاولة مستميتة لنسيان الحرب وتجاوز تجاربها المريرة بالانغماس في الحياة حتى التطرف ، لم يستطع ريمارك أن ينسى ، بل لم يرد أن ينسى . وليلة بعد أخرى عبر ساعات عمل طويلة بدأت ذكرياته تتخذ شكلاً أدبياً في إطار روايته الأولى « لا جديد في الجبهة الغربية » التي كرسه بين ليلة وضحاها كتاباً من أشهر كتاب ألمانيا وأكثرهم إثارة للجدل . وخلال عام ونصف من تاريخ صدورها ١٩٢٩ ترجمت إلى خمسة وعشرين لغة ووصل مجموع طبعاتها إلى ثمانية ملايين نسخة . - في أواخر الخمسينات نشرت هذه الرواية في سلسلة روايات الجيب المصرية مترجمة من الانكليزية - كما تحولت إلى فيلم لاقى نجاحاً سينمائياً هائلاً ، وأثار لدى عرضه في ألمانيا الكثير من الجدل والشغب . فقد قام « شباب هتلر » بإيعاز من غوبلز بمهاجمة صالة العرض ، ثم منع عرض الفيلم نهائياً ، وكان هذا أول انتصار للأيديولوجية النازية الصاعدة ، والتي كان ريمارك يدرك بعينه الثاقبة خطورتها ويراقب سرعة انتشارها واقتربها من استلام السلطة بعد القضاء على جمهورية فايمار . وأخذ البريد يحمل إلى ريمارك أعداداً هائلة من رسائل التهديد والشتائم التي تنعته بأشنع الصفات ، وأقلها أنه « خائن الأمة والأرض والوطن » . وبين نجاح الرواية الهائل واقتراب طوق الحصار النازي الشوفيني من رقبته قرر ريمارك الهجرة ، فكان أول أديب ألماني يضطر لترك بلاده بسبب صعود الفاشية . فانتقل إلى فرنسا ، ثم استقر في قرية (بورتورونكو) في سويسرا . وفي عام ١٩٣٣ أحرق النازيون كتب ريمارك بتهمة أن « كتبه تمثل خيانة أدبية . بحق الجندي الألماني في الحرب العالمية الأولى » . ثم جردوه من حقوقه وسحبوا منه جنسيته الألمانية ١٩٣٨ . وفي العام التالي انتقل ريمارك إلى نيويورك حيث استقر هناك وحصل على الجنسية الأمريكية ، لكنه لم يتخل عن مقره الثاني في سويسرا حتى وفاته عام ١٩٧٠ .

إن الطابع المميز لأسلوب ريمارك في الكتابة هو الطابع الصحفي ، وبالتحديد طابع المقالة الأدبية الصحفية . وسواء في أعماله المبكرة أم المتأخرة لم يحاول ريمارك تنميق أو صقل لغته ، بغية تحقيق مستوى « أدبي راق » ، فقد كان هذا الأمر بعيداً عن مطامحه كل البعد . إنه « كاتب مباشر » يضع أحداث رواياته في صلة مباشرة مع

قضايا عصره ، ويركز في صياغة أحداثه على عنصر تحطيم الأوهام المحيطة بزمان الحرب وما بعدها ، وبالتضخم ، وبنظرية القومية العرقية الشوفينية ، عبر استعراض مصائر الجنود ونزلاء معسكرات الاعتقال والمهاجرين والمنفيين بأسلوب سردي مباشر ، بعيد عن توجيه « المواعظ والحكم » . فهو يرى أن مصير انسان عصرنا كاف وحده لتوصيل المقولة الانسانية السياسية المناهضة للحرب بأجل صورة ممكنة . وقد لاقى أسلوبه هذا نجاحاً عالمياً نادراً ما حظت به أعمال كاتب آخر .

إن ريمارك لا يابه كثيراً لآراء النقاد وأحكام علماء الأدب وعلم الجمال . فقد أجمع معظمهم على « تقدير » رواياته ، ولكن « ضمن حدود معينة » . وهذا يعني أنهم يطرون حسن ودقة اختياره لموضوعاته ومعالجتها بسرديّة بالغة التأثير في القارئ ، لكنهم يرون في الوقت نفسه أن أسلوبه هذا المغرق في الطبيعية من ناحية وفي العاطفية من ناحية اخرى لا يحقق قيمة جمالية ترفعه إلى مصاف « الأدب الرفيع » كما هو الحال مثلاً في أعمال توماس وهاينريش مان .

يتماز ريمارك بنظرة ثابتة لضبط ومعاينة ظواهر سطح الحياة ، لكنه رغم التفصيلات الدقيقة والكثيرة التي يوردها في سياق الحدث ، نجده لا يغوص في عمق الظاهرة لكشف مسبباتها الاجتماعية . وفي أحيان قليلة ، عندما يتسرب بعض آرائه الفلسفية إلى صلب الحدث ، نراها تؤدي إلى غموضه بدلاً من جلائه ، لكنه بصورة عامة يتقصد تجنب التعليق على الأحداث عبر استطرادات تأملية فلسفية « وعظمية » قد « تورط القارئ » - على حد تعبيره - وتجرفه نحو اتخاذ موقف محدد ، في حين أن سياق الحدث قد يوحي بغيره . إنه لا ينبغي تحجيم ذهن القارئ أو تأطيره في اتجاه ما ، بل يترك له حرية الغوص في أحداث الحياة اليومية واكتشاف ما توحى به بمساعدة تجاربه ومعارفه وخبراته الخاصة . لكن حرفيته العالية وأسلوبه القصصي الأسر اللذين يشكلان جزءاً أساسياً من رصيده نجاحه العالمي لهما تأثير كبير في توجيه ذهن القارئ في اتجاه محدد ، مهما كان أسلوب عرض الوقائع حيادياً .

ففي روايته الأولى « لا جديد في الجبهة الغربية » التي تحكي قصة حياة وموت الجندي الشاب بول بومير ورفاقه على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى تعمد ريمارك استخدام اللغة التي يستخدمها الجنود في الجبهة وفي المعسكرات التدريبية ، كما لجأ في المقاطع الوصفية إلى مفردات « سوقية - شعبية » أقدر على الإيحاء بالحالة من أي مفردات « أدبية » . ورغم هذا المستوى اللغوي الذي « انحطت » إليه الرواية - على حد تعبير النقاد آنذاك - فقد شكلت حجر الأساس المتين الذي بنى عليه المؤلف مجده الروائي كأول تهمة صارخة واعية ضد الحرب وضد

مروجيها. أما روايته الثانية « طريق العودة » التي نشرت ١٩٣١ وترجمت إلى أربعة وعشرين لغة - نشرت في القاهرة عام ١٩٦١ في سلسلة روايات عالمية ، العدد ١٠١ ، المترجم مجهول ، ويعنوان « بعد الحرب » - فقد اختلفت الآراء حولها من حيث وصفها لواقع ما بعد الحرب من خلال استعراض حياة بعض زملاء باول بومير في ألمانيا خلال انتفاضة نوفمبر ١٩١٨ وما بعدها ، ويركز فيها ريمارك على نقل اسطورة « رفاقية الجبهة » إلى حيز الحياة المدنية . بعد هاتين الروايتين ، وفي المنفى ، تناولت أعمال ريمارك الروائية والقصصية إلى جانب المقالات النظرية وسيناريوهات الأفلام . وقد أثبت في رواياته - ذات الطابع المأساوي - مكانته العالمية كقاص ذي حرفة عالية يجيد التعامل مع القضايا السياسية الاجتماعية الراهنة . رغم المكانة الكبيرة التي كان يحتلها كل من جاك لندن وكونوت هامسون في نفس ريمارك كقدوة أدبية إلا أن التأثير الأسلوبي الأوضح في كتابته يشير إلى إرنست همنغواي وكتاب « الجليل الضائع » الذين تميزوا « بالأسلوب القاسي » ، وخاصة في صياغة الحوارات المركزة ، المقتضبة ، والغنية بإيحائيتها .

بعد صمت دام عدة سنوات ، وأثار استغراب النقاد ، نشر ريمارك عام ١٩٣٨ روايته الثالثة « ثلاثة رفاق » التي اعتبرت نهاية مرحلة أدبية في مسيرة ابداع ريمارك الروائي . إذ رغم أن السنوات الواقعة بين « طريق العودة » و « ثلاثة رفاق » قد تميزت قبل أي شيء آخر بمظاهر صعود الفاشية وانتشارها في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا ، وكذلك بتبلور الأدب المناهض للفاشية كتيار عارم ساد الحركة الثقافية في معظم الدول الأوروبية وامتد حتى وصل دول أميركا اللاتينية ، رغم كل هذا نرى أن الجو العام للرواية بعيد عن الأحداث السياسية المقلقة التي برزت الى سطح الحياة السياسية في تلك المرحلة ، بل يعود إلى سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى وما بعد انتفاضة نوفمبر ، أي في فترة البطالة الجماعية وصراع الأحزاب وبداية الأزمة الاقتصادية الخانقة ، وبالذات في العاصمة برلين . وقد دهش النقاد من خلو الرواية من أية إشارة صريحة إلى أخطار النازية وعدائها للديمقراطية والفكر الحر وعرقيتها وشوفينييتها ، وعودتها - أي الرواية - لمعالجة مرحلة فقدت أحداثها راهنتها في خضم الأحداث المستجدة على ساحة السياسة الأوروبية ، وخاصة في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا . ترى هل يحاول ريمارك التنصل من مازق التورط في القضايا السياسية ، وهو صاحب « لا جديد في الجبهة الغربية » التي هزت العالم بأسره . وفي مقابلة صحفية مع مراسل صحيفة « العالم » يفسر ريمارك ذلك بقوله : « عندما طردني هتلر من ألمانيا بسبب روايتي الأولى ، أصبت بحالة من الذهول لم أستطع فيها تصور واستيعاب امكانية ما حدث . كانت الصدمة أقوى من الاحتمال . وروايتي

« ثلاثة رفاق » كانت شبه منتهية عندما حدث ذلك . لكن الصدمة كانت من القوة بحيث أعاقنتي طوال هذه السنوات عن اتمامها ودفعتها إلى النشر . « وفي مكان آخر من المقابلة يقول : « الأحداث السياسية التي جرت خلال السنوات الماضية لم تمر علي دون أن تترك أثراً . ولكن ما كان بمقدوري البدء بعمل جديد قبل الانتهاء من المخطوطة الملقاة على مكثبي ليل نهار » .

وتحكي الرواية عن مصائر ثلاثة رفاق عاشوا الحرب على الجبهة معاً ، ثم التقوا بعد الحرب فامتلكوا ورشة لتصليح السيارات وسيارة سباق يشاركون فيها في بعض السباقات ، ويحاولون في خضم الأزمة أن يبقوا أحياءً . لقد أفقدتهم الحرب كل مثلهم وأحلامهم ومعتقداتهم وتركتهم حطاماً يتنفس ويأكل ويسكر ويحاول تدبير أمور يومه دون أي هدف أو أمل نحو المستقبل . يقتلون الوقت في العمل والبارات وسباق السيارات ، وفي البحث عن مورد يعوض كساد عمل الورشة . أصغرهم - روبرت - يتعرف على بات هولمان ويحبها ، لكن مرض السل يعاجلها في المصح ويقتل كل أمل كان قد استيقظ نتيجة رباط الحب ، وثانيهم - لينس - يقتل خلسة بعد حضوره اجتماع سياسي لحزب متطرف ، يحتمل أن يكون الحزب النازي ، ومحاولته إثارة الشغب في جو الاجتماع . فينتقم له أحد أصدقائه بملاحقة القاتل وتصفيته ، فتحول القضية من جريمة سياسية إلى حالة نأر فردي بين شخصين . ورغم أن ريمارك يؤكد هنا أيضاً على ضرورة وجود واستمرار الرفاقية والاخوة بين الأفراد كي يحافظوا على قدرتهم على الاستمرار في الحياة ومجابهة الصعوبات ، إلا أنه هنا أيضاً يعرض لنا تهافت وانهار رباط الرفاقية هذا أمام ضغط المصير الفردي . فالموت يطوي لينس ثم بات ويترك روبرت وحيداً معزولاً ومنكسراً .

وبأسلوبه السرد الممتع والمتدفق يستعرض ريمارك حياة هؤلاء الرفاق ومن حولهم في تفاصيل معيشتهم اليومية وسكنهم وعملهم ولقاءاتهم الصاخبة وانتصاراتهم وهزائمهم ، فيضعنا بذلك في الجو الاجتماعي الاقتصادي السياسي العام دون أدنى تعليق تفسيري . وفي حوارات هذه الرواية نلاحظ التأثير البالغ لأسلوب همغواي على ريمارك .

في احدي اللقاءات الصحفية قال ريمارك مرة : « أنا لا أريد أن أقنع القارئ بشيء ولا أن ألزمه بموقف ما ولا أن أعظه . اني أصف ما يؤثر في وما يحركني » . وقد حافظ ريمارك على موقفه هذا من هدف الكتابة في جميع أعماله التي نشرها فيما بعد ، والتي لاقي بعضها نجاحاً عالمياً شابه ، بل فاق أحياناً نجاح روايته الأولى ، مثل « قوس النصر » ١٩٤٦ ، « شرارة الحياة » ١٩٥٢ ، « وقت للحياة ووقت للموت »

١٩٥٤ - نشرت بالعربية في ترجمتين ، الأولى لسامي غنيم ١٩٦٦ في مصر وبعنوان « الموت والحب » والثانية لسمير التنداوي ١٩٦٩ في مصر أيضاً - و « السماء لا تحابي أحداً » - التي ترجمها السيد وفائي في مصر عام ١٩٧٠ - . أما آخر رواياته « ليلة لشبونة » فقد نشرها ١٩٦٣ ، وصمت بعدها حتى وفاته ١٩٧٠ في لوكارنو بسويسرا بالقرب من موطنه ألمانيا الذي لم يرغب بالعودة إليه لأن النازيين الجدد « قد عادوا لاستلام مناصب حساسة في جميع مرافق الحياة » وهو لا يستطيع أن يتصور « كيف يمكن للشعب الألماني الذي خاض تجربة الحرب الأولى والثانية وقدم للعالم أعظم الصروح الثقافية أن يقبل بعودة هذه المظاهر ذات الدلالات البالغة الخطورة » .

نبيل حفار

دمشق - ١٩٨٢

كانت السماء صفراء اللون وكأنها قطعة من نحاس يشع بقوة خلف سطوح المنازل التي لم تكن قد تلونت بعد بدخان المصانع . نظرت الى الساعة ، الوقت يشير الى الثامنة الا ربعاً . ما زال أمامي ربع ساعة . فتحت البوابة و جهزت مضخة البنزين بينما بدأت السيارات تتهادى على طول الطريق تطلب وقودها . وفجأة التقطت أذني حشرجة صوت كصوت مثقب صدىء . وقفت ألتمس المصدر ، توجهت بعدها عبر الفناء إلى الورشة . فتحت الباب وإذ بي أمام شبح يترنح في الغرفة المعتمة ، يعلو رأسه غطاء أبيض قذر ، ويغطي صدره صدار أزرق ، متتعللاً خفاً سميكاً ، يلوح بمكنسة . انه جسم ضخيم يتجاوز وزنه تسعين كيلوغراماً . لم يكن هذا الشبح في الواقع سوى جسم عاملة التنظيف ماتيلدا شتوس توقفت لحظة محملاً بها وهي تتأيل كفرس النهر بين أكوام من مخلفات السيارات القديمة مدنونة بصوت عميق اغنية الفارس الوفي . وعلى المنضدة ، وبالقرب من نافذة الغرفة ، كانت هناك زجاجتان من الكونياك ، وبدت إحداها وكأنها فارغة ، وكنت قد تركتها بالامس مترعة فقد نسيت أن أضعها في الدرج .

- ما هذا يا سيدة شتوس ؟

- في الحال توقفت الدندنة وسقطت المكنسة على الارض واختفت تلك البسمة السعيدة . شعرت في تلك اللحظة وكأنني أصبحت أنا الشبح . إنتفضت السيدة شتوس محمقة بي بعينين حراوين .

- لم أكن أتوقع وجودك هنا وفي مثل هذا الوقت .

- حقاً ؟ ولكن أخبريني ، هل أعجبك مذاق الكونياك ؟

- بالطبع . أنا أسفة لما حدث ، لم أعد أعني شيئاً .

- أنت تبالغين ، إنك ثملة فقط ، ثملة كمدفع شاطيء قديم عفا عليه الزمن .

تمالكت نفسها بصعوبة ولاحت رجفة على شاربها وغمزة على جفניה ، وبدت كجوم عجوز . رويداً ، رويداً استعادت صفاء ذهنها ، وباعتداد وعزم تقدمت خطوة إلى الأمام واستدركت :

- يا سيد لو كأمب ! الانسان ضعيف بطبعه . انتشيت بالرائحة فارتشفت جرعة ضئيلة . نعم تلك هي البداية ، وبعد ذلك لم أعد أدري ما حدث . لعل الشيطان هو الذي أغواني وتملكني في تلك اللحظة . هل من العدل توريط امرأة مسكينة مثلي في تجربة كهذه بترك زجاجة فواحة خارج مكنمها ؟

لم تكن هي المرة الأولى التي ألقاها فيها ثملة بهذا الشكل . كانت تأتي صباح كل يوم لساعتين كي تنظف الورشة . أمينة ، لم تمدّ يدها يوماً إلى نقود مبعثرة ، ولكنها كانت تلهث باندفاع وتصميم خلف زجاجات الخمر كالجرذان وراء شرائح الشحم . تناولتُ الزجاجة المليئة وقلت لها :

- بالتأكيد لم تشربي زجاجة الكونياك المخصصة للزبائن بل ازدردت كونياك السيد كوستر الفاخر .

عندها رفّت ابتسامة على قسبات وجهها المتفخضن وهمست :

- أنت تعرف اني ذواقة أصيلة . ولكن قل لي يا سيد لو كأمب ، ماذا تفعل أرملة مثلي حكم عليها القدر بالوحدة في هذا العالم ؟

هزرت رأسي متمماً :

- كفاك عملاً اليوم .

فراحت تصلح هندامها لتقول :

- سأنصرف عنك الآن قبل مجيء السيد كوستر وإلا يا هول الساء .

وللحال فتحتُ درج الطاولة وصرخت بجلء شذقي :

- ماتيلدا !

فعدت إلى مسرعة بينما كنت ممسكاً بزجاجة بنية اللون ، مربعة الشكل . رفعت يدها محتجة صارخة :

- لم أشربها ، أقسم بشرفي أنني لم أمسها .

- أعرف ذلك .

صببت كأساً وقلت :

- هل تعرفين مذاقه ؟

- كيف لا

رطبت شفثيها بلسانها وقالت :

- روم ، جامايكا الأبدى .
- حسناً ، خذي هذه الكأس واشربيها ، فهي لك .
- لي أنا ؟

وتراجعت الى الوراء .

- هذا كثير جداً يا سيد لوكامب ، سيتحول هذا الكأس حتماً الى جرم متوهج في رأسي .

إنها حقاً فعلاً هذه العجوز شتوس . تبتلع في السر كل ما عندك من الكونيك وترفض كأساً صغيرة مليئة بالروم .

- أنت قديس يا سيد لوكامب . أقولها دون مجاملة أو محاباة . إنني أفضل الموت على قبول عرضك هذا .
- كما تريدن .

وما كدت أهم بإرجاع يدي الممتدة بالكأس حتى سارعت وخطفتها من يدي وهي تقول :

- سأشربها : على الانسان أن يرضى بالنعمة ويقبل الهدية مهما كانت صغيرة ومتواضعة ، نخب صحتك . ولكن قل لي : هل اليوم عيد ميلادك ؟
- نعم يا ماتيلدا ، لقد حزرت .
- هكذا إذن .

أخذت يدي وصافحتني بحرارة .
- تمنياتي القلبية ، لتغمرك الافراح .

ثم ابتلعت الكأس ومسحت فمها وتابعت .

- يوم الميلاد يحى بذكرياته المؤثرة فدعنا نشرب كأساً ثانية ، فأنت أعز علي من ولدي .
- حسناً !

صببت لها كأساً أخرى ، ابتلعتها بسرعة وانصرفت مخلفة الورشة وراءها . تسلمت اشعة الشمس الصفراء من خلال النافذة لتستلقي على يدي ، وتملكني شعور غريب في يوم ميلادي هذا وتساءلت :

ما سر أهمية هذا اليوم ؟ انه يختلف عن بقية الأيام ، ورغم ذلك لا يقوى المرء أن يتلقاه دون اكرام . ثلاثون عاماً مضت ، وما كنت احسب يوماً أنني سأخطى

العشرين ، ولكم راودني هذا الشعور سابقاً .

أخرجت ورقة رسائل من الدرج واخذت أجمع الطفولة ، المدرسة كتلة واحدة بعيدة في زمان منسي ، هذه الذكريات لم تعد من صميم عالم الواقع .

لقد ابتدأت حياتي الحقيقية سنة ١٩١٦ ، يوم كنت مجنّداً ولي من العمر ثمانين عشرة سنة ، أتدرب خلالها على أعمال شاقة ، كالانبطاح والنهوض ضمن جدران السكنة وتحث إمرة رقيب ملتح .

لا أزال أذكر عيد ميلادي في تلك السنة ، اذ جاءتني أُمي وللمرة الأولى في زيارة خاصة إلى المعسكر . انتظرتني أكثر من ساعة ، ريشاً أنتهي من تنفيذ عقوبة فرضت علي ، وهي تنظيف المرحاض ، هذه العقوبة الناجمة عن جهلي بتنظيف البندقية بالشكل اللائق لجندي متمرس . طلبت والدتي الاذن من الأمر لمساعدتي فكان الجواب رفضاً ، وما أن انتهيت من التنظيف حتى استلقيت على الفراش واستسلمت لنوم عميق غير عابىء بالعيد ولا بأُمي الجالسة قربي .

في عام ١٩١٧ كنت في فلاندرن ، حيث ابتعت مع ميدنْدُرفْ زجاجة نبيد أحمَر من الحانة لنحتفل بالعيد سوية ، غير أننا لم نتمكن من ذلك لأن مدافع الانكليز صبت حممها فأمطرتنا بناهما من كل جانب ، فأصيب كوستر في ظهره . وبعد الظهر استشهد مايرٌ وديتْرُزٌ في المساء . عندما ساد الهدوء في الجبهة فتحنا الزجاجة ، وما هي إلا ثوان حتى انتشر الغاز في المخابىء وغطاها ، فأسرع كل منا يضع كمامته الواقية على وجهه . ولسوء الحظ كانت كمامة ميدندورف معطوبة ، ففسد الغاز الى رثيته وراح يبصق دماً . ولم تجد كل محاولتنا لاسعافه واستبدال كمامته الثالثة بكمامة اخرى جديدة . وينبلج صباح اليوم التالي لنرى الموت يحتظف منا ميدندورف وقد بدت على وجهه بقع خضراء وسوداء ، بينما لمحننا في عنقه آثار أظافره وقد مزقت جلد عنقه ولحم رقبتة وهو يحاول جاهداً الحصول على مقدار من الهواء .

ويطل عليّ عام ١٩١٨ لأمضي عيد ميلادي في المشفى العسكري إثر إصابة خفيفة بساقي . وقبل أيام قليلة من يوم ميلادي وصلت دفعة جديدة من جرحى المعارك ومعها الضمادات الورقية ، وكانت معظم الاصابات خطيرة ، وشوهدت محفات نقل الجرحى تدخل وتخرج طوال الليل من وإلى غرف العمليات وأحياناً تعود فارغة . كان يرقد الى جانب سريري جوزيف شتولٌ جاهلاً بأن ساقيه قد بترتا ، لان الغطاء الذي يغلف القفص الحديدي المحيط بسريره يمنع الرؤية ، كما ان الآلام الشديدة التي ما زال يعانيتها في قدميه تبعد عنه فكرة عملية البتر . كنا نعيش في مأساة الموت ،

إذمات في الليلة نفسها إثنان من مهجعنا . وكان موت أحدهما بطيئاً وقاسياً للغاية .

عام ١٩١٩ - عام العودة الى الأسرة ، في الوطن ثورة وجوع ، وفي الساحات والشوارع طقطة الأسلحة اليدوية . جنود في وجه جنود ، رفاق ضد رفاق .
١٩٢٠ - عام الانقلاب - اغتيال كارل بوغتر إعتقال كوستر ولينتس ، أمي في المشفى
تعاني من سرطان خبيث في أعلى مراحلها .

١٩٢١ - عام كسل الذاكرة وانمحاء الذكريات .

١٩٢٢ - التحقتُ كعامل في مصلحة السكك الحديدية في تورنجن .

١٩٢٣ - عينت مديراً للإعلانات في شركة المطاط في فترة التضخم المالي الذي أصيبت به البلاد . كان الأجر اليومي يوزع مرتين على الموظفين في اليوم الواحد ، إذ كان سعر المارك يتذبذب من ساعة لأخرى . بعد كل قبض يسمح بفترة استراحة لمدة نصف ساعة نهرع خلالها الى المحلات التجارية نبتاع بعض السلع قبل إعلان السعر الجديد للدولار .

ومر السنون ، وأريح قلبي من كده . لم يعد لي من هدف في جمع وقائع هذه الفترة . لقد اختلطت الأحداث وتشابكت ولم يعد في وسع الذاكرة تمييز وقائعها بدقة وبشكل صحيح .

قضيت عيد ميلادي السابق في مقهى الانترنتاسيونال حيث بقيت اعمل هناك سنة كاملة . بعدها التقيت بكوستر ولينتس وعملت معهم في ورشة لتصليح السيارات مسجلة باسم كوستر وشركاه ، اللذين هما انا ولينتس .

كان كوستر هو المالك الحقيقي للورشة ، زميل المدرسة . والضابط المسؤول سابقاً في سريتنا والطيّار القديم ، الذي انتسب لفترة وجيزة الى الجامعة ، وعمل بعدها سائقاً لسيارات السباق ، ثم تمكن من شراء الورشة الأنفة الذكر . في بدء العمل انضم اليه لينس العائد من جنوب أميركا بعد أن سلخ فيها سنوات عديدة من حياته ، ثم التحقت بهما بعد ذلك .

تناولت سيجارة من جيبي واستغرقت في تأملاتي . لم لا أكون راضياً بقدرتي ؟ أوضاعي ليست سيئة ، لدي عمل ، قوي البنية ، صحيح الجسم ، لا يضيرني الجهد . عدت إلى وعيي . من الأفضل عدم التفكير في كل هذه الأمور ، خاصة عندما يكون المرء وحيداً . لكن الأفكار تأتي بالرغم منا وتبدو صور الماضي الباهتة وكان عيونها الميتة تحملىق فينا ولا وسيلة لطردها الا اجتراع الخمرة .

لدى سماعي صرير الباب في الخارج مزقت قصاصة الورق المملوءة بتاريخ حياتي ، ورميتها في سلة المهملات . انفتح الباب بعنف وإذ بي أمام جوتفريد لينس بطوله ونحوه وشعره المشعث الأشقر وأنفه الذي لا يليق بوجهه غير وجهه . صاح هاتفاً :

- روبي ! أيها الصياد القديم ، إنقض وتها ، ان رؤساءك يودون التحدث اليك .

نهضت

- يا إلهي كنت أمل ان تنسوا هذا اليوم يا أولادي .

- هذا لن يحدث أبداً .

وضع جوتفريد صندوقاً صغيراً على المنضدة فعلا صوت ارتطام زجاجات في داخله ، وفي نفس اللحظة دخل كوستر الغرفة . سألتني لينس :

- روبي ! ما هو أول حدث صادفك اليوم ؟

حاولت التذكر وقلت :

- عجوز شمطاء راقصة .

- هذا فال سيء . لكنه يأتلف وبرجك . قرأت أمس ان رامي القوس إنسان غير متوازن يتأرجح كأنبوب فارغ تعصف به الريح . لاشك أن زحل سينقف الى جانبك بارتياب وسيصاب جوبيتير بحرج ، لا تخف فانا واوتو في مقام والديك وسنقدم لك في بادىء الأمر تعويذة تحميك من غضب الآلهة . خذ هذه (التعويذة) ، لقد باعتها لي احدى نساء الإنكاس ذوات الدم الأزرق والأرجل المنبسطة والقدرات على استشفاف المستقبل ، وقالت :

- أيها الغريب الأبيض لقد حمل هذه التعويذة قبلك ملوك كثيرون . إذ تكمن فيها قوة الشمس والقمر والأرض والكواكب الأخرى .

حبذا لو أعطيتني دولاراً فصيلاً لأبتاع به خمرأ مقابل هذه التعويذة التي ستحميك وتبعد جوبيتير السقيم عن دربك . ثم علق لينس على رقبتى سلسلة في وسطها تمثال أسود صغير وأردف قائلاً :

- لتبعد عنك هذه التعويذة المصائب والمحن ، وأما بالنسبة للمتاعب اليومية في هذه الورشة فلقد اخترنا لك هذه الزجاجات الست من الروم المعتق التي يتجاوز عمرها نصف عمرك .

فتح الصندوق واخرج منه الزجاجات ووضعها على المنضدة واحدة تلو

الآخري ، فشعت كالكهرمان تحت اشعة الشمس الصباحية . سألته :

- رائع شكلها . من أين جثت بها يا أوتو ؟

- قصتها طويلة ومعقدة ، يستحيل سردها الآن . ولكن قل لي :

- ما هو شعورك الآن وقد تحطيت الثلاثين ؟

رفعت يدي محتجاً وقلت :

- كشعور امرئ في السادسة عشرة او الخمسين في آن واحد .

لا شيء يسر . . أجابه لينتس .

- وهل تسمي هذا شعوراً مخزناً ؟ انه قمة ما يمكن الوصول إليه . لقد هزمت

الزمن باستقلاليتهك وها أنت تعيش مرتين .

- دعه يا جوتفريد . غالباً ما ترهق أعياد الميلاذ المشاعر الانسانية وخاصة في

الصباح الباكر . سيعافى بالتأكيد .

اطبق لينس جفنيه وتمتم :

- كلما اندثر الإحساس عند الإنسان كلما ازدادت قيمته . روبي : هل هذا

يعزيك ؟

- لا وبإصرار أقول لا . إذا شعر الإنسان في أغوار نفسه انه ذو قيمة فهو كمن يقيم

لشخصه نصباً . وهذا حسب رأيي صعب جداً وعمل .

- إنه يتفلسف يا أوتو وهذا يعني انه تخطى دقيقة عيد الميلاذ الصافية ، حيث

يمدق الإنسان في عدسة عينيه ويكتشف انه ليس سوى فرخ دجاج حقير . والآن

وبعد هذه الحكمة الموسية لننتقل إلى العمل ونزيت أحشاء الكاديلاك .

* * * *

كنا قد عملنا طوال النهار حتى الغروب ثم اغتسلنا وبدلنا ثيابنا . ألقى لينتس

نظرة نهمة على الزجاجات المصطفة فوق المنضدة وقال مداعباً :

- متى سنكسر عنق إحداها ؟

أجاب كوستر :

- أمن اللياقة تجاهل رغبة المهدي اليه ؟ دع روبي يقرر ذلك .

تناول لينتس مع ذلك زجاجة وفتحها قائلاً :

- وأقل لياقة ترك من أهدوها يموتون عطشاً .

رويداً ، رويداً ، عبق جو الورشة برائحة الروم . صاح لينتس بعد أن تذوق

طعم الروم الفاخر :

- أيتها القديسة مريم : عظيم يا اوتو . لا نستطيع تقدير مذاق هذه الخمرة إلا بالارتقاء إلى سماء الوحي الشعري . من المؤسف إضاعة هذه العظمة في حجرة معتمة كهذه . هيا غصي الليلة خارج المدينة ، تناول العشاء في ركن هادىء ونشرب الزجاجة في طبيعة الله الرحبة .

- إقتراح عظيم .

أزحنا الكاديلاك وأوقفناها جانباً بعد أن استغرق عملنا فيها طيلة ساعات بعد الظهر ، وإذا بجسم غريب يقف خلفها مرتكزاً على عجلات أربع . كان ذلك الجسم سيارة كوستر للسباق وهي فخر ورشتنا . كان كوستر قد ابتاع ذلك الصندوق العجيب ذا الأجنحة العالية من مزاد عام بسعر بخس وقد اعتبرها الخبراء حينذاك قطعة فريدة ومناسبة لمتحف المواصلات . بولويز صاحب متجر للملبوسات الرجالية والنسائية وهاولسيارات السباق كان قد نصح كوستر يومئذ بأن يحول تلك الأعجوبة إلى ماكينه خياطة . لكن كوستر لم يعر اقتراحه هذا أي اهتمام . بل فك السيارة إلى اجزاء وفصلها عن بعضها وبدأ يعمل على تجميعها ليخلق منها سيارة جديدة ، مستغرقاً في عمله شهوراً عديدة والى ساعات متأخرة من الليل .

ظهر كوستر في سيارته العجيبة في إحدى الليالي أمام الحانة التي كنا نشرب فيها دائماً ، ولم يتمكن صديقنا بولويز الساهر معنا من كبت قهقهة عالية حين رأى ذلك الصندوق العجيب ثانية . لم يكن الشكل الخارجي قد تحسن عن سابق عهده . شارك الجميع المزاح وعرض بولويز مشروع مراهنة على كوستر يلتزم فيه بدفع مائتي مارك مقابل عشرين من كوستر لاجراء سباق بين سيارته الجديدة وصندوق كوستر العجيب .

حددت المسافة بعشرة كيلومترات ، على ان يتقدمه كوستر مسافة كيلو متر واحد من مركز الانطلاق . قبل كوستر الرهان واستغرق الجميع في الضحك متشوقين لمشاهدة عرض هزلي رائع . لكنه ما لبث ان انتفض ورد المائتين واقترح تعديلاً على المراهنة قبل به الجميع وأصبح مبلغ المراهنة ألف مارك مقابل مثلها منه ، وزال شرط التقدم الكيلومترى .

أملى كوستر شروطه هذه بثبات وتصميم دون ان يرف له جفن ووضع الالف مارك على المنضدة . انصعق بولويز وصاح :

- هل تمزح يا كوستر ؟ إنك بحاجة الى مستشفى للأمراض العقلية . لاشك أنك

مجنون .

لم يجب كوستر ، واتجه في الحال الى سيارته وجلس خلف المقود ، بدأ سباق العشرة كيلو مترات . بعد ثلاثين دقيقة من بدء الانطلاق فوجيء الجميع ببولويوز يظهر بوجه شاحب كمن عضته أفعى سامة ، وقبل أن يجلس تناول دفتر الشيكات ووقع بعصبية شيكاً بقيمة المراهنة . ولما هدا انفعاله عرض على كوستر شراء السيارة ، فرفض مؤكداً تمسكه بها ولو عرضت عليه أموال العالم كله . .

كانت السيارة رغم جودة محركها ذات شكل خارجي مهمل وقبيح ، فقد اتى الزمان على طلائها الخارجي وبدت وكأنها قد طليت من قِبل دهان أعمى . اجنحتها تحملت الثقوب ومقدمتها متعرجة يزيد عمرها عن العشر سنوات . كان بالإمكان إصلاح ما أفسده الزمن ، ولكن سبباً وحيداً منعنا من ذلك . إذ أن السيارة تحمل اسم كارل ، وكارل هذا هو شبح الطريق .



غادرنا الورشة وانطلقنا مسرعين بكارل عبر احد شوارع المدينة .
- اوتو هناك ضحية .

وراءنا أخذت سيارة بويك فاخرة تطلق أبواقها بلا مبرر ، تحاول اللحاق بنا حتى تمكنت من محاذاتنا . القى الرجل القابع وراء المقود نظرة ازدراء علينا ، وتسمرت عيناه على كارل مستغربة شكله الخارجي ثم استوى على مقعده ونظر أمامه وتجاوزنا مبعداً عن ناظره هذا الشبح المخيف . وبعد برهة عدنا لمحاذاته . رمقنا بنظرة ساخرة وزاد من سرعته . لم يتزحزح كارل بل ظل ثابتاً محافظاً على الموازة مع تلك القاطرة الضخمة المشعة بالنيكل ككلب الترير الصغير يسير جنباً الى جنب مع كلب الدوغ الضخم . امسك الرجل بمقوده حائراً ثم حرك شفثيه بسخرية كمن يريد ان يقول : سأريكم جزاء جراتكم ، ضغط على بدال السرعة وبدأ أنبوب العادم يزقزق كسرب من القنابر في الصيف . ولم يجده نفعاً كل ما بذل ، وظل محاذياً لنا دون أن يتقدم خطوة . كاد يفقد اعصابه وتساءل بدهشة ، عجيب أمر هذا الصندوق السحري ، كيف يستطيع بتفاهته مجاراة سرعة تفوق المائة كيلومتر في الساعة . نظر الى عداد السرعة ، ترى هل به عطب ؟ غير معقول وهز رأسه ثم عاد وضغط ثانية على بدال البنزين وتحاذت السيارتان من جديد في الطريق الطويل .

بعد بضع مئات من الأمتار ، اعترضتنا شاحنة من الاتجاه المعاكس مما أجبر البويك على التراجع خلفنا تفادياً لأي حادث . عبرت الشاحنة بسلام وعادت البويك الى محاذاتنا من جديد ، فتصدت لها سيارة نقل الموتى واضطرتها الى التراجع

خلفنا مرة ثانية فبدأ الطريق امامنا واضحاً خالياً . غضب الرجل وبدأ كمن أهنت كرامته ، فعدل جلسته وانحنى الى الامام واحتضن المقود بذراعيه ضاغطاً على شفثيه بقوة كمن مسته حمي السبق ، وبدأ له أن استعادة كرامته مرهونة بقهر هذا الصندوق البالي . أما نحن فكننا في غاية الهدوء ، نرفل باللامبالاة ، نجلس على مقاعدنا غير عابئين بوجود تلك السيارة الفاخرة .

ركز كوستر نظره على الطريق ورحنا نحن ننظر الى الفراغ البعيد من شدة الملل . أما ليتنس ، وهو كتلة من التوتر العالي ، فقد تناول الصحيفة ، وكان القراءة في نظره أهم ما في العالم .

غمز كوستر بعينه فادركنا مرامه ، خفف السرعة قليلاً داعياً عربة البويك للتقدم . انفرجت اسارير الرجل واقتر ثغره عن ضحكة خبيثة ملؤها الثقة بالنفس ، وأخذ يلوح بيده تيهماً مشيراً إلى الامام كمن يود القول : الحق بي ان استطعت . حاولت اقناع كوستر بالعدول عن مجاراته ، ولكن هيهات ، ما انتهى حديثي إليه إلا وتجاوز البويك ثانية بفقزة كبيرة الى الامام وغابت عن ناظرنا اليد المتحدية والتي لبرهه سبقت كانت تلوح خارج النافذة . لقد قبل كارل التحدي وانتصر . ومضى سريعاً يطوي المسافات ، رافع الرأس ، قدراً ، لا يقف في طريقه شيء .
- عظيم ما قمت به يا اوتو ! صاحبنا لن يعرف مذاق طعام عشائه اليوم .

قال لينس فرحاً نشواناً بالنصر . ان هذه المبارزات وامثالها هي التي ساهمت في ابقاء هيكل كارل الخارجي بهذا القبح وبدون عمليات تجميل . فلا يكاد يظهر في أحد الطرقات إلا وتظهر تحديات التسابق معه . كان كارل يبدو لكثير من الناس غراباً مهيبض الجناح ، وسط قطع من القسط الوحشية الجائعة ، وحتى الكهول ذوو اللحي البيضاء المترفعة تصاب بحمي السباق حال رؤيته . ما من أحد كان يتصور أن خلف هذا الشكل المضحك الهزيل ، يقبع قلب يتحدى أقوى محركات سيارات السباق . نحن وحدنا نعرف هذه الإمكانيات ، لذا نحب شكل كارل ونعظمه كرمز إنساني خارق ، إجلالاً واحتراماً لقدرة الإنسان الخلاقه والتي غالباً ما تكمن داخل قشرة بالية .

توقفنا امام مطعم صغير . انتصبت امامنا شجرة موز شائخة ، بدت وكأنها تحتضن الغسق بذراعيها بحنان . ورغم عريها الفصلي فقد امتلأت ببراعم الأمل . فاحت رائحة الكبد المقلي بالبصل من المطبخ فدخل لينس المطعم بسرعة ، مسترشداً بهذه الرائحة ، ثم عاد بعد قليل بوجه يطفح بالبشر والرضى داعياً :

- عليكم بمشاهدة البطاطا المقلية بلونها الذهبي . فلنطلب وجبتنا بسرعة قبل ان يلتهم غيرنا الطعام الجيد . تهباً الجميع لدخول المطعم واذ بسيارة تقف خلفنا ، التفتنا الى الوراء واذا بنا نرى البويك تصطف الى جانب كارل .

كالعادة ، وبعد كل سباق مع كارل ، لا بد من نشوب المشاجرات العنيفة . وهذا ما توقعناه . ترحل رجل من السيارة ، طويلاً وضخماً يرتدي معطفاً فضفاضاً بني اللون . القى نظرة متفحصة على كارل ونزع قفازيه واتجه نحونا . اقترب من كوستر بنزق وبوجه شاحب كمخلبل الخيار المنقوع في الخل
وسأله بحدة :

ما طراز ونوع السيارة تلك ؟

نظرنا لينا بذهول ، ونحن على ثقة انه في قرارة نفسه كان يعتقد أننا لسنا سوى عمال ميكانيك ، سرقنا سيارة أحد الزبائن لنقوم بنزهة ترفيهية ، رافلين بأثواب الأحد الجديدة .

- هل قلت شيئاً ؟

أجابته كوستر بترفع وازدراء ، هادفاً تلقيه درساً في الأدب والتهذيب . احمر وجه الرجل ورد :
- لقد سألت عن طراز ونوع هذه السيارة .

كان الرد مشوباً بالوقاحة والعنجهية ذاتها ، وبسرعة كمن نفذ صبره ، عدل ليس وقفته وأخذ انفه يرتجف ، فهو من ذلك النوع الذي يصير على التعامل بأدب مع الآخرين ، ويرتجف غضباً لعدم التصرف اللائق عند البعض . قبل ان يباشر ببدء شتائمته فتح باب البويك ثانية ، وانسابت منه ساق جميلة . تتوسطها ركبة متناسقة ، وقطعة ، قطعة ، شرعت تظهر فتاة فاتنة . اغلقت الباب واخذت تمشي في اتجاهنا .

تبادلنا نظرات اندهاش وحيرة ، اذ لم ننتبه قبلاً الى وجود شخص في السيارة . عدل ليس وقفته ثانية ، وقد ارتسمت على وجهه المشوب بنمش الصيف ابتسامة عريضة ، سرعان ما انطبعت مثلها على وجوهنا دون شعور . نظر الينا الرجل البدين باستغراب وبان عليه الانفعال والحرج ، فاحتار في كيفية التصرف ازاء ذلك الموقف المفاجيء .

- بيندينج !

قدم نفسه وانحنى الى الامام كمن يحاول ان يتمسك باسمه قبل السقوط .

اقتربت الفتاة منا واستحال التوتر الى ملاطفة ومجاملة .

- أرهم السيارة يا اوتو

قال لينس موجهاً كلامه لكوستر الذي اجاب بابتسامة أقرب ما تكون الى السخرية والتشفي .

- لما لا !

رد بيندنج :

- لقد عاينتها .

قال مؤكداً ذلك بلهجة سمحاء وتابع :

- انها سيارة سريعة جداً ، تجاوزتني وكأنني ريشة .

ذهب الاثنان الى موقف السيارات ، ورفع كوستر غطاء محرك كارل ليكشف له عن أجزائه . بقيت الفتاة قربنا رشيقة صامتة ، تتأمل معنا لحظات الغروب الجميلة .

ما كنت أتوقع هذا من جوتفريد المعروف باغتنام مثل هذه الفرص وحبك الشباك في طريق الحسان ، والذي كان يسيطر بسهولة على مثل هذه المواقف ، لكنه خيب ظني ، فوقف صامتاً أمامها كمن نسي لغته . كان ينتفض في العادة مثيراً كديك الغابات . ما باله اليوم يقف كراهب في عطفة ، لا يهتز ولا يحرك ساكناً ؟

قطعت الصمت :

- المعذرة يا آنسة لم نلاحظ وجودك في السيارة ، لو علمنا ذلك لما بدأنا بهذا المزاح الصبياني .

نظرت الي وأجابت بصوت عميق لا يتناسب مع رقة جسمها :

- لما لا . لم يكن ذلك المزاح معيياً .

- صحيح انه ليس معيياً ، ولكنه ليس بالتصرف اللائق أيضاً .

- هل تعلمين ان سرعة سيارتنا تصل الى المتي كيلومتر في الساعة ؟

بالضبط مئة وتسعة وثمانون كيلومتراً في الساعة حسب عداد التوقيت . قالها لينس بفخر وبسرعة كقذيفة انطلقت من فوهة بندقية .

ضحكت وقالت :

- لم تقدر سرعتها بأكثر من ستين الى سبعين كيلومتراً .

اجبتها :

- ولكن من أين لك معرفة هذه الحقيقة .

أجابت :

- بالطبع . من أين لي معرفة هذه الحقيقة .

أزحت غصناً علق يقدمي وعلقت :

- كنا اصحاب الحظ في هذا السباق . لا شك ان السيد بيندينج استشاط غضباً من تصرفنا هذا .

ضحكت بتؤدة وردت :

- طبعاً ، ولكن على الانسان تحمل الهزيمة ، وهنا يكمن سر البقاء .

- بالتأكيد .

اعتقت ذلك فترة صمت جديدة . نظرت الى لينس مستنجداً بخبرة ذلك الرومانسي الأخير . كان الرد ابتسامة دافئة ، تاركاً إياي وحيداً في هذا المأزق قررت قطع ذلك الصمت . فقلت :

- الطقس جميل جداً . . . جداً .

- نعم ياله من جو رائع ، أجابت الفتاة ، وعلقت لينس :

- ولطيف أيضاً .

فرددت :

- لطيف لدرجة غير معقولة .

عاد الصمت ليخيم من جديد . ترى ماذا ستظن فينا ! يا للهول ، لا بد أنها ستجزم بأننا رؤوس خراف ركبت على أجسام بشر . حاولت تحطيم جدار الصمت الذي ساد مجدداً بطرح مادة للحديث . ولكن محاولاتي باءت كلها بالفشل ، راح لينس يرسل شتائم دمدمة ، وليقطع حبل الصمت هتف بعفوية ظاهرة :

- تفاح مشوي ، انظروا ! هنا يقدم تفاح مشوي الى جانب الكبد ، ياله من طعام فاخر .

- لا ريب في ذلك .

ورحت أعلن في سري اثنين : ذاتي ولينس .

رجع كوستر وبيندينج الذي تفحص كارل وران عليه السرور . وكيف لا ؟ أليس هاوياً للسيارات لدرجة الجنون ، وذروة سعادته ان يجد انساناً في مثل هوايته .

سألنا بكل أدب :

- هل نتناول طعام العشاء معاً ؟

- بكل تأكيد . تفضل اجابه لينس .

دخلنا جميعاً المطعم تتقدمنا الفتاة . وراح لينس يهمس في اذني :

- انظر اليها . ستطرد عنك شيخ عجوز الصباح الراقصة .

هزرت منكبي وقلت :

- ولكن لماذا تركتني اتلعثم في الحديث معها ؟

ضحك لينس وقال :

- ألا تدري يا صغيري بأن لأصول الحديث مع النساء علم خاص ، عليك

اقتنانه .

- لم يعد لي مزاج قادر على تعلم أي شيء .

تصدر بيندينج الجلسة . أدهشنا اطلاعه الواسع على اسرار السيارات . اخذت الكلمات تتدفق من فمه في وصف دقائق السيارات وآلياتها ، وكأنها شلال نهر كبير ، وراح يسهب في وصفه عندما علم بأن كوستر محترف ماهر في سباق السيارات . نظرت اليه بامعان ، فإذا أنا أمام رجل ضخم ، قوي ، له حاجبان كثيفان يتصدران وجهه الأحمر ، ذكي ، مرح ، نرجسي كأمثاله من الناجحين في الحياة . طيب السريرة ولكنه من زمرة أولئك الذين يقضون الساعات الطوال أمام المرآة ، زهواً بالنفس واعجاباً بالذات . جلست ولينس ، تتوسطنا الفتاة ، بثوبها الانكليزي الطابع الرمادي اللون ، وشالها الأبيض الملتف بأناقة حول عنقها ، وقد تموج في رأسها شعر بني اللون ، زاده انعكاس الضوء المنبعث من السقف جمالاً وسحراً ، فيبدو لناظره كشعاع ماسٍ فريد . كتفاها مستقيمان ، مع انحناء طفيفة الى الامام ، يداها معروقتان طويلتان ، وجهها نحيل شاحب ، تزينه عينان سوداوان واسعتان ، تضيفان عليه مسحة شهوانية . ما اجمل هذه الفتاة . وانقطعت سلسلة أفكاره .

عاد لينس الى طبيعته ، ناراً متأججة ، يتكلم ويضحك بلا توقف وقد خلع عن نفسه ذلك الهدوء والصمت . لمعت ناصيته الصفراء كحقل سنابل ذهبية ، وبدأ ينافس بيندينج على تصدر جلستنا ، وقد سيطر عليها جو المرح والطرفة البارعة . لذت أنا بالصمت واكتفيت بالإصغاء ، وكنت أقدم بين الحين والحين السجائر وأشعلها للجالسين تارة ، وتارة أساعد النادل في رفع الأطباق عن المائدة غير غافل عن قرع كأسه بكأس بيندينج .

فرك لينس جبهته فجأة كمن تذكر شيئاً وهتف :
- الروم يا روبي . هيا احضره لنحتفل بعيد الميلاد

سألت الفتاة :

- عيد ميلاد ؟ هل اليوم عيد ميلاد أحدكم ؟
- عيد ميلادي أنا . إنهم يلاحقوني بهذا طوال النهار .
- يلاحقونك ؟ هذا يعني رفضك تهنئة أحد .
- لا بالتأكيد ، التهنئة شيء آخر .

صافحتني بحرارة وقالت :

- عيد ميلاد سعيد .

أمسكت يدها بقوة ، ولثوان انتشيت بلمس تلك اليد الناعمة . وخرجت لجلب زجاجة الروم .

في خارج المبنى كان الليل قد أسدل أستاره المظلمة بصمت رهيب ، وقفت بجانب السيارة ورحت أجيل الطرف في الأفق البعيد الذي تراقصت فيه أضواء المدينة ، غارقاً بوحدي مع الطبيعة . لم أقو على المكوث مدة طويلة لان مناداة لينس ارجعتني مع الروم إليهم بسرعة .

بعد الكأس الثانية خرج بينديج مترنحاً الى الحديقة ، رأسه لم يعد يحتمل المزيد . انسحبت مع لينس ، تسللنا الى البار وطلبنا زجاجة جين . بادرنى لينس بالحديث :

- يا لها من فتاة رائعة يا روبي ، اليس كذلك ؟

- لم اتمعن بها جيداً يا لينس .

نظر الي بعينه الزرقاوين ورأسٍ قد من صخر :

- قل لي بريك يا صغيري ، ما الهدف من حياتك ؟ ضحك مداعباً :

- لا بأس أيها الشيطان الماكر . دعني أخرج الآن لأتبين حقيقة العلاقة بين فتاتنا

هذه ومعجم السيارات هذا .

لحق بينديج الى الحديقة ، وبعد فترة عاد الاثنان وجلسا الى البار . تمكن هذا

الماكر ليلينس من الحصول على معلومات مشجعة وقد اكتشف ان علاقة بينديج بالفتاة

سطحية ، والطريق الى قلبها سالك لا يعوقه شيء .

استهل الاثنان جلستهما في شرب زجاجة الجين . وما ان مضت ساعة إلا وكان

حديثها حديث صديقين قديمين . من طبيعة لينس عندما يشرب إضفاء الصداقة الحميمة على جليسه . ومن نادمه على المائدة أخ صدوق له . تجلست هذه الميزة في مجالسته لبيندينج الذي أحس بدوره بحرارة العلاقة مع لينس . امتزجت المشاعر والأحاسيس بين الاثنين وشرعا سوية بالغناء يرددان اهازيج زمن الجندية الغابر . تأكدت بعد ان غادرا المكان بأن لينس في غمرة السعادة التي بعثها فيه الشراب والغناء ، قد نسي الفتاة .

أما نحن الثلاثة ، الفتاة ، كوستر وانا فقد انتظمتنا حول مائدة واحدة . اخذت صاحبة المطعم تتأهب وتظر اليها نظرة أم حنون تنبهنا الى أن الليل قد انتصف ، وباشرت بتوضيب الموائد المنتظمة في اركان المطعم . كان كلب بني اللون يستلقي متكاسلاً امام الموقد يصدر من آن لآخر نباحاً خافتاً متقطعاً . وعبر النافذة المفتوحة حمل اليها الهواء أنغام اناشيد عسكرية .
- يا لغرابة أمرهما . ألم يُرهقا بعد من الانشاد ؟

بعدها . . . شعرت وكأن الغرفة ارتفعت بنا سابحة في الفضاء الواسع عبر الليل والسنين ، مدغدة الكثير من الذكريات . شعرت بأن الزمن توقف ، ولم يكن تداعي الذكريات المنبعثة من الظلمة والعائدة اليها شلالاً فحسب ، بل استحال الى بحيرة عميقة تعكس فيها الحياة بلا حراك . امسكت بالكأس أتأمل الروم المشع في داخله وعادت بي الذاكرة الى قصاصة الورق التي كنت قد كتبتها هذا الصباح في الورشة ، حيث كانت ترسم على وجهي علائم الحزن ، أما الآن فقد تغيرت الحال . تبدد الحزن وزالت الكآبة ، فالشعور بالحياة يجعلنا ننظر الى الاحداث بكثير من اللامبالاة .

نظرت الى كوستر فلمحتته يتحادث والفتاة ، لم أستوعب ما كان يدور بينها . شعرت بنشوة السكر الدافئة تتسلل الى اعماقي . أه ، كم أحب هذا الشعور بغوص في أعماق النفس الإنسانية ، ليدفعها الى عالم المغامرة . في الخارج ، استمرت الأناشيد العسكرية تنطلق من حناجر بيندينج ولينس ، أما أنا فرحت أستمتع بنشوة الى حديث تلك الفتاة بصوتها العميق المثير . . . اجترعت كأسى حتى الثمالة .

عاد الاثنان من الخارج ، بعد ان استردوا الوعي بفضل الهواء المنعش . همّ الجميع بالانصراف . عرضت على الفتاة مساعدتها لارتداء معطفها . اقتربت مني حتى كادت تلتصق بي . مالت برأسها الى الوراء وقد افترت شفتاها عن ابتسامة ساحرة انتشى بها سقف الغرفة وتحسر عليها الرفاق . شعرت لبرهة ، وأنا بقربها بأن

المعطف يميل الى السقوط ، غريب : إنه بين يدي . أين كانت عيناي طوال هذا المساء ؟ هل كنت ساهياً عما يحيط بي ؟ حالا بدأت أعني سر اعجاب لينس الشديد بها .

التفتت نحو ي وكأنا تنشد شيئاً . اتجه نظري الى بيندينج ، الفيته واقفاً محمر الوجه ، مستنداً الى مقعد يرمينا بنظرة زجاجية مخمورة .

سألها :

- اتعتقدين انه قادر على القيادة وهو في حالته هذه ؟

- اعتقد ذلك .

- اذا كنت تشكين في قدرته ، فيإمكانني القيام بهذه المهمة عنه .

أخرجت علبة مساحيق من حقيبتها وفتحتها .

- لا تخف . إن قيادته السيارة وهو في حالة السكر ، أفضل منها بكثير وهو في حالة الوحي .

- ربما ، ولكنني أشك في دقة تركيزه .

نظرت عبر مرآة علبة المساحيق واستدركت :

- أمل أن تكون قيادته موفقة .

أطلت الحديث وغاليت بتكرار مخاوفي لتطول فترة استعاعي لحديثها . كان حري بي أن أبذل ما في وسعي كي لا ترحل عني بهذه السرعة ، غير عابئ ببيندينج ، وقد وقف ينتظر وعلائم التعب والانهاك مرتسمة على وجهه . أخيراً ، وبعد أن للمت بقايا شجاعتي ، رنوتُ اليها مخاطباً :

- ساتصل بك غداً . ألا تسمحين ؟ أود فقط الاطمئنان على وصولكما بسلامة .

لم تجب الفتاة . وكان صمتها دافعاً للاستطراد في شرح مخاوفي .

- عفواً : نعتبر مسؤولين عن سلامتكم ، أنا بالدرجة الأولى . أليس كذلك ؟

وضحكت :

- كما تريد . وليكن ذلك . هذا الرقم : القسم الغربي ٢٧٩٦ .

بسرعة دونت الرقم المرتجى على قصاصة من الورق .

ذهبت وبيندينج الى السيارة وعيني تلاحقها حتى اختفت عند الباب . بعدها سمعنا فرقة عجلات السيارة . لقد رحلا . عدنا الى المطعم نحن الثلاثة ، مكثنا برهة ، عبيننا خلالها الكأس الأخيرة وانصرفنا . عاد كارل الى النواح مجدداً ، منطلقاً

عبر ضباب آذار الكثيف ، وما أن شارفنا المدينة حتى تراءت لنا من خلال الضباب راقصة متوهجة وفي وسطها تراءى لنا بار فريدي ، وقد بدا خلال السحب ، كسفينة تائهة في بحر خرافي بأصوائه الخافتة .

وسرنا أمامه ، ثم دخلناه وانتظمتنا صفاً مناسكاً صلباً ، واقبلنا على الشراب ، فسالت كؤوس الكونياك تبرأ صافياً ، وكؤوس الجن ماءً نغيراً . أما شراب الروم فلا تسل عنه ، اذ هو الحياة بعينها .

جلسنا هكذا كالحديد الصلب نستمع بلا حراك الى الموسيقى تنساب كالعطر في أرجاء الحانة وكشعاع ساطع يجري بقوة في صدورنا . انسابت الموسيقى لتمحو من ذاكرتنا الغرف الكثيرة المكفهرة التي تنتظرنا ، بأثاثها البالي . في مثل هذا الجو يصبح القلق على المصير والتفكير بالمستقبل ، عبثاً لا طائل منه ، وتغدو مائدة الشراب جسراً يربطنا بالحياة ويشدنا الى المستقبل ، فنعبره باندفاع وحماس .

انصرم ذلك اليوم ، لاستقبال نهار احد جديد وقد غططت في نوم عميق ، ولم انهض من فراشي الا بعد ان تسربت اشعة الشمس الى غرفتي لتوقظني ، فنهضت مسرعاً لافتح النافذة ، فانسابت اليّ نسائم منعشة . وضعت طباحي الصغير على المنضدة ورحت ابحث عن علبة القهوة ، وقد سمحت لي صاحبة البنسيون السيدة ثساليفسكي بتحضير القهوة في غرفتي ، لانني سئمت قهوتها التي لا تفوق الماء المغلي في مذاقها .

مضى عامان وملاذي الوحيد بنسيون تساليفسكي المعهود . المكان يروق لي . فهو ينبض بالحياة الدائمة ، يجاوره مجمع النفايات ، ومقهى الانترناسيونال ومجمع متشردى المدينة . يطل على مقبرة قديمة انتهت مهمتها ، وتبدو باشجارها الباسقة وازهارها العبقرة وكأنها حديقة عامة . في المساء وعندما يصمت الإنسان والأشياء يبدو البنسيون والمقبرة أمامه ، كبيت ريفي وسط الغابات ، ولا ينبهنا الى حقيقة موقعه الا الصخب والضجيج المتبعثين من مدينة الملاهي التي لا يسودها الصمت والهدوء الا في الساعات المتأخرة من الليل .

لقد استغلت السيدة تساليفسكي مجاورة المقبرة لتزلها جيداً ، فهي تطالب نزلاءها من حين الى آخر بزيادة في أجور الغرف ، لافتة انتباههم الى الهواء النقي والمنظر الرائع الذي يوفره لهم موقع البنسيون .

ارتديت ثيابي بتمهل ، مثيراً في أعماق ذاتي مشاعر يوم الراحة . غسلت وجهي ، قطعت الغرفة جيئةً وذهاباً ، القيت نظرة على الصحيفة ، حضرت القهوة ، ووقفت خلف النافذة أرقب الطريق وقد دبّت فيه الحياة ، مصغياً الى زقزقة الطيور اللالذة في أعالي دوح المقبرة . كانت أغاريدها عذبة وقد امتزجت بأنغام الأورغ الآلي ، المنبعثة من مدينة الملاهي .

فتحت دولا ب الملابس واخترت بتمعن ودقة القميص والجورب موها ذاتي أنني أملك عشرين دزينة منها . أفرغت جيوبي من محتوياتها المتواضعة مدندناً الحاناً

مختلفة : قطع نقدية مبعثرة ، سكينه جيب صغيرة ، مفتاح البنسيون الخارجي ، سجائر وقصاصة الورق المدون عليها اسم فتاتنا ورقم الهاتف : باتريس هولمان يا لغرابه هذا الاسم . وضعت الورقة على المنضدة متسائلاً :

ما أعجب أحداث الأمس . وسبحت في تخيلاتي .

ما امتع هذه الغيبوبة التي نسميها الحلم ، تقرب بسرعة بين الأشخاص ولكنها لا تلبث ان تبدهم وتقيم بينهم حواجز من السنين . تناولت قصاصة الورق وخبأتها بين طيات الكتب ورحت اسائل نفسي : أطلب الرقم ؟ - لا فهي حتماً ستسفر عن وجه آخر غير الذي أفتته في الليلة الفائتة .

كم شعرت بالسعادة وأنا أستعيد ذكريات البارحة ، وبعد سنين عجاف من الضوضاء والقحط العاطفي .

كان كوستر يردد باستمرار : دع عنك التفكير بأمور الحياة فهي لو تغلغلت في أعماقك لاقتضت مضجعك وصرت عبداً لها ، فكنت بذلك مغالفاً لسنة الكون ، والتي لا يقوى المرء فيها على الاحتفاظ بشيء في هذا العالم العجيب . فالحياة وهم وسراب .

في الغرفة المجاورة بدأ شجار يوم الاحد التاريخي اخذت ابحت عن قبعتي ولكن دون جدوى ، لا بد اني نسيتها في المطعم ليلة امس . تركت البحث جانبا ورحت استرق السمع للشجار المتواصل .

كان ابطال الشجار هما الزوجان هاسه . زوجان مضى على زفافهما خمس سنين ، يتصدى الواحد منهما لرفيقه لتوافه الامور . مضت خمس سنين وهما يسكنان تلك الغرفة الصغيرة ، كانا لطيفين ، ولكن ربما كان ضيق الغرفة سبباً في شجارهما الدائم . لا ريب ان الوثام سيسود جو العائلة فيما لو توفر لها مسكن بثلاث غرف ومطبخ وطفل يملأ عليها الحياة . فالزوجان وديعان ولطيفان . ولكن أين المال الكافي في مثل هذه الظروف الصعبة ؟

أصيب الزوجان : المرأة بالعصاب والرجل بالخوف المزمع من المستقبل ، فهو يشغل وظيفة متواضعة ، قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره ، يخشى التسريح ، وما من مؤسسة تقبل بتوظيفه في مثل هذا السن المتقدم . كان في السابق شاباً يغمره الأمل وتدغدغه الاحلام ، لا يتطرق اليأس الى قلبه مهما جاد عليه القدر واتسعت امامه الهاوية . أما الآن فأصبح شبح التسريح يلاحقه أينما ذهب رامياً إياه في أحضان

هممت بالخروج من الغرفة قبل أن يقصدني أحد ، فإذا بالبواب يقرع ويدخل هاسه ثم يتهاوى على المقعد قائلاً :
- لا أستطيع تحمل المزيد .

كان هاسه رجلاً خلوفاً ، رقيقاً ، ذا منكين متهافتين وشارب صغير ، ونموذجاً لموظف ملتزم متواضع ، وهو بميزاته هذه يدخل في زمرة أبطال الروايات الرومنسية . ان مثل هؤلاء البسطاء عرضة لاستغلال الغير . فالمستغلون يمتصون قدراتهم ثم ييصقونهم جانباً .

قال وهو يرتجف :

- تصور لقد تم هذا الاسبوع تسريح موظفين . والتسريح القادم سيكون حتماً من نصيبي .

في هذا الخوف كان هاسه يعيش مترقباً بداية الشهر . صبيت له كأساً من الكونياك لتخفيف اضطرابه . كان انفعاله كمن تسلم بالفعل قرار تسريحه . استشففت من حالته النفسية ان انبهاره بات وشيكاً . كان يغضب كثيراً عندما تشكو له زوجته مأساة وجودها . هي في الثانية والاربعين من العمر . منتفخة قليلاً ، شاحبة ولكنها لم تستهلك بعد كزوجها . تعاني من عصاب خيبة الامل المزمين .

التفت الى هاسه مشجعاً وقلت :

- اسمع يا هاسه . يمكنك المكوث في غرفتي ماشئت . اني على موعد هام وعلي أن أغادر المكان ، الكونياك في دولاب الملابس . إليك بعض الصحف . استمتع بوقتك وهدىء اعصابك . انك مخطيء جداً بحق نفسك ، لماذا لا تذهب اليوم الى السينما بدل المقهى ، الكلفة ذاتها ، هدىء من روعك واجعل شعارك اليوم « ممنوع التفكير » .

ربت على كتفه مداعباً وضميري يؤنبني لتركه وحده على هذا الشكل .

- السينما : يا لها من فكرة رائعة ، هناك يستطيع الانسان ان يحلم بعيداً عن واقعه الاليم .

خرجت عابراً الدهليز . كان باب غرفة الزوجة مفتوحاً ، لمحت عبره السيدة هاسه جالسة في ركن من الغرفة تنتحب وتبكي بصوت مسموع . اندفعت بسرعة متخطياً الدهليز ، واذا بباب الغرفة التالية مشرع ايضاً تنفذ منه غيمات من العطر

الفواح ، تقطن في هذه الغرفة الانيقة ليرنا بونينغ سكرتيرة احد اصحاب المحلات الكبرى . تعيش برفاهية لا تتناسب ومرتبها الشهري المتواضع ، يزورها رئيسها يومين في الاسبوع ليملي عليها رغباته الليل بطوله ، يعقبه في الصباح اضطراب في مزاجها . كانت تقضي اغلب امسياتها الباقية في صالونات الرقص . شعارها « الحياة رقص » ، واذا جاء اليوم الذي تعجز فيه عن الرقص ، فالموت أجدر بها وأبقى . هذا ما كانت تردده دائماً . لها صديقان : الاول يحبها ويأتيها بالورد ، والثاني تحبه وتعطيه ما يحتاجه من نقود .

يقطن الغرفة المجاورة الكونت اورلوف ، مهاجر روسي راقص ، نادل ، كومبارس فيلم ، عازف قيثار ماهر ، يمضي الليل مصلياً مبتهلاً الى الأم البتول ان تحن عليه بوظيفة رئيس تشريفات في احد الفنادق المتوسطة . كان اذا عنت منه الحنجرة ينفجر باكياً .

الى جوار غرفة الكونت تقطن السيدة بندر ، تعمل ممرضة في احد ملاجيء الرضع ، في الخمسين من عمرها ، قتل زوجها في الحرب ، اما طفلها فقد ماتا جوعاً عام ١٩١٨ ولم يبق لها من حطام الدنيا سوى هرة بيضاء .

في الغرفة للمحاذية لها يقطن السيد موللر محاسب متقاعد ، هوايته جمع الطوابع ، انسان يتدفق نشاطاً وحيوية ، مصاب بالسرور وليس له من مميزات اخرى .
توقفت عند باب الغرفة الاخيرة ، قرعت الباب وهتفت :

- جورج ، هل من جديد ؟
هز رأسه نفيماً .

جورج بلوك طالب جامعي ، عمل لفترة في مناجم الفحم كي يتمكن من متابعة الفصول الدراسية الاربعة المتبقية حتى تخرجه ، اشرف ما ادخره من مال على النفاذ فلم يعد ما تبقى من نقود يكفيه سوى شهرين فقط .

تفشت البطالة وتشرد العمال واقفرت المناجم وانبرى جورج يفتش عن عمل . اشتغل لمدة اسبوع واحد كموزع اعلانات لشركة شحوم ، ثم ما لبثت الشركة ان اعلنت افلاسها ، وتسرح جورج مع بقية العمال . ثم عمل موزعاً للصحف ، وبعد ثلاثة ايام من مباشرته العمل هوجم من قبل زملائه ذات صباح ، فاشبعوه ضرباً . انتزعوا منه الجرائد ومزقوها ، وانذروه بالآ يعود لعمله هذا وان يترك فرصة العمل لغيره من اصحاب الحق فيه . ورغم التهديد ذهب جورج الى مكتب

الصحيفة في اليوم التالي . سدد من جيبه ثمن الاعداد الممزقة ، وخرج من المكتب حاملاً غيرها ، لتداهمه فجأة دراجة مسرعة القته ارضاً وقد تمرغت صحفه في الاوحال . في ذلك اليوم عاد الى البيت مهشم الوجه ، ممزق الثياب . امام هذه العقبات انقطع جورج عن الذهاب الى المكتب ولاذ بغرفته ، متفرغاً لدراسته وقانعاً بوجبة طعام واحدة في اليوم .

حدثت نفسي ، ما نفع الدراسة ، وما نفع اجتياز الفصول الاربعة المتبقية بنجاح . اين سيجد المكان المناسب ليعمل فيه ؟ فالمستقبل قائم امامه .

حدثته :

- جورج دع عنك هذه الكتب .

ثم ناولته سيجارة وتابعت :

- لقد تركتها بدوري منذ زمن بعيد . اذهب وابحث عن عمل ولا ترجع اليها الا بعد ان تتوفر لك الظروف المادية الملائمة . هز رأسه وعاد ليتصفح صفحات كتابه من جديد ، وجهه شاحب ، عيناه غائرتان توحيان بقصر النظر ، واذناه معوجتا الصيوان كمن يحاول سماع همس وسط الضجيج ، جسم نحيل ، صدر غائر ، يبدو كمن حلت عليه لعنة الاله الابدية ، انه مأساة حقيقية بشكله وواقعه . حبيته :

- طاب يومك يا جورج .

بجاور غرفة جورج ، وقبالة الهاتف ، مطبخ صغير ، انتصب فوق بابه راس وعل محنط يذكر بالسيد المرحوم تساليفسكي ، في الدهليز يجيم ظلام نسبي وتنبعث في ارجائه رائحة الغاز والشحم الرديء . . وعلى باب البنسيون كتبت اساء كثيرة من بينها اسمي :

روبرت لوكامب ، الطالب في قسم الفلسفة انه شخصية مميزة . في تلك الاثناء هبطت السلم ابتغي مقهى الانترنتاسيونال .

كان تجار الماشية يعقدون اجتماعهم الاسبوعي في الغرفة الخلفية للمقهى في حين اجتمعت العاهرات على الرصيف . وجدت المكان خالياً الا من النادل ذي الاقدام المسطحة ، الواقف خلف البار .

سألني :

- كما اعتاد السيد ان يشرب ؟

أومات له برأسي موافقاً .

قدم لي كأساً من النبيذ الاحمر وقدحاً من الروم . جلست الى احدى الطاولات ،
معملاً أمامي . نفذ عبر زجاج النافذة شعاع الشمس ليستريح على زجاجات شراب
الكورن المرصوفة على رفوف البار وغدا شراب الشيري يتوهج في أنيته وكأنه
الياقوت .

راح آلوي يغسل الكؤوس بينما ارتمت قطعة صاحب المقهى على البيانو واخذت
تغرغر في نومها . رحت انفخ بكل تأن وهدوء دخان سيجارتي في الهواء وجو الغرفة
الدافئ يبعث على الاسترخاء والنوم .

آه ، كم كان صوت تلك الفتاة غريباً ، عميقاً وجافاً ، فيه رغم ذلك انوثة
ورقة . انسأب الى سمعي صرير الباب ثم علا صوت روزا .
- اعطني الجرائد يا آلوي .

روزا هي عاهرة المقبرة الملقبة بالحصان الحديدي ، لقدرتها على تحمل الأوزان
الثقيلة . دخلت المقهى وطلبت كأساً من الشوكولا كعادتها صباح كل احد ، لتمضي
بعدها الى بورغدورف لعيادة طفلتها .

- صباح الخير يا روبرت .
- صباح الخير يا روزا . ما اخبار صغيرتك ؟
اني ذاهبة لرؤيتها ، انظر ماذا ابتعت لها .

واخرجت من كيس صغير دمية جميلة ، ذات وجنتين حمراوين ضغطت على زر في
بطنها ، فطفقت الدمية في البكاء صائحة - ما - ما - ما - ما . تألق وجه روزا لدى
ساعها ذلك الصوت .

- عظيم .
- انتبه جيداً لما سيأتي الآن .
ثم أمالت الدمية الى الخلف وفي الحال أغمضت عينيها .
- رائع حقاً .

بدا الارتياح على وجهها وأعدت الدمية الى مكانها وقالت :
- إنك تعمي هذه الأمور ولسوف تصبح يوماً ما أباً جيداً يا روبرت .
- لا ، لا ، اجبتها بتردد وحذر .

كانت روزا شديدة التعلق بابنتها ، تسكن معها في غرفة واحدة لا تفارقها البتة الا
حين يحضر الزبون لزيارتها ، حيث تبقيه خارجاً ريثما تضعها في عربة وتحفيها خلف

ستارة في احدى زوايا الغرفة ثم تسمح له بالدخول، ومنذ شهر واحد فقط اضطرت الى الانفصال عنها بعد ان بدأت الصغيرة في المشي وبعد ان مرضت عدة مرات متتالية نتيجة برد كانون الاول القارس . فاودعتها في ملاذ للاطفال باهظ التكلفة وادعت انها ارملة شقية بائسة ، ولولا ذلك لما قبلت الطفلة في ذلك الملاذ . وقفت روزا مصافحة ثم نظرت إلي قائلة :

- طبعاً ستكون نهار الجمعة هنا ، ولعلك تعرف السبب اليس كذلك ؟

أومات برأسي موافقاً ، بيد أنني ما كنت أعرف السبب ولا رغبة لي بالالحاح لمعرفته ، فقد عودت نفسي على ذلك أيام كنت عازفاً ليلياً في المقهى . إن عدم طرح الأسئلة يجنب صاحبها المتاعب .

- الى اللقاء ، روبرت !

- الى اللقاء روزا .

بقيت في المقهى لائذاً بوحديتي ، لا اشعر بالارتياح ، رغم ان مقهى الانترنتاسيونال يصبح بيتي الحقيقي في ايام الأحاد . تناولت قدهاً من الروم ، داعبت القطة ، ثم انصرفت ، رحلت اتسكع في اماكن عدة ، مبدداً وقتي بغير هدف ابتغيه ولم استطع المكوث في مكان محدد لفترة طويلة . بعد الظهر يممت صوب الورشة ، حيث كان كوستر يعمل هناك في اصلاح الكاديلاك التي ابتعناها قبل مدة قصيرة بسعر بخس . عملنا على اصلاحها بجد أملين بكسب جيد ، وها هو كوستر الان يعطيها اللمسة الاخيرة .

كنت اشك ، رغم أملي ، في نجاح هذه الصفقة ، ففي مثل هذه الاوقات العصبية ، اصبح الناس يفضلون السيارات الصغيرة الاقتصادية .

خاطبت كوستر :

- لا امل لنا في بيعها .

اجاب بكل ثقة :

- الات تعلم يا صاحبي ان السيارات المتوسطة هي التي تكسد ، بينما السيارات الضخمة الفاخرة ، الباهظة الثمن هي التي تجد من يقبل على شرائها ، فلا تزال جيوب البعض مكتنزة بالمال الكافي لاشباع غريزة حب الظهور .

- ترى أين جوتفريد ؟

- انه في احد الاجتماعات السياسية .

- ياله من احمق . ما الذي يرجوه من ذلك ؟

ضحك كوستر بملء شذقيه قائلاً :

- جوتفريد ذاته لا يعرف السبب ، غير انه دائم البحث عن الاشياء الجديدة والمتجددة ، كان ربيع الحياة يحيا في عظامه ودمه .
- ربما ، دعني اساعدك .

عملنا هكذا حتى بداية الليل .
- والآن كفانا عملاً اليوم .

سألني ضارباً على جبينه :
- أتعرف ما لدي ؟
- ماذا ؟

- بطاقتين للمصارعة . اذهب معي ؟

ترددت قليلاً . . نظر الي متعجباً .
- ستكون مصارعة شيقة . شيلينغ يصارع فولكر .
- اصطحب جوتفريد .

- عرضت عليه الفكرة ووجدتني مضحكاً . لم اكن ، وبلا سبب معروف ، في المزاج المناسب .
- هل لديك مشروع آخر لقضاء هذا المساء ؟
- كلا .

نظر إلي بتعجب .
- سأذهب الى البيت لأخط بعض الرسائل . واجبات على المرء ان يلاحقها بين الحين والآخر .

سألني بقلق :
- هل أنت مريض ؟
- لا أثر لذلك ، ولكن ربما يرقد الربيع في عظامي أيضاً .
- كما تريد .

سرت الهوينا الى البيت ، جلست في غرفتي حائراً دون هدف معين . لماذا اصريت على العودة ؟ ألم أعد أعني ما أريد ؟ غادرت المكان وقصدت غرفة جورج . وفي طريقي إليه ، اصطدمت بالسيدة تساليفسكي . فبادرتني قائلة :
- انت هنا ؟
- اجبتها بنزق :

- من الصعب نكران ذلك .

هزت رأسها فتناثرت خصلات شعرها الرمادية ودمدمت :

- لست خارجاً إذن ؟ أمر غريب .

قضيت ربع ساعة عند جورج ثم قفلت راجعاً . عن الشراب على خاطري ولكنني لم اندفع اليه . جلست خلف النافذة ارقب الطريق وقد بدأ الغروب يداعب بغلائله الشفافة اشجار المقبرة التي اتخذت منها اسراب الخفافيش اعشاشاً لها ، وتحلى الافق خلف مجمع النفايات ، اخضر باهتاً كالتفاح الفج . شعت مصابيح الجادة قبل إطباق الظلام الدامس ، فغمرت بالنور الاشياء والإنسان

تذكرت قصاصة الورق ورقم الهاتف . . لم لا اكلمها ؟ الم اعدتها بذلك ؟ ربما كانت خارج البيت ؟ واخيراً صممت . اتجهت الى الدهليز حيث الهاتف ، رفعت السماعه وطلبت الرقم . انتظرت الرد ، واحسست بموجة هادئة من الامل الخفي تلفني منبعثة من تلك الصدفة السوداء . لم يخني الحظ ، الفتاة على الطرف الآخر من الخط . جاءني صوتها العميق اللاهث لينتصب امامي شبحاً ابيض بين اثاث غرفة السيدة تساليفسكي مفكراً ملياً قبل ان ينطق . في الحال اختفى ذلك الشعور بعدم الرضى من داخلي . اعدت سماعه الهاتف الى موضعها بعد ان تحدد لقائنا غداً . انعدم الجفاف والصلابة من حولي ، هززت رأسي فرحاً « أجبون أنا ؟ » . رفعت السماعه ثانية وطلبت كوستر .

- اما زلت محتفظاً بالبطاقات يا كوستر ؟

- نعم .

- قررت مرافقتك لمشاهدة المصارعة .

بعد المصارعة تجولنا لفترة طويلة في هذه المدينة السابحة في الظلام ، كانت المصابيح خافتة ، الشوارع خالية من المارة وواجهات المخازن الكبرى تبعث باضواء لا فائدة ترجى منها . في احدى هذه الواجهات انتصبت دمية من الشمع عارية تحمل وجهاً شيطانياً مخيفاً . في الواجهة الثانية شعت الجواهر الثمينة والحلي الغالية وكأنها كاتدرائية . وفي الواجهة الثالثة تصدر الحجر الملون مكاناً بارزاً ، تجذب الوانه ويريقه متر في المدينة .

الى جانب السينما يسود عالم آخر . عالم الجوع والحمران . فترى على الأرصفة ، كتلا بشرية ، تلتهم بنظراتها واجهة متجر للمأكولات ، حاوٍ لمختلف الاطعمة ، من انواع المعلبات حتى شرائح اللحم المقدد ، الى الخبز الطازج والسّمك المقدد .

جلسنا على مقعد محاذ للحديقة العامة . كان الطقس بارداً والقمر يبدو فوق
البيوت كقوس مضيء . الليل قارب على الانتصاف . على الرصيف المقابل ، نصب
بعض عمال السكك الحديدية ، خيمة يلوذون بها . اخذت الشرارات المنقذحة من
تصادم آلياتهم بالمعادن والصخور تتناثر من فوق أجسامهم الداكنة المنحنية بصلاية
وصبر ، بينما كان الاسفلت الى جانبهم يغلي في قدور كبيرة .

سرنا والأفكار تتجاوزنا .

- ما أعذب يوم أحد كهذا يا أوتو .

هز كوستر رأسه .

- كم يشعر المرء بالسعادة عندما يتخطى يوماً كهذا .

هز كوستر كتفيه مؤكداً .

- عندما يصبح الانسان أسير رتابة الحياة ، تغيره أدنى نسيمات الحرية .

رفعت ياقتي عالياً .

- هل ما نتبادل من حديث يتنافى وتسلسل حياتنا اليومية يا أوتو؟

نظر إليّ ضاحكاً .

- لقد تكلمت عن حياتنا الكثير غير هذا .

- هذا صحيح أنت على حق .

انطلق بريق حاد من حفارة الطريق وانعكس على الاسفلت الاسود كضوء
اخضر . فبدت خيمة العمال المضيئة من الداخل وكأنها وطن صغير دافئ . سألته :

- اتعتقد بأن الكاديلاك ستكون جاهزة يوم الثلاثاء . ؟

- ربما ، ولكن لماذا ؟

- لا شيء .

ونفضنا قاصدين البيت . قلت :

- اني مضطرب قليلاً يا أوتو .

- لا جديد . كلنا تعرض لمثل هذه الاضطرابات ، حاول ان تأوي الى فراشك

باكراً . نوماً هانئاً يا روبرت .

- ولك ايضاً يا اوتو .

جلست في غرفتي ولمدة طويلة . لقد شمت هذه الغرفة وكل ما فيها . الأرائك
بالية مهترئة ، الفراش ممزق ، وتلك الصورة المعلقة لمعركة واترلو ، انها لا تليق
بزيارة أي انسان محترم ، وخاصة إذا كان هذا الزائر امرأة .

نحن في ظهيرة يوم الثلاثاء . جلسنا في فناء الورشة نتناول طعام الإفطار . كانت الكاديلاك جاهزة ، وقد حمل لينس بيده ورقة واخذ يسدد نحونا نظرات الواصل المنتصر . إنه المسؤول عن الإعلام في الورشة ، وقد انتهى لتوه من قراءة اعلان خطه بيده لبيع الكاديلاك . استهل عنوانه بالتالي : « عطلة على الشواطىء الجنوبية بصحبة رفيق سفر فاخر » . لفترة صمتنا ، كوستر وانا ، لتتعاى قليلاً من شلال خياله المزهر . فالاعلان كان مزيجاً من الشاعرية والرومانسية .

دار في خلد لينس ان اعلانه حاز إعجابنا ، فسألنا بكل فخر واعتزاز .

- في عصر تسوده الواقعية المجردة ، تنبض في هذا الاعلان شاعرية ساحرة وتطغى عليه الكلمة النافذة . وعلى إنسان العصر ان يركب الرومانسية ليلفت اليه انظار القراء . التناقضات تستدعي بعضها . وهنا سر الخدعة الكبرى . رددت :
- لا تسري نظرتك هذه على ظاهرة ترتبط بالمادة والنقود .

احتج جوتفريد :

- لا احد يبتاع سيارة من أجل استثمار نقوده بل على العكس ليصرفها . وهنا تبدأ الرومانسية ، خاصة لرجال الأعمال ، بينما هي تنتهي للعمامة عند الشراء . ما رأيك يا أوتو؟

- بدأ كوستر حديثه حذراً .

قاطعته قائلاً :

- لم إطالة الكلام . هذا الاعلان يناسب دعاية لقضاء صيف جميل ، أولزيوت مطرية للبشرة ، لكنه لا يصلح في أسواق بيع السيارات .

بدت الدهشة على وجه لينس ، ولكنني استطردت :

- دقيقة واحدة لو سمحت . أنت تعتقد أننا مكبلون بأغلال هذه الواقعية المحزنة . لذا اسأل يوب عن رأيه فهو صوت الشعب .

كان يوب هذا الموظف الوحيد في ورشتنا ، لا يتجاوز الخامسة عشر من العمر ،

يشتغل صانعاً ليتعلم المهنة ، يكلف بأعمال كثيرة ، يخدم تارة على مضخة البنزين ، وتارة يكلف بجلب طعام الإفطار ، وفي المساء يوضب الورشة .حجمه صغير، وجهه مزروع بالنمش . أما أذناه فكانتا اطول اذنين شاهدتهما في حياتي وهما مدار تعليق كوستر المستمر : لو سقط يوب من طائرة ، لما اصيب بأذى ، فاذناه ستساعدانه على الهبوط البطيء .

استدعيناها بسرعة وقرأ لينس الإعلان على مسامعه . بعد التلاوة سأله كوستر :
- اذا قرأت إعلاناً كهذا ، أتهتم بالسيارة المعلن عنها . أجب يوب :
- سيارة .. ؟

ضحكت ... رد جوتفريد متبرماً :
- بالطبع سيارة . أم خلته حصان عربية ؟
عاد يوب يسأل مستفسراً :
- هل هي سريعة وتعمل مكابحها على الزيت ؟
صاح به لينس
- يا راس الخروف . انها سيارتنا الكاديلاك .

اجاب يوب .. بينما امتدت ابتسامته العريضة من اذنه الاولى الى اذنه الثانية :
- غير معقول !

قال كوستر :
- هذا جزاؤك يا جوتفريد . تلك هي رومانسية العصر .

صرخ به لينس بانفعال :

- اغرب عن وجهي وعد لمضخة البنزين ، يا وليد قرن اللعنة هذا - القرن العشرين .

اختفى لينس بعد ذلك في الحجرة الخشبية ليسبغ على إعلانه النابض بالشاعرية بعضاً من النفحات الميكانيكية . وبعد دقائق معدودات فوجئنا بوصول كبير المفتشين بارزينغ ، فهرعنا لاستقباله بأحسن مظاهر الترحيب ، فهو مهندس هام يعمل خبيراً لدى شركة تأمين السيارات فونيكس (العنقاء) ومسؤول عن إحالة السيارات المتضررة من الحوادث الى ورشة التصليح .

كنا واياه على علاقة حسنة ، انه مهندس متمرس ، قدير حقاً لا تفوته اية حيلة ، علاوة على ذلك فهو هاوٍ في الفراشات وخبير بانواعها ، يملك مجموعة كبيرة منها .

كان طري العود ، لين العريكة .

في أحد الايام عثرنا على احدى الفراشات النادرة ، امسكنا بها واهديناها اياها .
جن فرحاً حين قدمنا له هذه الحشرة الطائرة ، فهذا النوع من الفراشات (رأس الميت) نادر جداً وتفتقد مجموعته هذا النوع . لم ينس لنا صنيعنا ، فظل يحول اكثر السيارات المعطوبة الى ورشتنا ونحن بالمقابل لم نعد ندع حتى اصغر العث (القارضة) يفلت من ايدينا .

سأله لينس ، الذي كان قد استعاد ثقته بنفسه :

- هل تأخذ قديماً من الكورن ؟

اجابه بارزينغ :

- لا كحول قبل المساء ، انها عادتي المتأصلة ولا يمكن أن اغيرها

اجاب لينس :

- على الانسان ان يجيد قليلاً عن مبادئه ولولا ذلك لما حافظت هذه على جمالها .

دعونا نشرب نخب محبي الاجنحة الشفافة .

تردد بارزينغ قليلاً وتناول الكأس قائلاً :

- لا يمكنني رفض نخب الفراشات ، هذه نقطة ضعفي . ولكن علينا ان نحدد

نوع الفراشات . لنشرب نخب « عيون الجواميس » (نوع من الفراشات النادرة) .

لقد وفقت الى طريقة جديدة في تصيدها .

قال لينس :

- بحق السماء . انك لجدير بكل الاحترام والتقدير . انك طليعي في هذا

المجال ، واسمك سيدخل حتماً مع بقية المكتشفين في كتب تاريخ الطبيعة .

شربنا جميعاً كأساً آخر ، ومسح بارزينغ شاربه وقال :

- اتيتكم بنياً سار ، فلقد وافقت ادارة شركتي على السماح لورشتكم بتجليس

وإصلاح سيارة الفورد ، التي اخبرتكم عنها سابقاً .

أجابه كوستر :

- عظيم ، ولكن هل وافقت على الدفع بسخاء هذه المرة ؟

- نعم ، سيدفعون لكم بسخاء وبدون حسم .

ثم اغمض بارزينغ احدى عينيه واجاب :

- لم يوافق السادة اصحاب مجلس الادارة على المبلغ ولكنهم رضخوا اخيراً تحت إصراري .

صب لينس كأساً آخر وهتف :

- لنشرب نخب شركة التأمين فونيكس .

شربنا الكأس ، فتابع بارزينغ مودعاً :

- لا تنسوا شيئاً واحداً . لقد توفيت المرأة التي كانت تجلس في الفورد اثناء الحادث قبل بضعة أيام . كانت اصابتها الخارجية طفيفة نسبياً ، ولكن يبدو أنها توفيت من جراء نزيف داخلي .

سأل كوستر :

- كم كان عمر السيدة ؟

أجاب بارزينغ :

- أربعة وثلاثون عاماً ، وحامل في الشهر الرابع ، ويتأمين قدره عشرين الف مارك .

انطلقنا في الحال لاحضار سيارة الفورد التي كانت تقف أمام مخبز مالكها ، كان الخباز مخموراً حين صدم بسيارته سور الحديقة . اصيبت زوجته بجراح في حين أنه لم يصب ولا بخدش بسيط . نظر إلينا بصمت وبوجه شاحب اثناء محاولتنا تجليس مقدمة السيارة كي نستطيع الانتقال بها الى الورشة . بدا وجهه الأصفر المريض كدودة طحين كبيرة . كان وجهه كوجه اي خباز ، امضى حياته وهو في أقبية الطحين بعيداً عن الهواء النقي والشمس . كان ظهره معوجاً ورقبته قصيرة ، حانياً رأسه الى الأمام . اقترب منا بتؤدة وقال :

- متى تصبح السيارة جاهزة ؟

رد كوستر :

- خلال ثلاثة أسابيع تقريباً .

اشار الخباز الى غطاء السيارة الداخلي وقال :

- طبعاً سيدخل هذا في التصليح . اليس كذلك ؟

اجاب اوتو :

- لماذا ؟ فهو جديد وغير ممزق .

رد عليه الخباز بعصبية كمن نفذ صبره :

- إنه يبدو جديداً بالطبع ، فهو من النوع الجيد الذي لا يهترىء بسرعة . لقد
حصلتم على عرض كبير ، ومبلغ جيد وأنا واثق من فهمكم مرامي .
- كلا .

من الواضح ان كوستر قد فهم ما رمى اليه الخباز ، فهو يريد غطاء داخلياً
جديداً ، كهديفة منا . لقاء تصليح السيارة في ورشتنا .

تجادلنا معه لفترة طويلة ثم وافقنا مرغمين على رغبته ، وذلك بعد ان هدد بسحب
العقد منا والدخول في مناقصة جديدة مع ورشة اخرى ، فالظروف القاسية التي نمر
بها من ندرة المال والعمل اجبرتنا على التسامح معه .

ابتسم الخباز بخبث وتابع :

- لماذا لم تنفق منذ البداية ؟ هل كان من الضروري اضاءة هذا الوقت في
الجدل ؟ سأمر عليكم في غضون أيام لانتقاء المادة واللون المناسب . بيع على ما
اظن ، لون هادىء وينسجم مع لون الطلاء . طلاء السيارة الخارجي . اقلعنا
بالسيارة و اشار لينس الى بقعة سوداء كبيرة على المقعد .
- انظر ، انه دم زوجته المتوفاة . لقد حصل هذا الماكر على غطاء داخلي جديد .

بيع ..

ثم تابع بسخرية :

- لون هادىء .. مع تقديري لذوقه ، فهذا اللون لا يتناسب وسيارته ، اني
واثق ان دودة الطحين هذا ، سيحصل على تعويض مالي لشخصين من شركة
التأمين . فزوجته كانت حامل . حتى من الموت يربح هذا الماكر .

هز كوستر منكبيه قائلاً :

- لا توجد علاقة بين الموت وتحصيل الربح منه بالنسبة لخبازنا ؟

أجاب لينس :

- صحيح . يقدم التعويض المادي بالنسبة لبعض الأشخاص مقام التعزية .
خسرنا ، حتى الآن ، خمسين ماركاً من ربحنا الصافي وخلال دقائق . الحمد لله على
أننا لم نمكث معه مدة أطول .

ذهبت بعد الظهر الى البيت بحجة إنجاز عمل مهم ، اذ كنت على موعد مع
باتريس هولمان . لم أخبر أحداً في الورشة عن هذا الموعد . ليس رغبة في التستر ،
وإنما نتيجة الخوف من أن لا توافيني الفتاة . كانت باتريس قد ذكرت لي اسم مقهى

مكاناً للالتقاء ، لم أسمع به من قبل ولكنني تصورته مقهى صغيراً وأنيقاً . اتجهت إليه بشعور من لا يعرف شيئاً . صعقت وتراجعت إلى الوراء حين دخلت المقهى .

كان على عكس ما تصورت . مقهى يعج بالنساء الثائرات . للممت شجاعتني واخذت مكاني خلف طاولة صغيرة ، كانت قد فرغت لتوها . سألني النادل عن رغبتني ، في حين راح يضرب بمنشفته بقايا الكعك المتناثر على غطاء الطاولة غير عابئ بسقوط هذه الفتات على بزتي النظيفة .
- قهوة ، شاي او شوكولا .
- كأس كونياك كبير .

أحضر الكأس مع مجموعة من السيدات ، تتقدمهن سيدة ذات جسم رياضي ، متقدمة في العمر ، تزين رأسها قبعة مملوءة بالأزهار .
- تفضلوا . فهناك أربعة مقاعد خالية . وأشار بيده إلى طاولتي .

انصعقت من هذه الوقاحة وأجبتني :
- المقاعد ليست خالية ، فأنا أنتظر صديقاً .

اجاب النادل :

- لا يجوز حجز الأماكن في مقهانا ، وفي مثل هذا الوقت .

نظرت إليه ومن ثم إلى السيدة . لاعبة القوى ، التي كانت تقف الى جانب الطاولة متمسكة بحزم بأحد المقاعد . استسلمت بعد ان تفحصت وجهها وقد تأكدت بأن أية منازلة ستكون خاسرة معها . حيث ان أقوى المدافع ستكون عاجزة عن زحزحة قرارها بغزو هذه الطاولة .

قلت للنادل مستسلماً :

- كأس كونياك آخر .

- سأوافيك به في الحال .

- كأس كونياك كبيرة ؟

- نعم .

انحنى إلي هامساً :

- لا تغضب فهذه الطاولة معدة لاستقبال ستة اشخاص .

- أحضر لي الكونياك على اية حال .

اخذت لاعبة القوى تحملي في كأس بيقر ، وكأنه سمكة متعفنة ، لا شك انها

عضوة في نادي المتشفين انصار محاربة الكحول .

طلبت كأساً آخر لإغاظتها وأخذت أحملق فيها ، ولكنني ما لبثت أن عدت أنظر إلى كأسى .

شعرت بسخرية الموقف ، لماذا أنا هنا ؟ وماذا أبغي من الفتاة ؟ هل أتعرف عليها اذا رأيتها مرة ثانية في هذا المكان المزدهم ؟ وجرعت الكأس بغضب .
- مرحباً .

انتفضت واقفاً واذا بها تقف أمامي مبتسمة ثم قالت :
- لا شك أنك أتيت مبكراً .

عندها فقط تنبهت الى الكأس التي كانت ما تزال في يدي فوضعتها على الطاولة . شعرت بالخرج والحيرة وبدت الفتاة بين تلك المجموعة من النساء ، الملتهات الكعك مختلفة عما كانت عليه في تلك الليلة . بدت كفارسة محاربة فتية هادئة ، واثقة بنفسها وبعيدة المنال . ساورني الشك في إمكانية نشوء علاقة بيننا . فكرت بذلك ثم سألتها :

- من أين دخلت ؟ كنت أقرب الباب طوال الوقت ولم أرك تدخلين منه .

أشارت الى باب ثان على يمينها .

- هناك مدخل آخر ولكنني تأخرت عليك . هل انتظرتني طويلاً ؟

- من ثلاث الى اربع دقائق فقط .

خيم السكون على المنضدة وأحسست بنظرات السيدات تنفرس في عنقي وتلتهم حنجرتي . سألتها :

- هل سنبقى هنا ؟

أجالت الفتاة بنظرها في المقهى وحركت شفيتها وقالت :

- أخشى أن تكون جميع المقاهي على هذا الشكل .

هزرت برأسي .

- ان كل المقاهي التي اعرفها اجمل من هذا المقهى . إنه مقهى الشيطان . من

الأفضل ترك المقاهي جانباً والالتجاء إلى الحانات .

أجابت :

- هل توجد حانة مفتوحة في مثل هذا الوقت ؟

- أعرف حانة هادئة جداً . هل تفضلين الهدوء ؟

- نعم في بعض الأحيان .

نظرت اليها ، ولم أعد استطيع تحديد ما تعنيه . هل هو سخرية ؟ لماذا الغضب اذا كانت هذه السخرية لا تعنيني قلت :
- إذن دعينا نذهب .

وأشرت الى النادل ، فصاح ذلك الطائر السيء الطالع بصوت عال ، وكأنه يريد تقديم فاتورة الحساب لزبونيه في القبر
- ثلاثة كؤوس كونياك ، وهذا يعني ثلاثة ماركات وثلاثون قرشاً .
استدارت الفتاة .

- ثلاثة كؤوس كونياك في ثلاث دقائق ؟ انها لسرعة مذهلة .
اجبتها :

- كأسان منهم من حساب الامس .

في تلك اللحظة نظقت لاعبة القوي وقد اغاظتها كذبتها :
- كاذب .

استدرت الى ناحيتها وانحنيت قائلاً :
- عيد ميلاد سعيد ايتها السيدات .

وخرجت مسرعاً قبل ان تصدى لي المرأة الرياضية

سألتنى الفتاة بعد ان خرجنا :

- هل تشاجرت مع احدهن ؟

- لا ولكن شكلي يثير استفزاز ربات البيوت ، وخاصة ذوات الاوضاع المادية المستقرة .
- غريب وانا ايضاً .

ضحكت وتراءت لي وكأنها من عالم آخر . من هي هذه الفتاة ؟ وكيف كانت تعيش ؟

وصلنا أخيراً إلى الحانة ، أرضي الثابتة ، كان فريدي يقف وراء البار ويغسل كؤوس الجعة الكبيرة . حيانتي وكأنه لم يرني من قبل ، متناسياً أنه حملني في الليلة الماضية التي سبقت الى بيتي على ظهره .

فريدي خريج مدرسة متقنة إلى جانب تجاربه الإنسانية الكبيرة . الحانة فارغة الا

من منضدة واحدة يجلس اليها كالمعتاد فالتين هاوَزَرُ والذي أعرفه منذ زمن الحرب ، أيام كنا نخدم في سرية واحدة .

في آخر الأيام خاطر فالتين بنفسه وعبر الخط الأمامي تحت وابل من الرصاص ، حاملاً لي رسالة ، ظنّها من والدتي . كان يعلم اني كنت أنتظر رسالة منها بعد العملية الجراحية التي اجريت لها . لكنه اخطأ ، اذ أن الرسالة لم تكن سوى دعاية لمستحضر من مادة القراص لوقاية الرأس من سقوط الشعر . اصيبت ساقه ، في طريق عودته ، بشظية وحصل بعد الحرب على ورتة ، لم يمض وقت طويل حتى اضاعها في الشرب . كان يحتفل يومياً بخروجه من الحرب ، رغم مرور اكثر من سنتين على انتهائها . حسب رأيه : لا يستطيع الانسان الاحتفال الكافي بهذا الخلاص . انه نوع فريد من البشر ، يتميز بذاكرة غريبة عن الحرب . لقد نسينا الكثير من أهوالها ، أما هو ، فكان يتذكر كل ساعة وكل يوم بتفاصيلها وبدقة عجيبة . احسست من مظهره بأنه شرب كثيراً . كان يجلس مستغرقاً مع ذاته . رفعت يدي ملوحاً وقلت :

- مرحباً ، فالتين .

رفع نظره ورد التحية .

- مرحباً روبي .

ثم جلست مع الفتاة في احدى زوايا الحانة ، وبعد برهة اتى الساقى . سألت الفتاة :

- ماذا تشربين ؟

أجابت :

- مارتيني .

- فريدي اختصاصي في هذه الأمور . سمح فريدي لنفسه ببسمة .

قلت له :

- أما انا كالمعتاد .

كان البار بارداً ومعتماً بعض الشيء ، تفوح منه رائحة العرعر والخبز والجبن والكونياك المعتق ، تتدلى من سقفه سفينة شراعية ، ويكسو الحائط خلف البار طبقة سميقة من النحاس تشع بالنور الأحمر من جراء انعكاس الاضواء الخافتة عليها . أما بنية الجدران فكانت كالخة ، تزينها مصابيح نحاسية ، غلفت بورق خاص ، رسمت عليه خرائط قديمة فتبدو الجزر والقارات من خلال الضوء كقطع صغيرة

مضائة من هذا الكون الكبير . لم يشتعل من هذه المصابيح سوى اثنين ، الأول الى جوار فالتين ، والثاني الى جوارنا .

كنت مرتبكاً بعض الشيء ، رغم الخمرة التي جرعتها ، ولم اعد أجد الطريقة المثلى للبدء في حديث مثير . لم تكن تجمعني بالفتاة أية ذكرى أو أي شيء يمكنني التحدث عنه وكان كلما ازداد نظري اليها ، ازداد شعوري بالغرابة والارتباك . ان مثل هذه الجلسات تحتاج الى مران وتجارب كثيرة . فهذه هي أول مرة أجلس فيها مع امرأة كهذه . معظم جلساتي كانت مع الرجال أو مع عاهرات المقهى .

كانت الضوضاء في المقهى السابق تزعجني ، وها أنا أضيق ذرعاً بهذا السكون المطبق هنا . في هذا السكون تكتسب كل كلمة تقال وزناً أكثر مما تستحقه . لذا لم يكن من السهل التحدث بعفوية . كم تمنيت في تلك اللحظة العودة الى ذلك المقهى الصاخب .

أتانا فريدي بالكؤوس ، وبدأ الروم في الكأس متوهجاً كالشمس . اخذت من الكأس رشفة ، كم هو منعش وقوي هذا الروم . إن الإنسان يشعر بعد مذاقه بأنه يرتكز على أرض ثابتة . أفرغت الكأس كلها وأعدتها لفريدي في الحال .

سألتها :

- هل يروق لك هذا المكان ؟

أومات برأسها موافقة .

- اليست هذه الحانة الطف من ذلك المقهى ؟

- اني امقت المقاهي .

سألتها متعجباً :

- ولكن لماذا حددت موعد اللقاء فيه ؟

أجابت وازاحت قبعتها جانباً .

- لست أدري ولكن لم يخطر في بالي شيء آخر في تلك الدقيقة .

- من حسن حظنا ، فلولا المقارنة بين المكانين ، لما اصبحت هذه الحانة جميلة في

نظرنا . اننا نرتاد هذا المكان كثيراً وفي المساء تصبح هذه الحجرة المنزل الحقيقي لنا .

ضحكت .

- ولكن اليس هذا شيئاً محزناً ؟

- كلا ، انه يلائم العصر .

جاء فريدي ومعه الكأس الثاني ، ثم وضع بجانب كأس سيجار هافانا .
- انه من السيد هاووزر .

رفع فالنتين كأسه وقال بصوت ثقيل :
- نخب ٣١ حزيران ١٩١٧ يا روبي .

وافقته بهزة رأسي ورفعت له كأس . كان من عادته ان يشرب نخب تاريخ
الحوادث التي مرت عليه . أحياناً يشرب نخب اشخاص . شرب مرة نخب القمر .
وبعدھا شرب نخب شجرة الصفصاف . ان لهذه الاشياء مدلولاتها الخاصة وتعني له
الشيء الكثير . يبدأ في شرب النخب ، ثم يزداد بالشرب ، ابتهاجاً بأنه خرج من
الحرب وبأنه ما زال حياً يرزق .

قلت للفتاة :

- انه صديقي . كنا معاً في الحرب ، فهو الانسان الوحيد الذي أعرفه والذي صنع
من تعاسة كبيرة سعادة صغيرة . انه لا يعرف ماذا يمكنه ان يبدأ بحياته ، لذا فهو
يحتفل باستمرار بقائه حياً .

نظرت الفتاة الي مفكرة من خلال انعكاس ضوء المصباح على جبهتها وفمها :
- استطيع فهم ذلك الشعور جداً .

رفعت نظري اليها متعجباً .

- ولكن كيف تشعرين بذلك وانت ما زلت صغيرة السن ؟

ابتسمت . كانت ابتسامتها طفيفة ، سابعة ، ظهرت في عينيها فقط ، لم تتغير
من خلالها تعابير وجهها ، ولكنها اضاءت هذه التعابير ، وكان نوراً داخلياً اضاء
وجھها ، اجابت :

- صغيرة على هذا ؟ لا يوجد في رأبي انسان صغير السن على هذه الأشياء ، بل

على العكس ، الانسان في الغالب اكبر من عمره . صممت برهة ثم تابعت :

- هناك الكثير من الكلام في هذا الموضوع .

اشرت الى فريدي ان يأتيني بمزيد من المشروب .

كانت الفتاة واثقة من نفسها ، صادقة ، وقد شعرت بنفسني امامها كلوح من
الخشب . كم تمنيت ان اتحدث اليها بشكل عفوي عن أي موضوع يتناسب وهذه
الجلسة . كان لينس يستطيع اثاره حديث شيق عن أي موضوع مهما كان محتواه ،
بعكسي انا . فكل حديث اتناوله يصبح شاقاً وسقيماً ولذلك صنفني لينس كمتحدث
برتبة ساع في البريد . لا شك في أنه محق بهذا التصنيف .

كم كان فريدي مصيباً حين أحضر كأساً كبيرة بدلاً من كؤوس صغيرة وبحجم الكشتبان . لقد وفر على نفسه الركض المستمر بين البار ومكاني . كان على أن أشرب الكثير للتخلص من ذلك الجو الخانق المهيمن علي . سألت الفتاة :

- هل ترغيبين في كأس مارتيني آخر ؟

- ماذا تشرب انت ؟

- روم .

تأملت الكأس ملياً .

- لقد شربت في المرة السابقة نفس النوع .

- نعم انه المشروب الذي اتناوله في الغالب .

هزت برأسها قائلة :

- لا أتصور ان مذاقه لذيد .

- لم أعد استطيع تقدير ذلك .

- ولماذا تشربه اذن ؟

- تعنين الروم ؟

قلت لها فرحاً وكأنني وجدت الشيء الذي أستطيع التحدث اليها فيه :

- شرب الروم ليس له علاقة بمذاقه . انه ليس مشروباً عادياً ، فهو صديق يسهّل

كل الامور ويبدد كل تعقيدات هذا العالم .

وضعت الكأس جانباً :

- ولكن ، هل لي أن اطلب لك كأساً آخر من المارتيني ؟

- الافضل كأساً من الروم ، كم أود ان أجربه .

- حسناً ، ولكن ليس كالذي أشربه فهو قوي جداً للمبتدئين امثالك .

قلت لفريدي :

- من فضلك بكاردي - كوكتيل .

جائنا بكأسين ، واحضر معها طبقين صغيرين من الفستق وحب القهوة

المحمص .

قلت له :

- من الأفضل ان تبقى الزجاجاة هنا .

تدريجياً بدأت الاشياء تزهو . استعدت الثقة بنفسى بعد فقدانها . وأخذت

الكلمات تخرج بالسليقة . لم أعد احاسب نفسي على كل كلمة اقولها . شربت المزيد ، ورحت اشعر بموجة عارمة ، ناعمة تحملني في ساعات الغروب الى قطار غني بالاحلام ، متمرداً على كل صور الايام المملة ، تباعدت جدران الحانة ، واتسع المكان . لم تعد زاوية صغيرة تأوى اليها كملاذ من العالم ، أو نجياً نصف معتم ، تحيطه معارك كبرى من الفوضى الخارجية لنجلس فيه ونحتمي من شرارات هذه المعارك ، بل اصبحت ميداناً لأمال المستقبل المشرقة .

حملتنا الريح ، لتقارب بيننا عبر غسق الزمان .

جلست الفتاة متكورة على كرسيها ، غريبة وغامضة ، كأنها بعثت من عالم آخر . رحت احاورها بكلام غامض ولكنني لم اشعر انني المتكلم ، بل شخص آخر . كم تمنيت ان اكونه .

لم تعد الكلمات تخرج كما عليها ان تخرج بل اخذت تتراحم لتخرج لعالم مزدحم بالاماكن الزهرة ، أضفت على تجاربي الصغيرة في الحياة لونا زاهياً . شعرت بأن الكلمات لم تعد تتصل بواقعي المؤلم بل اصبحت جزءاً من الخيال ، والكذب والتمني . لم تعد الأمور لتهمني ، بل بدت لي سيان . الحقيقة بطبعها مرة ويائسة ، فقط الشعور بزهوة الأحلام ، هو الحياة عينها .

في حوض الحانة النحاسي يتوهج الضوء ، بيننا فالتين يرفع كأسه مدمماً بين الحين والحين تواريخ الحرب . زعيق أصوات السيارات العابرة تصل الينا من آن لآخر كصيححات النسور . يعلو صراخها عندما يفتح احدهم الباب لتصبح كزعيق عجوز حانقة .

أوصلت باتريس الى بيتها وقد حل الظلام . رجعت ببطء وفجأة شعرت بالوحدة الفارغة تخيم علي . بدأ رذاذ من المطر يدغدغ وجهي . وقفت أمام واجهة أحد المتاجر . يا للجنة : لقد شربت كثيراً ، وهذا ما اشعر به الان . صحيح اني لم أترنح بعد ، ولكنني شعرت بأثر المشروب في رأسي . كأنه حجر متوهج . فككت ازرار معظفي ، وازحت قبعتي الى الوراء . يا للجنة . لقد تملكني هذا اللعين مرة اخرى . أه لو ادري بما نطقك به قبل قليل . لم اجرؤ على التفكير بجديد ، ولم أعد اعرف شيئاً بالتفصيل عما تكلمته ، وهذه هي الكارثة هنا ، وعلى قارعة الطريق ، حيث تسود السيارات بأنواعها المزججة ، بدت الامور على غير ما كانت عليه في تلك الحانة المعتمة . لعنت نفسي ، لا بد وان الفتاة كونت عني صورة خاطئة . لا شك انها لاحظت كل شيء ، فهي لم تشرب الا القليل . هذا يبرر نظرتها الغريبة لي عند

الوداع . يا الهي . ورجعت الى الخلف واذ بي اصطدم برجل قصير بدین . صحت به غاضباً :

- ما هذا ؟

صاح بي .

- افتح عينيك جيداً ايها التيس العنيد .

حملت به ، فتابع بوقاحة :

- الم تر في حياتك الكثير من البشر ؟

أجبتة بنزق :

- رأيت بشراً ، ولكنها المرة الأولى التي أرى فيها براميل جعة تتمخطر على

الشارع .

لم يتوقف ذلك البدین للتفكير ولا حتى لثانية ، تسمر في مكانه وانتفخ قائلاً :

- هل تعلم ؟ اذهب الى حديقة الحيوانات ، لا مكان للكنجر الحاملة على هذا

الرصيف .

تبينت ان هذا الرجل شتام من الطراز الأول ، ولكن كان علي المحافظة على

كرامتي رغم كل ذلك التشاؤم الذي كان يغلفني اجبته :

- اكمل مشوارك يا ابن السبعة اشهر .

ثم رفعت يدي كمن يريد منح البركة . لم ينتبه الى اصراري على منازلته وتابع :

- دعهم يفرغون البطن في دماغك يا وجه القرد المتجعّد .

اسبغت عليه لقب الأرجل المسطّة ، فمحنني لقب حفار القبور العاطل عن

العمل . رد علي وبكثير من الاحترام بلقب رأس بقرة مسرطنة . حاولت الانتهاء من

هذه المبارزة الكلامية بتشبيهه بمقبرة شرائح لحم متقلّة . في الحال تبدلت ملامح

وجهه :

- مقبرة شرائح اللحم . تعبير جيد ، علي ان اضيفه الى مجموعة شتامي .. علي

اي حال .

ثم رفع قبعته مودعاً . وهكذا افترقنا بكامل مظاهر الاحترام .

انعشني الشتم ، لكن الغضب بقي في داخلي ، لا بل ازداد بازدياد صحوتي . لم

أعد حانقاً على نفسي فقط ، بل اصبحت حانقاً على كل شيء من حولي ، وعلى الفتاة

ايضاً ، فهي السبب في سكري ، رفعت ياقتي . لتفكر ما طاب لها ، لم تعد الامور

تهمني . ان هذا يساعدها في تحديد موقفها تجاهي منذ البداية . لتذهب الى
الجحيم . . الامور التي حصلت الليلة ، اصبحت واقعا يستحيل تغييره . ربما كان
من الافضل حدوث ذلك . . رجعت الى الحانة ، وشربت حتى الثمالة .

- ٤ -

اصبح الطقس دافئاً ، ورطباً . امطرت السماء ، ولأيام عدة بعدها انقشع الغيم ، وبدأت الشمس في الغليان ، ذهبت صباح يوم الجمعة الى الورشة ، وهناك شاهدت ماتيلدا شتوس تقف في الفناء ، متأبطة المكنسة تحت ذراعها ووجهها كوجه فرس النهر المتأثر . بادرتني بالقول :

- انظر يا سيد لوكامب الى هذه العظمة . كم هناك من عجائب .

وقفت منذهلاً ، وقد أزهرت شجرة الخوخ الهرمة ، القائمة بجانب مضخة البنزين خلال الليلة الفائتة . في الشتاء المنصرم كانت تقف جرداء ، عارية . كنا نعلق على أغصانها الاطارات البالية ونجمع تحتها الصفائح . لم تكن الشجرة سوى ركيزة مريجة لاشياء مختلفة ، للماسح وأغطية الموتورات . وحتى قبل عدة ايام كانت ثياب العمل ، الكتانية الزرقاء ، معلقة عليها . بالامس لم نلاحظ شيئاً ، وها هي ، وفجأة ، قد تبدلت الى غيمة مشعة بالوان الزهر الابيض ، غيمة زهر ساطع وكأنها أسراب من الفراشات ، وقد حطت بفناء ورشتنا القذر . قالت ماتيلدا متأثرة ، ويعيون نصف مغمضة :

- ان رائحتها جميلة كرائحة الروم

- لم اشم اية رائحة ، ولكنني فهمت ما كانت ترمي اليه .

اجبتها :

- ان رائحتها بلا شك ، تشبه رائحة الكونياك المعد للزبائن .

ثم فكرت : لا بد وانها قد ابتلعت الزجاجاة المعدة لضيوف الورشة .

عارضت بحدة :

- يا سيد لوكامب ، أنت بالتأكيد مصاب بالزكام او ربما تشكو من زوائد انفية .

اكثر البشر يشكون من هذه الزوائد ، ان شتوس العجوز ، تمتلك انفا كانف كلب الصيد ، صدقها فهذه الرائحة هي رائحة الشجرة وليست زجاجة الكونياك .

- ليكن ما ترتأين يا ماتيلدا .

سكنت لها كأساً من الروم ثم اتجهت الى مضخة البنزين حيث كان يجلس يوب ،
واضعاً بعض الاغصان المزهرة في علبة صدئة .

سألته متعجباً :

- ماذا تفعل بهذه الاغصان ؟

- انها للسيدات فقط ، فحين يرون للتزود بالوقود ، اعطيهن غصناً مزهراً
مجاناً ، بهذه الطريقة بعث قبل قليل تسعين ليراً اكثر من العادة . ان هذه الشجرة
تساوي ذهباً يا سيد لوكامب . لو لم تكن لدينا هذه الشجرة لكان علينا وضع شجرة
صناعية مطابقة لها .

- حسناً يا يوب . ها انت اصبحت ذا عقل تجاري بارع .

ضحك ، بينما اضاءت اشعة الشمس اذنيه المنتصبين فبدت وكأنها نوافذ كنيسة
بلون الياقوت .

تابع حديثه :

- لقد اخذت لي صورتين فوتوغرافيتين هذا الصباح وامام شجرة الخوخ هذه .
- انتبه لنفسك جيداً يا يوب . ستصبح نجماً مشهوراً . استدرت الى لينس ،
القابع في الحفرة ، يعمل على اصلاح اسفل الفورد

قال لي :

- روبي . لقد تذكرت شيئاً . . . الا تظن ان علينا ان نهتم بفتاة بيندينغ ؟

حملقت به ثم سألته :

- ماذا تعني بقولك هذا ؟

- اعني الشيء الذي تفوهت به . ولكن لماذا تحملق بي هكذا ؟

- انني لا احملق بك

- بلى ، انك تحملق كالثور الهائج . ما اسم الفتاة ؟

- بات . . . على ما اعتقد . ولكن ما اسم كنيتهما ؟

- لا اعرف .

نهض لينس وقال :

- كيف لا تعرف ذلك ، وانت الوحيد الذي دون عنوانها رايتك بام عيني تفعل

ذلك .

- صحيح ولكنني اضعت الورقة .

- اضعتها ؟

ثم شد شعره الاشقر بيده .

- اضعتها هكذا؟ ومن اجننها امضيت انا ساعة كاملة مع بيندينغ في الخارج ،
معطياً لك الفرصة لتحصل على عنوانها . دعنا نسأل كوستر ، ربما استطاع هو معرفة
عنوانها .
- كوستر لا يعرف ايضاً .

نظر الي بحتق :

- ايها الخبير التعميس . الم تلحظكم هي فتاة رائعة؟ يا الهي . ونظر الى السماء ثم
تابع :

- اخيراً التقيت فتاة رائعة ، وها انت ايها المزمار الحزين تضيع عنوانها .

- لم اجدها رائعة لهذا الحد الذي تتكلم عنه .

- لانك حمار ، اعمى القلب . لا تستطيع ان ترتقي بدوقك عن عاهرات مقهى
الانترناسيونال . يا عازف البيانوات انت . اقوها لك مرة ثانية : لقد كانت
الفتاة رمية حظ ومن نوع خاص . يا الهي . هذه الفتاة . انت بالطبع لا تفقه في هذه
الامور . هل نظرت الى عينيها؟ بالطبع لا . فأنت دائم الحملقة في كأسك .
- اصمت .

قاطعت حانقاً ، فبمجرد ذكره الكأس أصابني في جرح عميق لم يلتئم بعد .
لكنه كعادته تابع حديثه غير عابىء بما اعانيه
- يداها . الم تلحظهما؟ نحيلتان ، طويلتان ، وكأنهما ايدي جارية مولدة يا
عزيزي . جوتفريد يرى هذه الامور وما عليك الا ان تصدقه . ايتها الالهة . واخيراً
تلتقي فتاة كما يجب ان تكون ، جميلة ، طبيعية ، والاهم من هذا كله : ذات مناخ
خاص .

- المناخ . هل تعرف ما هو المناخ الشخصي؟

اوضحت له بحتق :

- انه الهواء الذي ننفخه في الاطارات .

- بالطبع

قالها ساخراً مني ومشفقاً علي .

- هواء بالطبع . المناخ الانساني هو يا صاحبي : شعاع ، دفء ، سرخفي يجي
الجمال ويعطيه رومانسية . . ولكن ما بالي احدثك بكل هذا ، فمناخك الوحيد هو
ضبابية الروم .

اجبته غاضباً :

- اصمت والا حطمت هذه الأشياء على جمجمتك .

استرسل جوتفريد في الحديث وانا بدوري لم اتعرض له . لم يكن ليعلم ماذا حدث بين الفتاة وبينني ، وبان كل كلمة يتفوه بها تصيبني في الصميم ، خاصة الكلمات المتعلقة بالشرب . كنت في الآونة الاخيرة قد تخلصت من هذه الفوضى الداخلية ، وها هو بكلامه ، يعيدها الى فوضى عارمة . امتدح الفتاة واسترسل في مديحتها ، حتى اصبحت موقناً بانها فرصة نادرة لن تتكرر .

ذهبت في تمام الساعة السادسة مساء ، غاضباً الى مقهى الانترنتاسيونال . فهذا المكان هو ملاذي الوحيد ، كما ذكر لينس . وجدت ، ولدهشتي الكبيرة ، الحانة تضحج بالحركة على غير عاداتها في مثل ذلك الوقت . اصطفت على البار عدة اطباق من الحلوى ، وراح ألوى يهرول بقدميه المسطحيتين الى الغرفة الخلفية ، حاملاً طبقاً مليئاً بفناجين من القهوة . توقفت لحظة للتأكد من انني لم اخطيء المكان ، ادرك صاحب الحانة تساؤلي ، لافتاً نظري الى احتفال في الغرفة الخلفية ، اقيم خصيصاً لوداع ليلي صديقة روزا .

ضربت يدي على جبينني ، لقد نسيت الدعوة . كنت الرجل الوحيد المدعو لهذا الاحتفال ، كما قالت روزا ، فكيكي اللوطي (المتخنث) ، لم يكن محسوباً مع الرجال . خرجت مسرعاً لاحضر بعض الهدايا ، باقة ورد واناثاس ، دمية اطفال ولوح من الشوكولا .

استقبلتني روزا بابتسامة سيدة وقورة ، مرتدية ثوباً اسود واسع الطوق ، وقد تصدرت المائدة باسنانها الذهبية اللامعة . استفسرت عن صغيرتها ، مقدماً لها الدمية ولوح الشوكولا . انفرجت اساريرها . بعدها قدمت باقة الورد لليلي مع الاناناس قائلاً :

- تمنياتي القلبية لك .

علقت روزا :

- انه فارس يا عزيزتي ، وسيبقى دائماً هكذا ، تعال يا روبي واجلس الينا .

كانت ليلي صديقة روزا ، من اكثر العاهرات حظوة ، واكثرهن شهرة . وكانت عرضة لحسد عدد كبير من العاهرات الصغيرات . لم تكن كعاهرات الطريق ، بل كان لها غرفة مريحة بفندق يقصدها الطالب فتليبه . معظم العاهرات لا يصلن الى هذه المرتبة الجيدة لأنهن لا يمتلكن الثياب ، وبالتالي المال الكافي للحصول على غرفة

كفرقتها . كانت ليلى تقيم غالباً في فنادق شبه ريفية ، صغيرة ، ولقد استطاعت عن طريق عمل دوّوب توفير ما يقارب الاربعة الاف مارك . ها هي مقدمة على الزواج الآن وزوجها المستقبلي ، يمتلك متجراً للادوات القتالة ، ويعرف كل شيء عن ماضيها . انه ينظر الى هذه الامور بغير اكرثاث مقنعاً ذاته بانه عندما يتزوج الانسان بامرأة من هذا النوع يكون هانىء البال في المستقبل ، لان التزامهن بالحياة الزوجية يكون التزاماً مطلقاً ، فالاشباع الجنسي الذي حصلن عليه ، يجعلهن وفيات لازواجهن والى الابد .

ستزوج ليلى نهار الاثنين . لذا اقامت لها روزا احتفالاً لوداعها . قهوة وحلوى . حضر الجميع ليكونوا مع ليلى وللمرة الاخيرة . فعند زواجها سيحظر عليها المجيء الى هنا . صبت لي روزا فنجاناً من القهوة . في تلك اللحظة دخل آلوى يحمل كعكة كبيرة ، مزينة بالزبيب واللوز والشوكولا . وضعت لي في الصحن قطعة كبيرة منها . كنت اعرف ما يجب علي القيام به في مثل هذا الوقت . كمدرّك لهذه الامور ، تذوقت قطعة صغيرة ثم قمت بحركة تعجب كبيرة .
- يا للساء . لا يمكن لهذه الكعكة ان تكون قد ابتيعت من متجر .
- انها من صنع يدي .

قالتها روزا بفرح ، فهي طباحة ماهرة ، تسعد لسماح مديح في هذا الاتجاه ، لم تفقد روزا شيئاً من أصالتها ، فهي تنحدر من أصل بوهمي . نظرت حولي ، جميعهن جالسات حول المائدة العاملات في كروم الله ، عارضات الطبيعة البشرية بصدق ، جنود الحب : فالي ، الجميلة التي سرق شالها الابيض من فراء الذئب ، اثناء قيامها باحدى دورياتها الليلية ، وتبرز لينا ، برجلها الخشبية ، والتي كانت بالرغم من ذلك ما تزال تجذب بعض الزبائن . فريتسي المسكينة ، تحب آلوى ، ولو تحررت من هذا الحب لاصبح لها صديقاً دائماً وبيتاً . مارجو ، بوجتيتها الحمراءوين ترتدي ثياب الخادّامات وتلتقط زبائن لا بأس بهم . ماريون ، اصغرهن سناً . واكثرهن حيوية ، لا تقيم اعتباراً لأي شيء . كيكي ، الرجل الذي لا يمكن تصنيفه كرجل ، يرتدي ثياباً نسائية ، ويضع على وجهه طبقة سميقة من المساحيق . ميمي ، العجوز التي تجاوز عمرها الخامسة والاربعين عاماً اصبح العمل ، وخاصة الوقوف لساعات طوال على الرصيف مشقة كبرى بالنسبة لها لكثرة الدوالي المنتفخة في رجليها .

جلس الى الطاولة كثير من السيدات والفتيات لا اعرف اسمائهن . واخيراً وكضيفة شرف ثانية ، كانت تجلس الام ، كما يسمونها ، صغيرة الحجم ، ومتغضنة

الاسارير ، رمادية كتفاح الشتاء ، صديقة الجميع ، والعصا التي يتعكز عليها العابرون ليلاً .

كانت للام عدة وظائف : فهي بالاضافة لعملها كقوادة تبيع السجق والسجائر المهربة والمستحضرات المطاطية . تراها وراء قدرها الممتلئ بالسجق والمحمول على عربة في شارع نيوكلاي في كل مكان وفي كل ليلة . لم تلفظ في هذه الجلسة اية كلمة نابية ولا اية كلمة تتعلق بالعمل ، فلم تذكر انجازات روزا الملقبة بالحصان الحديدي ، ولا محادثات فريتيشي والعاشق رئيس اتحاد تجار الماشية عن الحب ، متناسية كذلك رقصات كيكي الصباحية حول سلة الخبز . كان الحديث اليوم وكأنه يجري بين أرقى سيدات الصالونات المحترمات .

سألت :

- هل اعددت كل شيء يا ليلي ؟

اومات بالايجاب .

- جهاز العروس عندي منذ مدة طويلة

قالت روزا :

- جهاز عرسها رائع ، لا ينقصه شيء ، حتى ولا اغطية الصغيرة المطرزة .

سألت :

- ولماذا تستعمل هذه الاغطية المطرزة ؟

- الا تعرف حقاً يا روبي ؟

نظرت الى روزا بلوم وعتب ، الامر الذي جعلني اترجع واعترف بانني عدت وتذكرت لماذا تستعمل هذه الاغطية .. اغطية مطرزة ، اغطية دافئة للثلاث ومصنوعة من الصوف ، ترمز للحياة الهادئة ، الرمز المقدس للزواج ، الفردوس المفقود . لم يصبح جميعهن عاهرات بحكم الشبق الجنسي ، بل نتيجة الفشل الذريع في البحث عن اللقمة الشريفة في هذا المجتمع البرجوازي ، الذي لا يرحم . كن بلا شك يحلمن كبقية الفتيات بفراش الزوجية الدافئ وليس بفراش العهر رغم عدم اقرارهن بذلك .

جلست الى البيانو تمشياً مع مطالب روزا ، فهي تحب الموسيقى كبقية هؤلاء الفتيات . عزفت للوداع جميع أغانيها وأغاني ليلي المحببة . المقطوعة الاولى « صلاة عذراء » والتي لم يكن عنوانها يتلائم مع ذلك الجو ، لكنها قطعة مليئة بالحركة . ثم

عزفت مقطوعات « العصفور الليلي » ، « توهج الالب » ، « عندما يموت الحب » ،
« ملايين المهرج » واخيراً « كم اتمنى العودة الى الوطن » .

روزا تحب هذه المقطوعة بشكل خاص ، فالعاهرات اقصى واراق انواع البشر في
آن واحد . ردد الجميع هذه الاغنية . حتى كيكى شارك في الغناء بحيوية غريبة .
نهضت ليلى لتلحق بعريسها . قبلتها روزا بحرارة .
- اتمنى لك التوفيق يا عزيزتي ليلى ، لا تدعي الحياة تحطمك .

غادرتنا محملة بالهدايا الكثيرة . خسىء الجلاد ، فلقد تغيرت ملامح وجهها
واكتسبت نضارة غير التي رسمها على عيها. فالخطوط الحادة في وجهها والتي كانت
تزداد مع كل حقارة بشرية ترتكب بحقها ، اختفت ليحل مكانها وجه اكثر لدانة
وحيوية واتزاناً ، كوجه فتاة شابة .

وقفنا جميعاً على الباب نودعها ، ملوحين . بدأت ميمي تنتحب . ربما تذكرت
انها كانت في يوم من الايام ، متزوجة ، توفي زوجها على اثر التهاب رئوي بعد
الحرب . لو سقط في الحرب لكانت قد حصلت على معاش تقاعدي يكفيها مذلة
العمل في الشارع .

- لا تستسلمي للعواطف يا ميمي . هيا ندخل لناخذ فنجاناً من القهوة .

عادت المجموعة الى الانترنتسيونال المعتم وكأنها سرب دجاج يدخل حمة .

لم يعد لطيفاً كما كان عليه قبل قليل .

خاطبتني روزا:

- اعزف لنا شيئاً يا روبي . اي مقطوعة تحسن من مزاجنا

- ليكن ما تريدين . ما رأيكم باناشيد الرفاق ؟

ودعتهم بعد انتهاء العزف ، وقد حملتني روزا كيساً صغيراً ممتلئاً بالكعك الذي
قدمته بدوري لاپن الأم الذي كان يعد السجق للسءاء . فكرت وانا خارج بما سأقوم
به .

لم ارغب في العودة الى الحانة ، ولا في الذهاب الى السينما. اذن لم يبق لي سوى
الورشة . نظرت الى الساعة بامعان واذا بها الثامنة . لا بد وان كوستر قد عاد ، ولا
يستطيع لينس التحدث لساعات عن الفتاة . ذهبت الى هناك ووجدت المكتب
والورشة مضامين بمصاييح كثيرة وكوستر يعمل وحده . سألت :
- ما هذا الذي تفعله الآن ؟ هل بعث الكاديلاك ؟

ضحك كوستر :

- كلا ، ولكن لينس اصر على تزيين الورشة بهذا الشكل .

كانت مصابيح سيارة الكاديلاك مضاءة ، تبهر النظر بقوتها فتبدو شجرة الخوخ المزهرة من خلال انعكاس الضوء المسلط عليها ، بيضاء ، ناصعة وكأنها رشيت بالطباشير . وخلفها يقبع الظلام الدامس كبحر أسود . قلت :

- عظيم ما فعله ، ولكن اين هو الآن ؟

- ذهب لبيتنا طعاماً للعشاء .

- فكرة جيدة ، فانا اشعر ببعض الجوع .

هز كوستر برأسه موافقاً .

- الاكل مزية جيدة . اما انا فقد قمت اليوم بعمل جدي ، مثل المحاربين القدامى . سجلت كارل في سبق السيارات القادم .

- ماذا ؟ اتقصد السبق ، الذي سيقام في السادس من هذا الشهر ؟

اوأ موافقاً .

ولكن يا كوستر انت تعلم انه سيشارك في هذا السباق عدد كبير من المدافع الثقيلة .

- سجلته وانتهى الامر .

رفعت اكمام قميصي لأبشر بالعمل .

- اذا كان الأمر هكذا ، فدعنا نقوم أولاً بعمل حمام زيت لحببنا كارل .

- توقفوا - صاح الرومانسي الاخير ، قادماً لتوه من الخارج - تناولوا طعام العشاء أولاً .

اخرج الطعام : خبز ، جبن ، سجق ولحم مدخن .. جرعنا بعض الجعة الباردة ، والتهمنا الطعام بشهية وكأننا كتيبة بكاملها حرمت من الطعام لعدة ايام . عدنا بعدها نعمل بجهد في أحشاء كارل ولمدة ساعتين . ملأنا جوفه بالزيت وراقبنا جميع أعضائه . استدار لينس وقال بارتياح :

- احضر الزجاجات يا روبي ودعنا نحتفل بعيد هذه الشجرة المزهرة .

ذهبت واحضرت زجاجة الكونياك . مع قدحين .

- وانت ؟

- لن اشرب شيئاً .

- ماذا ؟ ما خطبك ؟

- لم يعد مزاجي يتحمل حالة السكر المستمرة هذه .

تألمني لينس فترة ، ثم خاطب كوستر :

- لقد اصيب طفلنا الحبيب بلوثة على ما اعتقد .

- دعه يا لينس إذا كان لا يرغب في ذلك .

ملاً لينس كأسه .

- نخب طفلنا الذي اصيب بالجنون .

ثم افرغ كأسه . ظهر القمر ، كبيراً ، أحمر من خلف سطح المصنع المقابل .
جلسنا صامتين فترة نظرت اليه . بعدها استهلينا الحديث :

- قل لي يا جوتفريد . انك ماهر في امور الحب . . أليس كذلك ؟

- خبير ؟ انني المعلم الأول في هذه الامور .

أجاب لينس بترفع :

- حسناً اريدك ان توضح لي امراً : هل يشعر المحب دائماً تلبداً في ذهنه . ؟

- وكيف ذلك ؟ اوضح لي .

- هل المحب يتصرف وكأنه نمل ، يثرثر ويتكلم بأشياء لا معنى لها . . يخادع .

انفجر لينس ضاحكاً :

- لكن يا طفلي الحبيب ، الا تعلم بعد ان الحب خداع بحد ذاته ؟ انه خداع رائع
فرضته علينا الأم الأولى (الطبيعة) . أنظر إلى شجرة الخوخ هذه . انها تخدعنا
الان ، فهي تبدو أجمل بكثير مما تكون عليه بعد فترة . كم سيكون الأمر قبيحاً لو كان
للحب علاقة بالواقع . حمداً لله ان علماء الأخلاق لم يخضعوا هذه الامور
لنظرياتهم .

- هل تعني ان في غياب الخداع تفقد هذه الامور أهميتها ؟

- بالتأكيد لا . . ايها الطفل .

- ولكن في بعض الأحيان يورط المرء نفسه من جراء ذلك في مواقف مخزية .

ضحك لينس :

- ايها الصبي ! انتبه لما سأقوله لك : لن تبدو مضحكاً بنظر امرأة ما دمت تقوم
بعمل شيء من أجلها ، حتى ولو قمت باسخف المسرحيات . قف على رأسك ،
تكلم بأكثر الامور سخفاً ، تبجح كالطاووس ، ردد الأغاني تحت نافذتها ، ولكن
حاذر شيئاً واحداً : لا تكن صادقاً وعاقلاً في علاقتك معها .

شعرت بالحياة وقد عادت إليّ . ثم خاطبت كوستر :
- ما رأيك في هذا كله يا أوتو؟

ضحك كوستر :
- انها الحقيقة يا روبرت .

نهض واغلق غطاء محرك كارل بينما احضرت زجاجة الروم مع الكاس ووضعتها على المائدة . ادار أوتو محرك السيارة ، فخرج صوت المحرك متزناً وعميقاً . رفع لينس رجليه ووضعها على حافة النافذة محملاً في البعيد . جلست الى جانبه وقلت :

- هل سكرت مرة وأنت تجالس امرأة؟

قال بدون حراك .

- كثيراً .

- وماذا؟

- تقصد ان المرء قد يتصرف تصرفاً خاطئاً . اليس كذلك؟ إياك الاعتذار يا طفلي وإياك التعرض للموضوع مرة ثانية . إبعث لها بياقة من الورد ، وبدون رسالة . فالورد يغطي كل شيء ، حتى المقابر .

نظرت اليه ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، في حين أخذت تلتمع عيناه نتيجة انعكاس النور الآتي من الخارج . كان محرك كارل ما زال يملأ الورشة ضجيجاً حانقاً متقطعاً ، يهز الارض تحت اقدامنا .

فتحت الزجاجاة قائلاً :

- سأشرب بعض الشيء .

أوقف كوستر المحرك ثم استدار الي :

- القمر يضيء الليلة وبامكاننا ان نرى الكاس . اطفئ هذه الأضواء الكثيرة يا جوتفريد ، ولا تنس ضوء الفورد ، فهي تذكرني بالاضواء الكاشفة في الحرب .

وافق لينس بإيماءة رأس واستدرك :

- انه يبعث في الذكرى نفسها ، ولكن مالنا ولهذا كله .

تسلق القمر برج السماء واصبح فوق سطح الورشة مباشرة ، وقد بدا أكثر إشعاعاً كفانوس من الورق علق على أحد أغصان شجرة الخوخ .

بعد فترة صمت عاد لينس للحديث :

- غريب . . ؟ لماذا تنصب التماثيل لأناس عدة ولا تنصب للقمر او للشجرة
المزهرة ؟

ذهبت إلى البيت مبكراً ، وما لبثت ان فتحت باب الدهليز حتى تراقص الى
مسمعي صوت موسيقي . لا بد انه حاكي السكرتيرة ايرنا بونينغ . كان ينبعث منه
صوت امرأة تغني برقة اعقتها وصله قصيرة لعزف منفرد على الكمان ، ثم عاد
الصوت مرة ثانية لامعاً ، رقيقاً يضحج بالسعادة . وقفت وأصغيت ، محاولاً فهم
الكلمات ، لكنني لم أستطع حيث يمتزج في ذلك الدهليز المعتم صوت الحاكي مع
صوت ماكينة السيدة بندر واصوات حقائب العائلة هاسه . نظرت الى رأس
الوعل المحنط فوق باب المطبخ وسمعت فريدا وهي تغسل الاطباق .

« كيف استطعت العيش بدونك » غناها الصوت المنساب من باب ايرنا ، هزرت
منكبي ، وتابعت الطريق الى غرفتي . وبعد لحظات فقط بدأ الشجار الحامي في
الغرفة المجاورة ، ولم تمض دقائق معدودات حتى قرع باب غرفتي ودخل هاسه
متعباً .

- هل ازعجك ؟

- بالطبع لا . هل تريد كأساً ؟

- الافضل لا ، ولكنني أريد الجلوس قليلاً .

حملق بتبلد ثم قال :

- كم احسك على حياتك . فانت تعيش بمفردك .

- دعك من هذه الأقوال . هل تظنني سعيداً بحياتي هذه . ليس من السهل ان

تقبع وحيداً دائماً . صدقتني .

- لقد تصورت الحياة على غير هذا الشكل .

- هذا ما ظنناه جميعاً يوماً .

عاد هاسه بعد نصف ساعة الى غرفته ليتصالح مع زوجته ، أعطيته عدة
صحف ، زجاجة نصف ممتلئة ببنبيذ حلو المذاق ، لم أكن يوماً لأشربه ، ولكنه كاف
له . فهو لا يفقه بالشراب شيئاً . بهدوء وقف وكظلم خرج وكأنه لم يكن هنا
ابداً . أغلقت الباب خلفه بينما كانت الموسيقى تنساب في الدهليز كمنديل حريري
تلامس اسماعنا بصوت تلك المغنية التي اخذت تردد ثانية « كيف استطعت العيش
بدونك »

جلست قرب النافذة انظر الى المقبرة ، نائمة في ضوء القمر الازرق . كانت

اضواء إعلانات المتاجر تتسلق اشجارها بينما اخذت احجار القبور المرمرية تشع وكأنها خارجة من الظلام. كل شيء يسوده صمت بلا خوف . السيارات تمر بجانبها ناعقة بينما أخذت اضواؤها تضيء ، بين الحين والآخر الكلمات المحفورة على تلك الحجارة المرمرية . جلست هكذا مدة طويلة أفكر في أمور عدة .

عاودتني ذكريات فترة رجوعنا من الحرب شباباً بلا أمل ، مثل عمال المناجم العائدين من منجم متصدع . صمنا على السير في الحياة متفادين الكذب ، رياء الانا ، الطمع ، ضمور القلب والعاطفة ، حاقدين بكل أعماقنا على الذين تسببوا بمعاناتنا فخورين برفاقنا الذين لم يندعونا أبداً ، أوفياء لهم وأوفياء للسماء ، للتبغ ، للشجر ، للخير والأرض .

ولكن ماذا كانت حصيلة ذلك ، وبعد سنتين من انتهاء الحرب ؟ ماذا حل بإيماننا ؟ لقد تصدعت وانهارت أحلامنا ، نسينا المحن واهوال الحرب ، ومن لم ينس منا ، كان نصيبه الضياع واليأس والكحول ، لقد ولت أزمنة الرجال العظام ، وأحلام الشباب المثالية ، وانتصر الفساد والفقر والزيف .

« انك تعيش بمفردك . ان وضعك جيد » . هكذا قال لي هاسه قبل قليل . كلام جميل . صحيح انه لا يوجد انسان وحيد في هذا العالم . فالجميع لهم أصدقاء ومعارف . هذا في النهار ، أما في الليل فتنهشم هذه القشرة الصناعية وتتحول الحياة الى نغم سريع ، حزين ، الى شلال من الحنين الجامح ، شهوة ، يأس . كم أتمنى الخروج من هذا الدهول ، من هذه المأساة الأبدية إلى أي مكان . آه ، كم يشغلني هذا الاحتياج لقليل من الدفء ، لوجه عطوف ويد حنون ، ربما كانت هذه الأحلام خداعاً ، أو تنازلاً أو هروباً . لكن هل توجد سعادة أخرى غير الوحدة ؟

اغلقت النافذة . كلا ، لا يوجد شيء آخر فبالوحدة تشعر بصلاية الارض تحت اقدامك .

في الصباح التالي ، استيقظت باكراً وقرعت باب أحد أصحاب محلات بيع الورد لأبتاع باقة كبيرة طلبت ارسالها إلى العنوان المدون على البطاقة الصغيرة :

باتريس هولمان .

في ذلك اليوم ، ذهب كوستر إلى دائرة المالية مرتدياً أقدم بزة عنده ، محاولاً بذلك لفت الانظار الى وضعه المادي التعس ، كي يخفف نسبة الضريبة عليه ، بينما بقيت انا مع لينس في الورشة .

- هيا يا جوتفريد لنعمل على تجهيز تلك الكاديلاك الفاخرة .

- نشر إعلاننا في صحيفة الأمس ، ونحن نتوقع اليوم هجوم الزبائن . هذا اذا جاء احدهم .

باشرنا في تلميع الطلاء وإعداد السيارة بشكل جيد . ملأنا المحرك بأحسن وأثقل أنواع الزيوت ، حتى لا تصدر عن المكابس فيه أصوات عالية عند الاستعمال . ثم خرجنا بالسيارة لنجربها في شارع سيم مزروع بالحفر . ورغم أن سرعتنا لم تتجاوز الخمسين كيلو متراً فقد علا ضجيج المحرك وزقزقة الهيكل . أفرغنا العجلات من ربيع الهواء المضغوط وأعدنا التجربة . تحسن الوضع ، ومن ثم أفرغنا ربعاً آخر ولم نعد نسمع شيئاً .

عدنا الى الورشة ، زيتنا غطاء المحرك ، ووضعنا بينه عازلاً مطاطياً . عبأنا ماءً ساخناً في جهاز التبريد ليشغل المحرك بسرعة عند الاشتعال . ثم رششنا أسفل السيارة بالنفط حتى يلمع . رفع لينس يده الى السماء :

- والآن تقدم ايها الزبون المبارك ، تعال يا صاحب المحفظة المتخمة فنحن ننتظرك كما ينتظر العريس عروسه ليلة الزفاف . ولكن العروس كعادتها يطول انتظارها .

لذا عدنا الى سيارة الخباز وبدأنا في تجليس المحور الأمامي . عملنا لعدة ساعات ويدون أن نتكلم . بعدها سمعنا يوب يدندن نغم أغنية « أسمع من هو القادم من الخارج » .

خرجت من الحفرة ونظرت من النافذة واذا برجل قصير ضامر يحوم حول الكاديلاك . شكله يوحي بأنه ميسور الحال ومستقيم .

همست :

- انظر هناك يا جوتفريد . هل تظن انها العروس المرتقبة ؟
- بالطبع ، أنظر الى وجهه ، تعابيره تدل على التصميم .
- هيا أخرج اليه وسأبقى أنا هنا كبديل ، أوافيك حين تخفق في أتمام الصفقة ولا تنس خيدعي .
- حسناً .

خرجت هاشأً . نظر إلى الرجل من خلال عينيّن سوداوين ذكيتين عرفته بنفسي .
- لوكامب .
- بلومنتال .

كانت هذه خديعة جوتفريد الأولى ، حيث يقول : بعد التعريف بالاسم ، يكتسب نوعاً من الود الشخصي . اما خدعته الثانية فكانت الصمت ، وسماع الزبون بانتباه ، والتركيز على نقاط الضعف ثم الانقضااض عليه . سألته :
- هل تأتينا بخصوص الكاديلاك يا سيد بلومنتال ؟

هز رأسه موافقاً . قلت مشيراً إليها :
- ها هي تقف هناك .

اجاب بلومنتال :
- أستطيع رؤيتها .

اختلفت اليه نظرة واعتقدت للحظة انه مخادع . فتحت باب السيارة وأدرت المحرك بدون كلام ، معطياً إياه الوقت ليحكم على الأمور بنفسه . لا بد وأنه سيقوم ببعض الانتقادات ، وعندها أستطيع الرد عليه . لكن بلومنتال لم يتفحص أي شيء وبالتالي لم ينتقد أيضاً ، وكأنه صنم من الشمع . لذا لم يبق لي من امكانية سوى أخذ المبادرة ومداعبة جلده ، غير عابىء بوصية لينس . بدأت أصف له بروية ، وبشكل علمي ، الكاديلاك ، كام تصف إنها ، محاولاً بذلك معرفة تفكير الرجل إزاءها هل هو خبير ؟ إذاً عليّ التركيز على المحرك واذا وجدته غير ذلك سأنتقل الى وصف وسائل الراحة وما يتعلق بها في هذه السيارة . لكنه لم يفصح عن شيء .

تركني ذلك الرجل اتكلم واتكلم ، حتى خلت نفسي كرة محشوة بالهواء .
- لأي غرض تريد شراء السيارة ؟ للمدينة أم للسفر البعيد ، سألته أخيراً أملاً أن أعثر في جوابه على نقطة ارتكاز .

اجابني :

- لجميع الأمور .

- هل ستقودها بنفسك ، ام سيقودها السائق ؟

- حسب الظروف .

أجوبة عامة غامضة كأجوبة نسأك الأديرة .

عرضت عليه تجريب السيارة . في العادة ، كان أغلب الزبائن يتجاوبون مع هذا العرض . خفت عليه أن ينام وهو واقف هكذا بصمت وبلا حراك . فقلت له :

- أما بالنسبة للسطح العلوي المتحرك للسيارة ، فانه يرفع بسهولة . حاول يا سيدي إغلاقه . انك تستطيع ذلك بيد واحدة .

رفض بلومنتال تجربته شاكراً . اغلقت ابواب السيارة المفتوحة ورحت أشد على الأفعال بعصبية .

- لا صدأ عليها ، جربها .

ولكن بلومنتال لم يجب وكان هذه الأمور بديهية بالنسبة له . انه بنندقية قاسية ملعونة . هذا البلومنتال .

حركت زجاج النوافذ وأريته كم هي سلسلة ومتينة ، ولكنه لم يحرك ساكناً .

- الزجاج من النوع الذي لا يكسر - قلت يائساً - مزايها كثيرة كما ترى .

لكن بلومنتال لم يجب . رويت له قصة الفورد وحدثته عن زوجة الخباز وطفلها الذي لاقى حتفه وهو لا يزال في الرحم ، لم يكتث . ظل واقفاً واجماً كصندوق من الحديد . ثم تكلم أخيراً .

- جميع السيارات لها زجاج صعب الكسر . ان هذا ليس ميزة إستثنائية .

أجبتة بحدة :

- السيارات التجارية لا تزود في الغالب بزجاج غير قابل للكسر .

- ربما . ولكن معظم السيارات تزود واجهتها الامامية بزجاج واحد .

ضغظت على البوق وجعلته يزعق عالياً . انتقلت الى شرح وسائل الراحة الموجودة في الداخل ، مكان الحقائب ، الجيوب ، لوح القيادة ، الساعة ، تطرقت في ايضاحي الى أصغر الأشياء ، قدمت له سيجارة .

- شكراً انا لا ادخن .

قالها ، ناظراً إليّ بكثير من الملل . عندها راودني شك مخيف بأن يكون هذا السيد قد دخل ورشتنا بالخطأ . ربما كان يريد شراء ماكينة خياطة أو راديو ، ولكنه أخطأ في

العنوان . وقف متردداً أمامي لا يعرف ماذا يفعل .

- لنقم بجولة تجريبية .

عرضت عليه الفكرة للمرة الثانية متعباً وكأني خارج لتوي من معركة كبيرة .

- جولة تجريبية ؟

أجاب ، وكأنه سمع بدلاً منها محطة قطار ؟

- نعم جولة تجريبية كي تستطيع تقدير امكانياتها بشكل صحيح .

- شكراً . لا احبذ ذلك . واثار بيده رافضاً .

- ان الجولات التجريبية ضرورية لاكتشاف الاشياء الناقصة في السيارة .

- ايها الشيطان الفولاذي . لعنته في سري .

- حسناً . لا ضرورة لذلك .

قلتها بعد ان انقطع كل أمل في إقناع ذلك الرجل . إنه لن يشتري السيارة . هذا واضح جداً . فجأة استدار ونظر إليّ بكلتا عينيه وقال بصوت جاد منخفض وبسرعة :

- ما ثمنها ؟

- سبعة آلاف مارك .

اجبته بنفس السرعة ، وبدون أن يرف لي جفن أو أتلعثم ، كطلقة مسدس ، فلقد اصبحت كل دقيقة او ثانية تأخر في الرد عليه ستسبب في خسارتنا ألف مارك ، فحذقه التجاري الكبير سيدفعه بالتأكيد الى المراوغة والمفاصلة لتتقيص سعرها .

- سبعة آلاف مارك .

قلتها مرة ثانية وبإصرار . ولكن بلومنتال لم يجب ولم يعرض أي سعر آخر وإنما أصدر تنهدة عالية . قال بعد لحظة :

- لماذا هذا السعر الباهظ ؟

- انه باهظ حقاً .

قلت ذلك فاقداً الأمل في نجاح هذه الصفقة .

- ماذا تعني ؟ سأل بلومنتال فجأة ويكثر من الانسانية ، أجبته :

- يا سيد بلومنتال : هل قابلت أحداً في هذه الأيام ، لا يجيب على الاسعار بغير

هذه الاجابة .

نظر إليّ بكثير من الانتباه في حين غطت وجهه شبه ابتسامة

- صحيح ما تقوله ولكن هذا لا يعني ان سعرها باهظ جداً .

لم أصدق اذني . أخيراً نطق اللهجة المناسبة . نبرات الراغب حقاً في الشراء .
في تلك اللحظة ، دخل بوابة الورشة عيوق ، اخرج من جيبه جريدة . قارن رقم
البيت بالعنوان المذكور في الجريدة ليتأكد من صحته ثم تقدم باتجاهي وسألني :
- هل الكاديلك المعلن عنها هنا ؟

هزرت رأسي بالإيجاب ، ناظراً بتعجب إلى عصا البامبو الصفراء والقفازات
الجلدية في يديه .
- هل استطيع مشاهدتها ؟

سأل دون ان يغير من تعابير وجهه . اجبته :
- هذه هي . ولكن هل بإمكانكم الانتظار دقيقة واحدة ريثما أفرغ من عملي
هنا ؟ تفضل واسترح قليلاً في الداخل .

أصغى العيوق برهة لصوت المحرك وارتسمت على وجهه تعابير التفحص ، ثم
تغير هذا التعبير واستحال إلى استحسان . قدهته إلى الحجره الداخلية ورجعت الى
بلومنتال لإعنا إياه في سري .

- افضل ان تقودوا السيارة ولولمة واحدة ، فانكم ستغيرون بالتأكيد من رأيكم .
ولن تجدوا السعر المطلوب كثيراً . أستطيع أن أمرّ عليكم مساء إذا أردتم القيام بجولة
قصيرة بها . هذا إذا كان وقتكم الآن لا يسمح بذلك .

- دعك من هذا . علي الآن الإنصراف ، سأتصل بك إذا عدلت عن رأيي .
تأكدت ان الاحاح عليه لا يجدي نفعاً ، فهذا الرجل ليس من ذلك النوع من
البشر الذين يعدلون عن رأيهم بسرعة .

- حسناً هل لك ان تعطيني رقم هاتفك لأكلمك إذا جاءنا راغب آخر .

نظر الي متعجباً :

- الراغب ليس شارٍ بالضرورة .

اخرج من جيبه علبة سيجار وقدمها لي . غريب ، لقد أصبح الآن يدخن . انه
يدخن روناس . لا بد وانه ثري . فقدت الاهتمام به أخذت سيجاراً وشكرته .
صافحني بحرارة ثم ذهب . لاحقته بنظري لاعنا إياه بشدة ثم قفلت راجعاً إلى
الورشة .

إذن ؟ لم تتم الصفقة .

بادرنى لينس بالسؤال . فلم يكن العميق سوى جوتفريد .

-الينس .

- ما الذي فعلته بنفسك يا لينس ؟

- رأيتك تتعذب ، فوددت مساعدتك . من حسن حظنا ان كوستر ترك بزته الجديدة هنا . دخلت بسرعة وبدون ان يراني ذلك الرجل وخرجت من النافذة ، ثم عدت الى حيث كنتم تقفون كشار عميق . الم يكن ذلك عملاً رائعاً ؟
- عمل جنوني ولا شك . هل تعرف ان هذا الرجل أذكى منا نحن الاثنين مجتمعين ؟ أنظر الى هذا السيجار ، فهو يكلف ماركاً وخمسين قرشاً . لقد أضعت مليارديراً من بين ايدينا

أخذ جوتفريد السيجار من يدي . شمه ثم قال :

- لقد أبعدت عنك مراوغاً ، فاصحاب المليارات لا يدخنون سيجاراً كهذا . انهم يدخنون ارضخ انواع السيجار ، والذي لا يزيد سعره عن القرش الواحد .
- هراء ما تقول . المراوغون لا يسمون انفسهم بلومنتال فقط وبدون لقب . كالكونت وما شابه ذلك .
- سوف يعود .

هكذا ارتأى لينس مغموراً بالأمل كعادته ، وناجحاً في وجهي دخان سيجاره .
أجبتة بكثير من الاصرار .

- هذا الرجل لن يعود . ولكن قل لي من اين جئت بعصا البامبو والقفازات الجلدية ؟

استأجرتها من متجر . إني على صلة وثيقة بالبائعة . ربما استطيع الاحتفاظ بالعصا . لقد استحوذت على اعجابي . وبحركة سريعة اخذ يرمي العصا بالهواء ويتلقفها بشكل فني . قلت :

- جوتفريد . يا صديقي . حرام على مواهبك الضائعة في هذه الورشة . . .
إذهب الى السيرك ، فهناك مكانك الحقيقي .

* * * *

- احدهم طلبك على الهاتف .

قالتها فريدا ذات العيون الحولاء ، خادمة السيدة تساليفسكي عندما رجعت الى البيت ظهراً ، استدرت متسائلاً :
- متى :

- قبل نصف ساعة ، وكانت المتكلمة سيده .

- ماذا قالت ؟

- ستكلمك مرة ثانية في المساء . ولكنني قلت لها : انه لا يمكن الاتصال بك غالباً الا في ساعات متأخرة من الليل .

لعتها قائلاً :

- هذا ليس من شأنك . في المرة القادمة أخبريها انني ساكون في المساء الباكر هنا لأعالج ثقوب جواربي .

اجابت :

- سأقول ذلك في المرة القادمة .

ثم نظرت اليّ بضراوة بعينيها الحمراوين المتهبتين ، نظرة عداة ظاهر . كم تمنيت في تلك الدقيقة ، لو حملتها والقيتها في قدر حسائها الكبير . ولكنني تمالكت نفسي وسألتها ملاطفاً :

- الم تذكر السيدة اسمها ؟

- لا .

- هل كان صوتها عميقاً ومشوباً ؟

- لا اذكر ذلك .

اوضحت فريدا ذلك بمزاجية مريعة وكأنني لم أضع في يدها يوماً من الايام ماركاً . قلت لها :

- تلبسين خاتماً جميلاً في اصبعك يا فريدا . والان حاولي التركيز ربما استطعت ان تتذكرني شيئاً .

- كلا .

اجابت وقد علت وجهها ابتسامة الشاةة .

- اغربي عن وجهي با مكنسة الشيطان .

شتمتها وتركتها واقفة واجمة .

في المساء عدت الى البيت في تمام السادسة . كان في الدهليز جمع من السيدات ، تتوسطهم السيدة بندر .

قالت السيدة تساليفسكي :

- اقترّب منا يا سيد لوكامب .

اقتربت لاتيين طفلاً رضيعاً حزيناً بربطة شعر . عمره لا يتجاوز الستة أشهر ، مستلقياً في عربته بوداعة جاءت به السيدة بندر من الملجأ . كان هذا الرضيع كأمثاله من أطفال العالم ، ولكن السيدات تجمعن حوله ، يتأملنه بدهشة وكأنه الطفل الأول الذي انجبتة البشرية . لم يكتفين بالنظر اليه فقط ، بل راحت الواحدة تلو الاخرى تقذف من فمها اصواتاً كقرع الاجراس لجلب انتباه الطفل اليها وإمرار اصابعها أمام عينيه وعلى شفثيه لسماح مناغاته . حتى ايرنا بويننغ بثوبها الياباني العريض شاركت فرقة الامومة الافلاطونية حركاتها .
- الاتجده مخلوقاً ساحراً ؟

سألت السيدة تساليفسكي وقد راحت عيونها تسبح بالدموع :
- لا نستطيع الحكم بذلك إلا بعد عشرين أو ثلاثين عاماً

قلت ذلك ونظري نحو الهاتف ، آملاً أن تأتي المكالمة وهنّ مجتمعات هنا .
- أنظر إليه جيداً

طلبت مني السيدة تساليفسكي ذلك . نظرت اليه ، رضيع كغيره من الرضع . لم استطع أن أرى فيه شيئاً مميزاً .

ربما يدها صغيرتان نسبياً ؟ قلت :

- ايتها الدودة المسكينة . انك لا تستطيع بعد تخيل ماذا ينتظرك وإلى أي حرب ستساق .

قالت تساليفسكي :

- ايها الفظ ، اليس عندك أحاسيس أخرى ؟

أجبتها موضحاً :

- احاسيس اكثر مما يتوجب ، ولولاها لما قلت ذلك وانسحبت هارباً الى غرفتي .

بعد عشر دقائق علا رنين الهاتف ، سمعت إسمي وخرجت مسرعاً . كانت الجوقة النسائية لا تزال منتظمة في مكانها . رفعت الساعة وسمعت صوت باتريس هولمان التي أخذت تشكرني على باقة الورد . لم أعد اسمع صوتها ، اذ بدأ الصغير في الصراخ مضيفاً إلى موسيقى النساء الصاخبة نغماً جديداً ، إذ لم يكن قد اشترك في الحفلة حتى الآن ، فأعلن على طريقته ، استنكاره لكل ما يجري حوله من ضجيج .
قلت يائساً :

- المذرة لا استطيع سماعك جيداً . فهنا يصرخ رضيع . لا تجزعي انه ليس طفلي .

أخذت السيدات تدور حول ذلك المخلوق وكأنهن الأفاعي السامة ، محاولين إسكاته ولكن دون جدوى ، بل على العكس ، لقد ازداد صراخه ، عندها ، تأكدت أن هذا المخلوق غير عادي ، وأن رثيته كبيرتان وقد تصلان إلى قدميه ، وإلاً لما كان صوته عالياً إلى هذا الحد .

وجدت نفسي في موقف حرج . انطلقت من عيوني نظرات حانقة على تلك الكتل من الأمهات ، وحاولت انتقاء الكلمات اللطيفة وإرسالها عبر السماع . كنت من الشعر حتى الأنف عاصفة مرعدة ، ومن الأنف حتى الذقن ربيعاً مشرقاً . لقد أصبحت ، حتى لنفسي لغزاً . فتعجبت كيف استطعت بالرغم من كل تلك الضجة أن اتفق معها على موعد لمساء اليوم الثاني .

قلت للسيدة تساليفسكي :

- عليك باقامة غرفة عازلة للهاتف .

كعادتها وكمن لم يقع مرة واحدة على فمه ، اجابت :

- لماذا ؟ وهل لديك الكثير لاختفائه ؟

صمت وانسحبت . لقد تعلمت ان الدخول في شجار مع من تهيمن عليهن عاصفة الأمومة مسألة خاسرة . فهنّ في تلك اللحظة يكنّ قد تجاوزن أخلاقية البشرية جمعاء .

في المساء ، اتفقنا جميعاً على الالتقاء عند جوتفريد . تناولت طعام العشاء في حانة صغيرة ثم توجهت اليه . في طريقي ، ابتعت ربطة عنق ثمينة . ودهشت من نفسي : كيف ابتعتها بتلك السهولة ، عاهدت نفسي أن أكون في الغد رزينا ، وكأنني مدير عام لأحد مكاتب الدفن .

كانت غرفة جوتفريد مكاناً ممتعاً بلا شك ، تعج بالتحف والصور التي جاء بها من أمريكا الجنوبية . حصر ملونة على الحائط بعض الأقنعة الخشبية ، حجممة ، فخاريات غريبة ، رماح ، مجموعة من الصور الفوتوغرافية والتي ملأت جداراً كاملاً ، عن فتيات الاندوس وعن الحيوانات الاليفة في غابات الأمازون .

كان هناك إلى جانب لينس وكوستر براوميللر وجراو . جلس ثيو براوميللر بجمجمته النحاسية المحروقة من الشمس على طرف الأريكة العريضة متفحصاً بحماس مجموعة جوتفريد التصويرية . كان ثيو براوميللر سائقاً محترفاً لسيارات السباق في إحدى شركات السيارات وهو صديق قديم لكوستر وسيشترك في السادس

من هذا الشهر في السباق الدوري .

وكان فرديناند جراو ، يبدو بجلسته ضخماً مترهلاً ، وحين رأيته ، شدني اليه بيده العريضة ، وخاطبني بلسان متلعثم لشدة سكره .

- روبي . لماذا اتيت تجلس بجانب الضائعين ؟ لا مكان لك هنا . اذهب وانقد نفسك . فانت الوحيد بيننا الذي يستطيع ذلك . نظرت إلى لينس متعجباً فغمز لي بعينه وقال :

- فرديناند اليوم في ذروته . انه يشرب منذ يومين كاملين بلا انقطاع ، لينفق ثمن لوحة باعها حديثاً .

لم يكن فرديناند رساماً كبقية الرسامين الجياع الذين يجيئون للفن فقط . بل اختص في نقل الصور الفوتوغرافية بشكل متقن لاشخاص غادروا الحياة ، بناء على طلب أقربائهم الأبرار . فهذا مصدر رزق جيد له .

كانت لوحاته عن الطبيعة غاية في الروعة ، رغم ذلك لم يجد لها راعياً في الشراء . هذا السبب حمله في حديثه متشائماً بما يختص بمستقبل الفن . قال :

- روبي هو الساقى وصاحب الحانة اليوم . لقد ورث طفلاً عن عمته المتوفاة مبلغاً كبيراً ، لذا سيقدم لنا المشروب بسخاء .

أجابه لينس :

- إسمع يا فرديناند ، عليك أن لا تتفوه بهذه التعابير القاسية ، فانت تتعيش على أنبل الحقائق الإنسانية ، إلا وهو الموت . أجب :

- هراء ، فأنا تعيش من الشعور بالذنب . فالبر هو شعور بالذنب ، ومن خلاله يحاول الانسان ان يعوض المتوفين الاشياء التي تمنوها ولم يحصلوا عليها .

قال ذلك ماراً بيده على جبينه المتوهج .

- هل تعلم كم تمنى صاحب بيتي لعمته الموت ؟ أما اليوم وبعد ان توفيت طلب مني رسم لوحة لها بأحسن وأثمن الألوان ليعلقها في غرفة الاستقبال . ويريمه ان يراها بشكل صورة وكذكرى فقط . البر : الانسان يتذكر صفاته الانسانية فقط حين يصبح الوقت متأخراً . عندها يظهر نبلة ويصدق نفسه . انه فاضل . الفضيلة ، الرحمة ، الشهامة يتمناها الإنسان عند غيره حتى يستطيع خداعه .

ضحك لينس :

- إنك بقولك هذا تهز أعمدة المجتمع الإنساني يا فرديناند . رد عليه جراو :
- أعمدة المجتمع البشري الأساسية هي الطمع ، الخوف والفساد . الإنسان

شرير بطبعه ولكنه يجب الخير حين يقوم به غيره .

ناول كأسه إلى لينس ليملاً ثانية ثم استطرد :

- إملأ لي كأساً ولا تحاول أن تتكلم طوال المساء ، دع فرصة الكلام لغيرك .

زحفت إلى الأريكة حيث كان يجلس كوستر .

- اوتو . عليك أن تساعدني . أريد الكاديلاك مساء الغد . في تلك اللحظة قطع

براوميللر تأملاته في صور راقصات الانعكاس ليقول :

- هل تستطيع قيادة السيارة في المنعطفات أم ما زلت لا تعرف السير إلا في خط

مستقيم ؟

اجبته :

- اصمت يا ثيو وإلا عملنا منك لحماً مفروماً في السادس من هذا الشهر .

إستلقى براوميللر على قفاه من شدة الضحك .

- والآن ما هو ردك على هذا يا كوستر ؟

أجاب :

ان السيارة لم تومن رسمياً بعد .

- لا عليك سأقودها كالسلحفاة وأضغظ على زامورها لتبدو وكأنها باص كبير .

سأسير فيها بضعة كيلو مترات داخل المدينة .

أغمض كوستر عينيه إلا من شق صغير وضحك :

- ليكن ذلك يا روبي .

- هل تحتاج الكاديلاك لربطة عنقك الجديدة يا روبي ؟

قالها لينس متقرباً منا .

- احرص . قلت ذلك وأبعدته جانباً . ولكنه كالعادة لم يتنازل بل أخذ ربطة

العنق بين يديه متفحصاً .

- إنها رائعة يا صغيري . هل تستطيع تصور صغيرنا كساحر نساء ؟ قلبي يحدثني

بأنك ذاهب لرؤية عروس .

اجبته :

- انك لا تستطيع استفزازي اليوم أيها الممثل الماكر .

- رؤية عروس ؟

رفع جراو رأسه متسائلاً :

- لماذا لا يذهب ليفتش عن عروس ؟

دبت فيه الحياة ، ووجه الكلام إلى .

- إذهب يا روبي وفتش عنها . حافظ عليها . انها نعمة من الله ، لا يستطيع من أضعافها مرة استعادتها ثانية . ان الحب يحتاج الى بعض السذاجة وأنت تملك الكثير منها .

ضحك لينس :

- لا تدع هذا الكلام يؤثر فيك . فليس عاراً أن يولد الانسان غنياً ولكنه عار حقاً ان يموت هكذا .

- إخرس يا جوتفريد . ان هذا كله لا ينطبق عليك يا رومانسي المراحل . انك من البشر غير المأسوف عليهم .

أجاب لينس :

- أخرج كل ما في قلبك يا فرديناند ، فالكلام يريح صاحبه .

- انك مصفف احرف رهيب .

ضحك لينس :

- كلنا هكذا ، نعيش في الأحلام والقروض .

- صحيح .

أجاب جراو وأخذ ينظر إلينا الواحد تلو الآخر من تحت حاجبيه الكثيفين :

- أننا نعيش بأحلام من الماضي وبقروض للمستقبل ، ثم استدار إلي قائلاً :

- لقد قلت فيما مضى سذاجة يا روبي . الحسود فقط هو الذي يسمي السذاجة غباء . لا تخزن لذلك ، انها موهبة رفيعة . حاول لينس أن يتدخل لكن جراو أكمل حديثه :

- إنني أعني بالسذاجة النفس البسيطة والتي لم ينحرفها الشك والذكاء الخارق بعد . بارثيفال الشيطان كان غيباً . لو كان عاقلاً لما عصي أوامر الإله . الغبي هو المنتصر في هذه الحياة . بينا الذكي يرى الكثير من العقبات ، فيبدأ بالشك ويضعف قبل أن يبدأ . في أيام المحن تبقى السذاجة الكنز الكبير ، الرداء السحري الذي يلف كل العقبات . بينا الذكي يقع في حفرة هذه العقبات كالمنوم مغناطيسياً .

رشف جرعة كبيرة من كأسه ونظر إلي بعينيه الزرقاوين الكبريتين وكأنها قطعة من السماء في منتصف ذلك الوجه المكتظ بالأخاديد .

- لا تحاول ان تجري وراء المعرفة الكبيرة يا روبي . كلما قلت معرفة الانسان ،

كلما استطاع العيش بسهولة اكثر . المعرفة تعطي الحرية ولكنها بالمقابل تسلب السعادة . تعال واشرب معي نخب السذاجة ، الغباء وكل ما يتعلق بهما نخب الحب والايان بالمستقبل ، الأحلام بالسعادة ، إشرب نخب السذاجة الرائعة ، الفردوس المفقود .

جلس بعدها ككتلة ثقيلة ، غارقاً في ذاته وفي سكره ، كتلة وحيدة لا يمكن التقرب اليها . حياته مهشمة ، وهو يعرف تمام المعرفة أنه لا يستطيع ترميمها . كان يسكن في مرسم كبير وعلى علاقة حميمة مع خادمة المرأة القوية والجامدة . بالرغم من محاولاته الكثيرة ، لم يستطع إنهاء العلاقة ، وترك للزمن أمر حل مشكلته . له من العمر اثنان وأربعون عاماً . لم يكن جراو يأتي إلينا كثيراً ، لذلك لم أعود رؤيته في حالة السكر الشديد هذه ، والتي بعثت القشعريرة في جسمي . انه يشرب في العادة وحيداً وفي مرسمه وهذا حسب رأي سيقوده الى الدمار .

ناولني الكأس وابتسم :

- إشرب جرعة منه ثم اذهب وانقذ نفسك . فكر دائماً بما قلت لك .
- حسناً يا فرديناند .

أخرج لينس الحاكي ، وعلا صوت مغنين زنوج من الميسيسيبي ، انه يمتلك مجموعة كبيرة من الاسطوانات التي تتضمن غناء قاطفي القطن عن الليالي الرطبة على ضفاف انهار البلاد الحارة .

تسكن باتريس هولمان إحدى البنيات الكبيرة الصفراء والتي تفصلها عن الشارع حديقة مزروعة بالعشب . أوقفت الكاديلاك أمام المدخل فظهرت السيارة من انعكاس ضوء المدخل عليها وكأنها فيل أسود . كنت متأنقاً جداً ، فبزتي الجديدة تناسب ربطة العنق وقد ابتعت لها قبعة وزوج قفازات يناسبها . كان غرضي من هذا المظهر الانيق محو انطباعها عني كمخمور ثرثار . ضغطت على بوق السيارة وفي الحال شع النور في نوافذ المصعد الخمس وبدأ المصعد الكهربائي بالأزيز هابطاً ، وكأنه سلّة بيضاء انزلت من السماء . فتحت باتريس الباب وهبطت السلم بسرعة ، مرتدية سترة من الفراء قصيرة ، بنية اللون وتنورة صينية أيضاً ضيقة .

- مرحباً .

ومدت يدها إليّ مصافحة .

- كم انا سعيدة في الخروج هذه الليلة . فلقد مكثت طوال النهار في البيت .

احببت طريقة مصافحتها . كانت أقوى مما كنت أتوقع . كم كنت أمقت ذلك النوع من البشر الذين يصفاحون بيد متخاذلة وكأنهم سمكة ميتة . قلت لها :

- لماذا لم تخبريني بذلك ؟ لو علمت لمررت عليك عند الظهر .

- هل عندك كل هذا الوقت ؟

- لا ، ولكنني أستطيع ترتيب أموري .

استنشقت الهواء بعمق وقالت :

- الهواء هذه الليلة رائع . انه يحمل في نسيانه رائحة الربيع .

- إذا كنت تفضلين الهواء الطلق فباستطاعتنا ان نذهب الى خارج المدينة ونتجول في رحاب الطبيعة ، فالسيارة معنا ويمكننا القيادة إلى أي مكان تريدينه .

قلت ذلك مشيراً بإصبعي إلى الكاديلاك بكثير من اللامبالاة ، كمن يشير إلى سيارة فورد قديمة . نظرت إليّ بدهشة .

- الكاديلاك ؟ هل هي لك ؟

فتحت باب السيارة وقلت :

- ما رأيك في تناول العشاء أولاً في مطعم الكرمة ؟

- سنتناول العشاء ولكن لماذا في مطعم الكرمة بالتحديد ؟

نظرت اليها وكمن لا يصدق ما يسمع ، فمطعم الكرمة اكثر المطاعم التي أعرفها
اناقة .

- أصارحك القول ، اني لا أعرف مطعماً آخر يتناسب والكاديلاك .

ضحكت :

- ان مناخ الكرمة جامد وعمل . دعنا نذهب الى مكان آخر .

وقفت حائراً وبدأت أحلامي الرصينة في التلاشي .

قلت لها :

- إذن عليك الاختيار . فالخانات التي أرتادها متواضعة إلى حد ما واعتقد انها

ليست المكان المناسب لك .

- ما الذي يجعلك تعتقد هذا ؟

- انه انطباعي الأول عنك .

رفعت نظرها الي بسرعة .

- دعنا نجرب إحداها .

- حسناً .

قلت ذلك رامياً برنامجي لتلك الليلة جانباً .

- إذن لنذهب الى الفونس .

- الفونس . إسم له وقع جديد وأنا الليلة على استعداد لتقبل كل جديد .

- الفونس هذا ، صاحب الحانة والساقي أيضاً ، انه صديق قديم للينس .

ضحكت :

- أرى ان للينس أصدقاء في كل مكان .

هزرت رأسي موافقاً .

- إنه يعثر عليهم بسرعة . شاهدت ذلك بنفسك مع بيندينغ .

- نعم لقد تم ذلك بسرعة البرق .

أدرت المحرك وانطلقنا الى الحانة . كان الفونس رجلاً ضخماً هادئاً ، عظام وجهه ظاهرة ، عيونه صغيرة ، أكمام قميصه مرفوعة ظهرت منها سواعد قوية كسواعد الغوريلا ، يرمي بمن لا يرغب بهم في حانته خارجاً . وحسب حساباً للرياضيين الذين يرتادون الحانة ويصعب عليه رميهم خارجاً ، فاقتنى مطرقة يضعها غالباً في الدرج بجانبه ، وبما ان موقع الحانة قريب من المستشفى فهو لا يحتاج لوسيلة نقل الزبون الذي جرحته المطرقة . مسح بيده الكبيرة الكثيفة الشعر المنضدة المصنوعة من خشب السرو ثم سال :

- جعة ؟

قلت :

كورنه وشيء للمعدة .

سال الفونس :

والسيدة ؟

- السيدة تفضل كأساً من الكورن أيضاً .

اجابت باتريس هولمان :

- عظيم ، عظيم

- عندي لحم ضلع محشي بالمفوف .

- ربما كانت السيدة تفضل طبقاً خفيفاً .

أجابني الفونس :

- لم أعتد منك رياً كهذا . تعال والقي نظرة على الضلع على ثم قرر .

أشار الى النادل ليأتيه بطبق لنراه . كان شكله جيداً ورائحته أجود .

- لا أحد يستطيع مقاومة هذا الاغراء . اجلب لي طبقاً مثله . قالت باتريس ، مما

أثار دهشتي وكأنها زبون قديم لهذه الحانة .

غمزني الفونس ، فقلت :

- اذن اثنا بطيقين .

- حسناً . سأذهب لأعدها بنفسي .

غادرنا الى المطبخ ، فقلت لباتريس :

- سأتنازل عن تحفظاتي إزاء الحانة . لقد استحوذت على قلب الفونس . فهو في

العادة لا يحضر الطبق بنفسه الا للزبائن الدائمين والمحجوبين .

عاد الفونس وقال :

- وضعت لكم سجقاً آخر في الطبق .

أجبتة :

- فكرة حسنة

نظر الفونس إلينا بحب واحضر كؤوساً ثلاثة وقال :

- لنشرب نخب التمني لابنائنا ان يصبحوا آباء اثرياء .

جرعنا الكؤوس دفعة واحدة . الفتاة لم تغص بل جرعت الكأس بكامله .

- عظيم ، عظيم ، قالها الفونس وعاد إلى البار .

سألتهما :

- كيف وجدت الكورن ؟

هزت رأسها .

- حاد المذاق . ولكنني أبيت أن أبدو ضعيفة أمام الفونس .

كان الطعام شهياً . . أتيت على طبقين منه ، وأدهشتني باتريس التي أكلت أكثر مما كنت أتوقع . لقد تأقلمت بسرعة مع جو هذه الحانة ، ولم تتأب عن المشاركة في شيء .

جرعت كأساً آخر مع الفونس ، وبلا تردد . غمز لي خفية مؤكداً إعجابيه بحسن اختياري . كان الفونس خبيراً بإعماق الانسان ، ليس فيما يتعلق بالمظهر والسلوك الجاهلي فقط ، بل بالنفسية - قلت لها :

- إذا ساعدك الحظ سوف تعرفين على الفونس في إحدى حالات ضعفه

الانساني .

- كم أود ذلك ، فشكله لا يوحي بأنه يعرف الضعف أبداً .

أشرت بإصبعي إلى الحاكي وتابعت :

- ليس الحاكي وانما الغناء الكورالي ، هو نقطة ضعفه ، لا رقصات ولا موسيقى

حاملة ، فقط كورال رجالي . كل الاسطوانات التي تشاهدونها على المنضدة من أغاني

الكورال .

أنظري ها هو آت . سأل :

- هل اعجبكما الطعام؟

أجبتة :

- انه لذيذ جداً وكأنه من تحضير والدتي .

- وما رأي السيدة؟

- انه أذ ضلع تناولته في حياتي .

قالت ذلك بجرأة . هز الفونس رأسه راضياً .

- والان سوف اضع لكما اسطوانتي الجديدة . انها ستعجبكما بالتأكيد .

ذهب الى الحاكي وأداره ، وارتفع بجبروت وحماسة صوت كورال رجالي
جهوري ، منشداً أغنية الصمت في الغابة .

كم كان ذلك الصمت عالياً .

ساد السكون الحانة لدى سماع المقطع الاول من الأغنية ، فالفونس ينقلب الى
رجل شرس تجاه من لا يصغي لموسيقاه . كان يقف خلف البار متكئاً على يديه المكتظتين
بالشعر وكان وجهه يتغير مع الحان الموسيقى . فصوت الكورال يستحوذ على كل
حواسه ، ويميله الى رجل حالم ، وديع كالريم ، ما أن تطرق أسماعه انغام
الكورال حتى يتوقف عن الضرب في حال اشتباكه مع احد ، ويتسمر في مكانه
منصتاً لها كمن مس بعضاً سحرية .

عندها يهدأ ويصبح مستعداً للاعتذار والمصالحة . كانت زوجته تضع
الاسطوانات التي يجبها على أهبة الاستعداد وتدير الحاكي . وحين يسترسل في غضبه
ينخرج المطرقة من الدرج ، فتسقط هذه فجأة من يده ويهدأ مصغياً الى الأصوات
المنبعثة من الاسطوانات .

أما اليوم ، فلم تعد له زوجة ، فلقد توفيت منذ أعوام ولم يبق منها إلا
صورتها ، هدية من فرديناند جراو ، معلقة على الحائط في صدر الحانة . لقد هدا
الفونس بعد وفاتها . وتقدم به العمر ، ولم يعد نزق الشباب يسري في عروقه .
انتهت الاسطوانة وعاد الفونس لقربنا ، قلت :

- صوت رائع .

قالت بات :

- خاصة الصوت الرجالي الاول .

- صحيح .

أكد الفونس ذلك وقد أصبح أكثر نضارة وحيوية .
- انك تتحسسين ذلك جيداً ، فالصوت الرجالي الأول يعد من أحسن الأصوات
في هذا العالم .

نهضنا ، فودعنا قائلاً :

- تحياتي لجوتفريد .

وقفنا على الطريق فبدت أشعة مصابيح الشارع على الاغصان الكثيفة المتشابكة
لشجرة قديمة مضطربة وبدت البراعم على الأغصان خضراء تراكص كالأطياف ،
وظهرت الشجرة من خلال الضوء المنعكس عليها ، عملاقة أكبر بكثير مما هي عليه
في الحقيقة ، وامتدت كيدٍ ضخمة مفتوحة ، تعج بالحنين مبتهلة الى السماء .

ارتجفت باتريس هولمان قليلاً . سألتها :

- هل تشعرين بالبرد ؟

رفعت منكبها بينما أدخلت يديها في جيب سترتها .

- نعم قليلاً ، فالجو في الحانة كان دافئاً جداً .

أجبتها :

- اعتقد ان ثيابك لا تتناسب وهذا الطقس ، فالامسيات ما زالت باردة .

هزت رأسها .

- أنا لا أحب ارتداء الثياب السميقة لانني آمل بذلك ان يصبح الطقس دافئاً .

اني امقت البرد وخاصة برد المدينة .

- سيكون الجو دافئاً في الكاديلاك ، وزيادة في الاحتراس أحضرت معي حراماً

صوفياً .

ساعدتها في الصعود الى السيارة ولففت الحرام حول ساقها ورفعته نحو كتفها

قليلاً .

- شكراً هكذا أحسن ، فالبرد يدخل الحزن الى القلب .

- ليس البرد فقط .

جلست الى المقود .

- هل نذهب في نزهة قصيرة ؟

أومأت بالإيجاب .

- بكل سرور

- الى اين ؟

- لتتجول قليلاً في الشوارع . لا يهم المكان .

- حسناً . وهكذا سرنا في طرقات المدينة بلا هدف . كان ازدحام السير مريعاً في

مثل هذا الوقت حيث يرجع العاملون الى منازلهم .

كان صوت محرك السيارة هادئاً بحيث لم ينتبه أحد من المارة لنا ، وكأننا في سفينة

تمخر عباب اليم بعمق . مبحرة الى أقيّة الحياة الزاهية .

كان الطريق كقلب لا يتوقف عن الخفقان من كثرة المارة ومن كثرة الحوانيت

والبوابات المضاءة على جانبيه . في كل مكان وعلى الاسطح تبدو السماء الواسعة

كقبة بلون الحديد الرمادي بسبب انعكاس أضواء المدينة عليها . كانت الفتاة تجلس

صامتة الى جانبي . الضوء والظل ينزلقان عبر النافذة على وجهها . كنت انظر اليها

بين الحين والآخر ، فتذكرني بالليلة الأولى التي رأيتها فيها . لقد أصبح وجهها أكثر

جدية من ذي قبل وغريباً عما انطبع في ذاكرتي ، كم هو جميل هذا الوجه . أمسك بي

ولم يتركني محتثباً . في قساته سكون المخلوقات الطبيعية المميز ، من سماء وغيوم

وحوانات وفي بعض الأحيان يكون وجه امرأة بكل ما تحمله من معانٍ .

وصلنا الى ضاحية المدينة حيث الطرقات الهادئة ، والرياح التي تعصف بالحقول

المزهرة تسوق الليل أمامها . أوقفت السيارة أمام مساحة كبيرة تحيط بها البيوت

الصغيرة النائمة وسط حدائقها . تململت باتريس هولان على مقعدها كمن أفاقت من

غفوة طويلة .

- ما اجمل الطبيعة هنا .

فاجبتها بعد فترة .

- لو كنت أمتلك السيارة لخرجت ليلياً في نزهة كهذه . كم هو شعور جميل أن يمر

الانسان على الأشياء في الليل دون ان يوقظها . في مثل هذه الساعات من الليل ،

وفي هذه الأجواء ، يكون الانسان مستيقظاً وحالماً في الوقت ذاته ، وسعيداً بوحده

مع الطبيعة . أخرجت علبة السجائر من جيبي .

- في المساء نحتاج للتبغ . اليس كذلك ؟

فتحت العلبة :

- انها سجائر أميركية . هل ترغيبين بواحدة ؟

- نعم ، اني أفضلها على غيرها .

أشعلت سيجارتها فأضاء عود الثقاب بنوره القريب وجهها ويداها فتملكني

شعور جنوني ، بان الله خلقنا .

فتحت النافذة فخرجت منها سحبات الدخان مبتعدة .

- هل ترغبين ان تقودي السيارة الآن ؟

- كم أود ذلك ، ولكنني لا أتقن القيادة .

- هل أنت متأكدة من ذلك ؟

- اني لم أتعلمها أبداً .

جاءت هنا فرصتي .

- ولكن ، كان على بيندينغ ان يعلمك إياها .

ضحكت واجابت :

- بيندينغ مهووس بحب سيارته ، لذا فهو لا يسمح لاحد بقيادتها .

- غريب ، صحيح انه شخص سخيف .

قلت ذلك فرحاً لأنني استطعت أخيراً ان أوجه الشتيمة إليه .

- تفضلي ، فانا أعرض عليك القيادة .

ضربت بكل توصيات كوستر عرض الحائط ، وترجلت لاعطيها المكان خلف

المقود . توترت أعصابي بعض الشيء .

- ولكنني لا أستطيع القيادة .

أجبتها :

- بلى ، انك تستطيعين ذلك .

علمتها كيف تستعمل المقود وبدال البنزين والمكابح .

- والآن ، هيا .

- لحظة .

واشارت الى سيارة كبيرة قادمة .

- الا تدعها تمر اولاً ؟

- ولا بأي شكل .

قلت ذلك وادرت المحرك . امسكت الفتاة المقود بيدين متشنجتين بينما اخذت

تنظر الى الطريق باضطراب ووجل ، صائحة :

- يا الهي اننا نسير بسرعة كبيرة .

ونظرت الى عداد السرعة وقلت .
- ان السرعة لا تتجاوز الخمسة والعشرين كيلو متراً في الساعة سرعة ممتازة لعداء
من الدرجة الاولى .
- اما بالنسبة لي فالسرعة تبدو أكثر من مائة كيلو متر في الساعة .

كانت الكاديلاك تسير متعرجة مترنحة في الطريق العريض المستقيم وتقترب من
الرصيف الاول ولا تلبث ان تنحرف الى الرصيف الثاني ، وهكذا كأنها معبأة
بالكونيالك بدلاً من البنزين . بعد مدة تحطت الفتاة عتبة الخوف ، وتحسن وضع
القيادة ، واستقام السير على الشارع . بدأ شعور بالعظمة يتملكني . شعور المدرس
تجاه تلميذته ، شعور جميل ، حاولت أن استغله باملاء أوامري عليها .

- انتبهي ، هناك يقف شرطي على ناصية الطريق .

- هل أتوقف ؟

- لقد تأخر الوقت لذلك .

- ماذا يحدث ان اكتشف اني لا أحمل رخصة قيادة ؟

- عندها ندخل السجن سوية .

- يالهي .

أخذت بخوف تبحث بقدميها عن المكابح .

صحت :

- البنزين . اضغطي على بدال البنزين بسرعة . علينا ان نعبه بسرعة وبثقة ،
فالوقاحة هي العلاج الوحيد النافع ضد القانون . لم يتبه الشرطي الينا ، وما أن
اجتزناه حتى تنفست الفتاة الصعداء .

- لم أكن أعلم حتى هذا اليوم ان شرطي المرور ينفخ ناراً .

رفعت فرامل اليد قائلاً :

- انهم يكونون هكذا حين تصطدمين معهم . أنظري الى هذا الطريق الجانبى
الخالى من المارة . هنا يمكننا التدرج على الانطلاق والتوقف .

بدأ الدرس الأول بجدية ، وكعادة المبتدئين يجتئق المحرك عدة مرات قبل ان
يتعلموا الاقلاع بشكل مرض . فتحت أزرار سترتها وقالت :

- لقد تصبب العرق مني ، فأنا خائفة جداً ولكن عليّ أن أتعلم الإقلاع .

جلست بجذ وانتباه خلف المقود ، تنفذ ما تعلمت مني . كانت تقود السيارة
بذعر وتصيح عند كل منعطف وترتجف من الخوف كلما ظهر في الشارع ضوء سيارة

قادمة ، وبعدها تعود فرحة فخورة حين يتعد الضوء عنها . لم يطل الوقت حتى ساد ذلك المكان الضيق الذي تضيئه اللوحة الامامية بعدد السرعة والساعة جو من الصداقة القوية .

بعد نصف ساعة انتهى الدرس الاول ، تبادلنا الامكنة وشعرنا بان هناك ثقة متبادلة بيننا ، كما لو سرد كل منا على الاخر قصة حياته .

أوقفت السيارة في شارع نيكولاوي تحت إعلان سينثاي احمر ، ينعكس ضوءه على الإسفلت فيبدو كقطعة من الارجوان الباهت . قلت :

- والآن نستحق بعد هذا العناء كأساً من الخمرة . ولكن أين سنشربه ؟

فكرت باتريس قليلاً واجابت :

- دعنا نذهب الى تلك الحانة الجميلة بسفينتها الشراعية .

شعرت بحرج كبير . فانا متأكد أن الرومانسي الاخير سيكون جالساً هناك ينتظر المفاجأة . قلت لها بسرعة :

- لا انها حانة عادية ، لا بد وأن هناك حانات الطف منها بكثير .

- ربما ، ولكنني وجدتها جميلة جداً في تلك الليلة .

سألتها بدهشة .

- أصحيح . حقاً ما تقولين .

أجابتنني ضاحكة :

- نعم وجدتها جميلة حقاً .

هكذا إذن ، فكرت في سري ، ومن أجلها كنت ألوم نفسي كل هذه المدة . حاولت إقناعها مرة ثانية بالاقلاع عن تلك الفكرة وقلت :

- في مثل هذا الوقت تكون الحانة ممتلئة جداً .

- دعنا نجرب ونرى .

- بالطبع نستطيع ذلك .

رحت أفكر في طريقة لحل هذه المشكلة . لدى وصولنا الحانة ترجلت بسرعة وقلت :

- أنا ذاهب لاستطلاع المكان وساعود بسرعة .

لم يكن هناك من المعارف سوى فالتين فسألته :

- هل جاء جوتفريد الى هنا ؟

هز فالتين رأسه وقال :

- لقد جاء مع أوتو ولكنها غادرا المكان منذ نصف ساعة تقريباً .
- مع الأسف .

قلت ذلك وتنفست عميقاً وأكملت :

- كم كنت أود رؤيتهما .

رجعت الى السيارة .

- تفضلي نستطيع المجازفة . ان المكان ليس مكتظاً بالزائرين على غير عادته .

أوقفت الكاديلاك ، زيادة في الحرص ، في الشارع الجانبي ، وفي مكان مظلم .
لم يمض على جلوسنا عشر دقائق حتى ظهر لينس ، وجلس الى البار . يا الهي لقد
حلت علينا اللعنة ووقعت الواقعة . كم تمنيت ان يتأخر هذا الحدث لعدة أسابيع .

جلس جوتفريد متملماً كمن لا يريد البقاء طويلاً ودون ان ينظر من حوله .
ظننت ان الموقف قد أنقذ . ولكنه حين هم بالخروج صاح به فالتين لينبهه الى
وجودنا .

اه . يا لللعنة - هذا هو جزاء الكذب .

نظر جوتفريد إلينا بدهشة ، وتبدلت قسماات وجهه الى شكل يحتاج الى دراسة
طويلة في علم التمثيل .

جحظت عيناه وبدتا كالبيض المقلي ، وتدلى الفك السفلي بحيث ان من يراه يخاف
على هذا الفك من السقوط . من المؤسف انه لم يكن في الحانة مخرج سينائي وإلاً
لعهد لجوتفريد بتمثيل دور بحار خرج لتوه من سفينته المحطمة ليرى في استقباله
أفعى ماء كبيرة .

عاد جوتفريد ليتالك نفسه وبسرعة . نظرت إليه باستعطاف آملاً ان يتركني
وشأني دون تعليق . لكنه رد علي بنظرة ملؤها السخرية والمكر ، فحسن من هندامه
وأقبل علينا . كنت أعلم بالتأكيد ما كان ينتظرنني ، لذا بادرت بالسؤال :

- هل أوصلت السيدة بومبلات الى بيتها ؟

سألته ذلك محاولاً تحجيمه .

- نعم .

اجاب بدون أن يرف له جفن أو يتلعثم ، رغم أنه ولدقيقة مضت لم يكن قد

سمع بعد هذا الاسم .

- انها تهديك سلامها وتسالك ان تتصل بها غداً .

كانت هذه صفقة ممتازة . هزرت رأسي واجبت .

- سافعل ذلك . أمل ان تقتنع بشراء السيارة .

حاول لينس ان يفتح فاه مرة ثانية ، فضغطت على قدمه بقوة ونظرت اليه بقسوة ،
عما جعله يتوقف عن السخرية .

شربنا بضعة كؤوس ، ولم يكن نصيبي منها سوى كأس جن بالليمون فقط-
حاولت عدم الاكثار من الشرب حتى لا أعيد تلك الامسية .

كان جوتفريد في مزاج رائع . ابتدرني قائلاً :

- مررت عليك قبل قليل فلم أجدك . أردت اصطحابك الى مدينة الملاهي .

نظر إلى باتريس هولان :

- لنذهب الى هناك فانا أحب الارجيح جداً .

قلت :

- ليكن على نفقتك هذه المرة .

نهضنا في الحال وحمدت الله اننا خرجنا الى الهواء الطلق - فالامور تبدو فيه أقل
تعقيداً عما كانت عليه في الحانة ، عازفو صناديق الاورغ هم طلائع التشريفات في
مدينة الملاهي . يستقبلك طنينهم الحزين . وترى ببغاء جالساً على الاورغ ، يكون
في اغلب الاحيان مرتدياً بزة حمراء ، يليهم زعيق بائعي الزجاج القديم والعسل
التركي ، والبالونات ، والاقمشة ، والمنجمون وقارئو الكف . والضوء الأزرق
ورائحة فوانيس الكاز تخيم على هذا المكان . أكوام من الكعك منتشرة هنا وهناك
وأراجيح على أشكال مختلفة ، فمنها على شكل طائرات ومنها على شكل سفن ،
ودكاكين خشبية صغيرة مليئة بكل ما تشتهي النفس من طعام والعباب . وتبدو أبراج
الأراجيح كالفصور القديمة ، منارة باضواء مختلفة ضاجة بموسيقى متنوعة .

قال لينس :

- هيا أيها الأطفال :

وارتمى على أحد مقاعد قطار صغير في لعبة الجبل والوادي . جلسنا معه في القطار
عابرين جبلاً وودياناً من الكرتون والخشب المرسوم بدقة عجيبة وكأنها جبال
حقيقية ، وفي كل محطة يقف القطار فيها ، تخرج من نوافذ صغيرة مذهبة ست دمي

من نافخي البوق ، يدورون حول أنفسهم ويلوحون بالآلهم الموسيقية ثم يختفون وراء النافذة من جديد .

بعد انتهائنا من هذه اللعبة جلسنا في جوف أوزة عراقية راحت تهبط تارة في قعر مظلم ، تتشده الافواه من هول ظلامه . وتصعد تارة الى الدمية المضاء التي تستقبلنا ثانية بكثير من الطين والاعتزاز .

قال لينس :

- دعونا نكمل .

وقادنا الى أرجوحة علقت بها مناطيد وطائرات مختلفة . أخذنا المنطاد وقمنا بثلاث دورات ، محلقيين في الجو ، ثم هبطنا ونزلنا الى الأرض متعيين نشكو من دوار خفيف في الرأس .

لم يتعب لينس ورفض الاستراحة على أحد المقاعد المنتشرة وسط هذه المدينة الصحابة . وقرر الاشتراك بمفرده في لعبة عجلة الشيطان . هذه اللعبة عبارة عن دائرة كبيرة مسطحة ، تدور حول محور في منتصفها . تبدأ بالدوران الخفيف ثم تزداد سرعتها تدريجياً ، وعلى الشخص الواقف في منتصفها أن يحافظ على توازنه ، بحيث لا ترمي به السرعة خارج القرص .

اعتلى لينس هذه الدائرة مع حوالي عشرين شخصاً واخذ يضرب بقدميه القرص وكأنه بذلك يسعى الى تثبيت نفسه . خلا القرص بعد انقضاء دقيقة على بدء اللعبة من اللاعبين الا من لينس والطاهية . كانت الطاهية تجلس في وسط القرص بأردافها الكبيرة التي تشبه أرداف بغل كبير يجز العربات ، في حين راح لينس يركض في الاتجاه المعاكس لدوران القرص من حولها . لم تمض فترة حتى وجه القدر ضربته الكبرى الى الرومانسي الأخير ، فقد وقع في أحضان الطاهية وتدحرج الاثنان متعلقين ببعضها خارج القرص . وعاد إلينا متباطأً ذراع الطاهية . خاطبها وبدون إحراج باسمها الأول ، لينا ، وكأنه على معرفة قديمة بها . أخذت لينا تضحك بحياء . سألتها عن نوع المشروب الذي تفضله .

- الجعة هي خير مشروب يطفىء الظما .

اختفى الاثنان في احدى الخيام المعدة لتقديم الجعة .

سالت باتريس هولمان وقد أخذت عيونها تلمع :

- ونحن إلى أين سنذهب الآن ؟

- إلى حديقة التنين بأشباحها المرعبة .

قلت ذلك وأشرت إلى حجرة كبيرة .

تتألف هذه اللعبة من ممر على شكل سرداب مليء بالمفاجآت المرعبة . بعد عبوره يوضع خطوات بدأت الأرض تهتز تحت أقدامنا وبدأت أيدينا تتلمس جدران هذا السرداب من شدة الظلام فيه . ومع كل لمسة كانت تخرج من هذه الجدران وجوه مخيفة وهياكل عظمية وأشباح تنتحب بقوة وبصوت مرعب . فجأة قفزت الفتاة إلى الورااء مذعورة لتستلقي بين ذراعي ، حين ظهر امامها وجه ميت أخضر مخيف . لامست أنفاسها وجهي ، وشعرت بشعرها في فمي . ثم ضحكت وأفلتت من ذراعي وتركت شعوراً في أعماقي بقي حتى بعد أن خرجنا ، ولمدة طويلة ، حيث كنت ما أزال أشعر بكتفيها بين ذراعي وبشعرها الناعم ورائحة جلدها الخفية التي تشبه رائحة الدراق .

تحاشيت النظر إليها ، فلقد أصبحت بالنسبة لي امرأة رجل آخر . كان لينس ينتظرنا في الخارج بمفرده . سألته :

- اين لنا ؟

- انها تسكر .

أجاب ، مشيراً إلى خيمة ريفية ، وتابع :
- تسكر مع حداد .

أجبت :

- هل تقبل تعازي الحارة ؟

- هراء . دعنا الآن ننطلق إلى العاب الرجال .

اتجهنا إلى بركة حيث يتوجب على اللاعبين أن يرمي بعجلات مطاطية صلبة على كلابات حديدية وان نجح في تعليقها على إحدى هذه الكلابات ، يربح جوائز مختلفة . قال لينس مخاطباً باتريس هولمان وقد أزاح قبعته حتى لامست عنقه .
- دعينا نقوم بتجميع جهاز عروس كامل لك .

بادر بالرمي ، ففاز بساعة حائط ، تبعته وحصلت على دمية عبارة عن دب مصنوع من نسيج عادي .

قدم لنا صاحب البركة الجوائز بشكل مسرحي ، قاصداً بذلك اجتذاب الزبائن . قال لينس :

- سوف تزول ضحكته عما قريب .

وعاد ليفوز بمقلاة ، وعدت لاحصل على دب آخر .
- هكذا ، يا لكما من محظوظين .

قالها صاحب الدكان وهو يقدم لنا ما فزنا به . لم يكن يعلم ما كنا نخبئه له ، حيث كان لينس أروع رامي قنابل يدوية في سريتنا ، وفي الشتاء حيث يكون العمل ضئيلاً تتدرب على رمي قبعاتنا على شتى الكلابات التي كنا نصادفها فهذه اللعبة تبدو بالنسبة لتدريباتنا السابقة كتسلية أطفال . عاد لينس ليفوز بدون عناء بمزهريه زجاجية بينما فزت بنصف دزينة من الاسطوانات القديمة .

قدم لنا المالك الجوائز ، ولكن بصمت . بعدها اخذ يتأكد من كلاباته . صوب لينس ورمى ، وحصل على طقم كامل من فناجين القهوة . تجمهر عدد كبير من الناس حين أردت رمي العجلات على الجائزة الثانية الكبرى . رميت بثلاث عجلات وبسرعة على كلابة واحدة وحصلت على الجائزة ، « صورة المجدلية النادمة » في إطار مذهب . تغيرت علائم وجه المالك ، كمن جاء لتوه من عيادة طبيب الاسنان ، ثم امتنع عن إعطائنا عجلات أخرى .

أردنا التوقف عن اللعب ولكن المشاهدين أجبروا المالك على متابعة اللعب . كانوا يتحرقون في صميمهم لرؤيته ينتهب على هذا الشكل .

كانت لنا أكثر الحاضرين ضجيجاً ، وقد عادت لتظهر إلى جانب الحداد . قال لينس :
- حسناً . لكل واحد منا رمية أخيرة ، وبعدها نتوقف .

كنت البادىء في هذه المرة وفزت بطبق غسيل مع إبريق . بعدها جاء دور لينس . أخذ خمس عجلات ، ورمى الأربع وبسرعة على كلابة واحدة ، ثم قام بحركة بهلوانية وأخرج سيجارة ، فسارع ثلاثة من الحاضرين لإعطائه النار قبل أن يرمي العجلة الخامسة . ربت الحداد على كتفه ، واخذت لنا بعض على منديلها من شدة التوتر . صوب لنس ثم رمى بالعجلة الأخيرة التي استلقت فوق العجلات الأربع على الكلابة . فعلا صياح المتفرجين كالرعد لقد كسب الجائزة الاولى : عربية أطفال بغطاء وردي ووسادة من الدانتيل . وضعنا الجوائز في العربة مودعين من قبل المالك بالشتائم ، واتجهنا إلى الحجرة التالية .

أخذت لنا تاجر العربة وراح الحداد يعلق من حين إلى آخر بطرائف بذيئة ، مما

جعلني اخفف سرعتي مع باتريس لأبعد قليلاً عن الركب .

كانت اللعبة في البرّاقة الثانية هي رمي العجلات المطاطية على زجاجات من النيذ ، وحين تسقط العجلة حول الزجاجاة تصبغ الزجاجاة ملكاً للاعب .

خرجنا من اللعبة بست جوائز ، كان لينس كعادته لبقاً وكرماً جداً ، فقدم الزجاجات هدية للحداد .

الحجرة التي تلت كانت من نفس النوعية . أدرك مالكةها قبل فوات الأوان ما يدور ، وأغلق دكانه حال وصولنا اليه . بدأ الحداد في الشجار معه ، خاصة عندما أدرك إمكانية كسب زجاجات من الجعة . منعناه من ضرب هذا المسكين . فقد كان ذا ذراع واحدة فقط . اقترينا من الكاديلاك يرافقنا حشد كبير من المتفرجين :

سأل لينس وهو يحك رأسه :

- العمل الآن ؟ فقلت :

- لنربط العربّة بالسيارة .

- بالتأكيد ، ولكن عليك أن تجلس بداخلها لتقودها . احتجت باتريس هولان ،

خوفاً من قيام لينس بذلك .

أجابها :

- حسناً . إذن للفقم الآن بعملية التوزيع . احتفظي أنت بالدين وبالاسطوانات

والمقلاة .

هزت الفتاة رأسها راقضة العرض .

- إذن ستصبغ المقلاة ملكاً للورشة . خذها يا روبي . فانت ماهر في قلي

البيض . والآن جاء دور طقم القهوة .

أشارت الفتاة برأسها الى لينا ، واحمرت الطاهية خجلاً ، بينما راح جوتفريد

يقدم لها القطعة تلو القطعة وكأنه في حفل لتوزيع الجوائز .

بعدها أخرج طبق الغسيل .

- أواني الغسيل هذه من نصيب جارنا العزيز اليس كذلك ؟ انها تناسب

وظيفته ، كذلك الساعة ، فالحدادون غالباً ذوون عميق .

قدمت المزهريّة لجوتفريد فأهداها بدوره لينا . حاولت التمتع عن أخذها وقد

تسمرت عيناها على المجذلية ، طمعاً في الحصول عليها ، بينما راحت تقضم أظافرها

المطلية باللون الأحمر ثم قالت بصوت مختنق :
- اني أعشق الفن :

سأل لينس الفتاة وقام بحركة رشيقة نصف دائرية :
- أنتستي العزيزة ما رأيك في هذا ؟

تناولت باتريس هولمان وقدمتها للينا .
- يا لها من لوحة جميلة يا لينا .

تابع لينس :

- علقها فوق فراشك ولتكن دائماً عبرة تتعظين بها .
- تلقفت لينا اللوحة بينما امتلأت عيناها بالدموع ، وراحت تشهق من شدة
الفرح .
- والآن جاء دورك .

قال لينس مفكراً بمصير عربية الاطفال .

عادت عيون لينا والتهبت بنظرة نهم متناسية سعادتها اللأمتناهية حين حصلت
على المجدية . علق الحداد على ذلك قائلاً :
- لا أحد يعلم متى سيحتاج أحدنا إليها .

أخذ يضحك بشدة مما أدى الى سقوط احدي زجاجات النبيذ من يده . لكن لينس
لم يوافق .
- دقيقة . . . قبل قليل رأيت احداً . . .

قال ذلك واختفى دقائق معدودة ثم عاد بعدها ، جر العربة أمامه واختفى مرة ثانية
ثم عاد بدونها .
- انتهى الأمر .

ركبنا الكاديلاك . أما لينا فقد مدت يدها مصافحة سعيدة بامتعتها وقالت :
- يمتلكني شعور وكأن اليوم هو عيد الميلاد .

انفرد بنا الحداد لعدة دقائق :

- إسمعوني جيداً : إذا اضطررت يوماً لضرب شخص ما فانا اقطن في شارع
لايبيز في البيت رقم ١٦ في الفناء الداخلي . أما إذا اضطررت لمقاتلة عدد من
الرجال فانا على استعداد لأحضر عدد من جماعتي .
- اتفقنا .

قلنا ذلك وانطلقنا بالسيارة .

عند زاوية الشارع ، أشار جوتفريد بيده الى العربة وقد تربع بها طفل ما ، في حين وقفت إلى جانبها امرأة ممتعة الوجه ، متوترة . قال جوتفريد :
- جميل . اليس كذلك ؟

صاحت باتريس هولمان :
- اعطها الدين ، إنها يكملان الصورة .

قال لينس :
- واحداً فقط ، لا الاثنين
- كلا الاثنين
- حسناً

قفز لينس من السيارة ورمى الدين بين يدي المرأة ، وعاد مسرعاً كالملاحق ، وقبل أن تستطيع المرأة التفوه بكلمة .
- انتهينا .

قالها متنفساً الصعداء

- إن شهامتي هذه تشير في أعماقي شعوراً بالتيؤ . انزلني أمام مقهى الأنترناسيونال ، فعلي أن أجرع كأسين من الكونياك للتخلص من هذا الشعور .

ترجل من السيارة بسرعة وبدون أن يلتفت إلينا . أوصلت بعدها الفتاة الى بيتها . كان الوداع يخلّف هذه المرة عما قبل . كم كانت جميلة وهي واقفة أمام الباب وقد انعكس ضوء مصباح الشارع على وجهها . تمنيت أن أرافقها في هذه اللحظة الى غرفتها .

- ليلة هانئة ، وتصبحين على خير .

- تصبح على خير .

وقفت أنظر إليها وهي تصعد السلم حتى أطفئ النور . بعدها انطلقت في الكاديلاك عائداً الى لينس بشعور غريب يحتاجني الآن . لم يكن هذا الشعور نتيجة رغبة جنسية تمتلك الانسان حين يمضي ليلة كهذه مع فتاة جميلة ، بل كان شعوراً مفعماً بالحنان والحب والرغبة في أن يفجر الإنسان كل طاقاته المكبوتة ليبحر معها إلى مكان سعيد في هذا العالم بعيداً عن واقعنا المقيت .

دخلت مقهى الأنترناسيونال ، فوجدت الحانة شبه خالية إلا من فريتيشي التي

كانت تجلس مع صديقها الوي النادل يتشاجران كعادتهما ، وجوتفريد الذي كان يجلس محاطاً بميمي وفالي على الديوان بجانب البار يحدثها بظرافة ونعومة ، موجهها أغلب حديثه الى ميمي . لم تمض فترة ، حتى خرجت الفتاتان للبحث عن صيد جديد ، ففي مثل هذه الساعات من الليل يبدأ ويزدهر عملهم الحقيقي .

نهضت ميمي وهي تثن من الألم الناتج عن الدوالي المنتفخة في أرجلها ومضت معهن بخطى وثيدة .

جلست الى جانب جوتفريد وبادرته القول :

- والآن ، هيا وافرغ ما في جعبتك .

- لماذا يا طفلي ؟

أجاب على سؤالي ببرود ، مما أثار دهشتي .

- ان ما تقوم به هو عين الصواب .

سررت لأخذه الموضوع بكل جدية وبساطة ، وقلت :

- كان بإمكانك أن تنفوه بكلمة طيبة من قبل .

أشار بيده :

- هراء .

طلب كأساً من الروم . تابعت حديثي قائلاً :

- انا لا أعرف شيئاً عن هذه الفتاة ، كما أنني لا أعلم مدى علاقتها مع بيندينغ .

هل حدثك عن علاقته بها في تلك الأمسية ؟

نظر الي :

هل يهملك ذلك كثيراً ؟

- كلا .

- هذا رأيي أيضاً . ان هذا المعطف يناسبك جداً .

احمر وجهي خجلاً ، فتابع حديثه :

- لماذا تحجل ؟ لا حاجة بك الى هذا الاحمرار . انك لم تقدم على عمل سيء ،

أنت محق . كم أتمنى لو كان بإمكانني ان افعل مثلك .

صمت برهة ، سألته بعدها :

- لماذا يا جوتفريد ؟

نظر إلي .

- لأن كل عمل خارج إطار الحب ، قدر .

- يا عزيزي روبي . لم تعد في ايماننا هذه أمور غيرها تستحق الذكر . فكر ملياً بما قاله لك فرديناند ، رسام الجثث العجوز . انه على حق . قم واجلس الى هذا الصندوق القديم واعزف لنا الحان الجنود .

عزفت مقطوعة الزنابق الثلاث ، فكان صدى هذا اللحن رهيباً ، في تلك الحانة الخاوية وتذكرت أيام الحرب حيث كنا جميعاً ننشد هذا النشيد .

- ٧ -

بعد يومين جاء كوستر مسرعاً من الحجرة إلى فناء الورشة :
- روبي . ان صديقك بلومنتال طلبك هاتفياً ، وأصر على مقابلتك له مع الكاديلاك في الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم . لا بد أنه يريد القيام بجولة تجريبية .

- رميت من يدي المفك والمطرقة وصرخت :

- اوتو يا عزيزي . لقد تمت الصفقة .

- هل تذكرون جيداً ما قلته لكم .

ارتفع صوت لينس من الحفرة ، حيث كان يعمل على اسفل الفورد . ثم تابع :
- سوف يعود ، هذا ما أكدته سابقاً . عليكم بسماع نصيحة جوتفريد دائماً ، فهو العارف بكل شيء .

صرخت به .

- اغلق منقارك أيها المتشدد المدعي . فالموقف جدي للغاية .

التفت إلى كوستر وسألته :

- كم هو المبلغ الذي أستطيع حسمه من السعر المقرر عند المساومة ؟
- ألفا مارك ، وأقصى حد الفان وميتا مارك . وإذا تمسك برأيه فيمكنك التنازل حتى الفين وخمسة مارك . أما إذا شعرت بأن الذي أمامك رجل مجنون ، فتنازل عن الالفين وستائة مارك . وعندئذ ستحل عليه لعنتنا إلى الأبد .
- حسناً .

غسلنا السيارة جيداً ، فبدت جديدة تلمع كالبرق . وضع كوستر يده على كتفي ، وقبل أن أنطلق بها قال :

- تذكر انك جندي قديم قام بأعمال أكثر أهمية من ذلك حافظ على كرامة الورشة ولو كلفك ذلك دمك . مت وأنت واقفاً ويدك ممسكة بمحفظة نقود بلومنتال .

ابتسمت بخبث :

ليكن ذلك ، اتفقنا .

- أخذ لينس يفتش في جيبه ، ثم أخرج تعويذة ووضعها أمام وجهي .
- إلس هذه التعويذة .
- ماذا يفيد ذلك ؟

ولمستها . أخذ لينس يتمتم قائلاً :

- آيرا آيرا . . أيها الشيوخ الكبير ، إعط هذا الجبان النذل الجرأة والقوة . توقف .
- خذ الحجاب معك ، فهذا سيساعدك في مهمتك . والآن ابصق ثلاث مرات :
- حسناً . وبصقت أمام قدميه ثم انطلقت بالسيارة ماراً ببيوب الذي أخذ يلوح بانبوب البنزين من شدة توتره . توقفت في الطريق ، وابتعت بعض أزهار القرنفل وزينت بها السيارة آملاً أن أوثر بذلك على مشاعر السيدة بلومنتال .

كم كانت خيبة أملي كبيرة ، عندما استقبلني السيد بلومنتال في مكتبه بدلاً من بيته . انتظرت ربع ساعة ورحت أحدث نفسي . إنني أعرف هذه الحيلة جيداً ، فهي لا تنظلي علي ولا تستطيع تحطيم حلمي .

تناولت زهرة قرنفل وقدمتها لسكرتيرته الجميلة . وبدأت في استجوابها عن أحوال المكتب وعن أعماله وملابسه التريكو . كان حجم المعاملات عنده جيداً : تسعة موظفين في المكتب ، وشريك هادىء . والشركة المنافسة له هي شركة ماير وأولاده . ان ماير يقود سيارة ESSEX بمقعدين . حصلت على هذه المعلومات قبل أن يطلبني بلومنتال إليه . دخلت الى غرفته الخاصة ، وما أن جلست حتى بدأ في إطلاق مدافعه الهجومية :

- أيها الشاب لا يوجد عندي الوقت الكثير لاضيعه في المساومة . كان المبلغ الذي طلبته في المرة السابقة خيالياً . ضع يدك على قلبك وقل كلمة صدق . ما هو ثمن السيارة النهائي ؟

- سبعة آلاف مارك .

استدار قليلاً :

- اذن ، لا مجال للاستمرار في الحديث .

- حاول إلقاء نظرة أخيرة على السيارة يا سيد بلومنتال .

قاطعني قائلاً :

- لم تعد هناك ضرورة لذلك ، فلقد القيت عليها نظرة دقيقة في المرة السابقة .

أوضحت له :

- نظرة ونظرة مختلفان . حاول أن تتحقق بنفسك من الأشياء الدقيقة : الطلاء نخب أول من شركة [فول وروربك] . تكاليفه على الورشة مئتان وخمسون ماركاً ، المكابح جديدة ، سعرها من المتجر ستائة مارك ، وهذا يعني ثمانمائة وخمسين ماركاً ، أما قماش المقاعد فهو من أفضل أنواع المخمل .

أشار بيده رافضاً . عاودت المحاولة من جديد . . . حاولت استفزازه ليلقي نظرة أخيرة على هذه الأشياء الباهظة التكاليف . غطاء السقف الرائع ، جهاز التبريد المغلف بالكروم ، المعدات الحديثة والتي يبلغ سعرها ستين ماركاً . وكالطفل الذي يسعى وراء أمه . اتجهت الى بلومنتال محاولاً إقناعه بالنزول عن رأيه وتفحص الكاديلاك . كنت متأكداً انه لتحقيق ذلك يجب أن تنبت لي من الأرض قوى خارقة كما حدث في أسطورة Antäus . ان الاسعار تفقد كثيراً من صدمتها التجريدية ، إذا استطاع الانسان ان يوضح تبريراً لهذه الاسعار .

كان بلومنتال يعلم بالتأكيد ان قوته تكمن وراء مكتبه ، نزع نظارته عن عينيه ووضعها على المكتب ، كأنه يستعد لمنازلتي وهكذا تصارعنا كتصارع فهد مع أفعى البيتون وتوصل إلى تخفيض السعر بقدر ألف وخمسمائة مارك .

شعرت بالخوف ، فأدخلت يدي في جيبي وأخذت أتلمس تعويذة جوتفريد ثم خاطبته منهكاً :

- يا سيد بلومنتال . الساعة قاربت على الواحدة . لا شك ان موعد الغداء قد حان .

انتابنتي رغبة جامحة في الخروج من تلك الحجرة ولو كلفني ذلك العالم كله ، تلك الحجرة التي اصبحت الأسعار فيها تذوب كالثلج . أجاب بلومنتال بلا حراك :

- انا لا اتناول طعام الغداء قبل الثانية . إذن ، لنقم الآن بجولة تجريبية .

تنفست الصعداء .

- بعد ذلك نتابع حديثنا .

قاد السيارة الى بيته باتزان ظاهر . غريب أمر هذا الرجل فلقد تحول فجأة خلف المقود إلى انسان آخر ، لطيف ودود ومرح . روى لي طرفه كنت أعرفها عن القيصير فرانسوا جوزيف ، فصنعت الضحك مجاملة ورحت أروي الطرفة تلو الاخرى ، يدفعني الخوف من العودة الى المساومة من جديد . ولم أتوقف عن السرد إلا حينما توقفنا أمام بيته ، وعاد كل منا إلى وضعه الجدي السابق . استأذني بلومنتال ريثما يحضر زوجته .

- يا عزيزتي الكاديلاك البديعة .

قلت ذلك وضربت بيدي على المقود . خلف هذه الطرائف تكمن تخطيطات شيطانية . تماسكي أيتها الكاديلاك ، سوف يشتري دون أدنى شك . أنا أعلم ان اليهودي ، إذا عاد مرة ثانية إلى البضاعة فهذا يعني انه صمم على شرائها . أما المسيحي فعودته لا تعني شيئاً ، انه يقوم بدزينة جولات تجريبية وبعد أن يتفق على السعر يفتن إلى انه في حاجة ماسة إلى أثاث المطبخ ، فيعدل عن الشراء . اقسام لك ايها الكاديلاك الحبيبة بأنه إذا استطاع ذلك السليل المباشر ليهودا الأسخريوطي فنص مائة مارك أخرى ، فلن أشرب في حياتي جرعة كورن واحدة .

تذكرت كل نصائح لينس حين ظهرت السيدة بلومنتال . فتحولت فجأة من محارب الى فارس . قابل بلومنتال هذا التحول ببسمة ساخرة . انه مجبول بلا شك من الحديد . كان من الأفضل له أن يكون بائع قاطرات عوضاً عن بائع للملابس القطنية . رتبت الأمور بحيث جلس هو في الخلف بينما جلست زوجته الى جانبي .
- إلى أي مكان ترغبين في التجوال ؟

سألتها بكثير من التقرب . فأجابت :

- إلى أي مكان تريده .

وارتسمت على وجهها ابتسامة حنون كابتسامة أم . وبدأت في إغرائها على الحديث . انها لنعمة من السماء أن تقف أخيراً أمام إنسان وديع . تكلمت بصوت منخفض لكي لا يتسنى لبلومنتال سماع الحديث ولأتحديث بحرية أكثر ، فجلوسه في الخلف كان كافياً لاغاظته . بعد جولة قصيرة توقفنا وترجلت من السيارة ونظرت بقسوة الى عدوي اللدود .

- عليك أن تعترف يا سيد بلومنتال بأن هذه السيارة تناسب كالزبدة .

أجابني بلهجة لطيفة استغربتها منه :

- ماذا تعني بالزبدة ؟ ايها الشاب أريد أن أطلعك على شيء هام ، ان الضريبة هي التي ستأكل هذه الزبدة .
- يا سيد بلومنتال .

قلت ذلك محاولاً الحفاظ على اللهجة اللطيفة تلك .

- سأتحديث اليك بكل استقامة ، وبدون لف أو دوران ، فأنت رجل أعمال كبير تعرف ان المبالغ الطائلة التي تسميها ضريبة ، ليست ضريبة وإنما نفقات يمكنك حسمها من الضرائب المفروضة عليك . اقتناء الكاديلاك أمر ضروري لعملك ،

أنت تعرف ان العمل التجاري الناجح في يومنا هذا ، لا يتطلب كما في السابق رأسمال موجود ، بل تحويلاً من المصارف ، بشكل قروض . ولكن كيف الحصول على القرض . ان المظهر الخارجي هو الذي يحدد ذلك ، فسيارة الكاديلاك هذه أنيقة ومريحة وهي رمز للطبقة البرجوازية الصحيحة ، وإعلان حي عن المؤسسة التجارية الناجحة .

استدار بلومنتال الى زوجته ساخراً وقال :

- ان حجمته تحوي دماغاً يهودياً . أليس كذلك أيها الشاب ؟

قال ذلك بكثير من عدم الكلفة وتابع قوله :

- أفضل مظهر لهذا العصر هو الاعتدال ، أي لبس بزة مهترئة وركوب سيارات النقل العامة .

نظرت اليه بارتياح مسائلاً نفسي عما يبغى بلطفه الزائد . ترى هل وجود زوجته إلى جانبه هو السبب في التخفيف من روحه القتالية . وتمنيت في قرارة نفسي ان أطلق عليه النار ، ولكن سرعان ما تملكني الهدوء ، ورددت بلطف :

- ان سيارة الكاديلاك شيء مختلف تماماً عن سيارة الـ ESSEX اليس كذلك يا سيدتي ؟ إن المدير العام لشركة ماير يقود سيارة من ذلك الطراز أما أنا شخصياً ، فلا أقبل مس تلك الزحافة بلونها الاحمر الفاقع ، حتى ولو قدمت لي كهدية .

سمعت بلومنتال ينفخ من الغيظ ، فتابعت حديثي بسرعة ، وبلا اكتراث لما يقول :

- ان لون هذه السيارة يناسبك بلا شك يا سيدتي الوقورة ، فاللون الازرق الكوبالتي يلائم الشقراوات . علت وجه بلومنتال فجأة ابتسامة ساخرة وبدا كغابة تضج بالقردة . تنهد وقال :

- ماير وشركاه . عظيم ، عظيم ، والان جاء دور التنزلف .

نظرت إليه ولم أصدق عيني ، فقد كان يتكلم بجدية وصدق ، أجبته بنفس اللهجة :

- هل تأذن لي يا سيد بلومنتال بأن أصحح خطأ ارتكبته . فالتزلف للمرأة لا يعني تزلفاً بالمفهوم العام . انه يعد إطراء . لقد أصبح ، مع الأسف ، نادراً في عصرنا الشقي هذا ، فالمرأة ليست قطعة أثاث فولاذية بل زهرة ، لاحتجاج الى الموضوعية فقط ، بل إلى مداعبات مرحة وإلى بعض التأكيدات لذاتها ، فهي تعمل طوال النهار في البيت ، وبين جدرانها الأربعة كالحَيوان . هذا ما كنت أود أن أبوح به وأفكر به

في سري ، ولا أظن اني تزلفت بل حاولت أن أوضح قانوناً فيزيائياً معروفاً ، ألا وهو أن الأزرق يلائم الشقراوات .

أجاب بلومنتال فرحاً :

- لقد نجحت أيها الأسد . والآن إسمعني جيداً يا سيد لوكامب . أستطيع أن أساوئك بسهولة على ألف مارك اخرى .

رجعت خطوة إلى الخلف . لقد بدأ هذا الشيطان الخبيث بتسديد الضربة التي كنت أنتظرها . يشئت من الأمر وتحيلت نفسي زاهداً يتحول في هذه الحياة . ثم جمعت أطراف شجاعتي وتوجهت إلى السيدة بلومنتال بنظرة ايل معذب . فانجدتني بقولها :

- ولكن أيها الأب .

- دعي ذلك أيتها الأم . اني أستطيع ذلك ، ولكنني لن اقدم عليه لقد سرتني طريقتك في التعامل كرجل أعمال ناجح . مع الأسف فأنا ما زلت خيالياً . على أي حال ، المقارنة مع ماير وشركاه كانت ناجحة . قل لي : هل والدتك يهودية ؟

- كلا .

- هل عملت يوماً في تجارة الملابس الجاهزة ؟

- أجل .

- إذن ، من هناك جاءت طريقتك المميزة في التعامل . ثم استطرد قائلاً :
- يا سيد لوكامب . أهتثك على هذا الفوز ، وإذا وجدت نفسك يوماً عاطلاً عن العمل فاتصل بي .

كتب شيكاً وناولني إياه . لم اصدق عيني . المبلغ كله وبدون تقسيط . إنها أعجوبة حقاً .

توجهت إليه بالحديث .

- يا سيد بلومنتال .

وبدأ شعور من الغبطة يسيطر علي .

- هل تأذن لي باهدائك منفضتي سجائر إضافية من الكريستال ومداسة أرضية من المطاط الأصلي .

- حسناً . يا للعجب . العجوز بلومنتال يحصل أخيراً على هدية .

دعاني الى العشاء في مساء اليوم التالي ، بينما راحت السيدة بلومنتال تبتسم لي ابتسامة مفعمة بالأمومة .

قالت :

- سوف نقدم لك سمك الكركي المحشي .
- إنه طعام فاخر ، سوف آتيكم بالسيارة بعد أن نضفي عليها اللبسة الاخيرة في صباح الغد .

طرت كالسنونو عائداً إلى الورشة . لم يكن أحد هناك غير يوب . فكوستر ولينس ذهبا لتناول العشاء .

بادرني يوب بالسؤال :

- هل بعثها ؟

- هذا ما تسعى لمعرفة أيها المتسكع خذ هذا الدرهم واشتري به طائرة إذا أردت .

ابتسم بكثير من الخبث :

- هذا يعني انك بعثها .

- إنني ذاهب الآن لتناول الطعام ولكن الويل لك إذا اخبرت الآخرين بذلك قبل عودتي .

- يا سيد لوكامب .

قال ذلك بينما اخذ يرشق الدرهم في الهواء .

- انني صامت كالقبر .

- هذا انطباعي الحالي عنك الآن .

قلت ذلك بينما ضغطت بشدة على بدال الوقود وانطلقت في السيارة مبتعداً عن الورشة .

عندما عدت إلى الورشة أشار لي يوب .

- ما الخبر ؟ ألم تحسن إغلاق منقارك ؟

- بلى يا سيد لوكامب فلقد اغلقتة بالحديد .

ابتسم كعادته وقال :

- ولكن ذلك الحقير الشحيح رجل الفورد في الداخل .

أوقفت الكاديلاك في الفناء الخارجي واتجهت إلى الورشة . شاهدت الخباز هناك منحنيًا يتأمل كتاباً مليئاً بعينات الألوان ، يرتدي معطفاً من قماش كثير المربعات له حزام بينما لف حول ذراعه شريطاً أسود كرمز للحداد ، وقفت إلى جانبه امرأة جميلة سمراء ذات عينين سوداوين سريعتي الحركة ، ترتدي معطفاً مفتوحاً مبطناً بفراء

ارنب وتتعل حذاء اسود لامعا . فضّلت المرأة السمراء اللون القصديري المشع للسيارة ، بينما رفض الخباز اللون الفاقع ، ربما لكونه في فترة الحداد واقترح لونا أصفر رمادياً ، شاحباً .
- ما هذا اللون ؟

قالت المرأة بتقرز .

- على الفور أن يطلى بلون فاقع وإلا أصبح مظهرها يوحي بالعدم .

ثم أخذت ترمقنا بعداء ، وتهز أكتافها . غمزت لي بعينها ولوت شفيتها . انها طفلة حيوية . وأخيراً اتفق الاثنان بعد عراقك طويل على لون اخضر بلون البليخاء . هذا بالنسبة للطلاء الخارجي ، اما بالنسبة للكساء الداخلي فلقد اختار الخباز كساء جليدياً أسود اللون ، يتناسب مع مظاهر الحداد ، بعكس اللون الذي اختارته تلك المرأة السمراء استطاع ان يكسب كساء جديداً باهظ الثمن ، دون ان يكلفه قرشاً واحداً . فالجلد الأسود يعتبر من أجود المواد وأبهظها سعراً في ورشتنا .

خرجنا من الورشة وعادنا ليتوقفا في الفناء وانطلقت السمراء الى الكاديلاك كالصاروخ صائحة :

- أنظر إليها يا بوبي كم هي فاخرة . انها تعجبنى .

لم تمض دقيقة واحدة حتى فتحت باب الكاديلاك وجلست في داخلها .
- آه ما أؤثر هذه الاراتك ، انها تشبه أرائك ناد فاخر . كم هو شاسع الفرق بينها وبين الفوردي .

- دعك من هذا الكلام ودعينا نمضي .

ركلني لينس وغمز لي مشيراً أن اذهب إلى الخباز فوراً لاقنعه بشراء الكاديلاك . نظرت الى جوتفريد من أعلى إلى أسفل ولذت بالصمت . أعاد الكرة وركلني بعنف . أعدت له الحركة وأدرت له ظهري . بصعوبة استطاع الخباز إخراج جوهرته السوداء من داخل السيارة . فلقد أمسك بها بشدة وخرج ، دافعاً إياها أمامه عبر الفناء . لاحقناه بنظراتنا .

- انه رجل سريع في اتخاذ القرارات الحاسمة ، فهو يستحق كل الاحترام .

- سيارة أعيد ترميمها ، وامرأة جديدة .

أجاب كوستر :

- انه سيسعد بلا شك برفقتها .

لم تمض برهة على اختفاء الضيفين حتى أخذ جوتفريد يزعق في وجهي :
- هل تركك الإله وحيداً هكذا لتضيع عليك مثل هذه الفرصة يا روبي لقد كانت
فرصة مثالية لعقد صفقة رابحة .

اجبته :

- أيها الرقيب الأول لينس ، للمم عظامك جيداً قبل البدء بمخاطبة رئيسك . هل
تظنني من مناصري تعدد الزجات فاعقد قران هذه السيارة مرتين .

كانت لحظة خالدة بالنسبة لي وأنا أرقب جوتفريد يقف باستعداد أمامي وقد
اتسعت حدقتاه وكأنها أطباق .
- لا تحاول ان تمس بمزاحك الأمور المقدسة .

قالها بتلعثم .

لم أعره أي انتباه ، بينما توجهت بحديثي الى كوستر :
- اوتو . لنودع إبننا الكاديلك الذي سيرحل ويساعد في ازدهار متاجر السراويل
الداخلية . أمل ان تكون حياته جيدة هناك .

أخرجت الشيك . بدا لينس وكأن اجزاءه اخذت تنفصل بعضها عن بعض
وتساقط .

- لا اصدقك .. ماذا ؟ .. هل .. وقع ؟

خرج صوته مبوحاً هامساً .

سألته بينما رحت ألوح بالشيك :

- أيها المبتدئ . إحزروا بكم هذا الشيك ؟

- أربعة

صرخ لينس مغمضاً عينيه .

- أربعة ونصف .

قال كوستر

- خمسة .

صاح يوب الواقف الى جانب مضخة الوقود :

- خمسة ونصف .

اختطف لينس الشيك من يدي .

- غير معقول . لا بد وان هذا الشيك بدون رصيد .

- يا سيد لينس .

قلك ذلك بكثير من الوقار .

- ان الشيك مغطى بقدر ما انت مرتبك . صديقي بلومنتال يستطيع أن يدفع هذا المبلغ عشرين مرة بلا تردد . صديقي هذا دعاني للعشاء مساء الغد ، سمك محشي . تعلم يا لينس كيف تنشأ الصداقات . المبلغ مقدماً ودعوة للعشاء . والآن تستطيع ان تغير من وفتتك .

بصعوبة ، استطاع لينس أن يتالك نفسه ، ثم قام بمحاولة أخيرة للتأكيد على مساهمته في نجاحي .

- هل نسيت إعلاني والتعويذة ؟

مددت له التعويذة .

- هذه هي علامة الكلاب . خذها . لقد نسيتها تماماً .

قال كوستر :

- لقد استطعت بيعها بشكل رائع يا روبي .

- الحمد لله اننا استطعنا التخلص من هذه الزحافة الفاخرة ، كم نحن بحاجة الى النقود الآن .

سألته :

- هل تستطيع إقراضي خمسين ماركاً ؟

- لتكن مئة . إنك تستحقها .

- والآن دعونا ننهي العمل اليوم . يكفي ما كسبناه هذا اليوم . على الانسان ان لا يكثر من طلباته من الله . ولتأخذ كارل معنا للتدرب على السباق .

كان يوب قد ترك مضخة البنزين خلفه متناسياً وجودها وأخذ يفرك يديه من شدة التوتر .

- يا سيد لوكامب . أظن أنه من واجبي أن أقوم بالادارة في حال غيابكم . اليس

كذلك ؟

أجابه كوستر ضاحكاً :

- كلا ، سترافقنا .

عرجنا في طريقنا إلى المصرف حيث أودعنا الشيك . لم يستطع لينس الاسترخاء إلا بعد أن تأكد من قانونية الشيك .

- ٨ -

وقفت قبالة صاحبة البنسيون حزينا . سألتني بتعجب :
- ما بك ؟

- لا شيء البتة ، ولكنني أريد دفع الأجرة .

كان لا يزال هناك ثلاثة أيام على انتهاء الشهر ، الأمر الذي أثار دهشة واستغراب السيدة تساليفسكي .

- لا بد وان وراء هذه العجالة أمراً ما ؟

قالت ذلك بكثير من الخبث .

- لا ، ولكن هل استطيع استعارة الارائك المنجدة بالبروكار من الصالون لهذه الليلة فقط ؟

ثبتت يديها على وركيها البدينتين واستعدت للنزال .

- هذا هو السبب إذن . قل لي : ألم تعد ترووك غرفتك ؟

- بالطبع ما زالت ترووني ، ولكن تلك الارائك أجدها أجمل .

حاولت إيضاح الأمر للسيدة تساليفسكي بأنني انتظر زيارة ابنة عمي ، ولذا أريد أن أحسن من وضع الغرفة .

أخذت تضحك بشدة مما أدى الى اهتزاز نهديها .

- ابنة عم ؟ . . رددت بسخرية .

- الامر ليس أكيداً بعد ، إذا تحقق الأمر وجاءت فسيكون ذلك في وقت مبكر من

الليل وستناول طعام العشاء هنا . ولكن هل وجود ابنة عم لي أمر مستهجن يا سيدة تساليفسكي ؟

- بالطبع هناك بنات عم ، ولكن لا أحد يستعير ارائك جديدة بسبب زيارة ابنة عم له .

أجبتها بتحد :

- اما أنا فأقوم بذلك . إنني أحترم الصلات العائلية وأقيم وزناً كبيراً لها .

- هكذا يبدو لي . انكم جميعاً متشابهون ابها المدللون . خذ الأرائك هذه ،
وضع مكانها الأرائك الحمر .
- شكراً لك . غداً سأعيد كل شيء إلى مكانه والسجادة أيضاً .

استدارت إليّ :

- السجادة ؟ ومن الذي ذكر كلمة واحدة عن السجادة ؟
- أنا وأنت أيضاً الآن .

نظرت إليّ وكمن جرد من جميع اسلحته :
- السجادة تابعة للأرائك . أليس كذلك ؟
- يا سيد لوكامب .

قالت ذلك بكثير من الملوكية :

- لا تتطرف كثيراً ، فالاعتدال خير الامور . انها كلمة مأثورة للمرحوم
تساليفسكي . آمل ان تتذكرها دائماً .

كنت أعلم علم اليقين ان المرحوم تساليفسكي ، رغم فلسفته الكبيرة هذه ، قد
قضى نجه مخموراً ، زوجته نفسها أسرت لي بذلك في عدة مناسبات . ولكن هذا لم
يؤثر عليها كثيراً . فقد كانت تذكر كلمات زوجها باعتزاز كما يذكر غيرها كلمات
التوراة للاستشهاد فقط ، وكانت كلما مر زمن أطول على موته ، كلما زادت في نسب
الكلمات المأثورة اليه ، فهو راع لكل هذه الكلمات كرعاية الله لكلمات التوراة .
ذهبت إلى غرفتي محاولاً توضييبها ، بعد أن تكلمت مع باتريس هولمان بالهاتف .
ذكرت لي انها كانت مريضة . كان قد مضى اسبوع كامل على لقائنا الأخير . تواعدنا
على اللقاء في تمام الثامنة واقترحت عليها أن نتناول طعام العشاء في غرفتي ثم الذهاب
إلى السينما بعد ذلك .

أضفت الأرائك والسجادة على الغرفة جواً من الأبهة . أما الاضاءة فكانت
سيئة . لذا قرعت باب جيراني هاسه لاستعارة مصباح المنضدة .

وجدت السيدة هاسه تجلس متعبة امام النافذة تنتظر زوجها الذي لم يكن قد عاد
بعد من عمله . كان يعمل يومياً ساعتين خارج أوقات دوامه وبلا مقابل ، أملاً من
هذا تأجيل تسريحه . نظرت إلى السيدة هاسه ، فذكرني وجهها النحيل بعصفور
مريض . فبالرغم من اخاديد وجهها التي تظهر علائم الكبر ، كان يبرز من خلاله
وجه طفل حزين . أسريت لها باحتياجي ، انتعشت واحضرت المصباح .
- آه - تهتدت قائلة : عندما أفكر في الماضي .

كنت أعرف القصة بكاملها ، عن تصوراتها وطموحاتها قبل أن تتزوج السيد هاسه . كما وانني كنت أعرف آراء السيد هاسه وطموحاته لو بقي عازباً . لا بد ان هذه القصة اكثر قصص العالم شيوعاً : تمن بلا أمل .

استمعت إليها قليلاً ، معطياً إياها بعض التأكيدات ثم اكملت طريقي إلى إيرنا بونينغ لاستعارة الحاكي .

السيدة هاسه حين تذكر إيرنا تقول فقط- السيدة التي تقطن بجوارنا - فهي تحقرها . ولكنني كنت متأكداً من انها تحسدها في قرارة نفسها على حياتها .

وأنا بدوري كنت اميل إليها . فلم تكن إيرنا لتأخذ الحياة بشكلها الجدي ، فهي تعلم ان على الانسان أن يجتهد كثيراً للحصول على حفنة صغيرة من السعادة ، وتعلم ان على الانسان أن يدفع غالباً في كثير من الأحيان ثمن هذه السعادة .

السعادة هي اكثر الامور غموضاً وابهظها ثمناً .

ركعت إيرنا امام حقيبتها واخذت تختار لي بعض الاسطوانات .

سألتي :

- هل ترغب في موسيقى راقصة ؟

- شكراً فأنا لا أجيد الرقص .

رفعت نظرها إلي بتعجب .

- لا تجيد الرقص . ولكن ماذا تفعل عندما تخرج إلى مكان ما في المساء ؟

- أرقص ببلعومي ، وهذا أمر سهل .

هزت رأسها :

- لا استطيع معاشره رجل لا يجيد الرقص .

- تعجبني صراحتك ومحافظتك على مبدئك . ولكن ألا يوجد بحوزتك

اسطوانات أخرى . منذ مدة سمعت من خلال الباب موسيقى هادئة وصوتاً انثوياً جميلاً . اللحن على طريقة موسيقى هاواي .

- آه . انها رائعة ، (كيف استطعت العيش بدونك) اليس كذلك ؟

- صحيح . ولكن كيف يفكر شعراء الأغنية بكل هذه الأمور ؟ انهم بلا شك

القلة الباقية من الرومانسين .

ضحكت :

- ولم لا ؟ فالحاكي اليوم يوازي ما كان بالامس دفتر ذكريات . كان المرء في

السابق يدون بعض الابيات الشعرية في مثل هذا الدفتر كهدية للغير . أما اليوم فانه يهدي اسطوانة . عندما أريد أن أتذكر شيئاً ، أضع الاسطوانة المناسبة ، وفي الحال تعود الذكرى لتصبح حقيقة .

نظرت إلى اكداس الاسطوانات المبعثرة على الارض :
- من يرى هذه الأعداد الكبيرة من الاسطوانات ، يدرك انك تحملين اكواماً من الذكريات يا إيرنا .

نهضت وازاحت خصلة شعر تدلت على جبينها من شعرها الأحمر الكثيف .
- بالطبع .

قالت ذلك وازاحت بقدمها مجموعة من الاسطوانات .
- إنني افضل ذكرى حقيقية واحدة على كل هذا .

عدت الى الغرفة ووضعت كل ما ابتعته للعشاء على المنضدة . حاولت جاهداً وضع كل شيء في مكانه المناسب . لم أكن أتوقع مساعدة أحد . ففريدا لم تكن تحمل لي سوى شعور العداء . حاولت العمل بمفردي . وبعد فترة غابت عني معالم غرفتي التي برزت تحتال ببهاء جديد : الارائك ، المصباح الجانبي ، المائدة المعدة . وعندما انساب الحلم الندي ، بدأ شعور الانتظار القلق ينتفض في داخلي .

خرجت من الغرفة ولا تزال أمامي ساعة كاملة من الوقت . في الخارج كانت الريح تعصف مزججة عبر الشوارع المضاءة بالمصابيح ، والسماء من خلف البيوت تبدو بزرقه البحر ، ومقهى الانترنتاسيونال يسبح في الغسق كسفينة حربية محطمة .

دخلت المقهى لدقائق فقط . فصاحت روزا :

- مرحباً يا روبيرت .

- ما بالك لا تزالين جالسة هنا ؟ الا تذهبين الليلة للعمل ؟

- ما زال الوقت مبكراً .

اقتربت منا ألوي كالافعي :

- كأس ؟

- لا ، بل ثلاث كؤوس .

قالت روزا :

- انك مستعجل جداً .

- انني بحاجة الى بعض القوة .

قلت ذلك ورحت أجرع كأس الروم .
- هل ستعزف لنا بعض الألحان ؟

هزرت رأسي بالنفي .

- لا مزاج عندي للعزف . فالיום عاصف جداً . أخبريني ما هي أحوال
صغيرتك ؟

ابتسمت مفرجة عن أسنانها الذهبية :

- كل شيء على ما يرام . سأذهب غدا لزيارتها . اما بالنسبة للعمل فكان جيداً
هذا الأسبوع ، أنت تعرف بالتأكيد مدى تأثير الربيع على الوعول . لذا فكرت بأن
إبتاع للصغيرة معطفاً أحمر بياقة صوفية .

- الصوف الأحمر حسب معلوماتي - آخر صيحات الموضة .

- انك فارس حقيقي يا روبي .

- آمل أن لا تكوني مخطئة جداً في رأيك . هل تشربين معي كأساً ؟

هزت رأسها موافقة وشربنا .

- حدثيني يا روزا . ما رأيك في الحب ؟ أنت تفهمين الكثير عنه .

انفجرت ضاحكة :

- كف عن ذلك .

ثم تابعت :

- الحب ، عندما أفكر في آرثر ، ذلك الوغد ، ترتجف قدماي . إسمع ما سأقوله
لك بكل جدية ، ان حياة الانسان أطول من أن تقتصر على حب واحد . انها طويلة
جداً . نعم هذا ما قاله لي آرثر مودعاً يوم هجرني : انه قول صحيح . الحب رائع بلا
شك ، يبدو للطرف الاول طويلاً جداً بينما يبقى الطرف الثاني ينتظره وحده ، يحدق
في المجهول ، كما يحدق المخبول .

- صحيح ما تقولين . ولكن الانسان بلا حب كجثة في عطفة .

- لِمَ لا تفعلي مثلي . فانا أنجبت طفلة ، وهكذا تجد من تحب فتستريح .

- ليس كلامك غيباً . ان هذا ما ينقصني بالتأكيد .

أخذت روزا تميل برأسها بشكل حالم .

- كم ضربني آرثر ، وكم تحملت إهائته وفضاضته . بالرغم من ذلك ما أزال

أحبه ، وسأهرع لاحضانه لودخل علينا الآن ببطيختين وبرأسه المائل إلى الورااء . يا
إلهي كم أهتز حين أفكر به .

- هل تودين أن تشربي نخب آرثر؟

ضحكت روزا ورفعت الكأس صائحة :
- ليعش وعل العاهرات .

شربنا اقداحنا .

- الى اللقاء يا روزا . اتمنى لك عملاً موفقاً هذه الليلة ايضاً .
- شكراً ، الى اللقاء يا روبي .

* * * *

فتح باب البيت .

- مرحباً .

قالت باتريس هولان - تبدو مستغرقاً في أفكارك .

- كلا ، ولكن كيف حالك انت ؟ هل تعافيت ؟ ماذا كان مرضك ؟

- آه ، لا شيء ، رشح وارتفاع قليل في الحرارة .

لم يكن مظهرها يوحي بأنها مريضة ، بل على العكس ، فأننا لم الحظ من قبل
اتساع وتوهج عينيها كهذه الليلة ، كان وجهها محمراً قليلاً وحركاتها رشيقة
كالغزال .

قلت لها :

- انك تبدين رائعة وصحيحة الجسم . دعينا نخرج الليلة .

- هذا اقتراح عظيم ، ولكن لا أستطيع الخروج معك هذه الليلة .

حملت بها مشدوها :

- لا تستطيعين ؟

هزت رأسها .

- للأسف ، لا .

ازدادت حيرتي ودهشتي ، وعلمت أنها رفضت دعوتي لتناول العشاء في غرفتي .

قالت :

- لقد كلمتك بالهاتف ، كي لا تتعب نفسك بالمجيء لعندي ، ولكن لسوء الحظ

لم أجدك في البيت .

بدأت أفهم تدريجياً ماذا تعني . سألتها :

- ألا تستطيعين المجيء في أي ساعة من هذا المساء بأكمله ؟
- المساء بأكمله ، فلدي موعد في مكان ما ، لم أعلم بذلك إلا قبل نصف ساعة فقط .

- هل بإمكانك تأجيل ذلك الموعد ؟

ضحكت :

- لا . لا أستطيع ذلك . انها مسألة يمكن أن تسميها عملاً .

شعرت وكمن تلقى ضربة قاسية على رأسه . لم أحسب لذلك حساباً ، ولذا صعب علي تصديق كلامها . موعد . . . مظهرها لم يكن يوحي بأنها ذاهبة الى موعد عمل . ربما كانت هذه كذبة ، هل يعقل وجود جلسة عمل في مثل تلك الساعة المتأخرة ؟ هذه الجلسات تكون في الغالب قبل الظهر . أمن المعقول أن لا تعرف موعداً كهذا إلا قبل نصف ساعة منه . إنها لا تريد المجيء إلى غرفتي . هذا هو السبب .

شعرت وكأنني طفل أصيب بخيبة أمل كبيرة . ففرحتي بهذه الليلة كانت لا تعادها فرحة . لمت نفسي لردة فعلي تلك وحاولت التماسك كي لا تشعر هي بذلك . قلت :

- ليكن ما تريدين . فلم تعد هناك إمكانية لتغيير ذلك . مع السلامة .

نظرت الي نظرة غامضة :

- الأمر لا يستوجب كل هذه السرعة . الموعد في التاسعة وما زال أمامنا متسع من الوقت للقيام بنزهة صغيرة . فانا لم أبرح البيت طوال الاسبوع الفائت . - حسناً .

قلتها بعدم رضى . فجأة شعرت بالتعب بنتابني ويلفني فراغ كبير . سرنا على الطريق . كانت السماء صافية وقد تلالأت النجوم من بين الأسطح . مررنا على أرض معشوشبة ، انتصبت في أحد زواياها بضع شجيرات . توقفت باتريس هولمان ثم قالت :

- ليلك . انها رائحة الليلك ، ولكن هذا غير معقول ، فلم يحن موعد إزهارها بعد .

أجبتها :

- ولكنني لا أشم شيئاً .

- انني متأكدة من رائحة الليلك .

قالت ذلك وقد انحنت على العشب ، محاولة قراءة اللافتة الصغيرة التي تحمل اسم تلك الشجرة .

- انها شجرة Daphneindica يا سيدتي .

خرج ذلك الصوت الجاف من الظلام . انه صوت بستاني ضخم الجثة كان يقف متكئاً على جذع شجرة . اقترب البستاني منا مترنحاً وقد لمعت عنق الزجاجة من جيبه .

- قمنا اليوم بغرسها .

- شكراً لك .

أجابت باتريس هولمان الرجل الذي اخذ يلهث بقوة . استدارت إليّ .

- ألم تشمها بعد ؟

أجبتها مكرهاً :

- الآن بدأت اشم شيئاً . انها رائحة كورن معتقة .

- حذرت ذلك .

أجاب الرجل الضخم الواقف في الظل . لقد شممت الرائحة الحلوة المركزة وانكرتها تحذوني الرغبة في عدم موافقة الفتاة على رأيها مقابل كنوز العالم بأسره . ضحكت باسطة ذراعيها كمن نهض لتوه من السرير .

- كم يبدو كل هذا جميلاً ، خاصة بعد أن أمضيت أسبوعاً كاملاً في الغرفة . من المؤسف حقاً ترك هذا المكان والذهاب الى الموعد . هذا اللعين بيندينج . دائماً في سرعة من أمره وفي آخر لحظة . كان باستطاعته تأجيل هذا الموعد الى الغد .

سألتها :

- بيندينج . هل أنت على موعد معه ؟

أطرقت موافقة .

- سألتقي بيندينج وشخص آخر ، وعليه يتقرر الأمر . المسألة مسألة عمل . هل

تستطيع تصور ذلك مع بيندينج ؟

- كلا لا أستطيع ذلك .

ضحكت وأكملت حديثها : لكنني لم أعد أستمع إليها . نزل اسم بيندينج عليّ كالصاعقة لينخر عظامي . لم أكن أتوقع استمرار صداقتها . بدأت تتراقص أمام عيني سيارته البويك الفاخرة ، لباسه الثمين ومحفظته المليئة بالنقود ، مسكينة أنت يا غرفتي الجميلة المزدانة بأثاث الغير . ماذا دهاني ، لأمني نفسي كل تلك الأحلام ؟

ان هذه الفتاة لاتناسبني ، ماذا أملك ؟ أنا رجل يقطع المسافات مشياً على الأقدام . تمكنت مرة واحدة من استعارة الكاديلاك ولساعات معدودات فقط . انها تستطيع ان تعثر على رجل مثلي في كل زاوية من زوايا الطريق . بدأت أتصور بواب مطعم الكرمة وهو يقف مشدود العضلات ليحيي بيندينج . ورأيت الاضواء الدافئة والصالونات الفاخرة وغيوماً من الدخان ، وأناشيد في غاية الاناقة . بدأت أسمع أصوات الموسيقى والضحك تهزأ بي . العودة . عليّ أن أعود مسرعاً من حيث أتيت آمال . . . تمنيات . يا لها من أمور بعيدة عن الواقع ، إنها أضغاث أحلام لا يمكن تحقيقها . من العبث متابعة تلك الأحلام . عليّ العودة ، وبسرعة الى واقعي قبل أن أضيع فيها .

- قالت باتريس هولمان :

- لقد حان وقت الموعد . عليّ أن أعود بسرعة . نستطيع أن نلتقي غداً مساءً إذا أردت ؟

- عليّ الكثير من الأعمال في الغد .

- ليكن بعد غد أو في أي يوم آخر في غضون هذا الاسبوع . فانا لست مرتبطة بأي موعد ،

- يبدو الأمر صعباً . لقد تلقينا عرضاً مغرباً وعلينا تنفيذه في خلال هذا الاسبوع . سيضطرنا ذلك إلى العمل حتى ساعات متأخرة من الليل .

لقد كذبت عليها ، فالحقد والغضب ملاً صدري وأجبراني على التصرف بهذه الفظاظة . عبرنا المكان ومررنا بالمقبرة القريبة من مقهى الانترنتاسيونال . رأيت روزا تسير في اتجاهنا ، بجزمها اللامعة . كان بإمكانني تغيير جهة سيرنا ، ولكن تابعت سيرتي متجهاً إليها .

مرت بي روزا وكأنها لم ترني من قبل .

قلت :

- مرحباً يا روزا .

نظرت إليّ أولاً ثم ألى باتريس هولمان بتعجب ثم ردت التحية وتابعت سيرها متعثرة ، وخلفها بخطوات جاءت فريسي تلوح بحقيبتها وتهز أوراكيها وقد أكثرت من الطلاء الأحمر على شفيتها ، نظرت إليّ بكثير من اللامبالاة .

- مرحباً يا فريسي .

أحنت رأسها كالملكة دون أن تفضح تعجبها . ولكنني سمعتها تستعجل

الخطى . كان باستطاعتي أن أعرج إلى طريق جانبي متحاشياً لقاء بقية الزمرة التي ستخرج الآن من الانترنتسيونال ، فهذا هو موعد خروجهم للعمل . لكنني تابعت السير يتملكني شعور كبير بالتحدي . لماذا أتخاشهن ، اني أعرفهن أكثر بكثير من تلك الفتاة ومن صديقها بيندينج بسيارته الفاخرة . عليها أن ترى كل هذا بدقة ووضوح .

خرجن جميعاً : فالي الجميلة ، شاحبة ، رشيقة ، وأنيقة كعادتها ، لينا برجلها الخشبية ، إيرنا الضخمة ، ماريون الفرحة ، مارجوت بخدودها الحمر ، كيكي المخنث بمعطفه المزركش ، وأخيراً ميمي الجدة بشرايينها المتصلبة والتي بدت كبوم معمر . القيت التحية عليهن جميعاً . وعندما مررنا بكشك الأم مددت يدي وصافحتها .

- يبدو أن لك كثيراً من الاصدقاء في هذا الحي .

أجبتها بإصرار .

- أصدقاء كهؤلاء كثيرون .

لاحظت نظراتها الثاقبة إلي .

- أظن أن الوقت قد حان . علينا بالعودة .

- هذا رأيي أيضاً .

وقفنا أمام باب منزلها . قلت :

- وداعاً . أمل ان تقضي سهرة ممتعة .

لم تجب ، وبصعوبة بالغة استطعت رفع نظري عن الجرس لأنظر إليها يا الهي . لم أصدق عيني ، فقد افتر ثغرها عن ابتسامة وتلألأت عيناها فرحة وأخذت تضحك بعفوية وعدم اكتراث . انها لا شك تسخر مني ثم قالت :

- ايها الطفل . يا الهي فانت لا تزال تحمل رأس طفل .

رمقتها بريبة قائلاً :

- ليكن ذلك .

وبدأت أشعر بحرج الموقف وتأزمه .

- لا بد أنك بدأت تشكين في سلامة عقلي . أليس كذلك ؟

ضحكت وبسرعة تقدمت خطوة إلى الأمام وشدتها إلي . لتفكر ما طاب لها . لامس شعرها وجنتي بينا اقترب وجهها من وجهي . بدأت أشم رائحة الدراق

الخفيفة المنبعثة من بشرتها . اقتربت عيناها وفجأة شعرت بشفتيها تلامس شفتي .

ذهبت بسرعة قبل أن أعني ما حدث . مررت بكشك الأم .
- اعطني سجقاً كبيراً .

قلت ذلك وأنا أطير فرحاً .

سألته الأم وقد ثرثرت كعادتها بصدارها المعهود .

- بالخردل ؟

- كثيراً من الخردل أيتها الأم .

التهمت السجق بلذة فائقة بينما طلبت من ألوى ان يوافيني إلى خارج مقهى

الانترناسيونال بكأس جعة كبيرة .

سألته :

- إن الانسان مخلوق غريب الاطوار أيتها الأم . ما رأيك في هذا ؟

أجابت باندفاع :

- هذا ما يجب عليك ان تؤمن به . مر علي رجل بالامس ، وطلب قطعتي

سجق . ولكن بعد ان التهمها اكتشف عجزه عن دفع ثمنها كان الوقت متأخراً ولم

يكن أحد غيره في الطريق . ماذا كان بوسعي أن أفعل ، تركته يكمل طريقه . ولكن

هل تصدقوا . لقد عاد هذا الشخص صباح هذا اليوم ليدفع ثمن السجق واعطاني

علاوة على ذلك بعض البقشيش .

- انها أخلاقية ما قبل الحرب أيتها الأم . ولكن اخبريني كيف يسير العمل ؟

- سيء جداً . فبالامس بعث سبعة أزواج من السجق الطويل وتسعة أزواج من

النوع الآخر . لولا وجود الفتيات لأغلقت هذا الكشك من زمن بعيد .

الفتيات يساعدن الأم في كل شيء . ما أن تظفر إحداهن باحد المارة حتى تجبره

على الوقوف معها أمام الكشك ليتناح بعض السجق وهكذا تستطيع الأم ان تكسب

قوتها هي الاخرى .

تابعت الأم حديثها :

- الحمد لله سيصبح الطقس دافئاً عما قريب لا بد أن يصاب المرء بالمرض في الايام

الباردة والماطرة مهما تدرثر بملابس سميقة .

- أعطني سجقاً آخر . فانا أشعر بحرارة الحياة تستعر في داخلي ولكن ما هي اخبار

البيت ؟

نظرت الي بعينيها الصغيرتين الجامدتين كلون الماء وقلت :
- الحال كما هو ، لم يتبدل . فلقد باع زوجي السرير في الآونة الأخيرة .

كانت الأم نحيلة لا يتجاوز وزنها الخمسة والأربعين كيلوغراماً ، ومتزوجة منذ مدة طويلة . فقد زوجها ساقيه قبل عشر سنوات بينما كان يحاول القفز من قاطرة مسرعة . ومنذ ذلك الوقت يعاني من اضطرابات نفسية كبيرة . كان لهذا الحادث تأثير غريب عليه . فلقد تحول من زوج وديع الى شخص شرس ، يكره النساء فاهمل زوجته وامتنع عن مضاجعتها ، وأثناء إقامته في المستشفى عولج بالمورفين فأدمن عليه . كان يكره شعور الشفقة والعطف بعد أن أصبح كسيحاً ، فراح يرتاد مجتمعات اللوطيين على اعتبارهم حسب رأيه الوحيديين الذين ما زالوا يقدرونه ، رغم العاهة الكبيرة التي لحقت به ، كرجل ، بينما النساء لا ينظرن إليه إلا من خلال زاوية الشفقة والعطف ، الامر الذي جعله يقابلهن بكثير من العنف ، وانعكاساً لعقدة النقص التي يعاني منها بسبب بتر ساقيه . كان يسرق حصيلة عمل الأم ويقوم ببيع ما لديها من أثاث ليدفع للصبية ثمن إغوائهم وليسدد ثمن المورفين الذي أدمن عليه . ورغم ضربه المبرح لها فقد ظلت الأم صابرة ، تمضي الليل بطوله واقفة خلف قدر السجق ، يساعدها في ذلك إبنها ، متجاهلة آلامها الكبيرة في أسفل البطن ، الناتجة عن وقوفها ساعات طوال في البرد وعلى قارعة الطريق .

رغم كل هذه الظروف القاسية احتفظت الأم ببشاشتها وتفاؤلها وإيمانها بالحياة وجمالها ، وبأنها ما زالت تحمل في طياتها الكثير من الخير . وتبقى أجمل الساعات بالنسبة لها تلك التي تقضيها مع زوجها حين يأتي إليها ضعيفاً يبكي يأسه وندمه على صدرها . سألتني :

- اما زلت تعمل في الورشة ؟

هززت رأسي موافقاً .

- نعم ايتها الأم ، فأنا اكسب نقوداً كافية .

- حاول جاهداً الاحتفاظ بها .

- سأعمل جاهداً في سبيل ذلك ايتها الام .

عدت الى البنسيون . وأمام الباب وقفت فريدا كمن أرسلتها الآلهة .

- انك طفلة لطيفة با فريدا .

قلت ذلك ، لرغبتني الكبيرة في القيام بعمل جيد ، وعضواً عن أن تبدي ارتياحاً تقزز وجهها وتغيرت ملامحه ، كما لو أنها قد تذوقت طعم خل حاد المذاق .

- ان ما أقوله لك الآن في غاية الجدوية . ماذا يفيدنا الخصام الدائم ؟ الحياة قصيرة جداً يا فريدا ، حبل بالمخاطر والنكسات علينا جميعاً أن نقف تجاهها متآزرين . ألا توجد طريقة لتسوية الأمور بيننا ؟

تجاهلت يدي الممتدة للمصافحة . تمتت بتشائم كثيرة : سكير ، ملعون . ثم اختفت ضاربة الباب خلفها بعنف .

قرعت باب جورج بلوك ، بعد أن تأكدت من النور المتسلل من شق الباب ، انه ما زال مستيقظاً وعاكفاً على الدراسة .

قلت له :

- تعال يا جورج لناكل ، فعندي الكثير من الطعام .

رفع نظره إلى باستغراب وأخذ الاحمرار يتسرب الى وجهه الشاحب وبصمت عاد مرة ثانية الى الكتاب .
- ألسن جائعاً ؟

هز رأسه رافضاً دعوتي . انه يكره ان يكون مجال شفقة أحد .

تابعت قولي :

- تعال وانظر أولاً فالطعام سيتلف اذا لم تقم بمساعدتي .

فقام على مضض وسرنا في الدهليز المؤدي الى غرفتي . كان باب إيرنا بوينغ مفتوحاً يتسرب منه الضوء ويسمع من خلفه صوت نفس خافت لشخص مضطرب . بعدها تراءى الى مسمعي صوت قفل باب هاسه يتحرك بتأن . عندئذ ايقنت أن سكان البنسيون بكامله ينتظرون ساعة قدوم إينة عمي .

في ظل الضوء القوي تقبع أرائك السيدة تساليفسكي الحمر . وثمره الاناناس بدت مضيئة الى جانب اصناف السجق الفاخر وزجاجة الشيري .

قرع باب الغرفة بينا كنت أهم مع جورج بالانقضااض على تلك الاصناف. عرفت القارع وقلت لجورج .

- انتبه جيداً .

ثم تابعت كلامي .

- أدخل .

فتح الباب ودخلت السيدة تساليفسكي وقد شعنت عيناها ببريق الفضول . انها

المرّة الاولى التي تحضر بنفسها رسالة مطبوعة من إحدى شركات الاطعمة تطلب قدومي حالاً لاجراء تجارب طعام الحمية علي .

بدا واضحاً استعدادها التام لتلك اللحظة ، فقد زينت نفسها كسيدة صالون من الايام الماضية . ثوب من الدانتيل الاسود يلفه شال مطرز ، تزينه حلية في داخلها صورة العزيز المأسوف عليه السيد تساليفسكي . بسمه حلوة تفوق حلوة السكر تجمدت على وجهها .

وبذهول أخذت تحملق في جورج الخجول ، بينما أخذت أضحك بشكل جنوني .

تمالكت نفسها .

- آه . لا بد وأنا ردتك خائباً .

- صحيح .

قلت ذلك بينما كنت ما أزال مستغرقاً في مراقبة ملبسها .
- شكراً لله على نفس هذه الأمسية .

نظرت إلى الأم تساليفسكي بكثير من الاحتقار .

- اتضحك ايضاً ؟ ها هوذا رأيي فيك يزداد تأثيراً .

ففي المكان الذي يحمل فيه غيرك قلباً ، تحمل أنت زجاجة كورن .

- قول عظيم يا سيدتي . ولكن هل لي أن أطلب شرف انضمامك إلينا ؟

أبطأت في الرد ، ولمع بريق الفضول في عينيها . ظنت بلا شك انها إذا شاركتنا ستعرف المزيد عن هذه الأمسية .

فتحت زجاجة الشيري .

في ساعة متأخرة وبعد أن خلد كل إلى غرفته حملت معظفي وبطانية وتسللت كاللص عبر الدهليز إلى الهاتف . - ركعت أمامه وغطيت رأسي بالمعطف ولففت جسمي بالبطانية . رفعت الساعة باليد اليسرى بينما أمسكت المعطف باليد اليمنى لأنأكد بأن أحداً لا يستطيع سماعي . بنسيون تساليفسكي له آذان غاية في الطول والفضول .

حالفني الحظ فجاءني صوت باتريس هولمان من الطرف الثاني .

سألته :

- هل عدت من اجتماعك السري؟
- منذ ساعة تقريباً .
- للأسف لييتي علمت بذلك مسبقاً .

ضحكت :

- لم تكن معرفتك لتفيدني في شيء اني مستقلة في فراشي واشعر بارتفاع خفيف في الحرارة . من حسن الحظ اني عدت مبكرة إلى البيت .
- ارتفاع في الحرارة؟ ما هذا الذي تتكلمين فيه؟
- ليس الأمر على هذا السوء . ولكن أخبرني عن سهرتك .

أجابت :

- وكيف حال إمسيك؟
- تحدثت مع مؤجرتي عن الوضع العالمي الراهن ، وأنت هل سارت الأمور على النحو الذي تريدينه؟
- أمل أن تكون قد تمت على هذا الشكل .

- بدأت أشعر بحرارة بالغة تلفني كحرارة القردة ، لذا أخذت أحرك ما تدرت به للحصول على بعض الهواء البارد خلال محادثة الفتاة وأعود لأغلقها عندما يقترب فمي من الساعة . سألتها :
- الا يوجد أحد من معارفك يدعى روبرت .

ضحكت :

- لا أظن ذلك .
- للأسف . ولكن ألا تجودين مرة واحدة بنطق هذا الأسم .

ضحكت ثانية . فقلت لها :

- لماذا لا تقولين : روبرت حمار ، على سبيل الدعابة فقط .
- روبرت ما زال يحمل رأس طفل .
- نطقك رائع . لنحاول الآن لفظ روبي . دعينا نبدأ : روبي .
- روبي سكير .

ردد ذلك الصوت الخافت البعيد .

- والآن ، علي أن أنام . فلقد تناولت قرصاً منوماً وبدأت أشعر بمفعوله في رأسي .
- ليكن . والآن طابت ليلتك وتصبحين على خير .

اغلقت الساعة وأزحت المعطف والغطاء جانباً . ولكن يا لهول المفاجأة . .
فخلفني وعلى بعد خطوة مني كان يقف المحاسب المتقاعد الذي يقطن الغرفة المجاورة
للمطبخ ، تمتت غاضباً بعض الكلمات .
- لست . قال غافراً .

- لست ، رددت عليه ، متمنياً له الجحيم .

رفع اصبعه مؤكداً .

- لن أشي بك . أمر سياسي ، ليس كذلك ؟

غمز مرة ثانية .

- لا تخف ، فأنا أيضاً في أقصى اليمين . ومكالماتي السياسية سرية جداً .

عندها بدأت أفهم ما يرمي إليه .

- سياسية جداً .

أجبت ورحت أغمز له بدوري . هز رأسه موافقاً وهمس في اذني :

- ليعش جلالته

- يعيش ، يعيش ، يعيش . ثم تابعت :

ولكن هنالك شيئاً آخر أريد سماعه قبل الانصراف .

هل تعرف اسم مخترع التلفزيون .

بدهشة هز رأسه الاصلع بالنفي .

- ولا أنا أيضاً ، ولكنه بلا شك رجل عظيم .

كان الأحد يوم السباق . لقد عملنا بدأب في تصليح كارل طيلة الأسبوع
ولساعات متأخرة من الليل . ولم نترك لولباً في محركه إلا وفحصناه . وفي كل مرة
بعد التصليح نمتحن قدرة المحرك على السبق .

ذهبنا الى مكان السبق وجلسنا في برآكات قطع الغيار ، منتظرين رجوع
كوستر ، وكان قد ذهب الى مركز الانطلاق .

كنا كثيرين هناك . جراو ، فالتين ، لينس ، باتريس هولمان وبالطبع يوب .
كان يوب يرتدي لباس العمل ، وقد تسلح بنظارات وقبعة سبق ، وكان كوستر قد
اختاره مساعداً له ، آخذاً بعين الاعتبار خفة وزنه .

حذر لينس كوستر من اصطحاب يوب كمساعد له ، فاذناه الكبيرتان جداً
والمعوجتان كثيراً إلى الأمام ستزيدان من مقاومة الهواء له مما سيؤدي إلى تخفيف سرعة
السيارة عشرين كيلو متراً على الأقل . سيحيل بأذنيه كارل الى طائرة ، كما قال
كوستر .

سأل لينس باتريس هولمان التي تجلس الى جانبه :

- ما السبب في كون إسمك الأول انجليزياً ؟

- والدتي بريطانية ، وإسمها الأول بات أيضاً .

- آه ، بات . انه لفظ أسهل بكثير من باتريس .

ثم أخرج كأساً وزجاجة .

- لنشرب نخب صداقتنا يا بات . أما اسمي الأول فهو جوتفريد .

حملت به . ها هو قد توصل وبكل بساطة وفي وضع النهار إلى مخاطبتها بإسمها
الأول ، بينما كنت أفتش طوال الوقت يائساً عن طريقة توصلني الى التحدث معها
بدون كلفة . والأسوأ من ذلك انها أخذت تضحك له وتناديه جوتفريد .

اما جراو ، فلقد بدت عليه علائم الجنون ولم يعد نظره يفارق الفتاة ، وأخذ
يغازلها بأبيات من الشعر ، الواحد تلو الآخر . ثم طلب منها - وباصرار - أن تأذن له

في رسمها .

- إسمعني جيداً يا فرديناند ، يا غراب الموتى العجوز .

قلت ذلك وخطفت الورقة ثم تأبعت قائلاً :

- لا تقترب وتمدد يدك إلى الأحياء وأبق أميناً لموتاك . تحدث في مواضيع عامة فقط .
فأنا شديد التحسس تجاه ما يتعلق بالفتاة .

- ساوافق على ذلك ان وعدتني بمشاركتي الشرب بعد انتهاء السبق لأصرف ما
تبقى لي من ورثة عمّة صاحب المنزل .

- لا استطيع وعدك بالقضاء على كل الورثة . ولكننا سنقضي بلا شك على
أرجلها .

- حسناً سأغض النظر عنك .

* * * *

عويل محركات السيارات ينتقل عبر طريق السبق كطلق المدافع ، كانت الرائحة
مزيج من رائحة البنزين وزيت الخروج . جلس الى جانبنا عمال الصيانة يضجون
مثقلين بصناديقهم الممتلئة بكل ما تحتاجه العربة . أما نحن فكانت صناديقنا فقيرة
بمحتوياتها ، عدة بسيطة ، بعض العجلات ، قطع غيار صغيرة كنا قد ابتعناها من
أحد المصانع . فاشترك كوستر في السباق لم يكن لحساب إحدى الشركات ، لذا
كان علينا تمويل السباق من نفقتنا الخاصة .

اطل كوستر وجاء خلفه براو ميللر مرتدياً لباس السبق الكامل وباشر القول :
- إيه يا أوتو . إذا صمدت شمعات المحرك فانت اليوم خاسر لا محالة . ولكنني لا
اصدق ان صندوقك سيكمل الطريق .

اجابه كوستر :

- هذا ما ستعرفه بعد انتهاء السباق .

اقترب براو ميللر من كارل .

- إنتبه جيداً يا عزيزي أوتو ولا تقترب من كسارة البندق هذه (اسم عربته) .

كسارة البندق ، سيارة ثقيلة وجديدة ، يقودها براو ميللر أكثر المتسابقين شهرة .

صاح به لينس من مقعده .

- سوف يعلمك كارل السرعة يا ثيو .

رد عليه براو ميللر بلهجة عسكرية صارمة . لكنه لم يلبث ان تلثم حين رأى
باتريس هولمان جالسة الى جوارنا . فزال الجدية من قسماات وجهه ، فتجاوزته مخلفة

وراءها ابتسامة غامضة ، وقفل عائداً الى مكانه دون ان يكمل جوابه .

كان نباح الدراجات النارية يملاً سماء حلبه السابق . لم تبس سوى دقائق معدودات حتى ينتهي سباقهم ليتبعه سباق السيارات . بدأ كوستر بجهز نفسه للسباق ناظراً الى كارل ، نظرة ملؤها الاستعطاف والتمني . فابتدره لينس قائلاً :
- أتمنى لك حظاً سعيداً يا كوستر .

ثم جاء دوري فاحتضنته قائلاً :

- إعتمد على نفسك ، فنحن ، وللأسف لا نستطيع مساعدتك كثيراً .

وأشرت الى العدة القليلة التي جمعت في صندوق صغير .

أشار بيده وبغير اكتراث :

- لا تقلق ، فلست بحاجة الى أية مساعدة ، فانت تعلم أن كارل إذا تعثر فلن تستطيع ورشة كاملة إصلاحه .

- ما رأيك إذا أن نشير اليك بياضات مكتوبة بالأرقام الكبيرة لتمكن من معرفة مكانك في السباق .

هز كوستر رأسه بالنفي .

- لست بحاجة لذلك فيوب سينتبه لذلك .

هز يوب رأسه مؤكداً قدرته على الرصد وبدأت يدها ترتجفان من شدة الانفعال واخذ يلتهم قطع الشوكولا الواحدة تلو الأخرى . انها عادة يوب قبل كل انطلاق ، لكنه لا يلبث ان يهدأ ويصبح بارداً كالسلحفاة اثناء السبق .

اعلن المذيع انتهاء سباق الدراجات النارية ، وبدأت السيارات تأخذ مكانها على خط الانطلاق أمام المنصة الرئيسية . جررنا كارل إليه وأوقفناه في المكان المحدد له . فخطب لينس كارل بينما راحت أصابعه تداعب مروحة السيارة .

- لا تبطء في الانطلاق أيها الحمار الحبيب ، ولا تخيب ظن والدك المسن فيك يا كارل .

أعطيت إشارة الانطلاق وبدأت السيارات تطوي الطريق بسرعة ، فاهتز الهواء وارتمت الارض والسماء ، وظهرت طريق السباق وكأنها تعدومع السيارات .
- أنظر الى هذه العربة البالية . إن مؤخرتها تشبه ذنب الطاووس .

انطلق صوت من خلفنا ، فانتفض لينس كما لو مسته صعقة كهربائية . فهو لا يتحمل أي تعليق سيء على كارل . والتفت الى الورااء بوجه أحمر التهب من كثرة الدم

الشاعر في عروقه . وبصوت مرتجف سأله :

- هل تعني العربة البيضاء ؟

- بالضبط .

اجابه صوت عاجل الميكانيك الجالس خلفنا ، بهدوء وبعدم اكتراث وناول صديقه الجالس إلى جانبه زجاجة جعة . بدأ لينس يتقد في كلامه من شدة انفعاله وأصر على تخطي الحاجز الخشبي ليلقن غريمه درساً قاسياً .
- دعك من هذا يا جوتفريد .

وأمسكته بكلتا يدي لأمنعه من القفز فوق ذلك الحاجز الخشبي .

- إننا بحاجة لك هنا . لماذا تصر على الذهاب مبكراً الى مركز الإسعاف .

حاول الإفلات بعناد الحمار من بين يدي . انه يجب كارل ويغار عليه . هذه هي نقطة ضعفه . قلت لبات :

- ما رأيك في حماقة هذا الرومانسي الأخير ، كما يلقبونه ؟

- انه في الحقيقة ليس سوى شخص أحمق ، عصبي المزاج . هل تتصورين ان

هذا المخلوق كان ينظم الشعر في يوم من الأيام ؟

أجابت باتريس :

- لينس ينظم الشعر ؟

هدأ لينس بمجرد ذكر الشعر ، فانا أعرف كيف أصيب جرحه . تنحنح وأجاب

بكل هدوء وجدية :

- نعم لقد نظمت أشعاراً كثيرة ، من زمن بعيد وقبل الحرب .

- ان الانسان يفقد عقله أثناء السبق . هذا ليس عاراً . أليس كذلك يا بات ؟

أدى جوتفريد التحية العسكرية وقال :

- شكراً يا سيدي . ان كلامك العظيم يفحمني .

وراح ينظر الى السيارات المتسابقة ثم صاح :

- كوسترلا يزال قبل الاخير . ان كارل - هذا الحيوان يحرن دائماً عند الانطلاق .

- لا عليك . أنت تعرف ان الانطلاق هو نقطة ضعف كارل . انه ينطلق دائماً

بيطه . ولكن بعدها ينتصر .

سمعنا من مكبرات الصوت ان بورجر المنافس العنيد لنا قد خرج من السبق

لعطب طراً على سيارته ، كانت العربات تمر أمامنا مزججة مرعدة ، ويتلاشى صوتها

تدريجياً كلما ابتعدت عنا ، لتبدو في الأفق البعيد كجراد يرتجف . لم يبق بعد الدورة الأولى سوى ست سيارات . وظل كارل محافظاً على مكانته : المرتبة قبل الأخيرة . ثم ما لبث بعد ذلك أن تقدم ليحتل المرتبة الرابعة بعد تجاوزه المنعطف .

ظهرت الشمس من خلال الغيوم ، خيوطاً عريضة ساطعة ، وأحياناً رمادية ، وبدا الحقل أمامنا من تلاحق الحزم الضوئية مرقعاً كجلد النمر وانعكس ذلك على وجوه جمهور المشاهدين .

أخذت أصوات السيارات المسرعة تسري في عروقنا كموسيقى صاخبة ، وبدأ لينس يقفز على مقعده كدمية خشبية ماضغاً السيجار بلاوعي من شدة انفعاله . أما باتريس فكانت ترتفع في الهواء كلما مر كارل أمامنا وكأنها الطاووس في أوائل ساعات الفجر .

فالتين وجراو جلسا بهدوء تام ، مستمتعين بأشعة الشمس لاهين عن كل الاضطراب الذي كان يسود المدرج . عاد زعيق العربات يقترب منامرة ثانية واتجهت أنظارنا محمقة بكوستر ولوحنا له بالعجلات . هز رأسه رافضاً . فهو ليس بحاجة لابدالها . كانت المسافة بينه وبين السيارة التالية قصيرة جداً وكان شبه ملتصق بها .

- اللعنة ، لا يزال كوستر الرابع .

قالتا لينس ورشف جرعة كبيرة من فم زجاجة الجعة . وتابع قوله :

- هل تريدون جرعة يا بات ؟

وقدم لها الزجاجة .

نظرت إليه شذراً ، ولكن دون أن يرف له جفن تصدى لي بنظرة أكثر صلابة ، وكأنه لم يقترف ذنباً . أجابته باتريس بهدوء :

- شكراً . اني افضل كأساً إذ أنني لم أعتد الشرب من الزجاجة .

قلت :

- هل اقتنعت يا صديقي ؟

وامتدت يده للكأس وناولها لبات . تابعت القول :

- هل اقتنعت بان هذا التصرف الخاطيء محصلة التربية الحديثة ؟

اصبحت المسافات بين المتسابقين في الدورات التالية أطول مما كانت عليه في الدورات السابقة .

ما زال براو ميللر في الطليعة وما زالت مسافة ثلاثمائة متر تفصل السيارات الأربع الاوائل عن بقية المتسابقين . ولا يزال كوستر ملازماً للعربة الثالثة .

اختفت السيارات خلف المدرج وعندها علا الضجيج مقرباً منا . انتصبنا واقفين بسرعة لنرى محلصة تلك الدورة . عجباً ماذا حل بالعربة الثالثة لقد ظهر كوستر وحده خلف العربتين الاماميتين وأخيراً علا زئير العربة الثالثة مقرباً ، لتظهر بعجلتها الخلفية المعطوبة .

ابتسم لينس ابتسامة تشفى ، حين وقفت هذه السيارة أمام صندوق التصليح المجاور لنا وراح الميكانيكي الضخم خلفنا يلعن الحظ السيء ويبدل العجلة ، التي لم يستغرق تبديلها اكثر من دقيقة لتعود العربة ولتلتحق بالركب .

لم يتغير في الدورة التالية ترتيب السيارات . وضع لينس ساعة التوقيت وبدأ بحسب :

- لا يزال عند كارل احتياطي كاف .

اجبته :

- انني اخشى ان يكون احتياطي العربات الاخرى كافياً ايضاً .

رمقني لينس بنظرة قاتلة :

- ايها المؤمن الصغير :

* * * *

هز كوستر رأسه رافضاً تغيير العجلات في الدورة قبل الأخيرة مجازفاً بذلك لكسب الوقت واثقاً من ان حرارة العجلات لم تصل بعد الى حدها الأقصى . كوضوح الزجاج لمحنا وحش التوتر جاثماً على مكان السبق الفسيح وعلى جمهور المشاهدين الجالسين على المدرج ، حين أعلن بداية الشوط الأخير .

- أمسكوا الخشب بكل قوتكم . قلت ذلك وأمسكت يد المطرقة الخشبية وأمسك لينس برأسي ، فنهزته وأبعدته عني . فابتسم ساخراً وأمسك بالحاجز الخشبي أمامنا .

لقد تضخم صوت دوي محركات سيارات السبق في أقصى سرعتها ، وكأنه عصف الرياح ، وتحول من قصف الى نحيب ومن نحيب الى رعد ومنه الى صفير يصم الأذان .

تجاوز براو ميللر المنعطف بسرعة وأسرع الثاني خلفه مباشرة بعجلاته الخلفية

المزقزة والغيرة مندفعاً في الطرف الداخلي لمنعطف الطريق أملاً بذلك اختصار المسافة وتجاوز براو ميللر .

صاح لينس :

- خطأ .

وبعدها وكالغديفة في سرعتها ، تبعهم كوستر متجهاً بكارل ليوازي الطرف الخارجي لمنعطف الطريق .

وقفنا مشدوهين . يا للهول . ماذا حدث لكوستر؟ فلقد بدا وكأنه سيظهر خارج طريق السبق . فجأة علا زئير محرك كارل ، وبمهارة فائقة استطاع كوستر أن يسيطر على المقود ويعيد كارل إلى الاتجاه الصحيح . صحت :

- لقد دخل كوستر المنعطف بأقصى سرعة .

هز لينس رأسه وقال :

- إنه مجنون .

واختفت السيارات عن أعيننا للمرة الأخيرة . ولم نلاحظ انفسنا إلا وقد أصبحنا نجلس فوق الحاجز الخشبي ، نرتجف من شدة التوتر . وتساءلنا عن مدى نجاح كوستر في هذه الخطوة الجنونية . حملت باتريس هولمان وأجلستها على صندوق التصليح .

- الآن سترين بشكل جيد ما يجري هناك . باستطاعتك أن تستندي الى كتفي . انتهى جيداً . ان كوستر سيلحق بهم في المنعطف الأخير .

صاحت بات :

- لقد تجاوزه وتركه خلفه ، وها هو الآن يلاحق براو ميللر .

صاح لينس :

- يا للساء . أيها القديس موسى . لقد تحطى العربة الثانية وهو يقترب الآن من براو ميللر .

ومن خلال عاصفة رعديّة ظهرت السيارات الثلاث مسرعة كلمح البصر . صرخنا كالمجانين وشاركنا في ذلك جراو وفالتين . لقد سبق كوستر العربة الثانية في المنعطف بتتيجة خطأ ارتكبه سائقها في بقائه على الحافة الداخلية للمنعطف ، ثم انقض كوستر على براو ميللر كعقاب ينقض على فريسته وقد باتت المسافة بينهما لا تتجاوز العشرين متراً .

بدأت سيارة براو ميللر تنتفض . لا شك انه يعاني من احتراق الشمعات .
- اسبق يا اوتو . اسبقه والنهم كسارة البندق هذه .

هكذا أخذنا نصرخ ونلوح بأيدينا . اختفت العربات المتسابقة في المنعطف الأخير ، وأخذ لينس يتلو صلواته بصوت عالٍ متضرعاً إلى جميع الآلهة في آسيا وأميركا الجنوبية ، ملوحاً بتعويذته ، وأخرجت حجابي مشاركاً اياه . كانت باتريس هولمان مستندة إلى كتفي بينما امتد وجهها الى الأمام وكأنها تمثل النصر .

اقتربت العربات وبدأ محرك سيارة براو ميللر يلهث ويتوقف ثم يعود فيقلع من جديد . أغمضت عيني وأشاح لينس بوجهه إلى الخلف مولياً ظهره لمدار السبق أملاً بذلك رشوة الحظ ، ولكن صيحة عالية أعادت أنظارنا قصراً إلى حلبة السبق لنرى ولثوانٍ فقط كيف عبر كوستر خط النهاية متفوقاً على خصمه بمسافة مترين . راح لينس يصرخ كالمجنون وتناول عدة التصليح وضرب بها الارض ، ثم قام بحركات بهلوانية على العجلات وصاح بعامل الميكانيك الضخم بعد أن استعاد وضعه الطبيعي ووقف على أرجله :

- هل لك ان تعيد ما قلته قبلاً في وصف سيارتنا ؟

- لا تعكر مزاجي يا هذا .

أجابه عامل الميكانيك بوقاحة ، ولأول مرة منذ معرفتي الطويلة بذلك الروماني الأخير ، لم يخرج عن طوره ، بل انفجر ضاحكاً وأخذ يرقص من شدة الفرح .
انظرنا اوتو . كان عليه ان ينهي بعض الاجراءات في مركز ادارة السبق .
- جوتفريد :

نادى من الخلف صوت خافت أبح . التفتنا الى الوراء ، ويا للدهشة فقد رأينا جبلاً من اللحم يرتدي بنظلاً مقلماً ضيقاً جداً وسترة سوداء ضيقة أيضاً ، وعلت رأسه قبة كبيرة سوداء كالبطيخة . نادى باتريس هولمان :
- ألفونس .

قال الفونس :

- عظيم ، عظيم ، ولكنني جئت متأخراً على ما يبدو .

أجابه لينس :

- أنت لا يمكن أن تأتي متأخراً يا ألفونس .

- فكرت بإمدادكم ببعض الطعام . لحومات باردة وغيرها من الأطعمة الشهية .

صاح لينس :

- هاتها . واجلس معنا أيها الصبي الذهبي ودعنا نباشر الأكل في الحال .

صاحت باتريس هولمان مندهشة :

- يا إلهي . ان ما أتيت به يا الفونس كفيل باشباع كتيبة بأكملها .

أجابها الفونس :

- هذا ما ستحقق منه بعد انتهائنا من الطعام . ولكن تريثوا قليلاً فهناك زجاجتان

من الكورن .

ثم اخرج الزجاجتين وفتحهما .

- عظيم ، عظيم .

قالت باتريس هولمان ، بينما نظر الفونس إليها بنظرة حانية .

اقترب منا كارل لاهناً ، قفز كوستر ويوب من السيارة . بدا يوب كنباليون

صغير ، أذناه مضيئتان كنوافذ كنيسة وقد تأبط كأساً فضية كبيرة تنقصه أية لمسة جمالية .

قال كوستر ضاحكاً :

- انها الكأس السادسة .

سأله الفونس :

- غريب حقاً أمر البشر . لا يفكرون بشيء آخر عوضاً عن هذه الكؤوس . هل

وعاء الحليب هو الجائزة الحقيقية أم ان هناك دفعة نقدية ؟

طمأنه اوتو :

- بالطبع هناك دفعة نقدية .

قال جراو :

- لا خوف علينا وقد أصبحنا نسبح في بحر من المال .

تابع الفونس :

- ستكون هذه الليلة رائعة . هل ستأتون لحانتي ؟

- هذا ما يشرّفنا .

- العشاء اليوم حساء البازيلا ، روستو وفتة مقادم .

أبدينا أعجابنا جميعاً . فاستطرد الفونس :

- العشاء سيكون على حسابي .

اقترب منا براو ميللر لاعتنا حظه السيء وقد اتسخت يدها بزيت المحرك .

صاح به لينس :

- هدىء من روعك يا ثيو . فالجائزة الأولى في سباق عربات الربيع القادم ستكون من نصيبك .

سأل براو ميللر كوستر :

- هل تدخل معي في مباراة لشرب الكونياك ؟

أجاب جراو :

- لم لا وسنشرها في كؤوس الجعة أيضاً .

- لا أمل لديك يا سيد براو ميللر .

حاول ألفونس أن يفهمه ذلك بنبرة موضوعية .

- لم يسبق لي أن رأيت كوستر ثملاً .

- وأنا أيضاً لم يسبق لي ان رأيت كارل يتقدمني إلا اليوم .

قال جراو :

- تحمل هزيمتك بفروسية ، والآن دعنا نشرب نخب سقوط الحضارة بيد الآلة

هممنا بالنهوض وفكرنا بجمع بقايا الطعام وأخذة معنا ، فلقد بقيت ، على ما أذكر ، كمية تكفي لاشباع عشرة رجال . ولكن ، يا للهول ، لم نجد سوى الورق . عندها أشار لينس باصابع الاتهام إلى يوب الذي أخذ بدوره يبتسم خجلاً ويخفي أصابعه الملوثة ببقايا اللحوم ويشرق إلى الداخل بظنه الممتلئ والمنتفخ كالطبل . ها هو يوب يضرب رقماً قياسياً آخر في هذا النهار . بدا لي أن باتريس هولمان بدأت تفهم حقيقة مشاعري نحوها ، فلقد رفضت عرض جراو برسم لوحة لها . ضحكت واعتذرت عن ذلك متذرعة بأن الوقت الطويل الذي يحتاجه لرسمها غير متوفر لديها الآن ، كما وانها تفضل الصور الفوتوغرافية لدقتها وسرعتها .

تدخلت قائلاً :

- إن هذا بالذات طبيعة عمله ، فهو يرسم نقلاً عن الصور الفوتوغرافية .

أجاب جراو دون امتعاض ، بينما راح ينظر الى بات نظرة من خلال عينيه الزرقاوين كعيون طفل :

- إهدأ يا روبي . فالكون يجعل منك رجلاً شريراً ، بينما يرتقي بي إلى أعلى

درجات الانسانية . هذه هي الميزة الحقيقية بين جيلينا .

أجبتة ساخرأ :

- انه يكبرني بحوالى العشر سنوات .

أكمل فرديناند حديثه :

- إن هذه الفترة تعني في عصرنا جيلاً كاملاً ، حياة مختلفة . انها تعادل ألف عام في السابق . ماذا تفهمون أنتم عن الوجود أيها الأشقياء . انكم ما زلتهم تخافون عواطفكم . لا تكتبون الرسائل بل تعوضونها بالهاتف . لا تحلمون بل تقومون مقابل ذلك برحلة في نهاية الاسبوع . أنكم عقلانيون جداً في الحب وغير عقلانيين في السياسة انكم أنعمس فصيلةً بشرية مرت على هذا العالم .

أخذت استمع اليه بأذن واحدة ، بينما رحت أستمع بأذني الثانية لكلام براو ميللر ، الذي بدأ في محاولة اقناع باتريس هولمان بوجوب تعلمها القيادة تحت إشرافه ، ليتسنى لها الالمام بجميع خدع القيادة .

شدته الى جانبنا .

- ماذا تخرف يا ثيو ؟ عليك كرجل رياضي أن تخفف اهتمامك الزائد بالنساء ،

فهذا يضر بصحتك .

- هذا القانون لا ينطبق علي ، فأنا أتمتع بطبيعة مختلفة عن غيري من الرياضيين .

- حسناً ، إذن علي أن أشرح لك الأمر الأكثر ملاءمة لطبيعتك وهي ضربة واحدة

من هذه الزجاجاة على جمجمتك .

ابتسم :

- أعد سيفك إلى غمده أيها الصبي . هل تعرف بماذا يمتاز الفارس عن غيره ؟ انه

يتصرف بأدب عندما يكون ثملاً . والآن هل عرفت من أنا حقاً ؟

مغرور . لم أكن أخشى لو تعرف أحد الرفاق على الفتاة ، فهذا أمر واضح

بالنسبة لمجموعتنا ، ولكنني لم أكن أعرف حقيقة الفتاة ربما استهواها رفيق آخر من

مجموعتنا فتنتقل إليه وعندها تكون الطامة الكبرى - فمعرفتنا ببعضنا البعض ما زالت

طفيفة وتفتقد الى الثقة . سألتها :

- هل ننسحب بهدوء .

هزت برأسها موافقة .

تمشينا في الطريق وقد غطى الضباب المدينة . أخذت يد بات وخباتها في جيب

معظفي ، وهكذا سرنا مدة طويلة .

سألتها :

- هل أنت متعبة ؟

هزت رأسها بالنفي وضحكت . أشرت الى المقاهي التي كنا نمر بها :

- هل تودين ان تستريح في أحدها ؟

- لا ، لم يحن الوقت لذلك .

تابعنا السير واقتربنا من المقبرة فبدت جزيرة خضراء وسط طوفان من المباني الإسمنتية ، ففتشنا عن مقعد خال وجلسنا عليه . بدا مصباح الشارع الجانبى بضوئه البرتقالي من خلال الضباب المتزايد وكأنه قادم من عالم الأساطير . فراشات أخذت تحوم حول الفوانيس المضيئة ، ترتطم بزجاجها بشدة ثم تهوي على الارض ثملة . لقد غير الضباب معالم الأشياء حولنا ، رفعها وفككها . والفندق المقابل للمقبرة أمسى كسفينة من عابرات المحيط بغرفها المضاءة فوق مرآة الاسفلت السوداء . وأطل شبح الكنيسة الرمادي خلف الفندق ، كسفينة شرعية بصاريها المرتفع ، تظهر ثم تختفي تدريجياً في الضوء الرمادي المشوب بالاحمرار . كل شيء يسبح في خضم هذا الضباب ويتوه . المباني الناس والأشجار .

جلسنا صامتين جنباً إلى جنب وقد لف الضباب كل شيء حولنا بغلالة خيالية حتى نحن . تأملت في عيني الفتاة الواسعتين المتألفتين في أضواء المصابيح وقلت لها :

- تعالي ، تعالي والتصقي بي والأخطفك الضباب مني .

أدارت وجهها ونظرت إلي مبتسمة ، فانفجرت شفتاها عن أسنان متلاثة . كانت عيناها الواسعتان تمهلقتان بي ، ولكنني أحسست بانها لا تراني . حتى ابتسامتها لم تكن لي ، بل تخطنتني لتضيق في وسط ذلك الزحام من المجريات الفضية ، كمن عصف بها السحرفتلاشت هنا وهناك . بدت وكأنها ترهف السمع لنداء عميق ، غير مسموع ، أت من خلف الأشجار ، من خلف العالم ، يأمرها بأن تنهض وتذهب ، لتتلاشى في ذلك الضباب بثقة ، وبلا هدف . لكن صوتاً آخر يمنعها من الامتثال يخرج من أعماق نفسها ليعارض ذلك الصوت البعيد ، انه نداء الحياة ، نداء العالم .

لن أنسى ذلك الوجه ما حبيت . لن أنسى كيف انحنى عليّ بصمت ونعومة ورقة مشبعاً بكل الأحاسيس الانسانية . هذا الصمت المشع بالدفء ، والمزهر بالحنان . لن أنسى اقتراب شفيتها من شفتي واقتراب عينيها من عيني ، كيف تسمرتا أمام

حدقتي ، محمقتين بي ، متسائلتين جادتين كبيرتين وبرأقتين ، وكيف بدأت
تغمضها وكأنها تقول : « انني لك » :

الضباب يمر ويمر وبدت الصلبان فوق القبور من خلاله واهنة . لففت معظفي
حولنا وبدت المدينة وكأنها غرقت ، وبدا الوقت وكأنه مات .

جلسنا هكذا مدة طويلة ، الريح تعصف من كل جانب . وفجأة ظهرت خلف
الضباب الرمادي أشباح عديدة تترنح ، وهمسات خافتة وندنات متقطعة على
القيثارة . رفعت رأسي حين اقتربت الأشباح منا ليظهر حشد صغير من الرجال
والنساء ، وما أن رأونا حتى انتظموا ليحيطونا بدائرة وبدأوا ينشدون بصوت عال
(المسيح ، المسيح ، يفتش عنك ايضاً) .

انتصبت واقفاً مشدوهاً . أرهفت السمع ، كل شيء يبدو حقيقياً وتساءلت أين
أنا وماذا يجري من حولي . هل أصبحنا من سكان القمر . بعدها تيقنت بأن هذه
المجموعة لم تكن في الحقيقة إلا كورالاً مختلطاً . (انخض ايها الخاطيء ، ايها
الخطيء) وعلا صوت نشيدهم ثانية فوق المقبرة رتيباً وكأنه خطوات كتيبة
عسكرية .

نظرت إلى بات وهزرت رأسي .

- شيء لا يصدق . وتابعت المجموعة نشيدها .

((تعال واجلس على كرسي الاعتراف بندم))

لقد فهمت أخيراً ما كان يدور حولي .

- يا إلهي . انهم جند الله ، جنود جيش الخلاص .

واقتربت الأشباح بحذر وبصوت مرتفع :

((لا تدع الخطيء يهرب)) .

وبدون توقف اكمل المنشدون .

((طريق جهنم ونار العذاب وهذا عقاب

الخطيء الشديد لذا فالمسيح يدعوك قبل هذا

تعال واندم ايها الابن الضال)) .

صاح صوت غاضب من خلال الضباب :

- اصمتي ايتها السماء المرعدة .

لدقيقة ساد صمت مدهش . كأن جند الله معتادون على مثل هذه التعليقات ،

لذلك لم يدم الصمت طويلاً ، وانطلق من جديد صوت الكورال بتصميم وعزم
منشداً :

((ماذا تبغي من وجودك على الأرض وحيداً ؟)) .

زجر الصوت الغاضب مرة أخرى صائحاً :

- عليكم اللعنة . ألا يمكن للانسان ان ينعم بهدوء حتى في المقبرة ؟

وتصدى الكورال لذلك الصوت الغاضب :

((أينما أغواك الشيطان)) .

جاوبهم الصوت .

- انتم أيها البراغي الصدئة ، لن تستطيعوا اجتذابي .

انفجرت ضاحكاً ، ولم تستطع بات أن تتمالك نفسها هي الأخرى فضحكنا بشدة
على تلك المشادة الكلامية بين فريق العشاق وجند الله .

ان جنود الله يعلمون بالتأكيد ، ان مقاعد المقبرة هي ملاذ العاشقين الهاربين من
ضوضاء المدينة ، وهي المكان الآمن لينفردوا ببعضهم البعض . لذلك هياوا أنفسهم
ورتبوا أمورهم لتلقي العشاق درساً قاسياً . كانوا يقيمون مراراً مثل هذه الحفلات
التأديبية ، ففي كل أحد يقومون بحملتهم هذه فينشدون بخشوع وإيمان وبأصوات
عالية ينقصها التدريب الجيد وتتخللها نقرات غير موزونة الايقاع على القيثارة
لينقذوا أكبر عدد من الارواح .

أصبحت المقبرة تعج بالحوية وعادت من خلال الضباب ضحكات ونداءات .
ترك العشاق مقاعدهم ليشكلوا كورالاً معارضاً . لا بد وان بينهم كثيراً من الجنود
المسرحين الذين تأثروا بالايقاع العسكري لجند الله وعلت أغنية العشاق الابدية :

((زرت هامبورغ وهناك رأيت الحياة الزهرة)) .

رد عليه كورال المؤمنين بكثير من النشاز بعد الصدمة التي تلقاها :

((آه ، لا تبقى هكذا أسير سقوطك)) .

لم يسكت كورالنا بل رد عليه بصوت عال خارج من حناجر قوية وكما تحدث
المفارقات . انتصر الباطل ((لا استطيع البوح باسمي ، فانا فتاة تشتري)) . قلت
لبات :

- هيا تنصرف .

اني أعرف هذه الأغنية . انها طويلة وبها أبيات تتصاعد في محتواها حتى مرتبة الرذيلة .

عدنا إلى المدينة لتستقبلنا أبواق سياراتها العالية وصرير عجلات دراجاتها . كان الضباب ييمن على الشوارع محيلاً الباصات الى حيوانات أسطورية كبيرة ، والسيارات الى قطط متسللة من الضوء ، وواجهات المتاجر الى كهوف من الاضطراب . عبرنا الطريق المجاور للمقبرة ، ثم اتجهنا الى مدينة الملاهي ، حيث ترتفع الارجيح المعلقة ، وكأنها أبراج من النور. وأخذت حديقة المتاهة تلتمع بلون النار الزرقاء . قلت :

- يا حديقة المتاهة المقدسة .

سألت بات :

- لماذا ؟

- لأننا سرنا في سراديبها سوية .

هزت رأسها موافقة .

- عندي احساس وكأن ما حدث كان منذ زمن بعيد .

- هل ندخلها ثانية ؟

- كلا ، ليس الآن . هل تشرين شيئاً ؟

هزت رأسها بالنفي . بدت رائعة الجمال وكان الضباب أريح طفيف زادها تلالؤاً

- الست متعبة ايضاً ؟

- لا ، ليس بعد .

مررنا بالحوانيت المليئة بالاطارات المعلقة . نظرت إلى بات :

- لا ، اليوم لن أرمي باطار واحد ، ولو كسبت بذلك قبو خمرة الكسندر

المكدوني .

تابعنا سيرنا ، عبرنا مدينة الملاهي ، واجتازنا الحديقة العامة . نظرت بحذر يمينه

وشمالاً ، باحثاً عن مقعد فارغ ، ولكنني لم أجد مقعداً واحداً . ربما لأن اليوم يوم

أحد . كانت المقاعد كلها مشغولة . نظرت إلى الساعة فإذا بها قد تجاوزت الثانية

عشرة . قلت لها :

- تعالي لنذهب الى غرفتي حيث نستطيع البقاء بمفردنا .

لم تجب ، ولكننا عدنا من حيث أتينا . في المقبرة شاهدنا شيئاً لم يكن في

الحسبان . فلقد عزز جند الله فريقه وأصبح الكورال مؤلفاً من أربعة صفوف من

جنود جيش الخلاص ، اصطفوا بلباسهم العسكري الموحد ، وعلا صوت نشيدهم بايقاع الفالسل : « القدس السماوية » . اما المعارضة فلم يسمع لها صوت . لقد انحلت وتفككت .
- الاصرار .

كان هذا قول مدربي هيللر .

- الاصرار والاجتهاد أفضل من العبقرية والتسيب .

فتحت باب البنسيون ، فكرت قليلاً ثم اشعلت النور . كان مصباح الدهليز يتناوب بلون أصفر كثيب . قلت لها :

- أغمضي عينيك ، فالمنظر هنا فقط لمن تحجرت أعصابهم .

بحركة سريعة حملتها بين ذراعي وعبرت بها الدهليز باتجاه غرفتي ، وبخطى ثابتة كالعتاد ، وكأني سائر بمفردي حتى وصلت غرفتي .
- الغرفة قبيحة جداً .

قلت خجلاً ، وحملت في الاراتك المهترئة .

اجابت بات :

- ولكن الغرفة لا تبدو لي قبيحة على الشكل الذي تدعيه .

- انني أجدها قبيحة .

- المنظر من هنا جميل . دعينا نقرب الاراتك بمحاذاة النافذة .

شرعت بات تتمعن في الغرفة .

- انها ليست قبيحة ، علاوة على ذلك فهي دافئة .

- هل تشعرين بالبرد ؟

- انني أفضل الجو الدافئ ، فانا أمقت الشتاء والبرد ولا أستطيع تحملهما .

- يا للسما . ولكننا أمضينا المساء بأكمله في الخارج بين الضباب .

- ربما كان هذا هو السبب الذي يجعل من هذه الغرفة مكاناً رائعاً .

تمطت باسترخاء ، وعادت تنتقل في الغرفة . وجدت نفسي محرجاً وأخذت بدوري أتلفت حولي . حمداً لله لم تكن هناك أشياء كثيرة مبعثرة . أزحت بقدمي بسرعة خفي البيتي الممزق تحت السرير .

وقفت بات أمام خزانة الثياب ورفعت نظرها إلى أعلى حيث كانت حقيبة قديمة جداً أعطاني إياها لينس ، وقد التصقت عليها قصاصات صغيرة تذكر برحلاته .

أخذت بات تقرأ الملصقات ريبودوجانيرو ، سنتياغو ، بونس ايرس ، لاس بالماس . ثم عادت الى حيث كنت أقف :
- هل زرت كل هذه الأماكن ؟

تمتت بشيء ما . أخذت يدي وقالت :
- تعال وحدثني عن كل هذه الأماكن . لا شك انه إنجاز إنساني عظيم أن يستطيع المرء السفر الى كل هذه الأبعاد .

وأنا ؟ تأملتها وهي تقف أمامي ، جميلة ، فتية ، مفعمة بالأمل ، فراشة تاهت ، حط بها الحظ التعس في غرفتي المهترئة البالية وفي وسط حياتي التافهة الخاوية . انها معي وليست معي . نسمة هواء واحدة تستطيع أن تحملها وتطير بها بعيداً . كيف لي أن أقول لا . فتحل عليّ اللعنة . لا أستطيع الاعتراف لها بأنني لم أسافر يوماً إلى تلك المدن .

وقفنا أمام النافذة . الضباب يتزاحم خلف زجاجها . أحسست أن أياماً من الذعر تجثم خلف ذلك الضباب ، الذعر المنسي ، المختفي ، الصامت . قدارة ، جفاف من بقايا وجود متهلهل . ضياع وتيه في حياة لا هدف فيها .

أما هنا في الظل وعلى مقربة مذهلة مني ، ينبعث ذلك النفس الخافت الحاضر الذي لا يصدق ، دفاء وحياة نقيّة . عليّ أن أتمسك بها ، عليّ أن أحظى بها .
- ريو ، بدأت حديثي .

- ريبودوجانيرو ، ميناء كالاسطورة ، تحيطها الجبال على شكل سبعة أقواس ، وترتفع فوق المدينة بيضاء لامعة .

رحت أتحدث عن مدن حارة ، وهضاب لا منتهية ، عن دلتا الأنهار الصفر ، عن جزر متلاثة وتماسيح كبيرة ، عن الغابات التي تلتهم الطرقات وعن صيحات الفهود في الليل ، عن السفن النهرية التي تمخر عباب الأنهر ليلاً مخترقة أبخرة من الفانيلا والرطوبة ورائحة الاوركيد والعفن . لقد سمعت كل ذلك من لينس . لكنها بدت لي الآن ذكريات حقيقية . وهكذا بدأت أختلق القصص ، تمدوني الرغبة في إدخال بعض البريق إلى الفوضى المظلمة في حياتي ، كي لا أخسر هذا الوجه الجميل المائل أمامي . ذلك الأمل والبرعم المتفتح والنبوء والذي لا أستطيع احتواءه كله . لا بد من توضيح كل هذه الأمور في المستقبل حين أصبح أكثر قيمة عندها مما أنا عليه الآن ، وحين تصبح الأشياء التي تجمعننا أكثر وثوقاً . عندها ساصارحها بالحقيقة وهي انني لم أزر تلك البلاد .

ثم تابعت :

- مناووس ، بونس آيرس .

وكانت كل كلمة أقولها بمثابة رجاء وتوسل .

* * * *

بدأت الامطار تهطل ليلاً في الخارج . كانت القطرات تسقط ناعمة لينة ، لم تعد ترتطم بقوة باغصان الشجر كما كانت قبل شهر ، بل امست تنزلق برفق على اوراقها الفتية ، تتكوم عليها ، لتنحدر على الأغصان ، فالساق ثم تنساب الى الجذور . ما اعجب هذا الكون . ينزلق الماء الى الاسفل ليعود إلى الأعلى ، فيتحول إلى أوراق خضراء تستقبل من جديد قطرات المطر في ليالي الربيع . سكن العالم واختفى ضجيج الشارع ، واخذ مصباحه يلقي بضوئه المتذبذب على الرصيف . وبدأت وريقات الشجر الفتية المضاءة من الاسفل ، بلون أبيض شفاف ، وتلألأت قمم الاشجار من انعكاس النور عليها وكأنها أشعة مضيئة .

- انصتي الى صوت المطر يا بات .

- نعم اني أسمع .

كانت مستقلة الى جانبي وشعرها الاسود يخط على وجه الوسادة البيضاء خطوطاً واضحة المعاني ، وبدا وجهها شاحباً في ظل ذلك الشعر الأسود الفاحم ، وانسدر الغطاء عن أحد كتفيها فبان تحت الضوء بلون البرونز ، وسقط خيط شعاع ليسترخي على يدها .

- أنظر إلى هذا الضوء .

وأعادت يدها تحت الغطاء ، لا بد ان هذا الشعاع آت من مصباح الرصيف . رفعت رأسها وجلست في السرير فأصبح وجهها مشرقاً بذاك الشعاع الذي غطى كتفيها وصدرها وكأنه ضوء شمعة صفراء ، ثم أخذ ذلك الشعاع يتلون بلون برتقالي تتخلله دوائر زرق ، ليتحول بعدها الى لون أحمر دافئ خلفها ، ليعطيها عظمة وبهاء ، ثم تابع مسيرته ليتوقف على سطح الغرفة .

- لا شك ان هذا الشعاع هو انعكاس اضواء منبعثة من اعلان كهربائي

للسجائر .

- والآن هل أصبحت تقدر جمال غرفتك ؟

- انها جميلة لوجودك فيها . من الآن فصاعداً لن تعود هذه الغرفة في نظري بالية

لأنك كنت فيها مرة .

ركعت في السرير وقالت :

- ولكن سأزور غرفتك مراراً .

كنت مستلقياً ضامتاً أنظر إليها .

- عليك ان تحبني كثيراً يا روبي ، فأنا لا أستطيع العيش بلا حب .

حدقت نظراتها بي ، وازداد وجهها اقتراباً مني . وجه محتقن انفعالاً . حيوي

واضح ويضج بالشهوة . همست في أذني :

- عليك ان تحتفظ بي وبشدة ، وإلا هويت ، إنني خائفة .

أجبتها :

- ولكنني لا أرى الخوف بادياً عليك .

- صحيح أنني أظهار بالقوة رغم ان الخوف يملأ قلبي .

- سوف أحافظ عليك بكل ما استطعت من قوة .

قلت ذلك وأنا ما أزال تحت تأثير ذلك الحلم .

- سأحتفظ بك وبكل قوة . سوف تتعجبين أنت من ذلك .

أخذت وجهي بين يديها :

- أحقاً ما تقول ؟

هزرت رأسي بالاجاب . كان كتفاها الآن مضامين بلون أخضر وكأنها قعر ماء

عميق . أمسكت يديها ووضعتهما إلى جانبي . حينئذ علتنا موجة محتلجة مليئة

بالحنان ، وغطتنا لتطفيء كل شيء في داخلنا .

* * * *

نامت بين ذراعي . . استيقظت عدة مرات وأخذت أنظر إليها . حبذا لو طال

هذه الليلة فكانت بلا نهاية . أحسست آنذاك أنني أسبح في بحر وهي وقد افلنت من

قبضة الزمان والمكان . وطُرم كلمح البصر ، لم أستطع بعدها إدراك ما جرى . ولم

يكن يدور بخاطري أن ثمة انسان في الوجود يستطيع أن يحبني . أن أكون رفيقا

مخلصاً ، تلك حقيقة لا ريب فيها . أما أن تحبني امرأة فهذا ما كان يفوق تصوري .

ظننت ان كل ما وقع سيقى مطوياً في صدر هذه الليلة وسوف يتبدد عند الصباح

فيتبخر الحلم .

تبدل الظلام الداكن الى لون رمادي . كنت مستلقياً بصمت . تخدرت يدي

الممتدة تحت رأس بات ولم أعد أحس بوجودها ولكنني لم أسحبها خشية إيقاظها .

حين استدارت بات سحبت يدي برفق وحذر بالغين . نهضت وشرعت أغسل أسناني . سكبت بعض الكولونيا وفركت بها عنقي وشعري . أخذت الافكار تزدهم في رأسي بصمت ، وكذا الغرفة والمدينة كلاهما صامت كأفكاري .

افاقت بات وراحت ترمقني .

تسمرت في مكاني . قالت :
- تعال اليّ .

سألتها :

- هل سيدوم هذا الحلم طويلاً ؟

- لماذا تسأل ؟

- لا أعلم فالصباح يخيفني .

- ناولني ملابسني .

رفعت ثيابها الداخلية الحريرية الملقاة على الارض . كانت الثياب رقيقة جداً وخفيفة . تمسكت بها . لا بد وان فيها شيئاً خاصاً . من يرتدي مثل هذه الثياب ، لا بد وان يكون من طراز خاص جداً . لن أستطيع يوماً فهم كل هذه الأمور .

ناولتها الثياب . أحاطت عنقي بذراعيها وقبلتني . أوصلتها للبيت . لم نتكلم كثيراً بل مشينا جنباً إلى جنب تحت أشعة الصباح الفضية . أخذت عجلات العربات الحديدية تصلصل وهي تترنح فوق حجارة الرصيف . الجرائد توزع . رجل مسن نائم أمام باب أحد البيوت ، بينما راحت ذقنه ترتجف وكأنها جزء مستقل عن باقي جسمه . رجال على الدراجات يحملون سلال الخبز الطازج وقد عبقت رائحته في الشارع كله . وفوقنا في السماء عبر طيار بطيارته .

- اليوم ؟

ابتسمت :

- السابعة .

لم تبد عليها امارات التعب ، بل على العكس بدت نشيطة وكأنها نامت الليل بكامله . قبلتني عند الوداع وبقيت واقفاً أمام بابها حتى رأيت الضوء ينير غرفتها . عندها قفلت راجعاً ، وفي الطريق تذكرت أشياء كثيرة . وفكرت في كثير من التعبيرات التي كان عليّ أن أقولها . والأعمال التي كان عليّ أن أقوم بها في تلك الليلة ، هذا لو كانت عندي الشجاعة الكافية .

اتجهت إلى سوق الخضرة ، وقد عجت ساحتها بعربات الخضار واللحوم . كنت أعلم أن ابتياع الورد من هذا المكان أقل كلفة من شرائه من المحلات التجارية .

ابتعت باقة كبيرة من الزنبق بكل ما أحمل من نقود . ما أجمل منظرها . فما زالت قطرات الندى تملأ كؤوسها . وعدتني البائعة ان ترسلهم لبات في الساعة الحادية عشرة . نظرت إلى وضحكت وأضافت إلى الزنبق باقة من النرجس .

- ستسعد السيدة برؤيتها لمدة اسبوعين كاملين . ولكن يجب اضافة البيرامين الى الماء بين الحين والآخر .

وافقتها وأعطيتها النقود ثم قفلت عائداً إلى البيت .

أصبحت سيارة الفوردي جاهزة ولم يدخل الورشة أي عمل جديد . لذا كان علينا التفكير بطريقة ما لكسب معيشتنا . اضطررنا الحاجة إلى دخول أحد المزادات وفكرنا في شراء تاكسي معروضة للبيع . ان المتاجرة بمثل هذا النوع من السيارات رابحة ، ويمكن بيعها في أي وقت .

كانت المزايمة في إحدى الحانات في القطاع الشمالي من المدينة . عرضت في المزاد أشياء كثيرة متعددة ، قسم كبير من هذه الأشياء كان ملقى في فناء الحانة الخارجي : فراش ، مناوحد متأرجحة الأرجل ، قفص مذهب وبداخله بيغاء ينادي « مرحباً يا عزيزي » ، ساعة حائط ، كتب ، دولاب ملابس ، بزة رجالية سوداء ، مقاعد مطبخ ، بورسلين ، وكل آلام هذا الوجود المتفكك الأقل .

كان الوقت ما زال مبكراً عندما وصلنا المكان . ولم يكن الدلال قد وصل بعد . أخذت أتفحص الأشياء الملقاة هنا وهناك ورحت أقلب بعض تلك الكتب : نسخ تجارية قديمة لمؤلفين يونانيين وإيطاليين كلاسيكيين ، وقد امتلأت حواشي الكتب بملاحظات كثيرة كتبت بخط اليد . لم تعد تلك الصفحات الممزقة من كثرة الاستعمال تظهر أشعار هوراس وأناكريون بل استحالت إلى صحيفات حنين وضعف من وطأة هذه الحياة الشائعة . لا شك ان هذه الكتب كانت آخر شيء يمتلكه صاحبها قبل أن يودع هذا المكان .

نظر الي كوستر :

- كم محزنة هذه الأمور . أليس كذلك ؟

هزرت رأسي موافقاً وأشرت إلى الأشياء الأخرى .

- وهذه أيضاً يا أوتو . لا يؤتى عادة بكراسي المطبخ ودولاب الملابس إلى هذا المكان بقصد المزاح .

اتجهنا إلى إحدى زوايا الفناء حيث كانت تقف السيارة ، طلائها سيء ومشقق ولكن المحرك يبدو نظيفاً . كان يقف إلى جانبها رجل قصير القامة ، ذو ذراعين

ضخمتين ، أخذ ينظر إلينا ببلادة .

سألت كوستر :

- هل تفحصت السيارة ؟

- بالأمس . إنها مستهلكة نسبياً ، ولكن على ما يبدو ان صاحبها شديد العناية بها .

- ومظهرها يدل على ذلك . لقد غسلت السيارة صبيحة هذا اليوم ، وبالتأكيد لم يبق الدلال بذلك .

هز كوستر رأسه ونظر إلى ذلك الرجل القصير القامة .

- لا بد انه مالك السيارة ، فقد رأيته هنا بالأمس ينظفها .

- يا للجنة . إن هذا الرجل يبدو كالكلب الذي دهمته سيارة .

في تلك اللحظة دخل الفناء رجل شاب ، عبر الفناء واتجه نحونا . كان يرتدي معطفاً بحزام ويرחי مظهره بالجرأة الوقحة .

- لا بد وأن هذه هي السيارة الفاخرة المعلن عنها .

قال ذلك موجهاً نصف كلامه لنا والنصف الآخر لذلك الرجل القصير القامة ، ثم طرق بعصاه مقدمة السيارة . توهجت عينا الرجل القصير وأخذ الشرر يتطاير منها .

- لا عليك .

قال الرجل ذو الحزام بكثير من الثقة وتابع بلهجة وقحة :

- طلاؤها لا يساوي خمسة قروش . إنها مهلهلة صباحية الصوت هذه ، ومكانها

الانسب هو المتحف بلا شك ، الا تشاركني الرأي .

أخذ يضحك بشدة فرحاً مزهواً بظرافته ، وأخذ ينظر إلينا كما لو كان يطلب تأييداً

لكلامه . لكننا لم نشاركه الضحك ، عندها توجه إلى المالك .

- ماذا تريد ثمناً لهذا الجذ العجوز ؟

ابتلع المالك ريقه وسكت .

- انها تساوي ثمن الحديد الناعم فيها . أليس كذلك ؟

قالها ذلك المتصابي مفتعلاً مزاجاً مشرقاً ثم استدار إلينا مرة ثانية :

- لا بد ان حضرتكم مهتمون بها أيضاً .

ثم استطرد بصوت منخفض :

- بوسعنا أن نتفق فيما بيننا على تسوية الأمر وتقاسم الربح . على أي حال ،
إسمي غيدو تيس موفد من شركة التأمين .

رمى بعضاه المصنوعة من قصب البامبوس في الهواء بشكل بهلواني وغمز لنا
بعينه . أخذت أفكر بهذه الدودة البالغة من العمر خمسا وعشرين ربيعا ، وصممت
على أن لا أتعاون معه . فرؤية ذلك الرجل القصير ، الصامت الواقف إلى جانب
السيارة أثارت في أعماقي شعوراً قوياً من الشفقة .

قلت له :

- كان من الافضل اعطاؤك اسماً آخر غير اسم تيس هذا .

- ولم ذلك ؟

قال بكثير من الفخر : لا بد وانه اعتاد على الاطراء وخاصة فيما يتعلق بفضته .
اكملت كلامي حانقاً :

- كان عليهم ان يدعوك بالوقح اللثيم .

رد الشتيمة باخرى . ثم قال :

- على أي حال واحد ضد اثنين .

- إذا كان هذا هو السبب الوحيد فانا مستعد لمنازلتك بمفردتي في المكان الذي
تختاره .

أجاب غيدو بلؤم :

- شكراً ، شكراً جزيلاً . ثم انسحب من المكان .

كان الرجل القصير يقف في مكانه بوجهه الذاهل يحمق في السيارة وكأن الأمر
كله لا يعنيه .

- علينا ان نقدم على شراء هذه السيارة يا أوتو .

اجاب كوستر :

- اذا لم نشترها منه فسيشترها صديقك غيدو صاحب الخزام . إننا لا نستطيع
مساعدة الرجل في كل الأحوال .

- صحيح ما تقوله ، ولكن يبدو ان هذا الرجل شديد التعلق بسيارته .

- ولكن قل لي يا عزيزي روبي . ألا ينطبق وضعه على الجميع في مثل هذه
الظروف . إن وجودنا هنا من صالحه ، فرمما سندفع له مبلغاً أكبر مما يدفعه غيرنا .
ولكنني اصدقك القول فانا لن أدخل المزايدة إذا لم يتقدم رجل الخزام الوقح .

حضر الدالّال مستعجلاً ، فلدّيه أمور كثيرة لانهاها . ففي كل يوم تقام عشرات المزادات . بدأ الدالّال بعرض الأشياء المتراكمة بوجهه الممتلئ بالرضا ، بروح دعائية حديدية ، وعملية ، شأنه شأن من يتعامل يومياً مع الألم دون أن يحسّه . كانت الأشياء تباع لقاء مليات . وقد اشترى بعض التجار الحاضرين معظم المعروضات .

كانوا يعرفون أصابعهم عندما يتوجه الدالّال بنظره إليهم ، أو يهزّون رؤوسهم بالنفي . كانت في القاعة عيون يشع منها الخوف والأمل تلاحق أصابع الدالّال المرتفعة وكأنه يحمل في طيات يده وصايا الله .

عندما جاء دور السيارة تقدم ثلاثة أشخاص . الأول غيدو صاحب الخزام الذي استهل المزاد بثلاثمائة مارك . يا له من عرض مشين . اقترب الرجل القصير من الدالّال . حرك شفّتيه ، كما لو كان يريد أن يتكلم دون أن يرفع صوته . بدأ عليه وكأنه يود الاشتراك في المزادة ، ولكن اليد شبه المرفوعة عادت وهوت بصمت . ثم عاد الى مكانه .

اما العرض الثاني فقد وصل إلى الاربعمئة مارك . عندها رفع غيدو عرضه لاربعمئة وخمسين . تلتها فترة صمت .

أجال الدالّال نظره في الحاضرين :

- هل من أحد يعرض أكثر؟ للمرة الأولى ، للمرة الثانية ، وقف الرجل القصير بجانب السيارة برأس منحني وعينين مذهولتين كمن ينتظر ضربة فأس على عنقه .
- الف .

قال كوستر . نظرت إليه . همس في أذني :

- انها تساوي ثلاثة آلاف . كما اني لا أستطيع إطالة النظر الى ذلك الرجل يذبح على هذه الطريقة .

أخذ غيدو يرسل لنا إشارات يائسة وقد نسي في غمرة اندماجه في العمل التجاري شتيمتنا له .

غمز لنا بعينيّه . ولو كانت له عين ثالثة على قفاه لغمز بها أيضاً ثم عرض بتذمر :
- الف ومئة .

أجاب كوستر :

- الف وخمسمائة .

توثب الدالّال وامتلأ حماساً وأخذ يحرك مطرقته تارة الى اليمين وتارة الى اليسار ،

وكانه قائد أوركسترا . فقد اختلفت هذه الارقام عن سابقتها في بداية المزايدة . ولم تعد تذكر أرقام كئلاثة أو خمسة ماركات .
- ألف وخمسمائة وعشرة .

عرض غيدو وقد أخذ العرق يتصبب منه .

رد عليه كوستر :

- ألف وثمانمائة .

أشار غيدو إلى جبهته منذراً بان كوستر قد فقد عقله : ثم انسحب من الرهان .

قفز الدلال . فكرت فجأة في بات ودون أن اعني شيئاً قلت :

- ألف وثمانمائة وخمسين .

استدار إلى كوستر مشدوها .

- الخمسون ماركاً الاخيرة سأدفعها من جيبي الخاص زيادة في الحرص .

طرق الدلال بمطرقته ثلاث مرآت معلناً ملكيتنا للسيارة . نهض كوستر ودفع المبلغ في الحال :

جاء غيدو ليقف إلى جانبنا ولم يعد يستطيع تمالك نفسه .

- ما هذا الجنون . كنا نستطيع الحصول على هذا الصندوق مقابل ألف ماروك .

- مرحباً يا عزيزي .

صاح صوت هادىء من الخلف . كان ذلك صوت البيغاء بقفصه الذهبي ، فقد

جاء دوره الآن في المزاد .

- ايها الوقح ، اكملت بدوري ما قالته البيغاء .

ترك غيدو المكان وهو يهز كتفيه .

انجهدت الى الرجل القصير وقد وقفت إلى جانبه امرأة شاحبه .

فقلت له :

- هكذا حال الدنيا .

أجاب :

- اعلم ذلك .

- لو لم ندخل المزايدة لحصلت على سعر أقل بكثير مما دفعناه .

هز برأسه موافقاً وأخذ يفرك يديه .

- السيارة في حالة جيدة .

قال ذلك فجأة وبسرعة ثم استورد :

- السيارة بحالة جيدة ، وهي تستحق السعر الذي دفعتموه . انني متأكد من ذلك . انكم لم تدفعوا اكثر مما تستحق . لم تكن السيارة هي السبب في هذا الموقف ، فهناك أسباب أخرى .

أجبتة :

- لا شك في ذلك .

قالت المرأة الشاحبة :

- لن نحفظ من ثمنها بشيء فعلينا تسديد ديون كثيرة .

- لا بد وأن تتحسن الأمور يوماً أيتها الأم ، لا بد وأن تتحسن الأمور .

قالها الرجل القصير دون أن تجيبه المرأة .

- السيارة جيدة فيما عدا بدآل السرعة . انه يختق عند التغيير من السرعة الاولى

الى الثانية . هذا عيبها منذ اشتريتها .

أخذ الرجل يتكلم بحرارة عن السيارة كمن يتكلم عن ابنه الوحيد .

- لم يظهر فيها أي خلل طيلة السنوات الثلاث التي كانت خلالها بملكيتنا. المشكلة

تكمن في المرض الذي ألمّ بي ، ثم خدعني أحدهم ، صديق .

- يا للندل .

تابعت المرأة وقد أحال الغضب قسماً وجهها إلى تعابير قاسية .

- دعي عنك ذلك أيتها الأم .

أجابها الرجل ونظر اليها مستعظماً ثم تابع :

- لا بد وأن أخرج من هذا المأزق . لا بد من ذلك .

لم تجب المرأة بشيء بينما كان الرجل قد ابتل من كثرة العرق .

قال له كوستر :

- اعطنا عنوانك ، ربما احتجنا في أحد الايام إلى سائق .

كتب الرجل العنوان بحماس بيديه الكبيرتين الصادقتين ، ونظرت الى كوستر .

كننا نعلم نحن الاثنين ، انه لا بد من حدوث معجزة لتحقيق ذلك ولكن ، اين هي

المعجزات ؟ لم تعد موجودة ، وإن وجدت فهي لا بد وأن تحدث بشكل عكسي .

أخذ الرجل يتكلم ويتكلم كمن أصابته الحمى . انتهت المزايدة . وقفنا وحيدين في الفناء بعد أن زدنا الرجل بعدة نصائح للمحافظة على السيارة في فصل الشتاء .
كان يتحدث إليها ثم يعود ليمسكها بيديه وللمرة الأخيرة . ساد بعد ذلك صمت ثم قالت المرأة .
- دعنا نذهب نحن أيضاً يا البرت .

صافحناه مودعين وذهبنا . انتظرنا حتى غابا عن أنظارنا . عندها ركبنا السيارة وأخرجناها من الفناء . رأينا عند باب الحانة امرأة عجوزاً تحمل قفص البيغاء في يدها وتحاول إبعاد بعض الأطفال الفضوليين عن طريقها . توقف كوستر وسألها :
- إلى أين وجهتك أيتها السيدة ؟
أجابته :

- يا الهي . لكن لم يعد معي نقود كافية لدفع أجرة التاكسي .
- لا حاجة بك للنقود . اصعدي فسأوصلك للمكان الذي تريدينه . اليوم عيد ميلادي . لذا سأوصلك بلا مقابل .

قبضت السيدة على القفص بشدة ونظرت إلينا بارتباب .
- اني أعرفكم . فانتم ستطلبون الأجرة عندما نصل .
هدأنا من روعها ، اقتنعت أخيراً وركبت السيارة .
سألتها عندما ترجلنا .

- لماذا ابتعت هذا البيغاء أيتها الأم ؟

أجابته :

- للمساء . ولكن هل تظن ان طعامه سيكلفني كثيراً ؟
- لا اظن ذلك ولكن لماذا للمساء ؟

أجابتنني ونظرت إلي بعينيها الزرقاوين الهرمتين :
- انه يستطيع الكلام ، لذا أشعر بانني لست وحيده ، وان هناك من يتكلم إلى جواربي .



جاءنا الحلباز في عصر ذلك اليوم ليأخذ سيارته الفورد ، وكان شكله يوحى بحرارة داخلية . كنت أقف لوحدي في فناء الورشة .

سألته :

- هل يعجبك اللون ؟

- نعم ، تقريباً .

قالها ونظر إلى السيارة بكثير من التردد .

- اعتقد اننا وفقنا بالكساء الداخلي للسيارة .

- هذا واضح .

وقف حائراً متردداً . توقعت أن يطلب مجدداً إنجاز المزيد من الاصلاحات على

السيارة ، وبدون مقابل .

ربما رافعة السيارة ، منفضة سجاثر جديدة أو ما شابه ذلك ولكن لدهشتي حدث

عكس ما توقعت اذ تلفت حوله ثم نظر إليّ من خلال عيينين امتلأتا بشرايين حمراء دقيقة .

- عندما أفكر ملياً . . . لقد كانت تجلس منذ أسابيع فقط على هذا المقعد ، ممتلئة

صحة وعافية وحيوية .

فوجئت لرؤيته رقيقاً على هذا الشكل ، لا بد وأن صديقه الوقحة بشعرها الأسود

المصبوغ قد هشمت ما بقي له من أعصاب . فالإساءة تخلق عند الانسان في بعض

الأحيان حساً رقيقاً أكثر مما يخلق الحب .

أكمل حديثه :

- كم كانت امرأة صالحة وذات قلب كبير . لم تطلب يوماً لنفسها شيئاً . مضت

عليها عشر سنوات وهي ترتدي المعطف ذاته . أما ثيابها الأخرى فكانت تحيطها

بمفردها وتقوم على توضيب البيت دون مساعدة أحد حتى توفر عليّ النفقات .

فكرت ملياً . لا بد وان رفيقه الجديدة لا تقوم بكل هذه الاعمال .

تابع الخباز حديثه العاطفي واسترسل في الكلام عن المتوفاة .

- وكيف كانت تأتيني بالنقود المتوفرة . لم تطلب مرة أخذ صورة فوتوغرافية لها .

فقد كانت تجد ذلك باهظاً جداً . لم يبق عندي من ذكراها سوى صورة الزفاف

وبعض الصور القديمة التي التقطت لها في بعض المناسبات .

بعث حديثه في مشاعري فكرة . فقلت له :

- عليك أن تطلب من أحد الرسامين أن يخلد زوجتك بلوحة زيتية جميلة . عندها

تبقى ماثلة أمامك . أما الصور الفوتوغرافية فانها كما تعلم ، تفقد الكثير من بهائها

ولونها مع تقادم الزمن .

أوضحت له عمل فرديناند جراو فشعرت بارتياحه في حين قال بأن هذا سيتطلب منه مبلغاً كبيراً . طمأنته وأكدت له بأن وساطتي ستجعل الثمن مقبولاً . حاول التراجع ، ولكنني لم أذعه يرفض ، وحاولت إقناعه بأن من يجب امرأة على هذا الشكل لا يعيقه دفع مبلغ معقول لتخليدها . بعد فترة من محاولتي إقناعه ، انصاع للأمر . كلمت فرديناند جراو هاتفياً وأوضحت له الموضوع ، ثم انطلقت مع الخباز لاحضار صورة المتوفاة . استقبلتنا المرأة ذات الشعر الاسود المصبوغ بتفحص بالغ ودارت حول الفوردي .

- لا شك أن اللون الأحمر أنسب من هذا اللون يا عزيزي . ولكن كالعادة لا بد وأن تصر على رأيك . فعنادك أتلف كل شيء .
- دعك من هذا .

رد العزيز بغضب .

صعدنا إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي . لحقت بنا المرأة وراحت عيناها الكبيرتان الواسعتان تراقبان بحدة كل تصرفاتنا . فتوتر الخباز وبدأ عليه عدم الاستعداد للبحث عن صور المتوفاة أمام ناظرها .
- دعينا لوحدنا .

قالها أخيراً بعنف .

خرجت المرأة غاضبة ، وبطريقة إستفزازية ، دافعة بصدرها إلى الأمام وبمؤخرتها إلى الخلف تهزها يمنة ويسرة .

أخرج الخباز صورتين من اليوم صور أخضر . إولاهما للمتوفاة في يوم زفافها ، وهو يقف الى جانبها بشاربه المقتول . والصورة الثانية وقد بدت فيها تجلس إلى حافة مقعد ، متعبة . وقد ملأ الخوف عينيها . صورتان فقط ولكنها كانتا تدلان على حياة إنسان كاملة .

قلت له :

- لا عليك . إن صديقي يستطيع أن يخرج من هاتين الصورتين لوحة زيتية جيدة .

استقبلنا فرديناند جراو بثيابه الرسمية . كان من أسس عمله استقبال زبائنه ببذلة سوداء أنيقة إصراراً منه على احترام حزنهم ومصيبتهم بالشكل اللائق ، وربما كان

هذا أكثر بكثير مما هو عليه في الحقيقة .

كانت هناك مجموعة كبيرة من اللوحات الزيتية معلقة على جدران المرسم وقد ألصقت على أطرافها الصور الفوتوغرافية الأصلية التي نقلت عنها تلك اللوحات . السبب في ذلك واضح وهو إعطاء الزائر فكرة واضحة عن نوعية العمل وكيف تتم لوحة زيتية كهذه .

وافق جراو الخباز في جولة قصيرة في المرسم ثم سأله عن اللوحات التي حازت على إعجابه . رد الخباز عليه متسائلاً .

- هل يقاس ثمن اللوحة بحجمها ؟

أجابه فرديناند موضحاً :

إن ثمن اللوحة لا يقاس بحجمها بل بالطريقة التي أنجزت بها .

عندها انبرى الخباز ليظهر إعجابه بأكبر لوحة معلقة .

تملقه فرديناند بقوله :

- إن ذوقك لرفيع حقاً . إنها لوحة للاميرة بورغي ثمنها ثمانمائة مارك مع الاطار .

ارتعش الخباز لدى سماعه ذلك .

وما ثمنها بدون الاطار ؟

- سبعمائة وعشرون

عرض الخباز على فرديناند أربعمائة مارك ولكن فرديناند هز جمجمة الأسد رافضاً .

- بهذا المبلغ تستطيع ان تحصل على صورة جانبية للرأس فقط . أما لوحة تصل من الرأس حتى الركبة فإنها تتطلب ضعف الجهد . راقى الفكرة للخباز وأشار بأن صورة جانبية للوجه تفي بالغرض . عاد فرديناند ونبه الخباز إلى ان الصورتين الفوتوغرافيتين لزوجته جبهيتين ولن يستطيع أي رسام ولا حتى تيتسيان نفسه ان يخلق من هاتين الصورتين لوحة جانبية .

تصبب العرق من وجه الخباز وبدا عليه اليأس . لا بد وأنه بدأ يلوم نفسه لانه لم يكن قد اخذ بعين الاعتبار كل هذه الامور اثناء التقاطه الصور .

كان المبلغ الذي طلبه فرديناند معتدلاً ، ولكن الخباز ارتجف بعنف لدى سماعه ذلك . أخذ فرديناند في فك أزرار سترته بعد أن كان متحفظاً باتزانته ووقاره حتى

تلك اللحظة . وأخذ يحاول إقناع الخباز بصوته العميق ، الذي ملأ أرجاء المرسوم وأطلعته على العمل الرائع الذي انجزه في هذه الامور . قام فرديناند بدوره في ذلك اليوم على أكمل وجه . سرد على الخباز عدة قصص ، تؤيد ميزات رسم لوحة كبيرة وبدأت ملامح الرضى تظهر على وجهه ثم قال :

- حسناً ولكن عليك ان تخصص عشرة بالمائة عند الدفع .

أجابه فرديناند :

- اتفقنا ، خصم عشرة بالمائة . ولكن لا بد من دفعة أولى بحوالى ثلاثمائة مارك ، لتسديد ثمن المواد الاولية من قماش وخشب والوان .

استرسل الاثنان في حديثهما لمدة طويلة . ولكنهما اتفقا بعد ذلك على ان يضيف فرديناند على الصورة اشياء غير موجودة في الأصل . عقداً من اللؤلؤ وحلية ماسية .

أجابه فرديناند :

- بالطبع سأرسم هذه الأشياء ، ولكن من الافضل ان تمر لعندي وتحضر معك بعض حليها . هذه العملية لن تأخذ أكثر من ساعة من وقتك . -

احمر وجه الخباز وأجاب متلعثماً :

- لم تعد الحلى موجودة في حوزتي ، إنها موجودة . . . حسناً لقد اودعتها عند بعض الاقارب .

- آه ، هكذا . هذا يعني انه أصبح لزاماً عليّ أن أرسمها دون رؤيتها . ولكن قل لي : هل حلية زوجتك تشبه هذه الحلية في تلك اللوحة .

هز الخباز رأسه موافقاً .

- ولكنها ليست في مثل حجمها .

- حسناً ، سأرسمها بهذا الشكل ، أما بالنسبة لعقد اللؤلؤ فلا حاجة بك لجلبه ، فالعقود كلها متشابهة .

تنفس الخباز الصعداء .

- متى ستصبح اللوحة جاهزة ؟

- بعد ستة أسابيع .

- حسناً .

ودعنا الخباز وانصرف . وبقيت وفرديناند جالساً لفترة في المرسوم .

سألته :

- هل تحتاج لسته اسابيع كي تنجز هذه اللوحة ؟
- لا . انني أحتاج إلى أربعة أو خمسة أيام فقط . - ولكنني لا أستطيع أن أصرح
بذلك لربائتي لأنهم حينذاك سيبدأون بحساب ما أكسبه في الساعة فتبدو مقنعة
بالنسبة لهذا المبلغ . إنها الطبيعة البشرية يا روبي .

هذا ما حدث معي أيضاً بالنسبة للوحة الأميرة المزعومة . لو صارحته بالحقيقة ،
بأن هذه اللوحة لخياطة وليس لأميرة . لأصبحت اللوحة في نظره لا تساوي نصف
قيمتها . انها المرة السادسة التي أرسم فيها نساء متوفيات بهذه الخليّ المرسومة على
تلك اللوحة . هكذا تلعب الصدفة دورها . لوحة المرحومة ليزا فولف خدمتني اكثر
من اية دعاية اخرى .

نظرت حوالي . بدت على الجدران عيون متحجرة تمحلق بي من خلال وجوه
مضى عليها زمن وهي راقدة في ظلمة القبور . لوحات كثيرة لم يأت أقارب أصحابها
لأخذها ، وربما كان ذلك لعجزهم عن تسديد ثمنها . جميعها لوحات لأناس كانوا
يوماً يتنفسون ويأملون مثلنا .

- ألا تخلق عندك هذه الوجوه شعوراً بالاكتاب يا فرديناند ؟

هز كتفيه :

- كلا ، ربما تجعلني ساخراً . الاكتاب يتسرب الى نفسية صاحبه عندما يفكر في
أمور الحياة ، أما السخرية فتأتي عندما يراقب المرء كيف تحاول الاغلبية تبسيط أمور
الحياة والتحكم بها .

- ولكن قد تصبح هذه المقولة معكوسة لدى الآخرين .
- بالطبع ، ولكن هؤلاء لا يطلبون رسم مثل هذه اللوحات .

نهض واقفاً وأكمل حديثه :

- هذه هي الحقيقة يا روبي . ومن الأفضل أن تبقى هكذا . على البشر أن
يحتفظوا ببعض أشياءهم الصغيرة . انها تحميهم وتجعلهم متماسكين أمام الوحدة
الحقيقية حيث لا توجد الاحلام . هذه الوحدة هي المرحلة التي تسبق الجنون
والانتحار .

أخذت الغرفة الكبيرة ، شبه الفارغة ، تسبح بأشعة الغروب . تناهى إلى
أساعنا وقع أقدام خلف جدار الغرفة المجاورة . لا بد وأنها صاحبة البيت التي لا
ترغب في رؤيتنا خوفاً على ضياع فرديناند منها . غادرت المكان ، وفي الاسفل وعلى
الباب الخارجي لفحني ضجيج الشارع كلفحة حمام ساخن .

ذهبت لزيارة بات لأول مرة في منزلها . فقد اعتدنا في السابق أن تزورني هي في غرفتي أو نلتقي أمام منزلها لاصطحابها الى أحد الاماكن . بعد كل لقاء كان يتتأني شعور بأنها مجرد زائرة في حياتي .

وددت معرفة كل شيء عنها ، كيف تعيش وتفكر . . فكرت وأنا ذاهب إليها بابتياح باقة ورد ولكنني تذكرت أن الحديقة العامة خلف مدينة الملاهي تعج بالورود فقفزت من فوق السياج ورحت أجمع لها باقة من الليلك الأبيض .
ماذا تفعل هنا ؟

دوى فجأة صوت نخاعي . رفعت نظري وإذا برجل ذي وجه بوبري ، شاريان أبيضان ملتفان ، يقف أمامي محدقاً بي . لم يكن شرطياً ولا حارساً حديقة . كان جندياً متقاعداً . فشكله يوحي بذلك . أجبته بأدب :
- ليس من الصعب معرفة ما أقوم به . اني كما ترى أجمع بعض أغصان الليلك .
صعق الرجل من كلامي وحرار في أمره . تمالك نفسه وأجابني بانفعال .
- الا تعلم ان هذا المكان هو حديقة عامة ؟

ضحكت :

- بالطبع أعلم ذلك . وهل تظنني حسبته مكانا ما في جزر الكناري ؟
احتقن وجه الرجل وأصبح أزرق . خفت عليه من ذبحة صدرية فسكت : أما هو فصار يصرخ بصوت جهوري وكأنه داخل معسكر .
- لتخرج في الحال من هنا . إنك تمد يدك إلى أملاك الدولة . سأذهب في الحال لاحضر من يقبض عليك .

جمعت كمية كافية من الليلك ثم قلت بهدوء :

- تعال وامسك بي أيها الجد العجوز .

ثم قفزت بسرعة فوق السياج واختفيت .

وأمام باب منزل بات توقفت برهة وتأكدت من أناقتي ثم صعدت السلم متمعناً فيما حو لي . كان المنزل جديداً مبنياً على الطريقة الحديثة بعكس بيتي القديم المتداعي . فرش السلم بسجادة حمراء . بالطبع لم يكن في سكني مثل هذه الأشياء ، ناهيك عن المصعد .

كانت بات تقطن في الطابق الثاني . على الباب وضعت لوحة نحاسية توحى بمركز صاحبها . كتب عليها أغبرت فون هاكه .

فجأة وبدون سابق تفكير ، امتدت يدي إلى ربطة عنقي لأصلح من وضعها قبل الضغط على الجرس .

فتحت الباب فتاة ترتدي قبعة بيضاء وصدارة ناصعة البياض لا يمكن مقارنتها ولا بأي شكل من الأشكال بفريدا الدابّة الحولاء . شعرت فجأة بعدم الارتياح . سألتني :

- السيد لوكامب .

هزرت رأسي موافقاً .

قادتني عبر دهليز ثم فتحت باب غرفة - لم اكن لاعجب لو رأيت امامي الملازم الاول مرتدياً كامل بزته العسكرية وجالساً ينتظر قدومي ليحقق معي . انتابني هذا الشعور لدى رؤيتي الصور المعلقة على الجدران تمثل ضابطاً بوجوه جدية وصدور مزينة بالاوسمة . تبدد خوفي لدى رؤيتي بات تحف لاستقبالي بخطواتها الواسعة الرشيقة . عندها استحالت الغرفة إلى جزيرة دافئة مرحة . أغلقت الباب واحتويتها برفق بين ذراعي ، ثمناولتها باقة الليلك . قلت لها :

- تفضلي هذه مع تحيات البلدية .

وضعت الباقة في مزهرية فخارية كبيرة موضوعة على الأرض أمام النافذة . أما أنا فرحت اجيل النظر في أرجاء الغرفة : ألوانها دافئة هادئة ، مفروشات قديمة قليلة غاية في الأناقة ، سجادة زرقاء وستائر بلون الشمع الأصفر وأرائك صغيرة وثيرة منجدة بمخمل أزرق .

سألتها :

- يا الهي كيف استطعت الحصول على هذه الغرفة الجميلة يا بات . فالمؤجرون في الغالب يضعون في الغرف المعدة للايجار حثالة ما لديهم من مفروشات .

أزاحت المزهرية برفق ووضعتها جانباً . وشرعت أراقب عنقها النحيل المنحني

والمنكبين المستقيمين والذراعين النحليتين .

خلتها وهي منحنية طفلاً قاصراً يحتاج الى حماية أمه . وعندما نهضت تراءت لي بحركاتها الرشيقة كحيوان امتلاً خفة ورشاقة وانحنت عليّ برأسها ، وفي عينيها وشفقتها أمل وترقب . انه سحر خفي يبدد لنا عاطفة متلهفة متطلعة ، وقد ظننت ذات يوم انها غابت عن عالمنا القدر .

طوقتها بذراعي ورحت أتحسسها بأناملي فهمست باذني :
- ان كل هذه الأشياء تخصني يا روبي ، فلقد كان هذا البيت بما فيه ملكاً لوالدتي . بيد أنني تخليت عنه بعد وفاتها واحتفظت لنفسني بهاتين الغرفتين .

سألته بارتياح :

- إذن فالبيت كله ملك لك . والملازم الاول مستأجر عندك ؟

هزت رأسها بالنفي .

- لم يعد الامر كذلك ، فانا لا أستطيع الاحتفاظ بالبيت . بعته مع غالبية فرشه والآن انا المستأجرة . لكن قل لي :

ما سبب عدائك للسيد أغبرت .

- لا شيء . نقطة ضعفي هي البوليس ، الضباط ، رواسب علقت في ذهني أثناء خدمة العلم .

ضحكت :

- والدي ايضاً كان جنرالاً .

- جنرال ؟ انها القمة .

سألته :

- هل تعرف العجوز هاهه :

فجأة شعرت بأن رؤيا مزعجة أمسكت بي .

- هل هو رجل قصير ، منتصب القامة ، أحمر الوجه ، له شاربان ابيضان ، ذو

صوت جهوري يتنزه كثيراً في الحدائق العامة ؟

- آه .

عندها نظرت بات الى باقة الليلك وضحكت :

- كلا ، انه رجل طويل يلبس نظارة .

- فانا لا أعرفه إذن .

- أتود التعرف اليه ؟

- وقاني الله ذلك . إنني أفضل البقاء إلى جانب الرفاق في المرآب وإلى جانب سكان بنسيون تساليفسكي .

طرق الباب ، ثم دخلت تلك الفتاة التي رأيتها من قبل بأدب بالغ ، تجر طاولة صغيرة على عجلات . نظرت بدهشة وكمن أصاب وهج الشمس عينيه عندما رأيت ذلك البورسلين الابيض الشفاف وإلى جانبه طبقين من الفضة . احتوى الاولى على حلوى والثاني على فطائر صغيرة الحجم بالاضافة إلى سجائر ومناديل بيضاء ناصعة وأشياء اخرى .

- إرحميني يا بات ، فأنا أشعر وكأنني أتحرك من داخل فيلم سينائي . لقد شعرت وأنا أصعد السلم بأننا من شرائح إجتماعية مختلفة . تذكرني بأنني اعتدت على تناول طعامي من اطباق ورقية ممتلئة بالشحم وموضوعة على مصطبة نافذتي في بنسيون تساليفسكي ، الى جانب صديقي الوفي الطباخ الكهربائي الصغير . إرحمني ساكني البنسيونات اللانسانية ولا تغضبي إن سقطت من بين اصابع أحدهم ، في حالة اضطرابه الشديد ، أحد هذه الفناجين البيضاء .

- إحترس ، فسمعتك كميكانيكى لامع لا تسمح لك بذلك .

أمسكت بإحد الابريقين وسألت :

- ماذا تفضل : شاي أم قهوة ؟

- شاي أم قهوة ؟ هل النوعان متوفران لديك ؟

- نعم ، انظر .

- عظيم . . بدأت اشعر وكأنني في أرقى المطاعم ولا ينقصنا سوى بعض الموسيقى .

إنحنت إلى الجانب وضغطت على أحد أزرار راديو صغير لم ألاحظه من قبل لصغر حجمه .

- والآن ماذا تنوي أن تشرب : شاياً أم قهوة ؟

- قهوة فقط ، انني من الريف يا بات .

- وأنا ساشارك القهوة .

- ولكنك تفضلين الشاي في العادة .

- نعم ، ولكنني بدأت اعتاد شرب القهوة . والآن هل تفضل الحلوى أم بعض

شرائح اللحم ؟

- الصنفين يا بات . على المرء أن لا يضيع عليه فرصة كهذه . وعند الانتهاء من

القهوة ساشرّب الشاي . علي أن اتذوق كل ما عندك .

ضحكت وملأت طبقين بالفطائر والحلوى .

- هذا يكفي ولا تنسي اننا نجلس الآن على مقربة من ملازم أول . العسكر يفضلون الاعتدال في الأمور وخاصة عند مستخدميهم .

- انهم معتدلون فيما يتعلق بالخمرة فقط . فالعجوز أغبرت يلتهم كميات كبيرة من الحلوى والكريمة .

- لقد حاول بعض الضباط أثناء فترة الجنديّة منعنا من هذه الهواية .

قلت ذلك ورحت أحرك الطاولة الصغيرة جيئة وذهاباً مراقباً سيرها الهادئ على السجادة . جلست نظري مرة ثانية في الغرفة . كل ما فيها متناسق وجميل .
- هكذا إذن يا بات كان يعيش اسلافنا .

ضحكت :

- ما هذه الخرافات التي ترويتها ؟

- انها ليست خرافات بل أحداث معاصرة .

- ان امتلاكك لهذه الأشياء ليس ضرباً من ضروب الحظ بل هي الصدفة بحد ذاتها .

هزرت رأسي نائياً :

- انها ليست الصدفة وليست الأشياء هذه هو ما أعنيه ، بل تلك الثقة التي تكمن خلف هذا كله . لا يمكنك فهم ما أقوله ، ان من لا يحمل شعوراً بالانتماء إلى هذه الأشياء ، هو فقط من يستطيع فهمها .

نظرت الي :

- ولكنك تستطيع ان تحصل على هذه الأشياء أيضاً إذا أردت .

أمسكت يدها :

- الأمر يكمن هنا ، فإنا لا أريد اقتناءها ، انها لا تناسبني وسأغدو محتملاً في نظر نفسي لو فعلت . ان الناس من أمثالي يفضلون العيش وكأنهم على أهبة الرحيل دائماً . هذا ما تعودناه . وهذا بالذات ما أعنيه ، موسمية عصرنا .
- لأن نمط مثل هذه الحياة أسهل على ما أعتقد .

ضحكت :

- ربما . والآن هل لك أن تصيبي لي بعض الشاي . أريد أن أجربه .

- دعنا نكمل شرب القهوة . والآن أكمل طعامك .

- فكرة جيدة ولكن ماذا سنفعل مع أغبرت ، الذي ينتظر بلا شك رجوع الأطباق وفيها حصته من الحلوى .
- ربما ، ولكن عليه ان يشعر بغليان الثأر في الطبقات المضطهدة ، وهذا ايضاً من سمات العصر .
- كل ولا تبق له شيئاً .

لمعت عيناها وبدت رائحة الجمال .

قلت لها :

- إسمعي . هل تعرفين أين ينتهي التقويس وبدون رحمة ؟

لم تجب ولكنها نظرت الي .

قلت .

- مهلاً ، ولكن الآن دعينا نشهر أسلحتنا في وجه أغبرت وبدون رحمة .

لم أكن قد تناولت في ذلك اليوم طعاماً سوى طبق من الحساء في إحدى حانات السواقين ، لذلك لم يكن من الصعب التهام الطبقين واحتساء القهوة كلها ، منفذاً بذلك أوامرات .

جلسنا أمام النافذة واخذنا ننفخ سجائرنا وننظر إلى السماء التي اكتست برداء احمر .

- جميل هذا المكان . ففيه ينسى المرء كل تعقيدات العالم الخارجي . الآن فقط استطيع فهم مكوثك الطويل ولدة اسابيع في غرفتك .

ابتسمت :

- مضى علي وقت ظننت انني لن أبرح الغرفة ابداً .

- متى كان ذلك ؟

- أثناء مرضي .

- هذا شيء آخر ، ولكن مم كنت تشكين ؟

- لم يكن بالمرض الخطير ، لكنه طرحني في الفراش ولدة طويلة . يقال أنني نسيت بسرعة السنين التي لم يكن الطعام الكافي فيها متوفراً . خلال فترة الحرب وبعدها .

هزرت برأسي :

- هل كانت فترة مرضك طويلة ؟

ترددت بعض الشيء قبل أن تجيب :

- ما يقارب السنة .

- انها فترة طويلة جداً .

ورحت أنظر اليها بانتباه :

- انها فترة بعيدة جداً ولكنني ما زلت أعيش ذكراها وكأنها اليوم . لقد حدثني مرة عن صديقك فالتيتن كيف أنه لم يستطع يوماً نسيان أهوال الحرب . قلت لي يوماً : انه ما زال سعيداً بخروجه حياً من الحرب . لذا فهو ينظر الى المستقبل نظرة لا مبالاة .

- انك تذكرين ما قلته لك جيداً .

- نعم ، فأنا أستطيع فهم شعوره جيداً . فأنا أعيش أيضاً بذلك الشعور . فرحة متفائلة ، وربما هذا هو السبب الذي يكمن وراء سطحيته في النظر إلى الأمور المحيطة بي .

- لا ، فالسطحيون هم الذين يظنون أنفسهم عكس ذلك .

- إنني سطحية حقاً ، فأنا لا أستطيع تفهم أمور الحياة الكبيرة ولا يهمني منها إلا الأشياء الصغيرة الجميلة ، فباقة الليلك هذه تسعدني أكثر من أمور كبيرة في هذه الحياة .

- ولكن هذا التفكير بالذات هو الأبعد عن السطحية . إنه ذروة الفلسفة .

- ولكن ليس بالنسبة لي ، فأنا سطحية ومستهترة .

- وأنا كذلك .

- إنك لست على شاكليتي . إنني متأكدة من ذلك . منذ قليل تكلمت عن

المخادعة . إنني أعتقد حقيقة بانني مخادعة كبيرة .

- هذا في الحقيقة ما فكرت فيه .

- كان عليّ أن أترك هذا البيت منذ زمن بعيد والبدء في البحث عن عمل ومورد

رزق . ولكنني كنت دائماً أوجل ذلك طمعاً في العيش هكذا وعلى سجيته . وهذا

ما فعلته دون الرجوع إلى نفسي ومناقشتها ان كان ذلك صحيحاً أم لا .

- ولكن لماذا ترسمين كل ذلك العناد على وجهك ؟

- لأن الجميع يصفني بالاستهتار . نصحني الجميع بتوفير النقود القليلة التي

ورثتها وأن أبدأ بالتدريج في البحث عن عمل لكنني فضلت العكس . كان ذلك

بعد وفاة والدتي وبعد شفائي من المرض . أردت أن أحييا بعيدة عن العمل والحزن ،

أردت أن أكون كما أنا .

سألتها :

هل لك أخوة ؟

هزت رأسها بالنفي .

- لم أكن أتوقع غير ذلك .

- هل تعتقد أنت أيضاً بأنني كنت مستهترة ؟

- لا ، بل كنت جريئة وشجاعة .

- آه ، جريئة . إنني لست هكذا دائماً . ففي بعض الأحيان يساورني الخوف

الشديد كمن يجلس في المسرح على مقعده ولا يبدي حراكاً .

- إذا كنت شجاعة ، فالإنسان يصبح شجاعاً فقط عندما يشعر بالخوف ولكن ماذا

فعلت بالنقود ؟

- في الحقيقة لا شيء . عشت هكذا لنفسى .

- لك جل احترامي . كان تصرفك عين الصواب .

ابتسمت .

- ولكن فترة الكسل قاربت على الانتهاء . عليّ أن أبدأ في البحث عن عمل .

- ما نوعية العمل الذي تبحثين عنه ؟ ألم يكن اجتماعك بالسيد بيندينج من أجل

ذلك ؟

هزت برأسها موافقة .

- مع السيد بيندينج ومع الدكتور ماركس ماتوشايت . مدير عام محلات بيع

المعدات الموسيقية ، بائعة مع المام بالموسيقى .

- بائعة . هل هذا هو كل ما تمخض عنه ذهن بيندينج ؟

- لا بأس .

- ومتى ستباشرين العمل ؟

- في أوائل شهر آب .

- ما زال أمامنا متسع من الوقت للتفكير في امكانية اخرى . على أي حال فنحن

جميعاً من زبائنك الدائمين .

- هل لديك حاكمي ؟

- لا ، ولكن من البديهي أن أسارع إلى شرائه عندما تباشرين عملك . ولكنني

أصدقك القول فأنا لست مرتاحاً لهذه الفكرة بعد .

- أمّا أنا فاصبحت قانعة بها حيث أنني لا أستطيع القيام بعمل آخر . فمنذ تعارفنا

أصبحت الأمور تبدو أسهل بكثير مما كانت عليه . لا أريد أن أثقل عليك بمشاكلي

وأرفض التحدث عنها ثانية .

- بل على العكس ، عليك ان تصارحيني بكل شيء .

نظرت إليّ فترة :

- ليكن يا روبي .

قالت ذلك ثم نهضت واتجهت إلى خزانة صغيرة .

- هل تعرف ماذا عندي هنا ؟ روم . صنف فاخر على ما أعتقد ، خصيصاً لك .

وضعت كأساً على الطاولة وأخذت تنظر إليّ بحذر .

- روم جيد . إنني استطيع استنشاق رائحته من بعيد . ولكن يا عزيزتي بات ،

اليس من الافضل لنا أن نباشر في الادخار لتجنب فكرة العمل تلك ؟

- كلا .

- تصرف صحيح أيضاً .

كان الروم مغشوشاً كما بدا لي من لونه . لا شك أن البائع قد خدع بات . شربت

الكأس وقلت مجاملاً :

- صنف جيد أعطني كأساً آخر . من أين لك هذا .

- من المتجر الواقع عند زاوية الشارع .

- لا شك بأنه للمأكولات الخاصة .

فكرت في نفسي لا بد وأن أمرّ عليه مرة لآلقنه درساً بسبب غشه لبات .

- علي أن أذهب الآن اليس كذلك يا بات ؟

نظرت إليّ :

- لم يحن الوقت بعد .

أخذت الطرقات تتلأل بالاضواء بينما نحن ما زلنا نقف خلف النافذة .

- أتريني غرفة نومك ؟

فتحت الباب وأضاءت النور . وقفت واجماً على الباب وراحت أفكار كثيرة

تتراحم في رأسي حين نظرت إلى داخلها . قلت أخيراً :

- إذن هذا هو سريرك ؟

رفعت نظري .

- نعم ، وها هو التلفون . أصبحت الأمور واضحة بالنسبة لي .

- والآن علي أن أنصرف . وداعاً يا بات .

أحاطت وجهي بيديها . كم تمنيت في تلك اللحظة البقاء عندها ، والالتصاق بها
تحت ذلك الغطاء الأزرق الناعم الذي يغطي سريرها ولكن شعوراً خصباً منعني من
ذلك . لم يكن إحساساً بالحرج أو الخوف أو الحذر ، بل على العكس كان هناك جو
مفعم بالحنان ، حنان طفى على كل مشاعر الشهوة .

- وداعاً يا باب . . . كم كانت هذه الساعة جميلة . . . أجمل بكثير مما تتوقعين .
والروم . كيف فكرت به .
- انه أمر في غاية البساطة .
- أما بالنسبة لي فلم يبد في غاية البساطة ، لم اعتد يوماً على كل هذا .

* * * *

جلست برهة في غرفتي . فكرة ارتباط باب بيندينج بدأت تقلقني . تركت الغرفة
بعد برهة واتجهت عبر الدهليز الطويل الى غرفة إيرنا بونينغ .

بأدائها القول :

- زيارتي اليوم لك لها طابع رسمي . ما هو حال سوق العمل النسائي يا إيرنا ؟

أجابت :-

- ماذا ؟ ما هذا السؤال البارد الذي صفتت به صدري المتيقظ ؟ على أي حال .
لا توجد هناك إمكانيات للعمل حالياً .

- إذن لا أمل في ذلك .

- بمن يتعلم الطاب .

- سكرتيرة ، مساعدة سكرتيرة .

نفث ذلك بحيرة من يدها .

- هناك مئات الآلاف بلا عمل . ولكن هل تملك السيدة إمكانيات مميزة ؟

- شكلها رائع .

سألت إيرنا :

- كم مقطعاً ؟

- ماذا ؟

- كم مقطعاً تستطيع السيدة ان تكتب ، وما هي اللغات التي تتقنها ؟

- لا ادري . ولكن ربما كانت الشخص المناسب للتشريفات .

ردت إيرنا :

- يا طفلي العزيز . اني افهم من كلامك انها فتاة من عائلة راقية ، عاشت أيام رخاء غير هذه الايام ، وها هي ذي مجبرة كغيرها على العمل و . . و . . لا أمل في ذلك ما لم يوليها أحدهم اهتمامه ويفسح لها الفرصة من خلال إهتمامه بها . انك تفهم بالطبع ما أقول . ولا أظنك تقبل به ؟
- سؤالك سخيف .

أجابت إيرنا بشيء من المرارة :

- ليس بهذا السخف .

عندها تذكرت قصة إيرنا ورئيسها .

- ولكني أريد نصحك .

تابعت إيرنا حديثها بجد :

- حاول أن تعمل أكثر لتكسب الاثنين : الزواج . هو الحل الأسهل .

ضحكت :

- كم بودي لم تم ذلك . ليتني أتمتع بقليل من الثقة للاقدام على ذلك .

نظرت إلى إيرنا بشيء من التعجب . بدت فجأة رغم كل حيويتها متقدمة في السن ، ذابلة .

- إنني أعيش حياة لا بأس بها . وكل شيء متوفر لي حتى الكماليات لكن صدقتي ، لوجاء أحدهم وطلب مني العيش معه بكل أمانة وإخلاص ، لتركت كل هذا وعشت معه في ملحق صغير .

استعاد وجهها إشراقته المعهودة .

- والآن دعنا من هذا الحديث ، فلكل إنسان زاويته العاطفية .

قالت ذلك وهي تغمز بعينها من بين دخان سيجارتها ، ثم تابعت :

- ذلك على ما يبدو زاويتك العاطفية أيضاً .

- ليس الأمر كذلك كما تظنين .

أجابت بإصرار :

- لا . انني أشعر بذلك .

في بعض الاحيان تصيب هذه العاطفة الاشخاص الذين لا يتوقعون حدوث مثل هذا الأمر لهم . أجبت :

- ليس أنا من يحمل زاوية كهذه .

مكثت في غرفتي حتى الثامنة . بعدها لم استطع البقاء بمفردي لذا توجهت إلى البار
يخدوني الأمل بالالتقاء هناك باحد الأصدقاء ، كان فالتين هناك كعادته . قال :
- اجلس . ماذا تريد أن تشرب ؟
- روم . إنطلاقاً من هذا اليوم صارت لي علاقة خاصة بهذا المشروب .

أجاب فالتين

- الروم هو حليب العسكر . انك تبدو وسيماً اليوم .
- هكذا ؟

- نعم ، فأنت تبدو أصغر سنّاً مما أنت عليه .

- إذا كان الأمر هكذا فدعنا نشرب نخبك .

- نخبك يا روبي .

أعدنا الاقداح الى المنضدة ونظر الواحد منا إلى الآخر ثم انفجرنا ضاحكين .

قال فالتين :

- أيها الصبي المسن .

أجبتة :

- أيها الصبي المالح .

- ولكن ماذا تشرب الآن ؟

- المشروب ذاته ثانية .

- حسناً .

عاد فريدي وملاً لنا الاقداح .

- نخبك للمرة الثانية يا فالتين .

- نخبك يا روبي .

- نخبك . يا لها من كلمة عظيمة . ألا توافقني على ذلك ؟

- انها زبدة الكلام .

وردناها مرة ثانية ثم نهض فالتين وترك الحانة .

* * * *

جلست وحيداً ، لم يكن في الحانة أحد سوى فريدي . أخذت أنظر إلى الخرائط
القديمة الملونة وإلى السفن باشرعتها الصفراء سابحاً بالتفكير بيات ، أحسست برغبة
جامحة في التكلم إليها ، ولكنني أرغمت نفسي على عدم القيام بذلك . عاهدت

نفسي بأن لا أسترسل في التفكير بها . عليّ أن اتطلع إليها وكأنها هدية جميلة غير متوقعة ، جاءتني ولكن لتذهب يوماً ما .

حاولت أن أمتنع عن التفكير بأن العلاقة بيننا لا تتعدى ذلك الشعور . صحيح ان هدف كل حب هو البقاء الأبدي ولكنني كنت موقناً أن من هذا التطلع يكمن العذاب الحقيقي . لم يكن هناك شيء أزي ، فكل الأمور مصيرها الزوال .

قلت لفريدي :

- أعطني قدحاً آخر .

دخل رجل وامرأة البار . شربا كأسين من الجعة ثم انصرفا بسرعة . كانت المرأة تبدو متعبة . ورجعت بات لمخيلتي . كان من الأفضل لو لم أزرها في بيتها . فصورتها ماثلة أمامي أينما اتجهت أنظاري ، لا أستطيع التخلص منها . الغروب المتسلل إلى غرفتها ، ظلال المساء الزرقاء الخافتة وتلك الفتاة الجميلة الجالسة التي تتحدث بصوتها العميق عن الأمور التي صادفتها وعن أملها في الحياة . يا للجنة . ها أنا أصبحت عاطفياً . ظننت أن كل هذا الشعور سينتهي منذ بداية الخطوط الأولى من تلك العلاقة العاطفية . ولكن حدث عكس ما توقعت وأردت . ها أنا الحظ تغيراً كبيراً في شخصي يا للجنة . تركتها . . . لماذا لم أبق إلى جانبها كما كنت مصمماً أن أفعل . . يا للجنة . لا أريد التفكير أكثر في كل هذه الأمور . لتأت الأحداث كما تشاء ولو أدى بي ذلك إلى الموت تعاسة . انها الآن موجودة ، وليذهب الجميع إلى الجحيم . لماذا كل هذا الاهتمام في تأمين حياة آمنة ؟ . سيأتي اليوم الذي سيحرف فيه الفيضان كل شيء .

- هل نشرب قدحاً يا فريدي ؟

- بكل سرور .

شربت مع فريدي قدحين من الكونياك ، بعدها أجرينا القرعة على قدحين آخرين ففزت بها . لم أكن أعني ما أريد . . لذا أعدنا اجراء القرعة وخسرت للمرة الخامسة .

- هل السماء ترعد في الخارج أم أنا ثمل ؟

أرهف فريدي السمع .

- انها ترعد بحق . انها العاصفة الأولى هذا اليوم .

ذهبنا إلى الباب ، وأخذنا ننظر إلى السماء . لم يكن هناك ما يمكن رؤيته . كان الجو دافئاً وقد سمع صوت رعد متقطع بين الحين والآخر .

- علينا ان نشرب نخب هذه العاصفة .

اقترحت ذلك على فريدي فوافق على الفور .

- انه شراب سوس سيء المذاق .

قلت ذلك وأعدت القدر الفارغة الى طاولة البار .

اقتراح فريدي أن نتناول شراباً أشد نكهة . استقر رأيه على خمرة الكرز ، أما أنا فأخذت الروم . ولكي نتفادي أي شجار بيننا ، أخذنا نشرب الصنفين بالتناوب . صببنا الخمرة في كؤوس كبيرة كي لا نثقل على النادل . أخذنا نخرج بين الحين والحين لنرى البرق ، ولكن الحظلم يحالفنا ، إذ لم يكن يظهر إلا بعد أن نكون قد عدنا إلى أماكننا .

حدثني فريدي عن عشوره على عروس ، ابنة مالك المطعم . لكنه أجّل فكرة الزواج لحين موت والدها ، ليتأكد من أن العروس ستراث المطعم بكامله . وجدت في تصرفه كثيراً من الحذر غير المشروع ولكنه أوضح لي سبب ذلك ، وهو أن والد العروس نذل كبير وربما فكر في توريث المطعم لإحدى المؤسسات الدينية . كان فريدي متفائلاً جداً . حدثني بأن العجوز ، والد العروس ، مصاب بالزكام وربما بالانفلونزا ، ويأن هذا المرض سيقضي عليه لا محالة . أوضحت له بدوري ان الانفلونزا لا تضرب بالكحوليين بل على العكس فهي تنعش شهيتهم فينصبون على الاكل . وعقب فريدي على ذلك بكثير من اللامبالاة وأردف :

- أمل ان يلقي العجوز حتفه تحت عجلات إحدى السيارات .

أكدت رأيه بأن حدوث ذلك ممكن جداً وخاصة على الشوارع المبتلة . عندها اتجه فريدي إلى الباب ليتأكد من هطول المطر ولكنه عاد بخيبة أمل كبيرة ، فلم يكن المطر قد هطل بعد . علا صوت الرعد . ناولته كأس عصير ليمون واتجهت إلى الهاتف . تذكرت العهد الذي قطمته على نفسي . أعدت الساعة إلى مكانها وحاولت رفع قبعتي احتراماً لذلك الموقف ، ولكنني فوجئت بان القبعة لم تكن على رأسي .

عندما عدت الى مكاني فموجئت بوجود كوستر وليس هناك .

قال جوتفريد :

- دعني أشم رائحة فمك .

نفخت في وجهه .

- روم ، خمرة الكرز والابسينت .

- ماذا تقول . ايسينت . أيها الخنزير . إذا كنت تظن اني ثمل فانت مخطيء بلا شك . من أين جثثنا ؟
- من اجتماع سياسي . وجد اوتو هذا الاجتماع سخيفاً . ما هذا الذي يشره فريدي ؟

- عصير الليمون .
- لماذا لا تتناول كأساً من العصير أيضاً ؟
- غداً . أما الآن فلا بد لي من تناول بعض الطعام .
كان كوستر ينظر إليّ ، متخوفاً ، خلال الجلسة . قلت له :
- لا تنظر إلي هكذا يا اوتو . لقد أسكرني الفرح وليس القهر .
اجاب :

- إذا كان الأمر هكذا فأنا موافق .
- تعال الآن لتتناول الطعام معاً .

* * * *

عدت إلى صحوي في الساعة الحادية عشرة . اقترح كوستر أن نعود لنرى ما حل بفريدي . ذهبت معه فوجدناه ملقى على الارض خلف البار كالاموات .
قال لينس :

- دعونا ننقله الى الغرفة المجاورة ، وأنا سأتولى أمر الزبائن .

حاولت مع كوستر إيقاف فريدي من سكرته . أعطيتاه بعض الحليب الساخن . فشربه وبدأ يصحو تدريجياً . نصحناه بالاستراحة لنصف ساعة ريثما يزول تأثير الكحول عنه ، وطمأناه أن لينس يقوم الآن على خدمة الزبائن في الحانة . كان جوتفريد يتقن العمل كساق . فهو يعرف جيداً أسماء المشروبات ويتقن فن خلطها . كان يتعامل مع كأس الخلط بمهارة وكأنه لم يقم يوماً بعمل آخر سواه . استعاد فريدي قواه بعد ساعة ، بعد أن أفرغ كل ما في معدته ورجع خلف البار ليأخذ مكانه الطبيعي .

بادرته قائلاً :

- سامحني يا فريدي . كان علينا أن نتناول بعض الطعام قبل المباشرة في الشرب .
- لا عليك ، فأنا الآن أحسن بكثير . فمثل هذه السكرتة تفيدني بين الحين والآخر .
- بلا شك .

اتجهت نحو الهاتفف وطلبت بات ، فقرراتي السابقة لم تعد تهمني .
- سانتظرك على باب المنزل خلال ربع ساعة .

قلت ذلك بصوت عال وأغلقت الساعة دون انتظار الرد . خفت أن ترفض
المجيء بحجة انها متعبة ، فلم أكن مستعداً في ذلك الوقت لسماع الرفض . فكل ما
كنت أريده هو رؤيتها .

لم أكد أصل إلى بيتها حتى فتحت باب العمارة لتخرج منه . قفلت زجاج الباب
الذي لامس رأسها . أرادت قول شيء ولكنني لم أدع لها المجال لتنبس بأية كلمة .
قبلتها وركضنا الى زاوية الطريق حيث عثرنا على تكسي .

صحت بها :

- أدخلني بسرعة فالطر سينهمر الآن .

ركبنا السيارة . وبالفعل بدأت أول قطرات المطر تسقط على سطح السيارة وبدأت
السما ترعد وتبرق والسيارة ترتج فوق الاسفلت الحافل بالحفر .

رغم ذلك كان كل شيء رائعاً ، فمع كل رجة كنت أشعر بوجود بات إلى
جانبي . كل ما في الطبيعة جميل ورائع : المدينة ، الخمر . كل شيء .

في تلك المرحلة حيث يعقب الصحو النشوة تزول المخاوف ويبدو الليل طافحاً
بالعظمة ويقوى خفية مؤنسة ، فيزول الحذر من وقوع اي مكروه ويموت الاعتقاد
بخطأ بعض الأمور . انهمر المطر بقوة فوق رؤوسنا حين نرجلنا من السيارة . وبدا
اسفلت الطريق مرقطاً بقطرات المطر كأنه جلد نمر ، ولكننا لم نكد نصل الباب حتى
تحول الاسفلت الى سطح مرآة سوداء لامعة . لم أشعل النور، فالبرق أضاء الغرفة
وحسنا الرعد على الصراخ بقوة ودون أن نسمعنا أحد . وبدت النافذة وكأنها تحترق
من وميض البرق . وظهر برج الكنيسة لثوان ثم عاد واختفى في الظلام . كذلك
ظهر بين الظلام والظلام جسد بات المطواع ، وكأنه تمثال من الفوسفور . أحطتها
بدراعي ، فالتصقت بي . أحسست بفمها وبأنفاسها . وبعدها . . لم أعد أعني
شيئاً .

اصبحت ورشتنا خاوية وكأنها مخزن قمح ، قبل الحصاد ، لذا قررنا عدم بيع التاكسي ، الذي كنا قد ابتعناه في المزاد وجرى تقسيم العمل بيننا . لينس وأنا سنعمل كسائقي تاكسي بالتناوب ، أما كوستر ويوب فسيتابعان العمل في الورشة . حيث أن العمل في هذه الأيام أصبح نادراً . أجريت القرعة على لينس لتثبيت الدور الأول في العمل على التاكسي . فزت بالقرعة ، فعبأت جيبي بنقود صغيرة وجمعت أوراقتي وانطلقت بالسيارة عبر شوارع المدينة باحثاً عن مركز انطلاق جيد ودائم .

لفني شعور غريب . هذه هي المرة الأولى التي أقوم بها بمثل هذا العمل . إن الشعور بأن أي معتوه يمكن أن يوقفني ليطلب مني توديله إلى مكان ما ، شيء لم يكن في الواقع مريحاً . أخذت مكان الانطلاق امام فندق أوالديسكر في منتصف ساحة تعج بالمحلات التجارية ، صففت سيارتي خلف خمس سيارات تاكسي تنتظر دورها . اطفأت المحرك وترجلت ، في تلك اللحظة ترجل رجل ضخم من إحدى السيارات الأمامية ، يلبس معطفاً جلدياً وتوجه نحوي صارخاً متوعداً :

- انصرف من هنا .

نظرت إليه بهدوء وأخذت افكر في كيفية التصدي له والتغلب عليه . القتال هو أسهل طريقة لذلك . إمساكه من قدميه ورميه أرضاً . وهكذا لا يستطيع التصرف بسرعة بسبب المعطف الطويل الذي يرتديه . عاد الى الصراخ ثانية :

- الم تفهم ما قلت .

وبصق بعقب سيجارته أمام قدمي .

- انصرف من هنا ، فالمكان يضيق بمن فيه ولا يتسع لعاطل جديد عن العمل .

كان محقاً في غضبه لمقاسمته إياه والآخرين لقمة العيش التي أصبحت صعبة المنال في هذا الوقت العصيب . كما كان من حقي أيضاً أن أصطف بسيارتي حيثما شئت للحصول على لقمة العيش تلك .

- ساتنازل عن عدة طلبات في البداية لصالح الزملاء .

قلت له ذلك آملاً أن ينتهي الأمر دون أي اقتتال . فهذه عادة متبعة عند السائقين

لدى انضمام سائق جديد إليهم . لكنه لم يتراجع ورفض هذا العرض . تقدم إليه سائق شاب ورجاه :

- حسناً . دعه يا جوستاف . انه اقتراح جيد .

لكن جوستاف لم يعره أي انتباه . لقد استفزه في شيء أدركه تماماً ، وهو اني دخيل على هذه المهنة .

- ساعد حتى الثلاثة .

كان اطول مني بمقدار رأس . ومن هنا جاءت ثقته بنفسه فايقنت بأن الكلام لا يجدي معه نفعاً . لم يكن أمامي خيار ، فاما أن أغادر المكان أو أضربه ضربة قاضية .

- واحد .

وبدأ جوستاف بالعد وأخذ يفك أزرار معطفه .

أجبتة :

- لا تكن أحمقاً .

محاولاً تحذيره للمرة الأخيرة واقترحت عليه بأن نرطب حلقنا بقدح من الكونياك .

- اثنين .

زجر جوستاف . حينئذ أدركت أن مراده القضاء علي قضاء مبرماً - واحد آخر بساوي -

وأزاح قبعته إلى الخلف ولبكني صحت فجأة وبصوت حاد :

- أصمت أيها المجنون .

فغر جوستاف فاه من شدة الدهشة وتقدم خطوة إلى الأمام . وما أن اقترب مني حتى لكمته بكل قوتي على وجهه فسقط على الارض لا يقوى على شيء . لقد نزلت عليه الضربة وكأنها مطرقة حديدية متضمنة كل ما أملك من قوة . لقد علمني كوستر الملاكمة ، ولم أكن أصدق أن الضربة الأولى هي التي تحدد غالباً مجرى النزاع حتى جربتتها .

- لا تهتم ، فانه صاحب مشاكل قديم .

قال السائق الشاب .

حملناه ومددناه على مقعد سيارته .

- دعه ، فانه سيستعيد وعيه بعد قليل .

انتابني بعض القلق في أن يصحو بسرعة من إغمائه لينقض عليّ . بدأت اشعر
بالم حاد في إبهامي من جراء اللكمة وبورم يعني من أن أرد عليه ثانية .

سألت السائق الشاب .

- اتراه من الافضل أن انصرف الآن ؟

أجاب :

- هراء . فالمشكلة قد انتهت كما اعتقد . تعال معي لندخل الحانة ونشرب كأس
انتصارك . انك لست سائقاً ممتهاً ؟ أليس كذلك ؟

- لا .

- وأنا أيضاً ، فمهنتي الحقيقية ممثل .

- لماذا تركت التمثيل اذن ؟ وكيف تجد هذا العمل ؟

أجاب ضاحكاً :

- المهم أننا نعيش ، ومسرحة الحياة واسع . فمجموعتنا تتألف من خمسة
سائقين : رجلان متقدمان في العمر وثلاثة شبان .

دخل جوستاف الحانة بعد فترة وحملق فينا ثم تقدم منا . أمسكت بعلاقة المفاتيح
في جيبي مصمماً على الصمود مهما كانت العاقبة . ولكن ولله الحمد لم يحدث شيء
من هذا القبيل ، فلقد أزاح جوستاف كرسيّاً قريباً منه برجله إلى جانبنا وجلس عليه
مرتباباً . ناظراً إلينا بغضب . قدم له النادل قدحاً مليئاً فشربه ثم أعاد النادل ملء
الاقداح لنا وله . رفع جوستاف القدح وقال ناظراً إليّ بوجه كسلة القاذورات .
- بصحتك .

أجبتة :

- بصحتك .

وأفرغت قدحي .

أخرج جوستاف علبة سجائر من جيبه وقدمها لي دون أن ينظر إليّ . أخذت
سيجارة وأشعلت له نظيرها . ثم طلبت لهم جميعاً خمر الكمون فاحتسبناها . التفت
إليّ جوستاف :

- أيها القاسي .

قالها بنبرة المتالم .

رددت عليها باللهجة نفسها :

- يا عجل النمر .

ثم استدار نحوي استدارة كاملة وهوى على بلكمة قوية . ترنحت قليلاً وأريته
لبهامي .

- مع الأسف لا استطيع الرد عليك صدفة .

أجاب ساخراً :

- بل قل سوء حظ . على كل الأحوال : إسمي جوستاف .

- وأنا أدعى روبرت .

- حسناً يا روبرت ، ضربة مقابل ضربة . أليس كذلك ؟ ظننتك في البدء صبياً
صغيراً ما زال متعلقاً بثوب والدته .

- انتهى الأمر يا جوستاف .

ومن هنا بدأت صداقتي بـجوستاف .

* * * *

تقدمت السيارات ببطء إلى الامام . حصل الممثل تومي على طلب لمحطة القطار ،
وجوستاف على طلب للمطعم القريب من الساحة مقابل ثلاثين «فنيك» . كاد أن
ينفجر من شدة الغضب ، فهو مقابل ربيع عشرة «فنيكات» فقط ، اضطر إلى أن
يعود ليصطف في آخر الطابور . أما أنا فقد حصلت على عرض مغر ونادر . عمجوز
بريطانية تريد أن تقوم بجولة في المدينة للتعرف عليها . طفت بها المدينة ولمدة ساعة
تقريباً . وفي طريق العودة قمت بتوصيل عدة ركاب لأماكن أثرية . جلست في الحانة
لتناول طعام الغذاء بعد رجوعي إلى مكان الانطلاق مع مجموعة تضم رجالاً من
مختلف المهن أجبروا على العمل كسائقين . كان الجو في الحانة مفعماً بالروح الرفاقية
التي يتمتع بها الجنود عادة اثناء الحرب . شعرت وكأنني سائق قديم وبأنني أعرفهم
منذ زمن بعيد .

عدت بعد الظهر ، متعباً قليلاً ، إلى الورشة حيث وجدت كوستر ولينس في
انتظاري . سألتهم :

- ايها الاشقاء . ما هو دخلكم اليوم ؟

صرح يوب :

- سبعون لتراً من البنزين .

- لا شيء سوى ذلك ؟

نظر لينس بوجه متوثب إلى السماء .
- على السماء أن تمطر ، لتصطدم السيارات على الطريق أمام ورشتنا . لا أريد
جرحي ، بل تصليح كامل للسيارات المصابة .
- انتظروا هنا .

ومددت يدي المفتوحة وبداخلها خمسة وثلاثون ماركاً .

صاح كوستر :

- عظيم .

- الريح الصافي عشرون ماركاً . علينا بصرفها والاحتفال بأول سفرة لسيارتنا .

- دعنا نشرب البولي - هو « خليط من شراب الفاكهة والنيبيذ » - .

- ولماذا ؟

لأن بات ستشاركنا الاحتفال .

سألت متعجباً :

- بات ؟

- لا تفغرك هكذا . صاح الروماني الاخير :

- لقد اتفقنا معها على ذلك . سنمر عليها في الساعة السابعة . نحن كما ترى

نفكر بالنيابة عنك على أي حال ، لا تنس أنك تعرّف عليها من خلالنا .

صحت :

- اوتو . هل رأيت في حياتك مجنّداً أكثر وقاحة من هذا ؟

ضحك كوستر ثم نظر إلى يدي :

- ماذا أصاب يدك ؟ وضعها غير طبيعي .

- بعض الرضوض على ما أظن .

ثم رويت لهم قصتي مع جوستاف .

تفحصها لينس ثم قال :

- أنا كمسيحي وطالب طب متقاعد سوف أقوم بتدليكها رغم أخلاقك الشرسة .

تعال معي أيها الملاك المبطّل .

دخلنا الورشة . أخذ جوتفريد بعض الزيت وبدأ بتدليك يدي .

سألته :

- هل أخبرت بات بأننا نحتفل الليلة بمرور أول يوم على عملي كسائق ؟

صفر من خلال أسنانه .

- هل تحجل من ذلك أيها الغلام ؟

- اغلق منقارك .

رددت عليه بعد أن شعرت بصدق قوله .

- هل قلت لها ذلك ؟

- الحب .

أوضح جوتفريد بلا حراك وتابع :

- الحب شيء رائع حقاً ، لكنه يعلم صاحبه قلة الأدب .

- كما ان الوحدة تعلم صاحبها عدم اللياقة ، أيها الوحيد الممل .

- اللياقة هي معاهدة صامته تقوم بين اثنين لتغطية أخطاء مشتركة بدل الافصاح

عنها . وهذا يعني انها عملية توافق صغيرة وهذا ما يرفضه مجاهد قديم مثلي أيها الرضيع .

- ماذا تفعل لو كنت مكاني وطلبك أحدهم لا يصله إلى مكان ما ، وفجأة

تكتشف ان صاحب الطلب ليس سوى بات .

ابتسم بسخرية :

- أوصلها وبدن أن آخذ الأجرة .

ركلته برجلي ركلة طرحته أرضاً .

- أيها الجرادة هل تعلم حقيقة ما سأفعله . . سأذهب الليلة وأحضرها بالتاكسي .

- هكذا أفضل .

ثم رفع يده مباركاً وقال :

- لكن عليك أن لا تنسى شيئاً واحداً . لا تضحي بالحرية انها أثمن من الحب

وهذا ما سوف تكتشفه الأغلبية بعد فوات الوقت . أما التاكسي فلن تحصل عليه

الليلة ، فنحن بحاجة اليه لاحضار فرديناند وفالنتين . ستكون هذه الليلة متزنة

وعظيمة ايضاً .

* * * *

جلسنا في حديقة إحدى الحانات خارج المدينة . بدا القمر الرطب كمشعل أحمر

معلق فوق الغابات . ولعت أوراق شجر الكستناء الباهتة اللون في ضوء القمر .

وهناك على المنضدة أمامنا وضع وعاء كبير مملوء بالنبيذ ، فبدا كحجر الاوبال المتوهج

في ظل الضوء الساطع من بداية الليل . وانعكست عليه آخر أشعة الغروب فبدا

وكانه اللاليء الخالصة .

ملأنا الوعاء للمرة الرابعة على التوالي . تصدر فرديناند جراو الجلسة بينما جلست بات إلى جانبه وقد زين معطفها بزهرة أوركييد وردية اللون أحضرها لها .

اصطاد فرديناند من كأسه فراشة صغيرة ووضعها بتأن على المنضدة ثم قال :
- انظروا إليها . تأملوا أجنحتها . انها أجمل بكثير من كل بروكار العالم ، ولكن مآساتها تكمن بأنها تعيش ليوم واحد فقط وبعده ينتهي كل شيء بالنسبة لها .

تأملناها جميعاً الواحد تلو الآخر .

- هل تعلمون ما هو أكثر الامور رهبة في هذا العالم أيها الأخوة .

أجاب لينس :

- كأس فارغة .

قام فرديناند بحركة من يده تنفي ما قاله جوتفريد .

- الأمور التي تحطم كرامة الانسان على هذه الارض ، انه الانسان المهرج .

ثم عاد ليتأملنا جميعاً وتابع :

- الأمر الأكثر رهبة في عالمنا هذا أيها الأخوة هو الوقت . أي الحياة التي نحياها ولا يمكننا امتلاكها .

اخرج الساعة من جيبه ووضعها أمام ناظر لينس :

- هذه أيها الرومانسي الورقي ، هي آلة الجحيم ، انها تدق وتدق وتدفع بنا الى اللانهاية . انك تستطيع أن توقف انهاراً جليدياً أو تمنع جبلاً من الانزلاق ولكنك لا تستطيع ابداً إيقاف هذا الزمن .

أوضح لينس :

- وانا بدوري لا أفكر في إيقافه . فانا أريد أن أطوي السنين بسلام ، كما اني أحب التغيير .

- لكن الانسان لا يحتمل التغيير .

قالها جراو غير عابىء بكلام لينس ثم تابع :

- الانسان لا يحتمل التغيير المستمر ، لذا اختلق لنفسه حليماً ، حلم الانسانية القديم . الأبدية . انه حلم بلا أمل .

ضحك جوتفريد وقال :

- أخطر أمراض العالم هو الفكر يا فرديناند . انه مرض مستعصم .

أجاب جراو :

- لو كان هذا مرض العالم الوحيد لاصبحت إنساناً أديباً . أما أنت فقد جيلت من الفحم والكلس والفوسفور ، وقليل من الحديد وأطلق عليك إسم جوتفريد لينس ، ورميت في هذا العالم لتقضي مدتك القصيرة السطحية عليها .

ابتسم جوتفريد وبانت عليه علامات الرضى بينما أخذ فرديناند يهز جمجمته المشابهة لجمجمة الأسد .

- أيها الأخوة . الحياة مرض ، والموت يبدأ مبكراً مع بدايات الولادة . كل نفس وكل نبضة قلب هي جزء من الموت . انها الخطوة الصغيرة الاولى باتجاه النهاية .

أجاب لينس :

- وكل رشفة خمر أيضاً . نخبك يا فرديناند ولا تنس أنه في كثير من الأحيان يصبح الموت أسهل الأمور .

وضع جراو كأسه وقد غمرت وجهه ابتسامة كأنها العاصفة الصامتة .

- نخبك يا جوتفريد . أيها البرغوث المرح وسط سعي هذا الوقت المستمر . ماذا كان هدف تلك القوى الخفية التي تحركنا عندما ابتدعتك ؟

- هنا سؤال لا تحل رموزه الا تلك القوى نفسها . ولكن بالرغم من هذا كله ، فانت آخر من يحق له التكلم بمثل هذه الأمور يا فرديناند . لو كان البشر أذليون لكنت أول من أصبح عاطلاً عن العمل أيها العزيز المتعيس من الموت .

اهتزت أكتاف جراو من شدة الضحك ، بعدها استدار الى بات :

- ما رأيك فينا نحن الثرثارين ، أيتها الزهرة الراقصة على وجه الماء ؟

بعد برهة نهضنا، بات وأنا ومشينا في الحديقة . كان القمر قد تسلق واعتلى كبد السماء ، وقد انعكست عليه ظلال الأشجار الطويلة السوداء وبانت وكأنها طرق مؤدية إلى المجهول . مشينا حتى البحيرة ثم عدنا أدراجنا . قابلنا لينس في طريق عودتنا وكان قد تآبط كرسياً وجلس تحت شجرة ليملك مزهرة . جلس هناك ولم يظهر منه إلا شعره الأشقر بلون القش ، ونار سيجارته . وضع إلى جانبه على الأرض كأسه الذي امتلأ بما تبقى لنا من نبيذ .

خاطبته بات :

- لقد وفقت في اختيار المكان المناسب وسط أغصان الليلك .

- انه المكان الوحيد الذي أستطيع المكوث فيه لمدة طويلة .

ثم نهض واقفاً عن كرسيه .

- لماذا لم تجربي الجلوس هنا ؟

جلست بات على الكرسي بوجهها المضيء بين أزهار الليلك .

- إنني أعشق الليلك لدرجة الجنون . قالها الرومانسي الأخير ثم تابع :

- الليلك يعني لي الحنين . في ربيع ١٩٢٢ غادرت ريودو جانيرو بسرعة أملاً

رؤية زهر الليلك هنا . ولكن كعادتي دائماً وصلت متأخراً .

ضحك :

- وهكذا تجري الأمور دائماً .

- ريودو جانيرو . قالتها وقد جذبت إليها غصن ليلك .

- هل كنتنا معاً هناك ؟

حلق بي لينس ، بينما شعرت بأن قدراً من ماء بارد قد صب على ظهري . قلت

بسرعة :

- كم هو جميل القمر هذه الليلة .

بينما راحت قدمي تضغط على قدم لينس محذراً إياه من قول الحقيقة .

من خلال ضوء سيجارته شاهدت ابتسامة خفيفة تغطي وجهه ، غمز لي بعينه

مؤكداً ان الموقف قد أنقذ ولن يقوم بفضح الحقيقة .

- كنت هناك بمفردي . ولكن ما رأيك الآن برشفة أخيرة من هذا النبيذ العظيم ؟

- شكراً ، لا أريد المزيد ، فانا لا أستطيع شرب كميات من النبيذ .

سمعنا صوت فرديناند ينادينا . اتجهنا إليه حيث رأيناه يقف بكل ثقله أمام باب

الحانة . قال :

- تعالوا ندخل أيها الأولاد ، ففي الليل لا مكان لأمثالنا في الطبيعة . في الليل

ترغب الطبيعة في البقاء بمفردها . الفلاحون والصيادون بشر يختلفون عنا نحن

سكان المدن بحواسنا الصدقة .

ثم وضع ذراعه على كتف جوتفريد وتابع :

- الليل ! هو اجتماع الطبيعة على مخلقات المدينة يا جوتفريد . والانسان المتزن لا

يستطيع تحمل ذلك لمدة طويلة ، فهو يشعر بأنه مرفوض من حلقات الأشجار

الصامتة ، من أسراب الحيوانات ، من النجوم ومن الحياة الخفية .

ابتسم ابتسامته المميزة التي لم تكن تنبئ عن ماهيتها ، أهي ابتسامه حزن أم فرح ؟

- كم كان ذلك الكون الغابر عظيماً حين كنا زمرة من أصناف الأصداف قبل خمسين أو ستين مليوناً من السنين . يا إلهي . كم انحدرنا منذ ذلك الزمن حتى الآن ؟

تأبط ذراع بات .

- لو لم نحفظ بذلك الحس البسيط للجمال لكننا اندثرنا منذ زمن بعيد .

وبحركة رشيقة من يده التي تشبه مخلب عملاق أراح يد بات على ذراعه .

- أيها الشهاب الغضبي . هل تشاركين رجلاً عجوزاً مثلي كأسه ؟

أحنت بات رأسها موافقة .

- نعم ، كما تريد .

دخل الاثنان الحانة . بدت بات وهي تسير إلى جانبه وكأنها إبتته . شابة ،

جريئة ، نحيلة إبتة ذلك العملاق المتعب ، بقايا ديناصور من العصور الغابرة .

عدنا بعد منتصف الليل الى المدينة . استأثر فرديناند وفالنتين بالتاكسي التي أخذ

يقودها فالنتين بينما استحوذ الباكون على كارل .

كانت الليلة دافئة ، مقمرة مما حدا بكوستر إلى إطالة طريق العودة ، ماراً بعدة

قرى نائمة على جنبات الطريق . جلس لينس إلى جانب كوستر وجلست مع بات في

المقعد الخلفي . كانت السيارة تسير بسرعة ولكن دون أي إزعاج . وهنا يكمن سر

قيادة كوستر ، فالمسافر لا يشعر معه بالسرعة أو المنعطف كغيره من سائقي السبق .

كان كوستر يتعامل مع المقود كالعين ، ومع المنعطفات كالعصفور . فقط ومن خلال

تغير صوت العجلات كنا نستطيع التعرف على نوع الاسفلت الذي كنا نسير عليه .

فحين تبدأ في الصفير كان يعني هذا اننا نسير على اسفلت عادي ، ولكن عندما تبدأ

العجلات ترعد ، عندها نتبين بأننا نسير على اسفلت حجري . بدت الأسهم

الضوئية الصادرة عن أضواء السيارات وكأنها كلاب حراسة تركز وراء صفوف

طويلة من أشجار الصفصاف وأعمدة الهاتف . سرنا هكذا يظلمنا درب التبانة وكأنه

سحابة بيضاء تسير في ركاب آلاف النجوم . ازدادت السرعة . لفقت بات

بمعطفي . ابتسمت لي .

سألها :

- هل تحبينني حقاً ؟

- هزت برأسها .
- هل تجبني أنت ؟
- ولحسن الحظ .
- انه من حسن حظي أيضاً .
- إذن لا خوف علينا من سوء الطالع .
- بلا شك .

أجابت ، بينما اخذت يدها تتلمس تحت المعطف باحثة عن يدي . لمعت قضبان السكة الحديدية المحاذية للطريق ، وأخذ ضوء أحمر يتأرجح أمامنا قادمًا من البعيد . زجر كارل وانطلق بسرعة وراء ذلك الضوء . وما هي إلا دقائق حتى أصبحنا بمحاذاة القطار . باهت هذا الضوء . كانت القاطرة الامامية تجر ورائها عدداً من عربات النوم ومطعماً ذا نوافذ مضيئة . راح بعض المسافرين يلوحون لنا بأيديهم محيين مبتهجين . مررنا بهم دون أن نرد لهم التحية ، واتجهنا إلى المدينة حيث سيارات التاكسي ، الغرف المفروشة القديمة وورشات التصليح ، في حين تابع القطار سيره عابراً الغابات والحقول والأنهر إلى البعيد ، إلى مغامرة جديدة في المجهول .

أخذت الشوارع تقترب منا وانخفض صوت كارل المرعد ، ليتحول إلى حشرجة حيوان مفترس . توقف كوستر إلى جانب المقبرة . لم يتجه إلى بيت بات ولا إلى بيتي . توقف ، وبكل بساطة في مكان قريب من المكانين ليتسنى لنا تقرير ذلك بمفردنا . لم نكد نترجل من السيارة حتى انطلق الاثنان دون الالتفات إلينا . تابعتهم بنظري حتى اختفوا . تملكني شعور غريب وأنا لإحقيهم بنظري . ذهب رفيقاي . وتخلفت أنا . . . تخلفت عنهم .

هزرت رأسي محاولاً طرد تلك الفكرة منه .

- تعالي :

قلت لبات التي كانت تقف خلفي ، تنظر إلي . شعرت بأنها أدركت ما كنت أفكر به . فقالت :

- لماذا لا تذهب معهم ؟

- لا .

- ولكنك تود ذلك .

- هراء .

ولكنني شعرت بأن ما تقوله هو الحقيقة .

- تعالي .

سرنا بجانب المقبرة نترنح من تأثير الريح والسفر . قالت بات :
- روبي أريد أن أذهب الى غرفتي .
- لماذا ؟

- لا أريدك أن تتنازل عن أي شيء من أجلي .
- ماذا دهاك ؟ وما هي الأشياء التي تنازلت عنها من أجلك ؟
- رفاقك .

- انني لم أتنازل عنهم . سألقاهم غداً صباحاً من جديد .
- انك تفهم جيداً ما أعنيه . كنت في السابق تمضي معظم أوقاتك معهم .
- لأنك لم تكوني قد دخلت حياتي بعد .

قلت ذلك وفتحت الباب . هزت رأسها بالنفي .
- ان هذا شيء مختلف تماماً .
- بالطبع انه أمر مختلف حقاً ، واني أشكر الله على ذلك .

رفعتها وحملتها عابراً بها الدهليز حتى باب غرفتي .
- انك بحاجة إليهم .

قالت ذلك والتصق وجهها بوجهي .
- كما واني بحاجة اليك ايضاً .
- ولكن ليس كحاجتك اليهم .
- هذا ما سوف تتأكدين منه في القريب .

دفعت الباب برجلي وأنزلتها . تشبثت بي كالطفل .
- اني رفيق سيء يا روبي .
- وهذا ما أتمناه .

- انني لست بالمخلوق الكامل ولا بالناقص . اني مجرد شذرة ، هذا أفضل
الاشياء .

- ان وضعك هكذا ينشط الخيال ، فالنساء مثلك جبهن أبدي ، أما النساء
الجاهزات يسهل العثور عليهن . أمثالك يصعب العثور عليهن .

قاربت الساعة الرابعة صباحاً عندما أوصلت بات إلى بيتها وقفلت عائداً . بدأت
السما تضيء وعبقت رائحة الصباح . سرت في الطريق الموازي للمقبرة ماراً بمقهى
الانترناسيونال متجهماً للبيت . وفجأة فتح باب إحدى حانات السائقين بجانب مبنى
النقابات وخرجت فتاة بقبعة صغيرة ، معطف بالٍ وجزمة عالية من الجلد اللامع .

قاربت على تجاوزها . يا للدهشة .

- ليزا .

- لا استطيع تصديق ذلك . لقد ظننت اني لن أفاك أبداً .

سألتها :

- من أين أنت قادمة ؟

- انتظرتك طويلاً وتمنيت أن تسوِّق قدماك الى هنا . كنت أعلم انك سترجع الى

البيت في مثل هذا الوقت .

- نعم ، صحيح .

سألته :

- هل تأتي معي ؟

ترددت :

- أشك في ذلك .

- قالت بسرعة :

- لست بحاجة لدفع نقود .

أجبتها دون تفكير .

- ليس هذا هو السبب . علاوة على ذلك معي ما يكفي من النقود .

- هكذا إذن .

قالت ذلك بمرارة وتراجعت إلى الوراء . أسرعت وأمسكت يدها .

- لا يا ليزا لم أقصد ذلك .

وقفت أمامي على الرصيف الخاوي ، نحيلة صفراء . لقد تعرفت عليها في هذا

المكان منذ سنين خلت ، حين كنت أعيش حياة خاوية بلا فكر ولا أمل .

كانت مشككة في البداية . انه تصرف طبيعي لفتاة تمارس العمل الليلي ، ولكن

بعد عدة لقاءات أصبحت تشعر نحوي بكثير من الثقة والاطمئنان ، كانت علاقتنا

غريبة . وقد تمضي الأسابيع أحياناً دون أن أراها . وفجأة أجدها تنتظرنني في مكان ما

على طريق عودتي . في مثل ذلك الوقت نكون وحيدين . وهكذا كان الدفاء الذي

كنا نتبادل في ساعات قليلة أعمق بكثير مما كان يتبادل غيرنا في أيام كثيرة . لم أراها

منذ زمن بعيد ، أي منذ تعرفت بيات .

- أين كنت كل هذه المدة يا ليزا ؟

هزت كتفيها .

- ليس مهماً ، ولكنني وددت رؤيتك ثانية . أما الآن وقد رأيتك فاستطيع الانصراف .

- ما هي أخبارك ؟

- دعك من هذا الكلام ولا تجهد نفسك به .

أخذ فمها يرتجف ومنظرها يوحي بأنها على درجة كبيرة من الجوع ، قلت لها :
- سأذهب معك لفترة قصيرة فقط .

عندها بدأ وجه العاهرة اللامبالي يتحول إلى وجه طفل يطفح بالحياة . ابتعت من إحدى حانات السائقين بعض المأكولات البسيطة . عارضت ليزا في البدء ثم انصاعت للأمر بعد أن أكدت لها أنني جائع أيضاً ، وكعادتها وقفت ترقب البائع بحذر خوفاً من أن يبيعنا طعاماً رديئاً .

ذهبت لبيتها . ملحق يتألف من غرفة واحدة، فرشتها بنفسها. يوجد على المنضدة سراج ، وإلى جانب السرير شمعة موضوعة على فوهة زجاجة فارغة ، وقد الصقت على الجدران بكثرة صور مقطعة من المجلات لكثير من المثليين والمثلات ، وعلى الأرض بعض الكتب البوليسية والصور الجنسية الشاذة . كانت ليزا تحتفظ بهذه الصورة لاثارة المتزوجين فقط . تناولت ليزا الصور بسرعة واخفتها بالدرج ثم وضعت على المنضدة غطاء نظيفاً غير مكوي .

بعدها أخرجت ما ابتعناه من الحقيبة ووضعت على المنضدة . أخذت تخلع ثيابها وانتصبت أمامي بجزمتها السوداء العالية وبثوبها الداخلي الأسود . لم تخلع الجزمة رغم علمي الأكيد مما تعانیه أقدامها من آلام نتيجة طول الوقوف والسير في الطرقات في هذا الجو البارد .

- ما رأيك بساقي .

- لا بد أنها رائعتان .

ارتسمت على وجهها علائم الارتياح وتقدمت مني ثم جلست على حافة السرير وبدأت تخلع جزمتها .

- ثمنها مئة وعشرون ماركاً . مبلغ كبير أليس كذلك ؟ أعتقد بأنها ستبلى قبل أن أستطيع تسديد ثمنها .

ابتسمت كالطفل الوديع . حاولت المستحيل لتستحوذ على انتباهي ولكن دون جدوى . شعرت بالاختناق . كل ما في هذه الغرفة يخنقني . حاولت جاهداً ان لا

تشعر بذلك . وبكثير من الصبر وضبط النفس رحمت أحدثها وأنصت اليها . لاحظت هي اني تغيرت فغطت سحابة من الخوف وجهها . لم يكن بيننا يوماً من الايام أكثر مما كانت تسوقه لنا الظروف . ولكن ربما هذا الاحساس بالذات كان أكثر جدية من غيره .

- هل أنت ذاهب ؟

سألتنى عندما رأتنى أهم بالنهوض . قالتها وكأنها خشيت ذلك منذ فترة طويلة . ما زال أمامي موعد آخر .

نظرت إلي بتمعن .

- في مثل هذا الوقت ؟

- انه موعد هام يرتبط بعملتي ، علي أن القى أحدهم ، انه يجلس غالباً في مثل هذا الوقت في حانة الاستوريا .

اكثر النساء تفهماً لمثل هذه الخدع هن النساء مثيلات ليزا ، كما يصعب تمثيل أمور كهذه أمامهن .

فجأة عاد وجه ليزا ليصبح مجرداً من كل حيوية .

- هل توجد في حياتك امرأة اخرى ؟

- لكن يا ليزا . لم نر بعضنا منذ سنة تقريباً . انك بلا شك تفهمين ذلك .

- لا ، لا ، أعني ذلك . هل توجد في حياتك امرأة تحبها ؟ لقد تغيرت يا روبي .

اني أحس بذلك .

- ليزا .

- قل ولا تخف فأنا متأكدة من هذه الحقيقة .

- أنا نفسي لا أعرف حقيقة الأمر بعد ، ربما .

وقفت لفترة ثم أحنيت رأسها .

- هذا طبيعي جداً . كم أنا غبية ، فنحن لا تربطنا روابط مشتركة .

مسحت جبينها بيدها ثم تابعت :

- ولكنني لا أفهم نفسي ، كيف توقعت يوماً من الايام .

وقفت أمامي بجسدها النحيل المتكسر . وتداعيت الذكريات : الكيمونو،

الزحافات والليالي الطويلة الخاوية .

- إلى اللقاء يا ليزا .

- هل ستركني بهذه السرعة . ألا يمكنك البقاء ولو لفترة قصيرة ؟ هل تذهب هكذا ؟

فهمت ما كانت ترمي اليه ، ولكن لم يكن أمامي سوى الرحيل انه تصرف غريب حقاً ، ولكنني لم أستطع التقرب إليها .

كانت هذه الامور في السابق ، بالنسبة لي ، غير ما هي عليه الآن . لم يكن الدافع وراء رفضي ، الالتزام والوفاء ، ولكنني فقدت الرغبة في ممارسة الجنس معها .

- هل أنت ذاهب حقاً ؟

وأسرعت الى الداخل ثم صاحت :

- انني متأكدة من انك تركت لي بعض النقود تحت الجريدة . خذها لا أريدها . خذها واذهب .

- لا استطع سوى الذهاب يا ليزا .

- لن تأتي بعد اليوم ؟

- سأعود يوماً .

- لا ، انك لن تعود ابداً . انني متأكدة من ذلك . وعليك ان لا تعود . اذهب بحق السقاء . اذهب .

ثم أخذت تنتحب بقوة . نزلت السلم ولم التفت الى الوراء . طفت طويلاً في الطرقات ، لم يداعب النعاس جفوني ، ولم أجد الرغبة في النوم في تلك الليلة العجيبة . ذهبت الى مقهى الانترناسيونال . أخذت افكر في ليزا وفي السنوات الماضية . تذكرت أشياء كثيرة عفا عليها النسيان وعماها الزمن . شعرت فجأة بأنني أصبحت بعيداً عن كل هذه الأمور . تركت المقهى وتوجهت إلى بيت بات . ازدادت سرعة الريح . وجدت جميع نوافذ منزلها مظلمة ، وأخذ الصباح يتسلل باقدامه الرمادية عبر الابواب . رجعت إلى غرفتي . يا إلهي . فكرت . . عندها فقط أيقنت بأنني من السعداء .

- ١٣ -

بادرتني السيدة تساليفسكي قائلة :

- لست بحاجة بعد لاختفاء تلك السيدة . انها تستطيع أن تزورك وبشكل رسمي . انها تعجبني .

أجبتها :

- ولكنك لم تريها بعد .

- هدىء من روعك ، لقد رأيتها .

قالت السيدة تساليفسكي ذلك بكثير من الاصرار ثم تابعت :

- لقد رأيتها وانها لتعجبني جداً . ولكنك لست المناسب لها .

- هكذا .

- نعم ، لقد اعتراني العجب لعثورك عليها في إحدى حاناتكم . ولكن هذا ..

قاطعتها قائلاً :

- اننا نبتعد عن الموضوع الأساسي الذي جئت من أجله .

- هذه السيدة .

قالت السيدة تساليفسكي وشدت يديها بعزم على ردفها .

- انها امرأة تناسب رجلاً ذا منصب ثابت . تناسب رجلاً ثرياً يحترم كلمته .

يا للساء قلت في نفسي .. هذا ما كان ينقصني .

أجبتها غاضباً :

- ان ما تقولينه ينطبق على جميع النساء .

هزت خصلات شعرها الرمادية :

- إنظر قليلاً يا عزيزي . فالمستقبل كفيل بتأكيد آرائي .

- ما هذا المستقبل الذي تتكلمين عنه ؟

ورميت بازرار قميصي على السرير ثم تابعت :

- من يحسب في هذه الأيام حساباً للمستقبل . ولماذا نشغل فكرنا بما سيحدث

غداً .

وازنت السيدة تساليفسكي رأسها الملكي وقد بدا عليها القلق :
- انكم اناس غريبو الاطوار أيها الشباب . تكرهون الماضي ، تحتقرون الحاضر
وتنظرون الى المستقبل نظرة لا مبالية . كم أشك في نهاية حسنة لكم .
- ماذا تقصدين بالنهاية الحسنة ؟ النهاية حسنة إذا كان كل ما سبقها سيء . أما
أنا فمن أنصار النهاية السيئة .
- ان ما تقوله تحوير يهديني .

أجابت السيدة تساليفسكي بكثير من الترفع واستدارت بعنفوان باتجاه الباب .
ولكن ما ان وصلت حتى تسمرت في مكانها ثم قالت بتعجب :
- بزة سوداء . أنت ؟

أخذت تدقق بعيونها الكبيرة في بزة كوستر السوداء المعلقة على واجهة دولا ب
الملابس ، والتي كنت قد استعرتها من كوستر بهدف زيارة المسرح مع بات .
أجبتها وكمن ينفث سماً .
- نعم . أنا بلا شك . انك تتمتعين بنظرة ثابتة يا سيدتي .
نظرت الي وكان عاصفة من الافكار اجتاحت وجهها العريض ثم تلاشت في
ضحكة ساخرة عالمة .
- هكذا .

ثم خرجت مستمتعة بما اكتشفته ، شأنها شأن سائر النسوة .
هكذا اذن ! هكذا هو الحال ايها القابلة اللعينة .
قلت ذلك بعدما تأكدت من انها لن تسمع ما أقول . رميت بحذائي الاسود
الجديد على الأرض غاضباً .

رجل ثري . أنظني السيدة رجلاً مغفلاً تستعصي عليه مثل هذه الأمور .
ذهبت الى بيت بات لاصطحبها . كانت تنتظرنني في غرفتها وقد استكملت لباسها
وزينتها. شعرت وكأنني فقدت أنفاسي حين رأيته مرتدية، ولأول مرة منذ تعارفنا ثوباً
طويلاً مصنوعاً من قماش البروكار الفضي . شكله يوحي بضيقه ، ولكنه لم يمنع من
التعرف على خطواتها الواسعة الرشيقة من خلاله . كان مغلقاً من الأمام ومفتوحاً من
الظهر . بدت فيه بات تحت أشعة الغسق كمشعل فضي ، قاسٍ يضيء وينطفئ ،
يقترّب ويتعد بشكل فجائي . عندها تراءى لي من خلفها شبح السيدة تساليفسكي
رافعة اليها اصبع الاتهام .

قلت لها :

- لحسن حظي ، انني لم أتعرف عليك وأنت بهذا الثوب ، وإلا لكان سيباً في

عدم إقدامي على مخاطبتك .

ابتسمت :

- لا أستطيع تصديق ما تقول يا روبي ، هل يعجبك ؟

- انه يبعث في نفسي الخوف ، فانت تبدين فيه غريبة كلياً عني .

- انه ليس مخيفاً . ولكنك تنسى الهدف الذي وجدت من أجله أثواب كهذه .

- ربما ، ولكنه يحطمني من الداخل . عليك أن تختاري رجلاً غيري يا بات ، رجلاً يتناسب وهذا الثوب .

ضحكت :

- لا تنس أن الرجال الأثرياء في الغالب هم أقبح الرجال يا روبي .

- ولكن المال ليس قبيحاً ، اليس كذلك ؟

- لا ، المال ليس قبيحاً .

- هذا ما كنت أتوقع سماعه منك .

- هل لك رأي آخر .

أجبتها :

- بلى ، المال لا يجلب لصاحبه السعادة ولكنه يوفر له الطمأنينة .

- المال يجرح صاحبه يا عزيزي ، وهذا هو الأهم . ولكن اذا كان هذا الثوب

الذي يزعجك ، فانا على استعداد لاستبداله بثوب آخر .

- محال ، انه رائع . من الآن فصاعداً سأضع الخياطين فوق الفلاسفة لأنهم ،

كما يبدو لي الآن ، يصفون الجمال على الحياة . ان هذا أهم ألف مرة من أفكار

عقيمة . انتبهني جيداً ، فانا واقع في حبك لا محالة .

ضحكت بينما كنت انظر بحذر الى لباسي . كان كوستر أطول مني بكثير لذا كان

علي أن أرفع البنطال واثبتته على القميص بشكالة خوفاً من أن ينزلق .

أخذنا تاكسي للمسرح . كنت صامتاً طوال الطريق . وبدون أن أعلم أخذت

أمعن النظر في السائق حين ترحلنا . كانت عيناه يقظتين ذات أجفان محمرة ، غير

حليق ، وقد بدا عليه التعب ، وبلا مبالاة مد يده وأخذ الأجرة . سألته :

- هل الدخول جيد اليوم ؟

رفع نظره إليّ .

- لا بأس .

أجاب كالغائب . لقد ظننتي بلا شك أحد المتطفلين . وللحظة إلتابني شعور

بالجلوس الى جانبه والانطلاق معه بعيداً من هذا المكان ولكنني استدرت لأرى بات

واقفة ، جميلة بثوبها الفضي اللين وقد ارتدت فوقه سترة فضية فضفاضة .

- اسرع يا روبي . سيداً العرض في الحال .

احتشد عدد كبير من الزائرين امام مدخل المسرح لحضور عرض الافتتاح واصطففت السيارات الواحدة تلو الاخرى ، وترجلت النساء باثوابهن الطويلة وقد شعنت صدورهن بالحلي والمجوهرات . أما الرجال فكانوا جميعاً يرتدون البزات السوداء ، وجوههم متوردة بدينة ، صاحكين فرحين ، يتحركون بثقة كاملة وبلا تفكير ، بينما أخذت سيارات السائقين المتعبين تترك ببطء مبتعدة عن هذه الاضواء .

صاحت بات وقد بدت عليها علائم الفرح والانفعال .

- اسرع يا روبي . هل نسيت شيئاً ؟

القيت نظرة عدائية على من حولي .

- كلا لم أنس شيئاً .

بعدها توجهت نحو كوة التذاكر وأبدلت البطاقات العادية ببطاقات درجة أولى وحصلت على مقصورة خاصة .

كلفني ذلك كثيراً ولكنني رفضت فكرة جلوس بات بين جميع هؤلاء البشر الممثلين بالثقة ، أردتها ان تبقى بعيدة عنهم وإنتابتي رغبة عارمة بالبقاء معها بمفردي . كان قد مضى عليّ وقت طويل منذ زرت المسرح لأخر مرة . ولولم تكن بات هي التي أصرت على ذلك لما فكرت دقيقة واحدة في زيارته . المسرح ، الحفلات الموسيقية ، الكتب ، كل هذه المعادلات التقليدية أصبحت بالنسبة لي بقايا من الماضي ، فالحاضر الراهن لا يسمح لي حتى في التفكير بها .

السياسة ، هي المسرح الحقيقي لنا ، والعبارة النارية السائدة في الشوارع أصبحت هي الحفلات الموسيقية ، وكتاب الفقر الكبير هو بلا شك أكثر كتب العلم نفاداً إلى النفوس البشرية .

امتلات المقاعد بالزوار ، ولم نكد نصل أماكننا حتى أطفئ النور وسبحت القاعة في ظل أشعة خفيفة منبعثة من زوايا المسرح ، ثم صدحت الموسيقى بقوة .

أزحت مقعدي الى زاوية المقصورة وهكذا لم أعد مرغماً على رؤية ما يجري على المسرح أو مشاهدة رؤوس المشاهدين . أخذت أستمع إلى الموسيقى وأنظر الى وجه بات . هذا كل ما أريده . سحرت الموسيقى القاعة وانسابت الانغام كالرياح الجنوبية الدافئة ، كشرائح سابح تحت سماء تعج بالنجوم . كانت الموسيقى غير واقعية ، كتبت خصيصاً لـ « حكايات هوفمان » وجعلت من قيثارة الحياة لحناً حبيباً

لم يعد هناك ثقل ولا حدود ، لم يعد هناك الا الفرح والحب ، وأصبح سامعها الجالس في تلك القاعة عاجزاً عن تصور وجود كل ذلك الفقر والعذاب والضيق خارج هذا البناء .

كان وجه بات ساحراً تحت تأثير الضوء الخفيف المنبعث من خشبة المسرح وانساق وراء تلك الموسيقى . شعرت بأنني أحبها أكثر ، لأنها لم تلتصق بي أو تمسك بيدي ، بل على العكس فلقد نسيت وجودي وسبحت مع الموسيقى . كنت أكره ذلك النوع من مزج الأمور . البقر وحدهم هم الذين يمزجون الأمور ببعضها ، أما البشر فعليهم الانسياق وراء عظمة الأشياء . كنت أكره في مثل هذه اللحظات نظرات المحيين الحاملة وتماسك الأيدي ، تلك المظاهر المنبثقة من سعادة الخرفان . لم أؤمن يوماً بأن الحب يجعل من شخصين شخصاً واحداً ، بل على العكس كنت أجد ان على المحيين أن يتعدوا كثيراً عن بعضهم البعض ويغوصوا في أعماق أنفسهم ليكون لقاؤهم أكثر التحاماً . فقط الانسان الذي يلجأ إلى نفسه في وحدته يستطيع ان يحس بعمق سعادة اللقاء . الأمور الاخرى تحطم شعور التطلع وتزج الانسان في خضم الوحدة حيث تتصارع العواطف ، تقبل الصدمات ، جبروت الشر ، العاصفة ، الليل ، الموسيقى ؟ والحب اضيئت الأنوار . أغلقت عيني لبرهة . ترى بماذا كنت أفكر ؟ استدارت بات إلي . لاحظت كيف أخذ الناس يتزاحمون على الأبواب . كانت هناك استراحة طويلة .

سألتها :

- ألا ترغيبين في الخروج ؟

هزت رأسها بالنفي .

الشكر لك يا الهي . انني اكره الوقوف خارجاً حيث يلتصق الجميع ليحملق الواحد بالآخر .

خرجت . لأجلب لها كأساً من عصير البرتقال . كان الازدحام على البوفيه شديداً . فالموسيقى تنشط عند أغلب الناس الشعور بالجوع . نظرت واذا بالمأكولات قد اختفت وكأن حمى الجوع قد اندلعت .

عندما عدت إلى المقصورة حاملاً كأس العصير ، وجدت رجلاً يقف خلف مقعد بات بينما استدارت هي واخذت تتكلم معه بحرارة . قالت :

- اعرفك بالسيد برويرير يا روبرت .

السيد الثور ، قلت في نفسي وأخذت أنظر إليه بامتعاض . لقد خاطبتني

بروبرت وليس روبي . وضعت الكأس على حافة الناصية وأخذت أنتظر خروج ذلك الزائر . كان يرتدي بزة سوداء ، غاية في الاناقة ولكنه كان ينتقد بسطحية إخراج المسرحية وطريقة تقديمها .

استدارت بات لناحيتي وقالت :

- السيد بروير يدعوننا لمشاركته المساء في مرقص الكسكاد .

اجتبتها :

- كما تشائين .

أوضح السيد بروير قائلاً :

- هناك نستطيع ان نرقص قليلاً .

كان شخصاً لبقاً جداً وهذا ما أعجبني به ، لكن أناقته المفرطة وسطحته أثارنا حفيظتي لاعتقادي بأنهما يؤثران على بات خاصة وانني كنت متيقناً من أنني لا أمتلكهما . فجأة سمعت ما لم أكن أتوقع ساعه . أخذ يخاطب بات باسمها الاول . عندها شعرت بأن هناك مئات الاعذار تجعلني أحمل ذلك الزائر والقي به إلى ساحة المسرح .

قرع الجرس إذناناً ببدء القسم الثاني من المسرحية . وبدأ العازفون في شد أوتار آلاتهم .

- إذن اتفقنا . الى اللقاء عند باب الخروج .

قال السيد بروير وخرج أخيراً .

سألته :

- ما نوع هذا اللقلق ؟

- انه ليس لقلقا . مجرد إنسان لطيف . معرفة قديمة .

- انني أمقت المعارف القدامى .

أجابت بات :

- يا عزيزي . الافضل لك الآن أن تصغي الى الموسيقى .

فكرت واخذت احسب ما تبقى في جيبي من نقود . يا لهذا المرقص اللعين . بدأت تجتاحني أفكار تطفلية ، وتخيلت اصبع السيدة تساليفسكي المحذر وهو يرتفع امام عيني . بعد انتهاء العرض وجدنا السيد بروير في انتظارنا عند باب الخروج .

ناديت التاكسي .

قال بروير :

- دعك من هذا . فسيارتي تتسع لاثنتين .
- حسناً .

قلت ، كم سيكون الموقف مضحكاً لو تصرفت عكس ذلك ، ولكن هذا لم يحدث من ثورتي .

كان من الواقع أن بات تعرف سيارة بروير . إذ أنها اتجهت إليها ، حيث كانت تقف بشكل عرضي في الباحة ، بكارد كبيرة .

- هل غيرت طلائها ؟

- سألته وأخذت تتأملها .

- نعم اخترت اللون الرمادي . هل يعجبك ؟

- انه اجمل بكثير مما كان عليه في السابق .

- ما رأيك ، هل يعجبك لونها الحالي ؟

- ولكنني لا أعرف لونها السابق .

- أسود .

- اللون الاسود جميل جداً .

- بالطبع ولكن بعض التغيير ضروري . على أي حال سأحصل في الخريف المقبل على سيارة جديدة .

ذهبنا الى الكسكاد . كان مرقصاً مفرطاً في الأناقة وتعزف فيه اشهر الفرق الموسيقية .

- لا مكان شاغر على ما يبدو .

قلت ذلك فرحاً بينما وقفنا على الباب .

- أجابت بات .

- من المؤسف حقاً عدم وجود مكان لنا .

- آه ، لا عليك سأتدبر الأمر .

أوضح السيد بروير . وبدأ يساوم المسؤول . لا بد وانه شخصية معروفة في هذا المكان ، فلم نتظر طويلاً حتى نصبت لنا طاولة وثلاثة مقاعد . وبعدها بقليل وجدنا أنفسنا جالسين في أحسن مكان في القاعة ، يطل على حلبة الرقص . أخذت الفرقة تعزف مقطوعة تانجو بينما ارتكزت بات بيديها على الناصية وأخذت تتأمل الراقصين . ثم قالت :

- لم أرقص منذ زمن بعيد .

- نهض بروبير .
- هل تسمحين ؟
- نظرت إلى فرحة .
- لا عليك . فسأقوم بطلب المشروب أثناء ذلك .
- حسناً .

طلت المعزوفة . أخذت بات تنظر الي بين الحين والآخر ، وكنت أنا بدوري ابادها النظرات ، ولكنني شعرت أن أموراً كثيرة أخذت تزعجني .

بدت رائغة . أخذت ترقص بانسجام مع ذلك المدعو بروبير والذي هو بدوره راقص ممتاز . طلبت كأساً كبيرة من الروم . عاد الاثنان ، انشغل بروبير بالقاء التحية على بعض الجلوس . بينما بقيت لفترة وحيداً مع بات .

سألتها :

- منذ متى تعرفين ذلك الصبي ؟
- منذ زمن بعيد ، ولكن لماذا تسأل ؟
- لا شيء . ولكن هل كنتما تتردان كثيراً على هذا المرقص ؟
- نظرت إليّ :

- لم أعد أذكر كل هذه الأمور يا روبي .
- وهل من المعقول نسيان أمر كهذا ؟

قلت ذلك بعناد مع انني فهمت جيداً ما قالته .

هزت رأسها وضحكت .

كم شعرت بحبي لها في تلك اللحظة . أخذت تفهمني ان هذه الأمور أصبحت في طي النسيان ، ولكن الغيرة بدأت تشق طريقها إلى أعماقي رغماً عني .

وضعت كأسي جانباً :

- قولي كل شيء ، وما العيب في ذلك ؟

نظرت إلى مرة ثانية :

- أظن انني كنت سأقبل دعوته للمجيء إلى هنا لو كنت أشعر نحوه بأية عاطفة خاصة ؟

أجبتها خجلاً :

- لا .

عاودت الفرقة العزف من جديد . تقدم بروبير وخاطبني :

- انها معزوفة بلوز رائعة . ألا تود أن ترقصها مع بات ؟

أجبتة :

- لا .

- للأسف .

قالت بات .

- عليك أن تجرب ذلك ولو مرة واحدة يا روبي .

- لا أحب ذلك .

سأل بروير :

- ولكن لماذا لا ؟

أجبتة بوقاحة :

- لا أهتم بالرقص ، ولم أتعلمه في حياتي . فلم يكن عندي الوقت الكافي

لذلك . اني لا أمانع في أن ترقصا . فمشاهدتكما ترفه عن نفسي .

ثم رفعت كأسي . ترددت بات .

- ولكن يا عزيزتي بات . ما هذا . ان الرقص يسعدك .

- ولكن مع من ستقضي هذا الوقت ؟

- لا عليك .

وأشرت إلى الكأس وتابعت .

- انه نوع من أنواع الرقص أيضاً .

ذهبا . أشرت الى النادل ليأتينني بكأس ثانية . مكثت وحيداً أعد الموالح الموجودة

على الطاولة ، وشعرت ان شبح السيدة تساليفسكي يجلس إلى جانبي .

* * * *

عاد بروير وبصحبتة عدة أشخاص . فتاتان جميلتان ورجل شاب ، برأس صغير

أصلع . بعدها بقليل انضم الينا شخص رابع . كانت بات تعرفهم على ما يبدو .

شعرت بنفسي ثقيلاً كالصخرة . جرت العادة أن أخرج مع بات لوحدي . انها

المرة الأولى التي ألقى فيها أناساً يعرفونها قبل معرفتي بها . انهم بشر من عالم آخر

يختلف عن عالمي . حياتهم سطحية ، سهلة ، لم يعتادوا إلا رؤية الأشياء التي

يودون رؤيتها . لو كنت معها برفقة كوستر ولينس لما أزعجني وجودهم ، ولكن بات

كانت تعرفهم جيداً ، وهذا ما جعلني أحقد عليهم .

اقترح برويير ترك هذا المكان والانتقال الى مكان آخر .

اقتربت مني بات اثناء الخروج .

- روبي . الا تفضل ان نعود الى البيت ؟

- لا ، ولماذا ؟

- انهم بلا شك مملّين بالنسبة لك .

- لا شيء من هذا القبيل . ما الذي جعلك تظن اني سئمتهم ؟ الست سعيدة

بوجودك معهم ؟

نظرت إلي ولكنها لم تجب .

بعدها بدأت بالشرب ، ولكن ليس كالسابق . لاحظ الرجل الأصلع ذلك

وسألني عن نوع الخمرة التي أشربها .

- روم .

- هل هو الكورن ؟

- كلا ، روم .

حاول تذوقه ، ولكنه لم يستطع تجرعه .

ثم قال متعجباً :

- يا للساء !

بعدها تركز انتباه الفتاتين علي .

تابعت بات وبرويير الرقص . كانت تنظر إلي باستمرار ، أما أنا فلم أعد أنظر

إليها لأنني شعرت بغباء موقفي . كما اني بدأت أضيّق ذرعاً بمعرفة كل الأمور التي

تجري حولي بسبب إفراطني في الشراب . نهضت واتجهت الى البار . بدت لي بات

غريبة . لتذهب الى الجحيم مع جميع رفاقها . انها تناسبهم . لا ، انها لا تناسبهم .

لا انها لا تناسبهم . بل ، انها تناسبهم .

لحق بي الأصلع . شربنا مع النادل كأساً من الفودكا . الساقون دائماً يقدمون

العزاء في مثل هذه المواقف ودون حاجة إلى لغة مشتركة . أما الأصلع فكان شخصاً

ضعيفاً . حدثني عن فتاة اسمها فيفي ، أخذت في الأونة الاخيرة تقلق راحته ثم عاد

وترك الموضوع وبعدها صدقني بان برويير واقع في حب بات .

- هكذا ؟

ضحك ، فأسكتته بلكمة قوية ، ولكن ما قاله لي بقي عالقاً في ذهني . تأثرت من

زجني في ذلك الموقف ولت نفسي لتأثري بكل ما يقال في هذا الصدد .

ازداد غضبي عندما ضربت بكفي البار بقوة وشعرت في أعماقي برغبة قوية في تحطيم كل ما حولي وكل ما يتعلق بي . كل ما أردته في تلك اللحظة كان رغبة حقيقية في تحطيم ذاتي .

فوجيء الأصلع بما حدث وهروا خارجاً . أما أنا فبقيت جالساً . فجأة شعرت بصدر بارد يلامس ذراعي . كان هذا الصدر إحدى النساء اللواتي أحضرهن بروير . جلست ملتصقة بي بينما راحت عينها الخضروان الرماديتان تتفحصاني من الجانب . كانت نظراتها لا توحى بشيء ، بل تحث الناظر إليها على مباشرة العمل ؟ قالت بعد فترة صمت :

- كم هو رائع أن يستطيع الانسان اجتراع كل هذه الكميات من الحمرة .

صمتت ، مدت يدها وتناولت كأسى ، بدت لي يدها كجلد الحرياء ، جافة متصلبة ، ممتلئة بالحلي البراقة . تحركت ببطء وكأنها تزحف . فهمت مرادها . قلت في نفسي :

سأختلص منك على أي حال . ليست لي مشكلة مع النساء . ولكن مشكلتي الوحيدة هي مع الحب . الشعور بعدم التكافؤ هو الذي يمزني .

بدأت المرأة الحديث . كان لصوتها بحة كرتة الزجاج . لاحظت أن بات تنظر إلي ولكنني لم أعرها انتبهاً ، كما وانني لم أعرا انتبهاً للمرأة الجالسة إلى جانبي . شعرت بنفسى أنزلت في نفق مستو ، لا قرار له .

لم يكن بروير ورفاقه هم السبب في ذلك ، كما أن بات لم تكن لها علاقة بذلك أيضاً . السبب يكمن في السر المظلم الكائن في داخلي . فكثيراً ما يوقظ الواقع فينا آمالاً وأحلاماً لا تتحقق . فالحب يتبدى عند شخص ما ، ولكنه لا ينتهي عنده . يشعرونا الواقع بوجود الانسان ، الحب ، السعادة ، الحياة ، ولكن في الوقت ذاته يبين لنا أن كل ما تمثله هذه المعاني تهرب من بين أيدينا تدريجياً كلما ازددنا وعياً ودقة . أخذت أسترق النظر إلى بات وهي تختال بثوبها الفضي ، فتنة جميلة ، شعلة من الحياة . يا إلهي ، كم أحبها . كنت موقناً أنني لو طلبت منها المجيء إلي لأنت . لم يكن هناك أمور تقف بيننا ، فبوسعنا البقاء ملتصقين أكثر من التصاق البشر أجمعين . ولكن رغم كل هذا ، فهناك شعور بالألم العميق يظل هذا التقارب . لم يكن باستطاعتي تحريرها من الأشياء التي حو لها . من انتشالها من الوجود الذي يهيمن ، ويفرض علينا بالقوة ، التنفس والتلاشي ، بريق الحاضر التافه المنزلق إلى هوة العدم ، أحلام المشاعر المضيفة والتي تضع قبل الحصول عليها . من المستحيل

يقاف كل هذا وفك قيود الزمن . من المستحيل تحويل الفلق إلى راحة والتنقيب الى هدوء ، والهاوية الى مكان آمن ، وحتى الصدفة لا أستطيع تحريرها منها ومن كل تلك الصدف التي واجهتها قبل معرفتي بها ومن آلاف الأفكار والذكريات ، من كل تلك الأشياء التي شكلتها قبل أن أتواجد في حياتها ، وحتى من هؤلاء الاشخاص حولها ، لا أستطيع تحريرها .

أخذت المرأة الجالسة إلى جانبي تتحدث بصوتها المتكسر ، كانت تفتش عن خليل الليلة واحدة . تفتش عن قطعة حياة غريبة لتضرب بها نفسها . لتنسى تلك الفكرة المؤلمة بوضوحها وهو ان كل شيء زائل . أنا وأنت ونحن الاثنين . ألم تكن تبحث عن حبيب لتنسى وحدة الحياة ، وعن رفيق ليساعدها في التغلب على تفاهة الوجود ؟

قلت لها :

- تعالي يا سيدتي . دعينا نرجع من حيث أتينا لا أمل في الحصول على ما تسعين اليه ، فأنا اسعى إليه ايضاً .
نظرت إليّ لفترة ثم رمت برأسها إلى الخلف وأخذت تضحك عالياً .

* * * *

زرنا عدة حانات . وكان بروير ممتكلاً حيوية ونشاطاً وأملاً . أما بات فقد أصبحت أكثر صمتاً . لم تسألني شيئاً ولم تلمني أو توجه لي أية كلمة تقريع على تصرفي . كانت موجودة ، ترقص بين الحين والآخر . بدت لي وكأنها تنساب بين موج من الدمى الراقصة كسفينة جميلة هادئة ، وفي بعض اللحظات كانت تبتسم لي .

لون الحانات الضبابي مسح بيده الصفراء الجدران والوجوه . وحتى الموسيقى بدأت تصدح تحت تأثير كبير من الفوضى . أخذ الأصلع يحسني القهوة ، وراحت المرأة ذات الأيدي الشبيهة بجلد الحرباء تحملق في المجهول .

ابتاع بروير من أحد باعة السور المتعبين باقة من السور ووزعها بين بات والفتاتين . كانت السور ما زالت براعم وقد كللتها قطرات الماء وكأنها اللاليء .

قالت بات :

- دعنا نرقص سوية مرة واحدة فقط .

- لا ، أجبته وراحت أفكارني تطارد تلك الأيدي التي لامستها في تلك الليلة .

- لا ، وشعرت بالسخرية والألم .

- اما أنا فأصر على الرقص معك .

قالت ذلك وأزدادت عيونها سواداً .

- لا يا بات ، لا أقدر على ذلك .

خرجنا بعدها . خاطبني بروير :

- سأوصلك الى بيتك .

- حسناً .

تناول غطاء من المقعد الخلفي ولفه حول أرجل بات . فجأة رأيت كم كانت بات متعبة وشاحبة . دست النادلة أثناء خروجنا من الحانة في يدي قصاصة ورق . تصرفت وكان شيئاً لم يحدث وركبت السيارة . أخذت أثناء الطريق أنظر عبر النافذة الى الخارج . أما بات فقد كانت تجلس في زاوية المقعد دون حراك. توقف بروير أمام بيتها . لم يكن في حاجة للاستفسار عن المكان ، إذ ظهر أنه كان يعرف الطريق إليه جيداً .

- ليلة سعيدة .

قلت دون أن أنظر إليها . سألني بروير .

- أين تريد أن أوصلك ؟

- عند زاوية الطريق القادمة .

أجاب بنبرة سريعة لبقة :

- أستطيع إيصالك إلى البيت ، وبكل سرور .

أحسست بأنه حاول لا شعورياً منعي من العودة إليها . للحظة فكرت في صفعه ، ولكنني عدت وعدلت عن الفكرة .

- حسناً ، أنزلني عند حانة فريدي إذا سمحت .

سألني :

- هل تستطيع الدخول إلى الحانة في مثل هذا الوقت ؟

- شكراً على اهتمامك بي ولكن تأكد بأنني أستطيع الدخول في مثل هذه الساعة إلى

جميع الأمكنة التي تستهويني .

ساورني ، بعد أن تلفظت بذلك ، شعور بالندم لفظاطتي معه . كان متشياً بما حققه في تلك الأمسية ومن الأفضل عدم التصدي له . ودعته شاكراً وبكثير من الأدب على عكس وداعي لبات .

* * * *

كانت الحانة ما زالت تعج بزائريها . جلس جراو ولنيس يقامران التاجر بولفيتس

وعدداً آخر من اللاعبين .

قال جوتفريد :

- تعال واجلس إلينا يا روبي

لا رغبة لي في ذلك .

- انظر إلى هذا .

وأشار إلى رزمة من الأوراق النقدية ثم تابع :

- لقد كسبتهم بلا غش . الطقس اليوم يشجع على المقامرة .

- حسناً أعطني الأوراق .

وهكذا بدأت في اللعب ، وغششتهم في الدورة الأولى .

- لا بد وأن الطقس يشجع على الغش أيضاً .

أجاب جراو ورمى لي بسيجارة .

- الأمور دائماً هكذا .

كنت مصمماً على عدم البقاء طويلاً في الحانة ولكنني وبعد فترة قصيرة شعرت

بالارتياح والثقة لعودتي إلى وطني الصادق ، صحت لفريدي :

- أعطني نصف زجاجة روم .

قال لينس :

- واخبطه ببعض النبيذ الأحمر .

- لا ، لا وقت عندي للتجارب فانا أريد اليوم أن أسكر .

- إذن عليك بتناول النبيذ الحلو . هل تشاجرت مع أحد ؟

- ما هذا الذي تقوله ؟

- لا تتكلم هكذا يا طفلي الصغير ولا تحاول التمثيل على والدك العجوز لينس .

انه خبير في خفايا القلوب .

- لا يمكن أن أتشاجر معها . جل ما هنالك انني ضقت ذرعاً ببعض تصرفاتها .

- هذه اختلافات دقيقة لا تتناسب والساعة الثالثة صباحاً . أنظر إليّ فانا دائم

الشجار مع من حولي لقناعتي بأن الشجار هو الدليل القاطع على وجود العاطفة .

- عظيم ما تقول . ناولني الأوراق .

- يخالجنني شعور بأنك تعاني من آلام الحياة يا روبي . لا تزج نفسك في مثل هذه

المبارزات ، فالحياة متكاملة رغم فقد ألوانها ، ولكنك بالرغم من معاناتك فانت

مخادع كبير .

لعبنا لمدة ساعة تقريباً وربحت الكثير على عكس بولفيتس الذي استمر في الخسارة . شربت وشربت ، وكانت النتيجة صداً حاداً في رأسي وناً مستعرة في معدتي .

قال لينس :

- دعك من هذا وتناول بعض الطعام .

صحت لفريدي :

- اجلب لي بعض السندويش والسمك المقدد . والآن دعونا نلعب دورة ثانية .
- حسناً ، الدورة الأخيرة .

ربحت فيها كغيرها ، وعلا صباح جراو من شدة الفرح . جلسنا الى البار . سأل بولفيتس عن كارل الذي لم يكن قد نسي بعد تفوقه على سيارته الفاخرة . كان لا يزال يحلم باقتنائها .

أجابه لينس :

- ولكني متأكد من أن كوستر مستعد لبيع إحدى ذراعيه على أن يبيع كارل .

قال بولفيتس متعجباً :

- الهذه الدرجة وصل تعلق كوستر بها ؟

- لا يمكنك فهم هذا ، فانت ابن القرن العشرين .

ضحك فرديناند جراو ومن ثم شاركناه جميعاً الضحك .

نعم من الأفضل لنا أن نضحك على هذا القرن . ومن لا يستطيع ذلك عليه قتل نفسه . ولكن ضحكنا لن يطول فهذا القرن مدعاة للبكاء .

سألت جوتفريد :

- هل تجيد الرقص يا جوتفريد ؟

- بالطبع . أو هل نسيت انني كنت في أحد الأيام مدرباً للرقص ؟

أجابه فرديناند جراو :

- لقد نسي . دعه ينسى ، فالنسيان هو السيد الخفي وراء استمرار الشباب . من

لا يستطيع النسيان يهرم بسرعة . ولكن المشكل يكمن في ان الغالبية لا تمتلك القدرة على النسيان .

أجابه لينس :

- لا ، ففي الغالب تنسى الامور التي يجب أن لا تنسى .

سألته :

- هل بإمكانك تدريبي على ذلك ؟

- الرقص ؟ نعم وفي ليلة واحدة . أهذا هو سر أزمتهك ؟

- ليست لدي أزمة . كل ما أشكومه هو صداع اليم في رأسي .
قال فرديناند :

- انه مرض العصر . كان من الأفضل لنا لو خلقنا بلا رؤوس .

بعد فترة تركت حانة فريدي وذهبت إلى مقهى الانترناسيونال حيث وجدت آلوي
يهم بإغلاق الأبواب . سألته :

- هل من أحد في الداخل ؟

- روزا .

- دعنا ندخل ونشرب كأساً نحن الثلاثة .

- ليكن .

- كانت روزا تجلس إلى جانب البار وتحيك جوارب صوفية لابنتها .

سألتها :

- كيف كان العمل اليوم ؟

- سيء . لا أحد يمتلك مالاً .

- هل ترغيبين في اقتراض بعض المال ، فعندي الكثير منه ، ربحته بالمقامرة .

- جاءنا آلوي بثلاثة كؤوس ، وبعدها وافانا بالرابيع بعد انضمام فريتس إلينا .

- والآن عليكم أن تغادروا المكان . فأنا متعب جداً .

أطفأ النور ، وودعتنا روزا عند الباب . بينما تأبطت فريتسي ذراع آلوي . ذهبوا

وتبعتهم بنظري وقد أنحنت فريتسي على ذلك النادل القذر بأرجله المعوجة وأخذت

تقبله بينما أخذ هو يبعدها عنه بكثير من اللامبالاة . استدرت لأذهب ولكن عاودني

شوق جامح لبات كاد يفقدني صوابي . أحسست بأنني لم أعد قادراً على الوقوف .

ما هذا السر وراء كل تصرفي الأحمق طوال تلك الليلة .

اتكأت على حائط أحد المنازل وأخذت أحلق أمامي . لم أستطع فهم الأسباب

التي دفعنتني إلى التصرف بهذه الطريقة . لقد تورطت في تصرف هدم كل ما حاولت

بنيانه بمشقة وجهه . وقفت هكذا ، ضعيفاً لا أعرف ما أفعل . رفضت فكرة

الرجوع إلى البيت . تذكرت بان الفونس لا بد وان يكون مستيقظاً . ذهبت إليه

لأبقى عنده حتى الصباح .

لم يتكلم الفونس الكثير . تأملني قليلاً ثم تابع قراءة جريدته . جلست إلى

إحدى الطاولات بافكاري . لم يكن هناك أحد سواي . فكرت ببات المرة تلو المرة .

فكرت في تصرفي وفجأة تذكرت وبالتفصيل كل ما ارتكبته في تلك الليلة من حماقات بحق نفسي . انني الوحيد المخطيء . أخذت أحملق كالمجنون وقد غلى الدم في عروقي . حقدت ونقمت على ذاتي وشعرت بضعفي . أنا وحدي المسؤول عن هذا كله . أفأنا الوحيد الذي يسعى دوماً لتحطيم ذاته وما يحيط بها . فجأة تحطم الكأس أمامي ، فقد هويت عليه بقسوة بقبضة يدي .

- هل هذا نوع آخر من التسلية ؟

قالها الفونس ، وجاء إلي ليخرج قطع الزجاج من يدي .
- آسف لما حصل ولكنني لم أكن أعني ما أفعل .

ذهب وأحضر قطناً وضادات .

- عليك ان تذهب إلى بيت البغاء لترفه عن نفسك . ان هذا هو افضل ما يمكنك

ان تقوم به .

- لا عليك ، كان ذلك مجرد ثورة غضب ، وقد هدأت الآن .

- على الانسان أن يبعد عنه الخطأ والغضب وذلك بتسلية ، وليس بغضب وخطأ

جديدين .

- كلام معقول . ولكن من يتقن ذلك ؟

- انها مسألة مران فقط . ولكنكم تنتطحون دائماً للحياة . لا عليك انها مسألة

وقت فقط ، والأيام ستعلمكم عكس ذلك .

تركني وذهب إلى الحاكي . وضع إحدى اسطواناته المفضلة ، وما مضى وقت

طويل حتى انبلج الصباح .

عندما ذهبت الى حجرتي بعد أن شربت عند الفونس كأساً كبيرة من الروم ،

أحسست وكان مطرقة تهوي بلا شفقة على رأسي ، وكان أكتافي أصبحت من

الفلواذ ، وان الطريق غير واضحة أمامي . عندها تأكدت بأنني ثمل جداً .

ارتقيت السلم بصعوبة واخذت ابحت عن المفتاح بلا جدوى في جيبي . فجأة

سمعت أحداً يتنفس بصعوبة ، مخلوقاً شاحباً غير واضح المعالم ، كان يرقد على

اعلى السلم ، تقدمت منه خطوتين ويا للدهشة .

- بات .

صرخت بلا وعي :

- ماذا تفعلين هنا ؟

تحركت قليلاً :

- لا بد انني غفوت قليلاً .

- هذا واضح . ولكن كيف جئت إلى هنا ؟

- هل نسيت انك أودعت معي مفتاح شقتك ؟

- لا اعني هذا . كل ما أعنيه .

عندها تلاشت الغيوبة ورأيت درجات السلم المتسخة ، الحائط المتصدع ،
الثوب الفضي وذلك الحذاء الصغير المشع .

- أعني كيف وصلت إلى هنا ؟

- هذا ما سألت نفسي عنه طيلة هذه المدة ؟

نهضت وحركت يدها بكل بساطة ، وكان وجودها هنا على هذا السلم وفي ومثل
تلك الساعة من الليل أكثر الأمور طبيعية . اقتربت مني وأخذت تشم أنفاسي .

- لو كان لينس هنا لقال : كونياك ، روم ، خمرة الكرز والكورن .

- نسيت واحدة .

اعترفت بذلك وقد وضحت الصورة أمام عيني .

- عليّ اللعنة . كم انت فتاة رائعة يا بات ، وكم أنا مجنون أحمق .

فتحت الباب ثم حملتها واجتزت بها الدهليز . كانت مستلقية على صدري .
غزال فضي ، طير متعب . أشحت بوجهي عنها جانباً كي لا تشم أنفاسي وشعرت
بأنها ترتجف رغم ابتسامتها لي . أجلستها على الأريكة أشعلت النور ودثرتها
بالغطاء .

- لو عرفت انك هنا ، لما تهت كالزورق في الحانات ، حاولت مكالمتك من حانة
الفونس ولكنني لم أتلق جواباً . وقفت أصفر تحت نافذتك ولكنك لم تسمعي . من
اين لي أن أعرف مكانك . ظننتك لا تريدني محادثتي .

- لماذا لم تعد إليّ بعد أن أوصلتاني ؟

- نعم ، هذا ما أود معرفته أنا أيضاً .

- من الافضل لنا أن تعطيني في المرة القادمة مفتاح حجرتك . عندها لا أحتاج
للاتظار على السلم .

ابتسمت ولكن شفيتها كانتا ترتجفان . عرفت ما كان يعني رجوعها وانتظارها
ونبرة صوتها الشجاعة .

- بات . قلت بسرعة :

- انك ترتجفين من البرد ولا بد لك من تناول شيء ساخن .

رأيت نوراً في غرفة ذلك الروسي ، والروس يحبون شرب الشاي . انتظري قليلاً ، سأعود بسرعة .

شعرت وكان الدم بدأ يغلي في رأسي .
- لن أنسى ذلك ما حييت .

قلت ذلك ثم أسرعت الى الروسي .

كان أورلوف ما زال مستيقظاً جالساً أمام ايقونة العذراء في إحدى زوايا الغرفة بعينين حراوين ، وعلى المنضدة الى جانبه كان البخار يتصاعد من السماور .

- معذرة . حادث عارض . هل تعطيني قدحاً من الشاي ؟ أعطاني قدحين وسكر وطبقاً صغيراً مليئاً بالحلوى ثم اقال:
- اني مدين لك بالكثير ، ولذا أمل ان استطيع مساعدتك . هل تريد بعض حبات القهوة ؟

- شكراً ، شكراً على كل شيء .

ثم تابع حديثه بكثير من الانضباط .

- إذا احتجت إليّ ، فأنا سابقى مستيقظاً لبعض الوقت ، انه لمن دواعي سروري أن أقدم لك بعض العون لمعرفتي الحقيقية بالظروف المفاجئة التي تلم بنا . أنا ، نفسي ، صادفت الكثير منها .

- شكراً ، شكراً لكل ما قدمته لي .

أخذت أمضغ حبات القهوة اثناء عودتي الى الغرفة ، فالقهوة تساعد على إبعاد رائحة الخمرة المنبعثة من فمي . وجدت بات تجلس على مقربة من الضوء وتحاول اصلاح هندامها . وقفت فترة على الباب أتأملها . لقد كان شكلها ، وهي تنظر بجدية إلى مراتها الصغيرة محاولة إصلاح زيتنها ، تثير في نفسي الحنين .

- إشرابي قليلاً من الشاي الساخن ، انه مفيد لك .

رفعت الكوب ، بينما رحمت أتفحصها وهي تشربه .

- لا أدري ماذا حدث لي هذا المساء يا بات .

أجابت :

- أما أنا فاعرف ذلك .

- هكذا ؟ أنا نفسي لا أفهم لماذا .

- ليس هذا هو المهم . الأهم هو معرفتك الزائدة لكثير من الأمور التي تقف

حاجزاً بينك وبين السعادة .

- ربما ، ولكن لا يمكنني الاستمرار في مزاجية الاطفال هذه ، التي اصبحت تلازميني منذ تعرفي بك .

- ولكن هذا أفضل من أن تكون غافلاً .

- كلام معقول . انك تتمتعين بقدرة على انتشالي من المآزق ، ولكن الأمور حدثت بسرعة كبيرة .

وضعت القدرح على المنضدة وارتكزت إلى حافة السرير . عندها شعرت بأنني عدت إلى بيتي بعد سفر طويل مضمّن . بدأت العصافير تغرد في الخارج ، وترامى إلى سمعي صوت قفل باب . انها بلا شك السيدة بندر ، ممرضة الاطفال . نظرت إلى الساعة . بعد نصف ساعة ستبدأ فريدا عملها في المطبخ وعندها لن يمكننا الخروج بسرعة .

كانت بات ما تزال نائمة تتنفس بعمق وانتظام . من المخجل إيقاظها . ولكن لا بد من ذلك .

- بات .

تمتمت وهي نائمة .

- بات .

بينما رحت العن جميع الغرف المفروشة في هذا العالم .

- بات . حان الوقت ، عليك أن ترتدي ثيابك .

فتحت عينيها وابتسمت وهي ما زالت شبه نائمة . بدت كالطفل . كم كنت أحب فيها هذه الميزة . تستيقظ دائماً مليئة فرحاً وبهجة كنت على عكسها تماماً .

- بات ، علينا أن نسرع فمدمام تساليفسكي بدأت في تنظيف أسنانها .

- سابقى اليوم عندك .

- هنا ؟

- نعم .

ثم جلست في السرير .

- فكرة عظيمة ، ولكن ثوبك هذا وحداؤك لا يصلحان إلا للمساء .

- إذن سابقى هنا حتى المساء .

- وبيتك ؟

- سأكلهمهم وأشرح لهم انني مضطرة للبقاء خارج البيت حتى المساء .

- سنفعل ذلك حتماً . انك جائعة بلا شك ؟

- ليس بعد .

- على أي حال ، سأخرج الآن لأسرق بعض الأرزفة ، فهذا هو أنسب وقت لذلك .

عندما عدت وجدتها تقف أمام النافذة متعلقة حذائها الفضي فقط وقد لفت أشعة الصباح الهادئة جسدها كأنها الحجاب .

- هل نسينا كل ما حدث بالأمس يا بات ؟

هزت برأسها موافقة دون أن تلتفت إلي .

- علينا ان لا نلتقي كثيراً مع الآخرين ، فالحب الحقيقي لا يستوعب أكثر من شخصين . عندها لا يقع ما يسبب خلافنا ولا يحدث ما يستدعي غيرتنا . إلى الجحيم بالسيد بروير وأصدقائه . اليس كذلك ؟

- بل إلى الجحيم بماركوفيتش أيضاً .

- ماركوفيتش . من يكون هذا ؟

- انها تلك المرأة التي كانت تجلس إلى جانبك في مرقص الكسكاد .

- هكذا ؟

قلتها وشعرت فجأة بنشوة عارمة .

- انك تعنين تلك المرأة .

فتشت جيوبي وأخرجت محتوياتها .

- انظري . بالرغم من مساوىء هذه الليلة فقد كسبنا كثيراً من النقود . لعبت

البوكر وربحت . نستطيع أن نخرج الليلة وننفق على هوانا ، ولكن بمفردنا ، وبدون مشاركة احد . علينا أن ننسأهم جميعاً . الا توافقيني الرأي ؟

هزت رأسها موافقة .

ارتقت الشمس السماء تدريجياً وأخذ زجاج النافذة يلمع تحت تأثير أشعتها .

- ما رأيك في بروير وما نوع عمله ؟

- مهندس .

- مهندس ؟

قلتها وكمن اصيب في الصميم . كم وددت سماع رد آخر .

- نعم مهندس ، وما في ذلك ؟ انها ليست مهنة عظيمة . اليس كذلك يا بات ؟

- بالفعل انه ليس بالعمل المدهش .

قالت ذلك بصدق ثم استدارت إلى صاحبة ، وتابعت :

- ان هذا العمل لا يعني لي شيئاً . كم هو عمل عمل .

- وهذه الغرفة ، أليست مزرية يا بات ؟ لا بد وأن البعض يمتلك غرفاً أجمل .

قاطعتني :

- كم هي رائعة هذه الغرفة . انها أجمل الغرف إطلاقاً يا عزيزي .

- وأنا . لست إلا سائق تاكسي ولي أخطائي الكثيرة ولكن . . .

- انك أرق المحبين وأمهر سارق خبز وأشد سكير . كم انت حبيب الى قلبي .

ثم رمت نفسها بصعوبة في أحضانني ولفتنني بذراعيها .

- أيها الأحمق . ألا تشعر بجمال حياتنا ؟

- معك فقط تصبح الحياة جميلة يا بات .

كان الصباح مشرقاً وقد تعثر بعض الضباب فوق حجارة المقبرة ، بينما سبحت أعالي الأشجار في بحر من الضوء . أخذت مداخن البيوت تنفث دخانها الحلزوني الاسود ، وعلت صيحات بائعي الجرائد في الطرقات .

استلقينا على السرير أملاً في غفوة صباحية ، نوم يقظة تستقر أحلامه على حدود الواقع . استلقينا هكذا الواحد في حضن الآخر وقد التقت أنفاسنا وهامت أرواحنا في عالم بعيد ، خرجت في التاسعة وخابرت الملازم أغبرت شخصياً ثم اتصلت بلينس ورجوته أن يحل مكاني في دورتي الصباحية ، قاطعتني قائلاً :

- دعك من هذا أيها الطفل ، فصديقك جوتفريد عارف بتذبذب القلب الانساني . توقع ذلك ، أتمنى لك السعادة أيها الصبي الذهبي .
- إخرس .

اجبته وقد غمرتني السعادة ، ثم دخلت المطبخ وأعلنت لهم عن مرضي ورغبتني في النوم حتى الظهر . وبصعوبة بالغة أوقفت محاولات السيدة تساليفسكي للقيام بتمريري ، وموافاتي بالافطار والدواء وشاي الكاميليا . بعدها استطعت تهريب بات إلى الحمام .

- ١٤ -

بعد مضي اسبوع وبشكل غير متوقع ظهر في فناء ورشتنا الخباز مع سيارته الفورد .

خاطبني لينس غاضباً :

- اخرج اليه يا روبي . لا بد وان كازانوفا الكعك هذا مصر على الاسترسال في شكاويه .

كان مظهر الخباز يوحي بعدم الرضى . سألته :

- هل هناك عيب في السيارة ؟

هز رأسه بالنفي .

- بالعكس جعلتم منها سيارة جديدة .

- هذا رأيي فيها أيضاً .

وافقته على رأيه واخذت انظر اليه بمزيد من الاهتمام .

قال :

- الموضوع الذي جئتك به كالتالي : أريد استبدالها بسيارة أخرى ، سيارة أكبر .

ثم استدار واخذ ينظر حوله ثم سأل :

- ألم تكن في حوزتكم سيارة كاديلاك ؟

عندها فهمت ما وراء كلامه . لا بد وان صديقته أثارت أعصابه ودفعته الى هذه الخطوة .

- نعم الكاديلاك . كان عليك أن تسارع إلى شرائها في ذلك الحين انها قطعة نادرة بيعت بمبلغ سبعة آلاف مارك فقط .

- بالطبع بنصف قيمتها .

- يا للخسارة .

كررت ذلك وفكرت ملياً بمخرج من هذا الموقف .

- ولكن باستطاعتي التكلم مع المشتري ، ربما كان بحاجة الى بعض المال . أنت أعلم الناس بالظروف الحالية والحاجة الماسة الى السيولة النقدية . دقيقة واحدة من فضلك . رجعت الى الورشة وشرحت الموقف بسرعة ، قفز لينس من مكانه .
- يا أطفالي . من اين لنا الحصول على كاديلاك قديمة وفي مثل هذه السرعة ؟
- دع هذا الأمر لي وأخرج وحاول إبقاء الخباز هنا ريثما أتدبر الأمر .
- ليكن .

ثم اختفى خارجاً .

اتصلت هاتفياً بالسيد بلومنتال ، لم يكن عندي أمل كبير في تجاوبه ولكنها كانت مجرد محاولة . وجدته في المكتب . سألته بدون مقدمات .
- هل تريد بيع الكاديلاك ؟

ضحك .

- عندي هنا من يريد شراءها والدفع نقداً .
- نقداً ؟

أجاب بلومنتال بلهجة تعجب ثم صمت فترة .
- في مثل هذه الأوقات يصبح عمل كهذا ضرباً من ضروب الخيال .
- هذا بالضبط ما أعنيه .

قلت وقد شعرت بالنشاط يغمرني .
- إذن ، ما هو ردك ، هل نستطيع التشاور في الأمر ؟
رد بلومنتال :

- لم لا ؟

- حسناً . متى استطيع أن أقابلك ؟
- في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم في المكتب .
- حسناً .

أغلقت الساعة وناديت كوستر وأنا في غاية الانفعال :
- لم أتوقع ذلك أبداً ، ولكنني متأكد من اننا سنسترجع الكاديلاك .

سقطت الأوراق من بين يدي كوستر
- أحقاً ما تقول ؟ هل تريد بيعها ؟

هززت رأسي موافقاً بينما رحت أنظر إلى لينس من خلال النافذة وهو يتكلم

بحرارة محاولاً إقناع الخباز .

قلت بكثير من القلق :

- انه سيفسد الأمر كعادته ، فهو يتكلم كثيراً وينسى ان هذا الخباز جبل من الشكوك . علينا أن نقنعه بصمتنا . سأحل محل جوتفريد .

ضحك كوستر :

- ليكن النجاح حليفك يا روبي .

أشرت له بعيني وخرجت . لم أصدق ما سمعت . لم يكن جوتفريد ينشد أمام الخباز أناشيد مديح في الكاديلاك ، بل كان يشرح له بكل حماس كيف يخبز الهنود في أميركا الجنوبية خبز الذرة .

نظرت إليه نظرة تقدير ثم وجهت كلامي للخباز :

- مع الأسف ، ولكن المشتري لا يريد بيع السيارة .

أجاب لينس على الفور وكأننا على اتفاق بصدد ذلك .

هزرت كتفي

- خسارة ، لشاري الكاديلاك أسباب مبررة .

وقف الخباز متردداً بينما رحت أنظر الى لينس .

- الا تستطيع المحاولة معه مرة ثانية ؟

سأل في الحال .

أجبتة :

- أستطيع ذلك بلا شك . على أي حال فلقد استطعت أخذ موعد منه لمقابلته

عصر هذا اليوم . أيمكنني العثور عليك بعد ذلك الوقت وأين ؟ سألت الخباز .

- سأكون في الساعة الرابعة في مكان قريب من هنا وسأوافيك بنفسي .

- حسناً ، أمل ان نصل إلى نتائج إيجابية .

هز الخباز رأسه مودعاً ثم ركب سيارته وانطلق بها .

- هل تخلت عنك الآلهة ؟

صاح بي لينس بعد أن غادرنا الخباز .

- في البدء طلبت مني استبقاءه بشتى الوسائل ، وها أنت تدعه يذهب في غضون

دقيقة .

رَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ وَأَجَبْتَهُ :

- علم النفس والمنطق يا عزيزي ، أمران لم تلم بهما بعد .

رمى بيدي بعيداً عنه :

- علم النفس ؟ الصدفة أهم من هذا الذي تتكلم عنه وهذه الصدفة كانت رهن

أشارتنا . هذا الرجل لن يعود أبداً .

- سيكون هنا في الرابعة .

نظر إليّ لينس نظرة إشفاق ، ثم سألني :

- أتراهن ؟

أجبتة :

- بكل سرور ، ولكنك ستخسر حتماً . انني أعلم منك بنفسية هذا الرجل كما انني

لا أستطيع بيعه شيئاً ليس في حوزتي .

أخذ لينس يهز رأسه بعصبية :

- يا إلهي . لو كان هذا هو السبب لاصبحت أفضل رجل أعمال . تعال معي

لألقنك درساً مجانياً في الحياة الاقتصادية العصرية .

* * * *

توجهت عند الظهر لمقابلة بلومنتال . في طريقي إليه شعرت وكأنني حمل صغير

يستعد لمقابلة ثعلب هرم . وكلما ازداد اقترابي من مكان الموعد كلما ازداد رفضي أن

أغدو شواء على موقد بلومنتال . من الأفضل اختصار العملية .

- أيها السيد بلومنتال .

قلتها بسرعة عندما دخلت مكتبه وبدون إعطائه فرصة للكلام .

- ها أنا أقدم لك عرضاً مغرياً . لقد ابتعت الكاديلاك بخمسة آلاف وخمسةائة

مارك ، وما أنا اعرض عليك ستة آلاف . هذا إذا وفقت في التخلص منها .

وستحدد الأمر مساء هذا اليوم .

كان بلومنتال يعتلي مقعده الفخم خلف مكتبه ، بينما أخذ يأكل تفاحة . توقف

عن الأكل ونظر إليّ :

- حسناً .

ثم عاد للأكل مرة ثانية . انتظرت إلى أن رمى ببقايا التفاحة في سلة النفايات

وسألته :

- هل انت موافق ؟

- دقيقة واحدة من فضلك .

ثم مد يده إلى الدرج وتناول تفاحة ثانية .

- تريد واحدة أيضاً ؟

- شكراً . ليس الآن .

قضم التفاحة بصوت عال .

- عليك بتناول كميات كبيرة من التفاح . فالتفاح يطيل في عمر الانسان . عدة

تفاحات في اليوم تغنيك عن الأطباء .

- ولكن إذا أصبت في يدي ، فماذا إذن ؟

ضحك ساخراً ورمى ببقايا التفاحة الثانية في سلة النفايات ثم نهض .

- في مثل هذه الحالة عليك أن تحاذر كسر ذراعك .

- نصيحة عملية .

وانتظرت المفاجأة القادمة . فحديث التفاح بدأ يثير شكوكي . أخرج بلومنتال من

خزانة صغيرة علبة سيجار من نوع الكوروناس سألته :

- وهل تطيل هذه العمر أيضاً ؟

- لا ، بل انها تقصره ، وهذا هو الوجه الثاني من المعادلة .

نفث غيمة من الدخان ونظر إلى برأس منحني وكأنه عصفور مفكر .

- التوازن الدائم هو سر الحياة الخفي .

- هذا إذا استطاع المرء ذلك .

ابتسم .

- نعم - القدرة - هذا هو السر . تعرف الكثير ولذلك تستطيع القليل . ضحك :

- اعذرني ولكنني دائماً هكذا ، اصبح فيلسوفاً صغيراً بعد تناول طعام الغذاء .

- لا بد ان هذا الوقت هو الأنسب لذلك ، وهذا سيؤكد توافقنا بالنسبة

للكايدلاك .

رفع يده معترضاً :

- لحظة .

طاطات رأسي بخنوع مستسلماً . لاحظ بلومنتال ذلك وضحك :

- لا تخزن ، فكل ما سعت إليه هو مديحك ، فدخولك لمكتبي بهذه الثقة الكبيرة

وعرض أوراقك بكل وضوح وجراحة هي خطة مدروسة وقد أثرت بي . وأعترف لك بذلك . ولكن قل لي : ما هو تصورك لرد فعلي ؟
- في البدء فكرت بأربعة آلاف مارك . أما الآن فلماذا هذا اللف والدوران فأنت تود بيعها بسبعة آلاف مارك أليس كذلك ؟
- ولماذا سبعة ؟

- لأنه الرقم الأول الذي عرضته عليّ عندما اشتريت السيارة .

أجبتة :

- انك تتمتع بذاكرة حادة .
- بما يتعلق بالأرقام فقط ، للأسف . والآن دعنا ننهي الموضوع . تستطيع استرداد السيارة مقابل هذا المبلغ .
ثم مد يده فصافحته معلناً موافقتي .

أجبتة وتنفست الصعداء :

- شكراً لك يا إلهي . انها أول عملية رابحة منذ زمن طويل . فالحظ يكمن في هذه الكاديلاك .

أجاب بلومنتال :

- لقد جلبت لي الحظ ايضاً ، فانا ربحت بدوري بهذه العملية خمسمائة مارك .
- هل هذا صحيح ؟ ولكن قل لي ، لماذا وافقت على بيعها ؟ ألم تعجبك ؟
- بلى ، ولكنني تعودت على عقد أي صفقة تدر عليّ الربح .
- فكرة عظيمة .

هز جمجمته اللامعة :

- عليك في هذه الأيام ان تعقد أية صفقة تقع بين يديك . عليك أن لا تعاكس القدر .

في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم وضع لينس أمامي على طاولة الورشة زجاجة جن فارغة .

- عليك أن تملأها لي فهذا شرط رهاننا ، أم تراك نسيت الرهان ؟

- أنا ما زلت أذكر ذلك . ولكنك بكرت في المجيء .

رفع لينس ساعته بمحاذاة عيني دون أن ينبس بكلمة .

- الساعة ما زالت الرابعة والنصف وبإمكانه ان يتأخر عن مواعده قليلاً . على أي

حال فأنا أضعاف الرهان ، ومستعد أن أملاً لك زجاجتين مقابل زجاجة منك .

- لنفترض انك خسرت الرهان ، فهل ستملأ لي أربع زجاجات جن ؟ يا عزيزي ، انك تتصرف بروح الابطال ، عملية مشرفة ولكنها خاطئة .
- انتظر لحظة .

ورحت اشكك في جميع تصرفاتي . ربما أخطأت في تقييم الخباز . ألم يكن من الاجدر بي استبقاؤه ريثما تتم الصفقة ؟ .

عندما دقت الساعة معلنة الخامسة تماماً نهض لينس وأحضر ثلاث زجاجات جن فارغة ووضعها إلى جانب الزجاجاة الرابعة على المنضدة أمامي ثم اتكأ على النافذة وأخذ يحملق بي .
- انني في غاية الظما .

قال ذلك بعد فترة وأخذ يحملق بي ، في تلك اللحظة سمعنا صوت محرك السيارة الفوردي المميز يعبر الشارع ولم تلبث أن عبرت سيارة الخباز فناء ورشتنا .
- إذا كنت عطشاً حقاً يا عزيزي جوتفريد فأسرع وابتع زجاجتي روم من حصتي في هذا الرهان . اني أسمح لك بجرعتين فقط . هل تستطيع رؤية الخباز في الفناء ؟ علم النفس يا بني ؟ والآن أرح هذه المنضدة من زجاجاتك ثم اركب التاكسي ، وانطلق للبحث عن الكسب ، فأنت ما زلت صغيراً جداً على الأعمال المرهقة الى اللقاء يا صغيري .

خرجت الى الفناء واخبرت الخباز بأننا وفقنا في استرداد الكاديلاك ولكن البائع يطلب سبعة آلاف وخمسمائة مارك . وربما نستطيع حمله على التنازل عن الخمسمائة الاخيرة إذا دفع المبلغ نقداً .

كان الخباز يستمع الى ما أقول دون تركيز . الأمر الذي اثار غضبي .
- سأتكلم مرة ثانية مع البائع في تمام السادسة .
- في السادسة ؟

قالها وكأنه استيقظ لتوه من حلم .
- في السادسة على أن . . .

ثم استدار الي فجأة .
- هل تصحبي ؟

فسألته متعجباً :
- الى أين ؟

- الى صديقك الرسام . لقد انتهى من رسم اللوحة .
- آه ، انك تعني فرديناند جراو .

حني رأسه موافقاً .

- تعال معي الى المرسوم فهناك تستطيع متابعة حديثنا بشأن السيارة .

احسست انه يرفض ان يكون وحيداً . وانا بدوري ارتأيت ان لا اتركه وحيداً مرة
ثانية قبل اتمام الصفقة .

قلت موافقاً .

- حسناً .

- المسافة الى المرسوم بعيدة وعلينا أن ننطلق في الحال .

* * * *

استقبلنا فرديناند جراو على باب مرسمه . كان وجهه متورماً يوحى بالتعب ،
ولونه رمادي مخضر . أما الخباز فلم يلحظ هذا من شدة توتره .

بادره بالسؤال :

- أين اللوحة ؟

أشار فرديناند بيده الى النافذة حيث كانت اللوحة معروضة على مقعد قريب
منها . اتجه اليها الخباز بسرعة ووقف قبالتها بلا حراك . بعد فترة رفع قبعته . لقد
كان مسرعاً جداً ، ونسي رفع قبعته منذ البداية .

أما فرديناند وأنا فوقفنا أمام الباب نتأمله . سألته :

- ما هي أخبارك يا فرديناند ؟

قام بحركة جريئة بيده .

- هل هناك شيء ما ؟

- وماذا سيكون هنالك ؟

- وجهك شاحب جداً .

وضع يده الضخمة على كتفي وابتسم بوجه كأنه وجه راهب جليل . انتظرنا برهة
ثم توجهنا الى حيث كان يقف الخباز .

دهشت حينما رأيت اللوحة . لقد وفق فرديناند وبقدرة عجيبة في نقل وجه تلك
المرأة من صورة زواج قديمة ، بمهارة فائقة وجعله في هذه اللوحة وجه المرأة فتية بعينين

جادتين يغطيها الضياع .

- نعم .

قال الحباز دون أن يلتفت إلينا .

- نعم هذه هي .

رددتها عدة مرات لنفسه غير شاعر بوجودنا .

سأله فرديناند :

- هل الضوء كاف ؟

لم يجب الحباز .

عندها غمز لي فرديناند مشيراً إلي للذهاب الى الغرفة الصغيرة المجاورة للمرسم .

- لم أكن أتوقع ذلك . أنظر إليه . انه يتتجب .

- كل منا سيقف يوماً في مثل هذا الموقف ولكن كالعادة بعد فوات الوقت .

- بعد فوات الوقت . هذه حال الدنيا يا روبي ، فأحداثها الحقيقية تحدث دائماً

بعد فوات الوقت .

أخذ الحباز يخطر أمام اللوحة جيئة وذهاباً .

- لندعه مع نفسه بعض الوقت ونذهب لتلعب جولة شطرنج .

- ان لك مزاجاً ذهبياً يا فرديناند .

وقف فترة ، ثم أجاب :

- لماذا ؟ نحن بهذا لا نساعده ولا نسيء اليه ايضاً . لو أخذ الانسان كل امور

الحياة بجديتها لامتنع عن الضحك كل حياته .

- انك مصيب كالعادة . لذا دعنا نلعب جولة شطرنج .

وكعادته ربح فرديناند .

- عظيم . ان مظهرك يوحي بأنك لم تنم منذ ثلاث ليال ، ولكنك تلعب

كالقرصان .

- انني لعب جيداً عندما أكون حزيناً .

- ولماذا أنت حزين ؟

لأن الظلام بدأ يحيم ، والانسان المقتدر يصبح حزيناً عندما يأتي الليل . كما ترى

لا سبب محدد للحزن .

- بالطبع ، في ساعة الظل ، في ساعة الوحدة ، في الساعة التي يفقد فيها كل

شيء طعمه الا الكونياك .

أخرج زجاجة وكأسين . سألته :

- ألا يجدر بنا أن نذهب الى الخباز .

- في الحال .

ثم ملأ الكأسين .

- اشرب ، فجميعنا سنصاب بالشلل يوماً .

- اشرب نخب وجودنا في هذا العالم .

- كلام لطيف . ما رأيك في كأس أخرى ؟

- حسناً .

- حسناً .

بعدها عدنا الى المرسم . كان الخباز ما يزال واقفاً حاني الظهر أمام اللوحة وقد اشتد الظلام . شكله هذا يوحي بالضيق والعجز في تلك الغرفة الكبيرة الفارغة ، وخلته أصغر حجماً مما هو عليه في الحقيقة .

سأله فرديناند :

- هل أجهز لك اللوحة ؟

انتفض الخباز .

- لا .

- إذن سأرسلها لك في الغد .

- الا تستطيع الاحتفاظ بها هنا ؟

- لماذا ؟

سأله فرديناند بتعجب واقترب منه .

- الا تعجبك ؟

- على العكس ولكنني أحبذ بقاءها هنا .

- لا أفهم ما تقصد .

نظر إليّ الخباز كمن يطلب العون ، فقد كان خائفاً من تعليق صورة زوجته أمام ناظري صديقه ، أو ربما كان يخشى الموتى .

- لكن يا عزيزي فرديناند ، لماذا تمنع في إبقاء هذه اللوحة معلقة في مرسمك إذا

سددت تكاليفها ؟

- إذا كان الأمر كذلك فأنا سأوافق حتماً .

بارتياح اخرج الخباز دفتر شيكات من جيبه واتجه الاثنان إلى المنضدة . سأل الخباز :

- بقي لك على ما اعتقد أربعمئة مارك .
- أربعمئة وعشرون ماركاً مع الخصم . هل تحب ايضالاً بذلك ؟
- نعم للتأكد على الناحية النظامية فقط .

بصمت أمل الاثنان الشيك والايصال . وقفت برهة خلف النافذة ثم أخذت أتلفت حوالي . أخذت صور الأموات التي لم يسدد ثمنها بعد تضيء بإطاراتها الذهبية تحت تأثير أشعة الغروب . بدوا وكأنهم في اجتماع أشباح وقد خرجوا من الحياة الاخرى لمشاركة تلك الصورة إلى جانب النافذة ليلتها الاولى بينهم .

أحسست بالرهبة تملأ المرسم . ذلك الشخصان المنحنيان على المنضدة المشغولان بالكتابة وظلال تلك الصور الصامتة .

عاد الخباز إلى جوار النافذة مرة ثانية . كان شكله مضحكاً ومبكياً في آن واحد ، بعينيه اللتين كانتا تلمعان ككرات زجاجية ، وبفمه المتنفخ قليلاً وقد تدلت شفته السفلى وبانّت من خلالها أسنانه الاضطناعية . في الطابق الأعلى بدأ أحدهم في العزف على البيانو ، وبشكل مزعج لم يكن يعزف مقطوعات ، بل قطع تمرين . وبعد فترة أصبح الصوت المنبعث مصدراً للعذاب . وقف فرديناند إلى جانب الطاولة وأشعل سيجارته ، فأضاء عود الثقاب المشتعل وجهه بينما بدت الغرفة تحت تأثير تلك الشعلة الحمراء الصغيرة كبيرة زرقاء .

سأل الخباز فرديناند :

- هل تستطيع تغيير بعض معالم اللوحة ؟
- أية ملامح ؟
- تقدم منه فرديناند ، فأشار الخباز إلى الحلي .
- هل تستطيع حذفها ؟
- بالطبع أستطيع ذلك . معك حق ، فباختفائها يكتسب الوجه تعبيراً أكثر وضوحاً .
- هذا رأيي أيضاً .

قالها وقد غصت الكلمات في حلقه .

- ماذا يكلف هذا التغيير ؟

تبادلنا ، فرديناند وأنا النظرات ثم أجابه فرديناند :

- لا يكلف شيئاً .

رفع الحجاز رأسه مندهشاً . ولفترة بدا وكأنه لا يصدق ما سمعه ، ولكنه لم يلبث أن أجاب بحزم :
- لست بحاجة لحذفها . فأنا الذي كنت قد طلبت منك رسمها .
- كلام صحي أيضاً .

خرجنا . أحزنتني مظهر الحجاز وهو يهبط السلم بظهره المحني . لذا قررت عدم الخوض معه في موضوع الكاديلاك . ولكنني تذكرت فجأة ان قسطاً كبيراً من حزنه على زوجته المتوفاة لم يكن نابعاً من محبته لها ، بل خوفاً من تلك الصديقة الشرسة القابعة في بيته . شحذت ذهني استعداداً لدخول معركة حاسمة .
بادرني الحجاز في الحديث عندما أصبحنا في الخارج .
- نستطيع متابعة النقاش بمسألة السيارة في بيتي .

وافقت ، فهذا الحل يوافقني ويروقني . لقد رتب الحجاز الأمر هكذا متأكداً من أنه سيكون الباع الطويلة لحصانته بين جدران الأربعة بينما فكرت أنا بتلك الصديقة الشرسة وانها بلا شك ستكون عوناً كبيراً بالنسبة لي . وجدناها في انتظارنا عند باب السلم .
- تهاني القلبية .

قلت لها مباشرة وقبل أن يباشر الحجاز حديثه .
- لماذا ؟

سألت بسرعة وبعينين ملتصقتين .

أجبتها بكثير من البرود -
- إنني أبارك لكم بسيارتكم الجديدة ، الكاديلاك .
- يا حبيبي وارتقت على الحجاز لتعانقه .
- ولكن المسألة لم تنته بعد .

حاول التخلص من بين ذراعيها ولكن دونما جدوى . أخذت تعانقه كي لا يتابع حديثه . نظرت إلى ملامح وجهه المؤنبة المحتجة وكأنه وجه دودة طحين . لقد استطاع تحرير نفسه من قبضتها بعد عناء .
- لكننا لم نتوصل بعد إلى قرار نهائي .
أجبهته مؤكداً :

- بل لقد انتهينا من الموضوع . أما بالنسبة للخسائة مارك فأنا أتكفل بتخفيضها . انك لست بحاجة لدفع أكثر من سبعة آلاف مارك . هل يناسبك هذا العرض ؟

أجابت صديقتة الشرسة :

- بالطبع ، انه لعرض مغر جداً يا حبيبي .

رفع الخباز يده منذراً .

- اصمتي .

- ولكن ما خطبك ؟ لقد وعدتني بالحصول على الكاديلاك ، وها أنت تنكث

وعدك .

أجبتها مؤكداً .

- انه موافق .

- ولكن لماذا هذا التمتع يا حبيبي ؟

والتصقت به رغم محاولاته الافلات منها . فلقد ضغطت عليه بصدرها الممتلئ

وعندها عبق وجهه بالغضب . ولكن مقاومته خفت .

سألني :

- والفورد ؟

- نشترها ونسدد ثمنها على شكل أقساط

- أربعة آلاف مارك ؟

أجبتة بلهجة لطيفة .

- هذا ما كلفتك آنذاك

اجاب الخباز بتصميم :

- سأبيعكم إياها بأربعة آلاف مارك وستسدون ثمنها على اقساط شهرية . كان

واضحاً بأنه وجد النقطة التي يستطيع الانطلاق في هجوم معاكس . تابع قوله :

- ان السيارة في حالة جيدة وكأنها سيارة جديدة .

- الوداع .

منعتني من الخروج . برقت عيناها وراحت تخاطب الخباز وقد تطاير الشرر من

عينها :

- قلت لك الف مرة ان هذه الفورد لا تساوي شيئاً . ثم اجهشت في البكاء .

عندها حانت الفرصة أمامي فقلت :

- ألفا مارك فقط بالرغم من خطورة الصفقة .

صمت الخباز . صاحت به الصديقة :

- هيا . قل شيئاً . ما بالك تقف صامتاً هكذا ؟

- أنصحكم بالتشاور ريثما أحضر أنا الكاديلاك . فربما تغير الموقف .

شعرت أن ذهابي الآن هو أفضل طريقة لحل الموقف . فهذه الصديقة ستقوم على

تنفيذ رغباتي بطريقتها الخاصة .

عدت بالكاديلاك بعد نصف ساعة من الوقت . تأكدت في الحال بأن الشجار قد

حل بأبسط الطرق .

بدا الخباز متعباً وقد علقت بشعره ريشة من الوسادة ، أما الصديقة فقد بدت

فرحة وأخذت تضحك بمكر . لاحظت بأنها استبدلت ملابسها وارتدت ثوباً حريرياً

رقيقاً يكشف عن كل معالم جسدها . غمزت لي مؤكدة بأن الأمر قد انتهى .

قمنا بجولة تجريبية . جلست الصديقة باسترخاء على المقعد الخلفي الوثير

وأخذت تتحدث بلا انقطاع ، بينما جلس إلى جانبي يندب حاله الضائع . تأكدت في

تلك اللحظة بأن حزنه على المال كان أشد من حزنه على زوجته . فالحزن على المال

يعتبر بالنسبة لمثل هؤلاء الأشخاص قمة الأحزان . توقفنا أمام منزله فدعاني للمرة

الثانية للدخول . تركنا الخباز إلى الغرفة الثانية ليأتي بالنقود . عندها لاحظت

الصباغ على شعره وقد بدا هزماً . سألتني الصديقة :

- ألم ننجز عملنا بنجاح ؟

وافقتها مرغماً :

- نعم .

فقلت ، وساطني في الصفقة مئة مارك .

- هكذا إذن ؟

- هذا الجدي العجوز غاية في البخل .

ثم اقتربت مني وتابعت حديثها وكأنني صديق قديم لها :

- عنده الكثير من المال ولكنه لا يخرج منه شيئاً . كم هو قميء . إنه يمانع حتى

الآن في كتابة وصيته . لو حدث له شيء فسيؤول المال بأكمله إلى أولاده وأبقى أنا

هكذا بلا شيء .

اقتربت مني أكثر وهزت صدرها :
- أفضّل أن أوافيك غداً لأخذ المائة مارك ، ومتى تكون في الورشة ، أم تأتي إلي
في البيت غداً بعد الظهر . سأكون بمفردي .

ثم ضحكت ضحكة ماجنة .
- سأوصل لك النقود فلا تقلقي .

استرسلت في ضحكتها الماجنة .
- لماذا لا تأتيني بالنقود إلى هنا ؟ هل أنت خائف ؟

ظنت أنني خجول ، فبدأت توضح لي هذه الأمور .
- لا ، لست خائفاً ، ولكنني لا أملك الوقت الكافي لذلك . غداً أنا على موعد
مع الطبيب ، بخصوص مرض الزهري ، الذي أعاني منه منذ زمن طويل . انك
بلا شك تعلمين كم يرهق هذا المرض صاحبه .

ذعرت وتراجعت خطوة إلى الوراء وكادت تهوي أرضاً . في تلك اللحظة دخل
الخباز الغرفة ، نظر إلى صديقه نظرة ارتياب ثم شرع في عد النقود أمامي . كان
يعدهم بيظه وتردد ، بينما بدا ظله على الجدار وهو يتأرجح هنا وهناك وكأنه يشارك
صاحبه العد .

أثناء كتابتي للايصال تذكرت أن اليوم بالذات كتب فرديناند جراو أيضاً إيصالاً
مماثلاً . لم يكن الأمر يدعو للقلق ولكنني وجدت هذه الصدقة غريبة .

غمرتني السعادة عندما تركت ذلك المنزل ثم نظرت إلى الكاديلاك التي كانت
تلمع على حافة الطريق نظرة أخيرة .
- أيتها الغالية . شكراً لك .

قلت ذلك ومررت بيدي على مقدمتها .
- عودي لي أيتها العزيزة لنصنع معجزات جديدة .

- ١٥ -

في صباح مشع زاهٍ ، جلست وبات على حافة إحدى الغابات نتناول طعام الافطار . أخذت إجازة اسبوعين وانطلقت مع بات قاصدين البحر .

أمامنا على الطريق تقف سيارة الستروين القديمة كحمار صبور من كثرة الأمتعة التي حُشرت فيها . كنا قد استبدلناها بسيارة الخباز ، وقد تبرع لنا بها كوستر لقضاء عطلتنا . قلت :

- آمل أن لا تهوي بنا في الطريق .

أجابت بات :

- لن تفعل ذلك .

- وكيف لك بمعرفة ذلك ؟

- اني متأكدة من ذلك ، فهذه عطلتنا يا روبي .

- ربما ولكنني راقبت الأكس الخلفي . ان مظهرها لا يوحي بالثقة ، خاصة بعد أن أثقلنا عليها الحمل .

- ان هذه السيارة لا يمكن أن تكون إلا أختاً لكارل . لذا فلا أشك في ولائها لنا .

- صدقت القول . لا يمكن أن تكون لكارل أخت أحق منها .

- دعك من هذا المزاح يا روبي . انني أعلنها الآن كأجمل سيارة رأيتها في حياتي .

استلقينا في العراء جنباً الى جنب . هبت علينا ريح لطيفة دافئة من الغابة المجاورة حاملة بين طياتها رائحة الصنوبر والاعشاب . سألتني بات بعد لحظة :

- قل لي يا روبي . ما نوع تلك الأزهار التي على حافة الجدول ؟

أجبتها دون الالتفات إلى المكان الذي أشارت إليه :

- شقائق النعمان .

- لكن يا عزيزي . انها ليست شقائق النعمان ، فشقائق النعمان أصغر منها حجماً

ولا تزهر إلا في الربيع .

- صحيح . إذن فهي عشبة الغابة البيضاء .

- لكنها ليست بيضاء بل حمراء .

- إذن فهي لا أعرفها . في السابق عندما كنت أسأل عن أنواع الأزهار

كانت تكفيني هذه الأسماء .

ضحكت :

- لو عرفت ذلك مسبقاً لقلت شقائق النعمان . ولكن أصدقني القول : هل كنت

تسأل أسئلة كثيرة من هذا النوع .

- ليس بهذه الكثرة وفي مناسبات غير هذه .

- من المؤسف حقاً أن تدوس على الأرض ولا تعرف شيئاً عنها .

- لا تشغلي بالك بهذا ، فهناك سؤال أكثر أهمية . لماذا نعيش على هذه الأرض ؟

وعند طرح سؤال كهذا تضحك معرفة أسماء أبناء الأرض .

- ان السبب وراء ما تقول هو الكسل فقط .

استدرت إليها :

- بالطبع ، ولكن من المؤسف أن الغالبية لم تفكر يوماً بجديّة بالكسل . الكسل

يا عزيزتي منبع كل سعادة ونهاية كل فلسفة . تعالي واستلقي إلى جانبي . فالاستلقاء

بعيد الانسجام بين جسد الانسان وروحه . ولكن غالبية البشر مع الأسف لا تعي

كل هذه الأمور .

مرت سيارة مسرعة من أمامنا . قلت دون أن ألتفت إليها :

- انها مرسيدس صغيرة ذات أربعة محركات .

تابعت بات :

- هناك سيارة أخرى قادمة ، اسمعها .

- إنني اسمعها . رينو . هل مقدمتها تشبه وجه خنزير ؟

- نعم .

- إذن فهي رينو بلا شك ولكن إصغي فأنا أسمع الآن من بعيد صرير سيارة

حقيقية . انها لانسيا وسوف تتجاوز السيارتين السابقتين . إصغي إلى صوت محركها

فهو أشبه بصوت الدروع .

مرت السيارة بسرعة خاطفة .

- ان معلوماتك في هذا المجال أكثر منها في مجال الأزهار اليس كذلك ؟

- بالطبع فانت شاهدة على ذلك .

ضحكت :

- هل ما قلته محزناً أم مضحكاً ؟

- إن ما قلته ليس محزناً ، بل واقعاً . إنني أفضل في الغالب سيارة جيدة على عشرين حقل غني بالازهار .

- إنك ابن صميم للقرن العشرين ولا مكان للشاعرية في نفسك .

- بل ، فحبي للسيارات ضرب من ضروب الشاعرية .

نظرت إليّ ملياً ثم قالت :

- وأنا أشاركك الرأي أيضاً .

* * * *

بدأ عصفور يغرد من أعالي إحدى الأشجار وشرعت بات تحصي عدد أغاريد ، سألتها :

- لماذا تحصين هذه الأغاريد ؟

- ألا تعرف ذلك حقيقة . إن عدد نداءاته تعني لمن يحصيها عدد السنين التي سيعيشها .

- أما أنا فأعرف تفسيراً آخر . يقولون انه عند سماعك صياح عصفور ، عليك أن تخرج النقود من جييبك وتحركها جيداً فتزداد ، وهذا ما سأفعله الآن .

- هكذا أنت دائماً . فأنا أسمى وراء الحياة وانت وراء المال .

- الحياة بحاجة لمثالية ، والمثالية تسعى وراء المال ، والمال يعني الحرية والحرية هي الحياة .

- كان ذلك في أحد الأوقات المظلمة التي مررت بها . على المرء ان لا يتحدث عن

المال بسخرية ، فالمال يجعل من معظم النساء عاشقات ، بينما الحب بالمقابل يجعل من الرجال بشراً لاهئين وراء المال . إذن : المال ينشط المثل ، بينما الحب بالمقابل ينشط المادة .

- حظك جيداً هذا اليوم ، خمسة وثلاثون لحسابك .

تابعت قائلاً :

- الرجل يلهث بشراهة وراء المال من أجل تحقيق رغبات المرأة . لو لم تكن

المادة ، لما وجد المال ، ولأصبح الرجال ابطالاً . في الخنادق ، لم تكن هناك نساء

ولم تكن للمادة قيمة تذكر . فقط الرجولة هي التي كانت تحدد قيمة الانسان . إن ما

أقوله لا يعني تأييداً للخنادق ، ولكنه مثال يساعد على إنارة مفهوم الحب . فالحب

ينبه الغرائز السيئة في الانسان ، النزعة للامتلاك ، للتظاهر ، للكسب وللراحة . ان هذا ما يعلل رغبة الدكتاتوريين في حث أذناهم على الزواج . فعندما يتزوجون يصبحون أقل خطورة وهذه المقولة أيضاً تعلق عدم زواج الرهبان . فلولا ذلك لما كانوا مبشرين حاذقين .

- ألم أقل لك ان هذا اليوم هو يوم سعد لك ؟

قالت بات ذلك وتخطت الاثني والخمسين سنة .

اعدت النقود الى جيبي واشعلت سيجارة . سألتها :

- الاتنين التوقف عن العد ، انك ستتجاوزين السبعين سنة عما قليل .

- مئة يا روبي . المئة عدد عظيم ، كم أود الوصول إليه .

- احترامي . انها شجاعة كبيرة منك . ولكن ماذا ستفعلن بمئة عام من الحياة .

رمقتني بنظرة خاطفة :

- هذا ما سأجيب عليه بعد مرور المئة عام ، ولكن حتماً سيكون رأيي مختلفاً عن

رأيك .

- بكل تأكيد . يقولون ان السبعين الأولى هي الأصعب وبعدها تسهل الحياة .

- مئة . . .

هتفت بات ، وبعدها تابعنا سيرنا .

* * * *

استقبلنا البحر وكأنه شراع فضي عملاق . بدأنا من بعيد نشم رائحة أنفاسه المالحة . ازداد الافق ضياءً واتساعاً ، وفجأة استلقى البحر أمامنا هائجاً عظيماً ، ولا نهائياً .

كانت الطريق جميلة تنتهي إلى البحر ، تحيط بجانبها غابة تقبع خلفها قرية هادئة منفردة . سألتنا عن البيت الذي حصلنا على عنوانه من كوستر الذي كان على علم بمدخل القرية وبيوتها . فقد أمضى فيها سنة كاملة أثناء الحرب . كان البيت صغيراً ووحيداً ويبعد قليلاً عن القرية . ضغطت على بوق السيارة فلاح من وراء ستائر إحدى النوافذ وجه شاحب عريض حلق فينا لفترة ثم اختفى . قلت :

- أمل أن لا يكون هذا وجه الأنسة ميللر .

أجابت بات :

- لا يهم شكلها .

فتح الباب . الحمد لله فلم يكن ذلك الوجه للآنسة ميللر ، بل لخادمتها . ثم ظهرت الآنسة ميللر ، صاحبة النزول بعد دقائق من وصولنا وأحسنت استقبالنا . كانت آنسة متقدمة في العمر . صغيرة الجسم ، رمادية الشعر ، ترتدي ثوباً أسود كالراهبات زينته بصليب من الذهب على صدرها .
- ارتدي جواربك يا بات .

قلت ذلك هامساً من باب الحرص بعد ان رأيت ذلك الثوب الاسود والصليب .
ثم خاطبت الآنسة :

- اعتقد ان السيد كوستر حجز لنا غرفة في نزلك .

- نعم ، لقد أبرق لي عن قدومكما .

ونظرت إليّ بعينين متفحصتين ثم تابعت :

- ما أحوال السيد كوستر ؟

- لا بأس ، إن صح التعبير في مثل هذه الأيام .

أحنت رأسها وتابعت نظرتها الفاحصة :

- هل تعرفه منذ مدة طويلة ؟

- نعم .

وشعرت انني أمام ممتحن قدير . سردت لها تاريخ صداقتنا الطويلة ، فبدت علائم الرضى تسيطر على قسامت وجهها المتغضنة . انضمت بات اليينا في الحال شعرت بأنها راقت في أعين راهبة المنزل وتأكدت من انها ستنعم برحمتها اكثر مني .
سألتها :

- هل هناك غرفة خالية لنا ؟

- برقية السيد كوستر تعني لي الالتزام .

ردت الآنسة ميللر على قولي ورمقتني بنظرة فيها كثير من الازدراء .

- أما أنت فستكون تحت تصرفك أجمل غرفة في المنزل .

ابتسمت بات وردت الآنسة على ابتسامتها بالمثل .

- هل ترغبين في رؤيتها ؟

- نعم .

ومضت الاثنتان عن طريق الحديقة الضيق الى الغرفة ولحقت بهما متسكعاً ، ومشيت وراءهما بهدوء ، حيث لم يكن لوجودي معها أية أهمية ، فكل الكلام موجه لبات .

كانت الغرفة في الطابق الأرضي واسعة ، مشرقة ، مضيئة ، فيها سريران ، ولها مدخل خاص .

سألتنا الأنسة :

- ما رأيكما ؟

أجابت بات :

- إنها جميلة ، لابل رائعة .

تابعت أنا المديح آملاً في كسب عطف الأنسة .

- ولكن أين الغرفة الثانية ؟

استدارت الأنسة إلى ناحيتي رويداً .

- الغرفة الثانية ؟ ماذا تعني بالغرفة الثانية ؟ هل تريد حقاً غير هذه الغرفة ؟ ألم

تعجبك ؟

- انها رائعة ، ولكن .

- لكن ماذا ؟

سألني الأنسة بلهجة حادة ثم تابعت :

- للأسف ، ولكن لا توجد غرفة ثانية في هذا البيت لها هذه المواصفات .

حاولت أن أوضح لها اننا نعتزم استئجار غرفتين منفردتين ولكنها أكملت

حديثها :

- الغرفة اعجبت زوجتك .

زوجتك !؟ شعرت أنني قفزت قفزة طويلة إلى الوراء بالرغم من انني لم أتحرك

في الحقيقة من مكاني .

نظرت إلى بات بحذر وقد كانت تقف مستندة إلى النافذة تحاول كبت ضحكتها

عندما رأني على تلك الحال .

- بالتأكيد - زوجتي -

وتسمرت نظراتي على ذلك الصليب الذهبي الذي يتوسط صدر هذه العانس ،

وبات أكيداً أن قول الحقيقة سوف يرمي بأنستنا في غيبوبة طويلة .

- الحقيقة هي اننا اعتدنا منذ زواجنا النوم في غرف مستقلة هي في غرفتها وأنا في

غرفتي .

عبرت الأنسة عن عدم رضاها بهزة رأس وقالت :
- غرفتنا نوم لشخصين متزوجين . لا بد وانها تقليعة جديدة .
- ليس الأمر كما تظنين .

حاولت الرد عليها للخروج من هذا المأزق وتابعت :
- الأمر في غاية البساطة : زوجتي حساسة جداً ونومها بالتالي قلق ، بينما أنا أشخر كثيراً في الليل ، الأمر الذي اضطرنا الى هذا الحل .
- هكذا إذن ، فانت تشخر .

أجابت الأنسة بهدوء وكأنها تلوم نفسها على الدخول معنا في حياتنا الخاصة .

خفت نتيجة للحديث أن تعطيني غرفة في الطابق العلوي . ولكن ظهر لي بأن الأنسة تنظر الى الزواج كمؤسسة مقدسة . فتحت الأنسة باباً جانبياً يؤدي إلى غرفة صغيرة مجاورة ، لا يوجد فيها سوى سرير واحد .
- رائع . قلت لها :

- إنها تفي بالغرض . ولكنني كنت آمل أن لا أكون قد تسببت في إزعاج أحد .؟

طرحت سؤالاً هذا رغبة مني في التأكد من عدم وجود نزلاء آخرين في الطابق السفلي .
- لن تززع أحداً .

أجابت الأنسة وكأنها نفضت عن نفسها كثيراً من وقارها ثم تابعت :
- لا أحد غيركم يقطن هذا الطابق ، فالغرف الأخرى ما زالت خالية في هذا الوقت .

وقفت فترة صامته ثم عادت لطبيعتها الصارمة :
- هل ترغبون في تناول الطعام في الصالة مع بقية النزلاء أم تفضلونه في الغرفة ؟
أجبتها :
- في الغرفة .

حنت رأسها وخرجت .

- والآن ما رأيك يا سيدة لوكامب في هذه الورطة ؟

خانتني الشجاعة في توضيح هذه الملابس لذلك الشيطان الكنيسي وقد شعرت انه يحمل لي عداً خاصاً . غريب أمرها ، فلقد كنت دائماً أستحوذ على إعجاب

السيدات المتقدّمات في السن من أمثالها .

- انها ليست امرأة عجوز ياروبي . إنها أنسة متقدّمة في السن وغاية في اللطف .

- لطف ؟ إنني لا أفكر انها رصينة . ألم تلحظي انها مرتدية كامل ثيابها الرسمية

رغم عدم وجود نزلاء غيرنا في المنزل ؟

- لا أظنها بتلك الصرامة .

- بالنسبة لي ، بالطبع لا .

ضحكت :

- والآن دعنا ندخل حقائبنا ونخرج لباس البحر .

* * * *

سبحت مدة ساعة تقريباً ، ثم استلقيت على الشاطئ أستقبل أشعة الشمس الذهبية بينما ظلت بات تسبح في خضم هذا اليم الأزرق . كنت أقرب قبعتها المطاطية البيضاء ، تظهر تارة وتختفي تارة أخرى وعلى مدى نظري خلف جبال الموج المتدفق لاحت في الافق البعيد باخرة كبيرة تنفث دخانها في الفضاء وكأنه علم أسود . عاودتني الذكريات وأنا مستلقٍ مشلول الاطراف ملتصقاً بالرمل الدافئ ، أستمع الى صرير ذراته الناعمة تندرج من حولي بانسياب ونعومة ممتزجة مع صدى أصوات بعيدة . نعم أعادتني إلى يوم مشمس كهذا اليوم وإلى رمل كمثل هذا الرمل . كان ذلك في صيف ١٩١٧ حيث كانت كتيبتنا تقاتل في مقاطعة فلاندرن وقد حصلنا على إجازة لمدة ثلاثة أيام . فاتجهت الى البحر مع مايير وبرابر وفوتغنز وآخرين . وكان البحر بأسراره مجهولاً بالنسبة للجميع .

اصبحت تلك الايام بالنسبة لنا استراحة قصيرة بين موت وموت . فنعمنا بهذه المتعة القصيرة لاهين عن ثيابنا الحربية الصفراء وامتشاق السلاح الدائم . كنا نستلقي عراة على الشاطئ وننعم بلذة العري . فالعراء يجسد السلام ويبعث الطمأنينة التي حرمننا منها من زمن طويل . كنا نقذف باجسامنا باندفاع على أمواج البحر ، لنشعر بتدفق الحياة في أطرافنا ، وفي أنفاسنا وتنبعث الحركة القوية الكامنة والمتأججة فينا ، ناسين أو متناسين في النهار ساحات الحرب البشعة . ولكن الفرحة لا تلبث أن تتلاشى حين ينشر الليل ظلاله ، ويصبح صوت الامواج كأصوات المدافع البعيدة . عندها يتسرب الخوف والقلق الى نفوسنا ويخيم الصمت على احاديثنا وتستحيل وجوهنا من وجوه صبية فرحة الى وجوه جند واجمة ، أحالها الحزن ، الشجاعة ، المرارة للهاث وراء الواجب ، حب الحياة والضياع والأمل الى

وجوه هرمة وهي في ربيع حياتها .

بعد قضاء الاجازة بعدة أيام بدأ الهجوم المعاكس في الثالث من حزيران وأبيدت
الكتيبة ولم ينج منها سوى اثنين وثلاثين رجلاً . لقد استشهد جميع الرفاق .
- روبي .

نادت بات . فتحت عيني وأفقت من هذا الحلم المزعج . لقد اختلطت عليّ
الأمور ، فلم أعد أعني أين مكاني الحقيقي ، هل أنا في الجبهة أم في عطله مع بات .
تلك هي ذكريات الحرب المؤلمة تلاحقك أينما كنت وتنتزعك من مكانك ، لتحلّق
بك في أجواء اللامتتهى ، بعكس الذكريات العابرة تستفيق للحظة ثم تختفي
حالا ، كتمثال من البرونز تحت أشعة الشمس الصيفية ، تكبر كلما خطت خطوة
نحوي . قفزت من مكاني مندهشاً ، لم يعد هذا المنظر مألوفاً لنا نحن سكان
الارض ، فالسواء الزرقاء الواسعة ، وزبد البحر الابيض وجسم طويل نحيل من
البرونز يقف أمام البحر بجبروت تحيطه هالة من النور المشع ، لا بد وأن يكون من
عالم آخر غير عالمنا . شعرت في تلك اللحظة بأنني الوحيد في هذا العالم ، املك
كل شيء ولا يشاركني فيه مخلوق آخر ، وها هي امرأة تخرج من البحر لتلقاني .

لقد طرد هذا الجمال المنطبع في حدقتي كل الذكريات الدموية المرعبة ولم أعد أذكر
هول الحرب ، فالاحساس بالجمال يعطيك قوة لا تقف في وجهها اشباح الماضي
المظلمة . ليت هذه القوى هي الوحيدة التي تسيطر على هذا العالم ، لكانت حرتنا
من الخوف وحمطنا من الضياع . لأول مرة في حياتي شعرت بأنني موجود حقاً وان بات
موجودة وان لي عيني ويدين وأفكار وأهواء ودماء تسري مرعدة متدفقة في عروقي .
أه ما أجمل الحب وما أجمل الاحساس بالجمال .
- روبي .

نادتني بات للمرة الثانية ولوحت لي بيدها . تناولت ثوبها الملقى على الرمل
واسرعت اليها .
- لقد أطلت البقاء في الماء .

أجابت لاهثة :

- انني اشعر بالدفع .

قبّلت كتفها المبتل :

- عليك في البداية ان لا تجهدي نفسك كثيراً ، وان تكوني عاقلة .

- كنت عاقلة لفترة طويلة جداً .

هكذا ؟

- بالطبع ولمدة طويلة جداً . لذا أود أن أحسبه قليلاً .

ضحكت واقتربت مني فلامس خدها وجهي .

- دعنا نترك التعقل جانباً ياروبي ، دعنا نترك التفكير في أي أمر . دعنا نرى

أنفسنا فقط ، أنفسنا والشمس والبحر .

- حسناً !

قلت بينما تناولت المشقة :

- اخبريني يا بات ، من أين لك هذا اللون البرونزي الجميل ؟

- ان هذا اللون حصيلة زمن التعقل الذي مررت به . كان عليّ أن اجلس يوماً

على الشرفة لمدة ساعة تحت أشعة الشمس . سأعود الى البحر ثانية في الساعة الثامنة

مساء .

- سنرى ، ان الانسان عظيم في التخطيط وضعيف في التنفيذ وهنا تكمن

إنسانيته .

* * * *

لم تذهب بات الى البحر مساء كما خططت . قمنا بجولة قصيرة في القرية وبعدها

ركبنا السيارة وانطلقنا نحو الأماكن القريبة منها . فجأة بدا التعب الشديد على بات

وايدت رغبتها في الرجوع إلى المنزل . لقد تكرر هذا التحول الفجائي مراراً ومراراً

عند بات من حيوية متقدة الى عناء شديد في الآونة الأخيرة . كانت تنقصها القوة

الكافية على متابعة الجهد بالرغم من مظهرها الحيوي . انها مقامرة عنيدة ، تبدد في

ساعات كل قوتها وتلعب بكل رصيدها فتبدو كنهز حيوي فتي ، لا ينضب ولكن بعد

فترة تأتي لحظة التحول الفجائي ، فينضب النهر وهكذا يتحول ذلك الوجه النابض

بالحيوية الى وجه شاحب أصفر وتغور عيناه في زرقة داكنة .

- دعنا نعود إلى البيت يا روبي .

قالتها باصرار شديد وبصوت عميق .

- إلى المنزل وإلى الأنسة الفريدة ميللر ، صاحبة الصليب الذهبي الكبير . إن الله

وحده يعلم ماذا يجبئه لنا هذا الشيطان .

أجابت :

- إلى المنزل يا روبي . وحتت رأسها المتعب على كتفي وتابعت .

- انه منزلنا .

رفعت ذراعي عن المقود وأحطتها بها ، وهكذا مرت السيارة بهدوء عبر الغسق الضبابي الأزرق .

عندما وصلنا أمام ذلك المنزل الصغير بنوافذه المضيئة شعرت وكأنني وصلت إلى منزلي الحقيقي . كانت الأنسة ميللر في انتظارنا وقد استبدلت ثوبها الصوفي الأسود بثوب أسود من الحرير واستبدلت الصليب بقلادة عنق تحتضن قلباً وصليباً ومرساة في آن واحد : الرمز الكنسي للإيمان والامل والمحبة .

بدت أطف بكثير من بعد ظهر ذلك اليوم وسألتنا ان كنا نوافق على تناول البيض واللحم البارد والسمك المدخن للعشاء .

أجبتها :

- لم لا .

- الا يعجبك . انه سمك طارج .

راحت تنظر إليّ بشيء من الارتياب .

أجبتها ببرود :

- بالتأكيد يعجبني .

- انني مغرمة بمذاق السمك الطازج المدخن .

قالت بات ذلك ورمتي بنظرة لوم ثم تابعت :

- انه بلا شك الطعام المناسب لليلة الاولى على البحر . ولكن هل هناك مانع من

تقديم فنجان شاي ساخن مع الطعام ؟

- بكل سرور . فنجان شاي ساخن جداً . سوف أرسل العشاء على الفور .

خرجت الأنسة بسرعة وكمن استراح من عبء ثقيل .

سألت بات :

- ألا تحب أكل السمك ؟

- كيف لا وأنا أحلم بذلك من منذ عدة أيام .

- ولماذا تتصرف بتعال هكذا ؟ انها لوقاحة كبيرة منك .

- كان علي أن أسدد لها حساب بعد ظهر ذلك اليوم .

- يا الهي . انك لا تنسى شيئاً . أما أنا فقد نسيت كل ما حدث .

- هذا هو الفرق بيننا . انني لا أنسى بهذه السرعة .

- ولكن عليك ان تباشر بترويض نفسك .

دخلت الخادمة تحمل صينية العشاء المؤلف من اللحم البارد والسّمك المدخن .
كان منظره يثير الشهية .
- ها أنا قد بدأت بالنسيان وطويت صفحة الاحقاد .
قلت ذلك ناظراً إلى ذلك الطبق الشهّي ثم تابعت :
- انني أشعر بجوع كبير ينهش أحشائي .
- وأنا أيضاً ، ولكنني سأشرب في البدء فنجان الشاي فأنا أشعر برعشة في أوصالي
رغم دفء الطقس .

نظرت إليها ورأيت شحوبها رغم ابتسامتها .
- لن أسمح لك بالتكلم عن السباحة ولو بكلمة واحدة ، ولفترة طويلة .

ثم سألت الخادمة :

- هل يوجد عندكم روم ؟

- ماذا ؟

- روم . انها خمر بيضاء معبأة في زجاجات .

- روم ؟

- نعم .

- لا .

حملت بي بعينين جامدتين قابعتين في وجهه وكأنه قمر مصنوع من عجين
الkekك .
- لا .

قالت ذلك للمرة الثانية .

- لا بأس ، فأنا سأتدبر الأمر . الوداع . إذهبي على بركة الله .

خرجت بتؤدة وأغلقت الباب وراءها .

- من حظنا يا بات أن اصدقاءنا يفكرون بكل شيء . لقد وضع لينس صباح اليوم
صندوقاً ثقيلاً في السيارة . دعينا نرى ما بداخله .

أخرجت الصندوق من السيارة . كان صندوقاً صغيراً يحتوي على زجاجتي روم ،
وزجاجة كونياك وزجاجة نبيذ أحمر .

صاحت بات :

- انه روم ماركة سانت جيمس . يا لهم من شباب رائعين .

فتحت الزجاجه وصبت كمية كبيرة منه في فنجان الشاي ، لاحظت يدها ترتجف ، سألتها :

- هل تشعرين بالبرد هنا ؟

- لفترة قصيرة جداً فقط . أما الآن فأنا أشعر بتحسن . انه الروم ، عظيم ولكنني سأوي إلى الفراش باكراً .

- عليك ان تباشري ذلك في الحال .

ذهبت إلى غرفتي وأحضرت لها غطاء آخر .

- هل ترغيبين بكأس أخرى من الروم والشاي ؟

- لا حاجة لذلك فأنا أشعر بتحسن .

نظرت إليها . لقد تحسن وضعها حقيقة . فقد استعادت عيناها بريقها المعتاد وأصبح فمها وردياً بينما غطى بشرتها صفاء غريب .

- انه رائع حقاً هذا الروم . فلقد أسرع في تحسين وضعك .

ابتسمت :

- ولاتنسّ الفراش يا روبي ، فأنا أتعافى فيه بسرعة . انه ملاذي الوحيد في مثل

هذه الحالات .

- غريب . أما أنا فيتأبني الجنون لو آويت مبكراً الى الفراش، أعني عندما أكون

بمفردى .

ضحكت :

- أما بالنسبة للنساء فالأمر مختلف تماماً .

- لا تقولي هذا فأنت لست امرأة .

- ماذا اذن ؟

- لا أدري . ولكنك لست امرأة عادية . لو كنت كذلك لما أحببتك .

نظرت الي :

- هل تستطيع أن تحب حقاً ؟

- انه سؤال مخرج وخاصة على العشاء . هل عندك اسئلة كثيرة من هذا النوع ؟

- ربما ، ولكن أجبني أولاً على سؤالتي .

سكبت لنفسي كأساً من الروم .

- بصحتك يا بات . ربما كنت على حق ، فنحن جميعاً لا نعرف الحب الحقيقي

ولا نستطيع الوصول اليه . لقد تبدلت الظروف والرؤيا ولكن هذا لا يعني أنها قد

ساءت ، ولكنها تغيرت عن ذي قبل وهذا ينطبق على الحب ايضاً .

قرع الباب ودخلت الأنسة ميللر ويدها صينية صغيرة عليها ابريق زجاجي فيه كمية ضئيلة من سائل وقدحان .
- ها هو الروم الذي طلبته .
- شكراً لك .

ونظرت بحنان الى القدحين اللذين لا يتجاوز حجمهما حجم الكشتبان ثم تابعت قولي :

- شكراً لك ولكننا وجدنا ضالتنا .
- يا الهي .

ونظرت بخوف إلى الزجاجات الأربع المصفوفة على المنضدة .
- هل تشرب كميات كبيرة كهذه ؟
- للعلاج فقط .

أجبتها بلطف زائد متجاهلاً نظرات بات .
- انه علاج وصفه لي الطبيب ، فانا أشكو من جفاف في الكبد ، ولكن الا تشاركينا يا أنستي كأساً منه ؟ .

فتحت زجاجة النبيذ الأحمر وملأت لها كأساً .
- لنشرب نخب نزلك آملين ان يعج عما قريب بالزائرين .
- شكراً لمشاعرك .

تنهدت ، وبعد انحناء صغيرة ، أخذت ترشف من الكأس رشفات صغيرة كالعصفور .

- لنشرب نخب عطلتكم .

ثم نظرت إلي نظري حادة وتابعت :

- ان هذا النبيذ حاد جداً ولكنه جيد .

كادت الكأس تسقط من يدي من جراء هذا التصرف المفاجيء المغاير لطبيعتها .
التمعت عينها وتوردت وجنتاها وتحذت فتطوقت الى شتى المواضيع التي لا تعيننا .

أما بات فكانت كعادتها تلتزم بصبر الملائكة في مثل هذه المواقف . بعدها التفتت
الآنسة إلي وسألتني :

- يبدو من حديثك أن وضع السيد كوستر على ما يرام .

حنيت رأسي مؤكداً . أما هي فتابعت حديثها :
- كان السيد كوستر هادئاً جداً ، تمضي عليه في بعض الاحيان ايام دون ان ينبث
بينت شفة . هل ما زال هكذا ؟ .

- في أغلب الاحيان ، ولكنه في بعض الاحيان يتكلم برغبة .
- لقد أمضى هنا قرابة السنة . كان وحيداً في الغالب .
- نعم ففي الوحدة يقل الكلام .

هزت رأسها بجدية .

- لا شك انكم متعبون .

أجابت بات :

- قليلاً .

- جداً .

اتممت الرد

- إذن عليّ أن أترككم الآن .

اجابت بشيء من الرعب :

- ليلة سعيدة ولتعموا بنوم هادىء .

ثم خرجت ببطء وكأنها مترددة .

- أظن انها كانت تود المكوث اكثر معنا . اليس غريباً هذا التبدل المفاجىء في

تصرفها ؟

أجابت بات :

- انها بلا شك امرأة مسكينة ، تمضي الليالي وحيدة في غرفتها وتفكر في مشاكلها

على ما أعتقد .

- انك بلا شك محقة في كلامك ، ولكن قولي لي الآن ، ألم أكن لطيفاً جداً معها

هذا المساء ؟

ربتت على يدي .

- لقد كنت لطيفاً حقاً ، ولكن هل تستطيع ان تكون لطيفاً معي وتفتح الباب يا

روبي .

فتحت الباب ، كان الجو في الخارج قد ازداد صفاء ، بينما أضواء شريط من شعاع

القمر طريق الحديقة الضيق . أحسست أن الحديقة كانت تنتظر فتح الباب لتملاً

غرفتنا بأريج الورد الليلي .

- انظري .

قلت لبات وأشرت الى الحديقة .

بدا الورد المستلقي على سور الحديقة تحت ضوء البدر كعاشق يضم حبيبته .
وبدت أوراقه كالفضة المتأكسدة ، وخطف البدر الوانها فاستحالت إلى أشباح بألوان
خافتة بعد أن تزهو في النهار بحلل ملونة صاخبة . سرق الليل صخب اللون ولكنه
بالمقابل أفسح المجال لأريج عطرها . فالازهار في النهار متعة للعين وفي الليل متعة
للشم .

نظرت إلى بات وهي مستقلة في فراشها كقطعة من الزجاج الشفاف الهش . لم
تكن عندها قوة كبيرة ولكن في داخلها كان يكمن سر خفي كسر ذلك الورد المستلقي
تحت ضوء القمر . رفعت رأسها قليلاً وقالت :

- انني متعبة جداً يا روبي وأريد أن أنام : هل يزعجك هذا كثيراً يا روبي ؟

جلست إلى جانبها على حافة السرير .

- لا يا عزيزتي ، حاولي أن تنامي .

- ولكنك ما زلت متيقظاً ولا تريد النوم .

- سأتمشي قليلاً على الشاطيء .

وافقت بإيماءة من رأسها وأعادته الى الوسادة . فجلست الى جانبها فترة .

- دع الباب مفتوحاً فإنه يعطيني احساساً وكأنني أنام في الحديقة . قالت ذلك

كالكسرى من شدة النعاس .

بدأت تتنفس بعمق . نهضت بحذر وخرجت الى الحديقة . اتكأت على سياجها
الخشبي وأشعلت سيجارة . كنت أستطيع رؤية بات والاشياء بوضوح من مكاني ،
ثوب البحر معلق على حافة المقعد وقد وضعت فوقه بعض الالبسة الداخلية . على
الارض أمام المقعد يبدو حذاؤها . أحسست فجأة بشعور غريب ، بالوطن . رأيت
الوطن في هذه الأشياء وتيقنت معه أنه انسان قابع بالقرب مني أستطيع الوصول اليه
ورؤيته . وأنه على بعد خطوات قليلة فقط . انه بجانبني اليوم ، وغداً ولزمن
طويل ، ربما . . . ربما - فكرت باستمرار بهذه الكلمة ولكنني لم أصل الى حل
لغزها . انها الثقة التي تنقصني ، الثقة التي تنقصنا جميعاً . مشيت الى الشاطيء
باتجاه البحر ، تلفحني الريح ويلطم أذني رذاذ الموج المتكسر على الصخور كصدى
أصوات المدافع البعيدة .

جلست على الشاطئ وحيداً ، أرقب غروب الشمس ، بينما كانت بات في غرفتها
طريجة الفراش . غابت الشمس وبدأ الظلام ينشر ملاءته السوداء على الوجود .
نهضت متوجهاً الى المنزل ، وفجأة سمعت صدى صوت بعيد . التفت لأرى شبح
الخادمة من خلف الاشجار تركض نحوي وتلوح لي بيدها مستغيثة ، ولكن صوت
الريح والبحر امتص النداء وتركه صدى متقطعاً لا يفهم .

لوحث لها مشيراً أن تبقى في مكانها ريثما أصل اليها . عندها سمعت بعض ما
كانت تقول : السيدة ، بسرعة . عدوت مسرعاً :
- ما الأمر ؟

قالت لاهثة :

- بسرعة . . . السيدة . . . مصيبة .

انطلقت كالبرق مخترقاً الطريق الرمي عبر الغابة . لم أستطع فتح باب الحديقة
الحديد ، فقفزت من فوقه ودخلت الغرفة لاهثاً . رأيت بات عمدة على السرير بصدر
مغطى بالدم . كانت يداها متشنجتين ، والدم ما يزال يتدفق من فمها . وقفت الى
جانبها الانسة ميللر تحمل بيديها مناشف ووعاء ماء .
- ما الأمر ؟

صحت بها وأزحتها جانباً . تمتت بشيء لم أفهمه ، صحت بها :
- أسرع احضري الضماد ، أين الجرح ؟

نظرت الي وراحت شفتها ترتجفان .
- ليس هناك جرح .

رفعت رأسي . قالت :

- انه نزيف دموي .

للمحظة شعرت وكأن مطرقة هوت على رأسي .

- نزييف دموي؟

قفزت من مكاني وانتزعت منها وعاء الماء :

- احضري ثلجاً . . بسرعة .

بللت المنشفة بالماء ووضعتها على صدر بات .

أجابت الأنسة ميللر :

- ولكن لا يوجد لدينا ثلج في المنزل .

استدردت نحوها وقد اعتراني الغضب :

- احضري ثلجاً بحق السماء . أرسلني أحداً الى الحانة القريبة واتصلي بالطبيب .

- لا يوجد عندنا هاتف .

- اللعنة . أين يوجد أقرب هاتف من هنا؟

- عند عائلة ماسان .

- اجري الى هناك بسرعة واطلبي الطبيب . ما اسمه؟ اين يقطن؟

ولكنها ، وقبل أن تجيب كنت قد أخرجتها من الغرفة .

- هيا بسرعة . اجري بسرعة . هل المكان بعيد من هنا؟

- ثلاث دقائق .

أجابت المرأة وأسرعت جارية .

- احضري معك بعض الثلج .

أحضرت وعاء ماء جديد وعدت أبلل المنشفة بالماء . لم أجرؤ على لمس بات

واحترت : هل أبقى الوسادة تحت رأسها أو أزيجها؟ تنفست بحسرة ثم انحنت الى

الامام واندفع الدم يدفق من فمها ثانياً . أخذت تنفس بصعوبة وألم بينا غطى

عينها فزع لا انساني . غصت وسعلت وعاد الدم يتدفق مجدداً من فمها . أمسكتها

بصلابة وأخذت أرفع يدي من تحت ظهرها خائفاً أن يخطفها ذلك النزييف مني .

عندما شعرت بارتجاف ظهرها المعذب . . شعرت بأن الوقت قد طال ليتمدد الى

الأبد . نظرت الي كالشيخ ثم هوت واهتة على الوسادة . في تلك اللحظة دخلت

الآنسة ميللر الغرفة . صحت :

- ما عسانا نفعل؟

- سيأتي الطبيب في الحال . ضع بعض الثلج على صدرها وان أمكن ضع بعضه

في فمها .

- وماذا بالنسبة لرأسها هل أرفعه أم أبقيه مستلقياً؟ هيا تكلمي . . يا لللعنة . .

- دعها كما هي ، انه لا يلبث أن يأتي .

وضعت قطعاً من الثلج على صدر بات وفي الحال شعرت ببعض الامل لانني استطعت عمل شيء . ثم كسرت بعض قطع الثلج واخذت اضعتها في فمها . لم أعد أرى في العالم سوى ذلك الفم الحبيب المتشنج من شدة الألم . لم أرسو هذا الفم الوحيد ، هذا الفم الدامي . سمعنا صلصلة عجلات دراجة ، قفزت من مكاني .
- انه الطيب .

سألته :

- هل استطيع عمل أي شيء ؟

هز برأسه وفتح حقيبته ، وقفت ملتصقاً به تقريباً الى جانب السرير وقد تشابكت يداي بشدة . رفع إلي نظره . تراجعت خطوة الى الخلف وحدقت به . أخذ يفحص صدر بات بدقة بينما راحت هي تتأوه . سألته :

- هل حالتها خطيرة ؟

رد علي بسؤال آخر :

- اين كانت زوجتك تعالج ؟

أجبتة متلعثماً .

- ماذا ؟ تعالج ؟

سألني بضيق :

- ما اسم الطيب الذي كانت تتعالج عنده ؟

- لا أدري ، لا ، لست أدري شيئاً . هل هذا ممكن ؟

حملق بي :

- ولكنك يجب أن تعلم أين ؟

- ولكنني لا أعلم شيئاً . انها لم تبح لي في يوم من الايام عن مثل هذه الأمور الخطيرة .

انحنى على بات وسألها . حاولت الاجابة ولكن الدم الاحمر عاد يتدفق من فمها . أمسك بها الطيب بينما راحت تنشق الهواء بمشقة وجهه .
- جأفه . لفظت الاسم وكأنه الحشرة .

سألها الطيب :

- فيلكس جافه ؟ البروفيسور ؟

اغمضت عينها موافقة . استدار إلي :

- هل تستطيع مخابرة ؟ من الأفضل الرجوع اليه .

- نعم ، نعم ، سأقوم بذلك في الحال ، سوف احضره . جافه .

- فيلكس جافه ، اطلب رقم هاتفه من الاستعلامات .

سألته :

- هل ستجتاز هذه المحنة ؟

- علينا ان نوقف النزيف أولاً .

امسكت يد الفتاة وانطلقت مسرعاً عبر الطريق المؤدي الى القرية . اشارت الى

المنزل حيث يوجد الهاتف .

قرعت الباب وفي الداخل رأيت جماعة تشرب القهوة والجمعة ، اجلت نظري بهم

ولم استطع احتمال وجودهم هكذا ، يحتسون الجمعة بينما بات تنزف . طلبت مكالمة

اضطرارية ووقفت وانتظر الرد . بينما كنت أصيخ السمع عبر تلك الصدفة السوداء .

رأيت مقطعاً لتلك الغرفة المقابلة والتي علتها سحابة من دخان السجائر . رأيت

صلعة تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار فتلمع تحت الضوء ، وقطعة حلي متوهجة

على ثوب من الحرير الاخضر تعلوها تسريحة شعر وكأنها الجبل . ثم رأيت يداً

متصلبة ذات شرايين نافرة تدق على خشب الطاولة . حاولت عدم رؤيتها ولكنني

شعرت بنفسي ضعيفاً ومشدوداً الى الحملقة بهم وكأن في عيني ضوء ساطع . أخيراً

جاءني الصوت من الجانب الآخر للهاتف . سألت عن البروفيسور .

- نأسف فالبروفيسور قد خرج .

أجابت المريضة :

لفترة توقف قلبي عن الخفقان ثم عاد ليخفق بشدة وكأنه مطرقة حداد .

- أين هو اذن ؟ علي أن أكلمه في الحال .

- لا أعلم أين هو . ربما ذهب الى المستشفى .

- ارجوك حاولي الاتصال بالمستشفى حالاً وسأبقى منتظراً سماع ردك . الا يوجد

الى جانبك هاتف آخر .

- لحظة من فضلك .

وأخذت خشخشة الاسلاك تستحوذ مرة ثانية على سمعي . شعرت بأنني

ارتجف ، إلى جانبي أخذ عصفور حبيس قفص يغرد . عاد صوت المريضة عبر

- لقد غادر البروفيسور المستشفى .
- إلى أين ؟
- ولكن يا سيدي . من أين لي أن أعلم ذلك .
- انها النهاية . واتكأت على الحائط .
- الو . . . جاء صوت الممرضة من جديد .
- اما زلتم على الخط ؟
- نعم ولكن اسمعيني . هل تعرفين موعد عودته ؟
- عودته غير منتظمة في العادة .
- الا يترك عنوان تواجهه ؟ لما لا يفعل ذلك ؟ ان عمله هذا استهتار كبير .
- هناك طبيب آخر مناوب في المستشفى .
- هل تستطيعين ان . . .
- لا مبرر لذلك فهو لا يعرف شيئاً عن بات .
- ثم تابعت حديثي مع الممرضة وبدأت اشعر بتعب شديد .
- حسناً ايها الاخت . عندما يعود البروفيسور اطلبي منه ان يتصل على الفور بهذا الرقم .

- ثم تليت الرقم على مسامعها .
- ولكن ارجوك ان لا تنسي ، فالأمر في غاية الخطورة .
- لا تقلق يا سيدي .

أعدت تلاوة الرقم ثم اقبلت الساعة .

وقفت وحيداً حائراً . اصبحت الرؤوس المتحركة ، الصلعة ، قطعة الحلي والغرفة المجاورة بعيدة جداً وكأنها قطعة مطاط لامعة متأرجحة . نظرت حوالي ، لم يعد لي أي عمل هنا . لا ، عليّ أولاً أن اعلم اصحاب البيت بأنني انتظر مكالمة وعليهم اخطاري بسرعة حال وصولها .

وفجأة تنبعت الى انني ما زلت ممسكاً بشدة بساعة الهاتف . كان ترك الساعة في تلك اللحظة الرهيبة كغريق يترك حبل النجاة . وفجأة رأيت منقذاً . رفعت الساعة مرة ثانية وطلبت رقم كوستر . لا بد وانه موجود في الورشة في مثل هذا الوقت . لا سبيل لغير ذلك . لم تمضِ ثوانٍ حتى جاءني عبر الظلام الحالك صوت كوستر الهاديء . في الحال شعرت بهدوء يتباني وأخذت أروي له كل ما حدث ، شعرت

بأنه كان يدون كل ما قلته .

- حسناً سوف أنطلق الآن للبحث عنه . سأعود لأكلمك . حافظ على هدوئك ، فسأعثر عليه حتماً .

مضت . هل مضت هذه المحنة حقاً ؟ أصبح العالم من حولي ساكناً ، وانتهت ساعة الاشباح تلك . جريت عائداً الى المنزل . سألتني الطبيب :

- ماذا ؟ هل تمكنت من الاتصال به ؟

- لا ، ولكنني تكلمت مع كوستر .

- كوستر . لم أسمع بهذا الاسم من قبل . ماذا قال لك ؟ وما هي الطريقة التي يتبعها في معالجتها ؟

- معالجتها ؟ لم يعالجها قط . كوستر يحاول العثور عليه .

- من ؟

- البروفيسور .

- يا الهي . ولكن من هو كوستر هذا ؟

- آه ، معذرة ، فكوستر رفيقي وهو الآن يجوب المدينة باحثاً عن البروفيسور جافه . فانا لم اوفق في العثور عليه .

- مع الأسف .

قالها الطبيب واستدار الى بات .

- سوف يعثر عليه حتماً سيجده ايما كان ، هذا اذا لم تكن المنية قد وافته قبل ذلك .

نظر الطبيب إليّ ، كمن ينظر إلى شخص مسه الجنون .

سألته إن كان بإمكانني مساعدته ولكنه هز رأسه شاكراً .

حملت من خلال زجاج النافذة . حشجة تنفس بات كانت عالية . اغلقت النافذة ووقفت أمام الباب وأخذت أتأمل طريق الحديقة الضيق . فجأة سمعت صوتاً يناديني :

- المكالمة .

استدرت :

- المكالمة . هل اذهب ؟

- لا دعني اذهب أنا ، فربما استطعت سؤاله بالتحديد . ابق انت هنا . لست بحاجة للقيام بأي عمل فسأعود في الحال . جلست الى جانب بات على حافة.

السريـر .

- بات .

قلت لها بصوت منخفض .

- اتنا جميعاً نقف الى جانبك ونحاول مساعدتك بشتى الوسائل، لا تخافي فالطبيب يتحدث في هذه الدقيقة الى البروفيسور ليسأله التعليقات الضرورية . أما في الغد فسيأتي بنفسه للاطمئنان عنك وستعافين حتماً . لماذا لم تخبريني بأنك ما زلت مريضة ؟ لا تخافي فسنعوض لك كل قطرة دم نزفت منك . لقد عشر كوستر على البروفيسور ، كل شيء سيصبح على ما يرام يا بات .

عاد الطبيب .

- لم يكن البروفيسور هو المتكلم .

نهضت واقفاً ، ثم تابع كلامه .

- كان صديقك لينس .

- الم يجد كوستر البروفيسور ؟

- اجل ، فقد املى عليه التعليقات التي دونها صديقك لينس بدقة . ولكن هل

صديقك هذا طبيب ؟

- لا ولكنه كان في السابق يطمح الى ذلك ، ولكن ماذا عن كوستر ؟

نظر إلي الطبيب .

- كلمني لينس وأخبرني بان كوستر ترك المدينة مع البروفيسور وهما الآن في

طريقهما الينا .

شعرت لفترة بأني بحاجة كبيرة له . ارتكاز إلى أي شيء . قلت :

- اوتو .

تابع الطبيب حديثه :

- نعم ، هناك شيئاً واحداً أخطأ فيه صاحبك . لقد أكد لي بأن كوستر والبروفيسور

سيكونان هنا في خلال ساعتين . انني اعرف الطريق جيداً واشك في قوله هذا ،

فالطريق تحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات لقطعها . ولكن -

- لا عليك يا حضرة الدكتور . إنها سيكونان هنا حتماً بعد ساعتين كما وعد

صديقي .

- هذا غير معقول . فالطريق مليئة بالمنعطفات الصعبة . ولا تنس أيضاً أن الظلام

حالك هذه الليلة .

- انتظر وسترى .

- لا يهم ، المهم في الأمر حضورهم ومن الافضل لنا حضورهم بسرعة .

لم أقو على تحمل المزيد فخرجت الى العراء . كان الضباب قد امتد وغطى المكان . وتناهى الى سمعي هدير البحر البعيد . تلفت حولي ، لم أعد وحيداً . فخلف الافق من الجنوب يدوي الآن صوت محرك كارل ، مخترقاً الضباب والطرقات الشاحبة ، مسرعاً لتجديتي . انني أرى بوضوح يدين حديديتين تمسكان بالمقود بينما تحاول عينان تبديد الظلام ببريق تصميمهما . انها عيون ريفقي .

* * * *

وفيا بعد سرد علينا البروفيسور كيف سارت الأمور :

لقد اتصل كوستر بعد مكالمتي بلينس وطلب منه ان يرافقه في البحث عن جافه . انطلق الاثنان بكارل الى مشفاه . اخبرتهم ممرضة القسم المختص بالأمراض الصدرية بأن البروفيسور قد ذهب لتناول العشاء واخبرت كوستر عن أسماء المطاعم التي يرتادها . انطلق كوستر للبحث عنه بسرعة جنونية دون التقيد بإشارات المرور ولا الانتباه الى المارة الذين أزعجتهم السرعة فتراموا على الرصيف طالين النجاة . قاد سيارته بجنون ، وكانت حاله كمن يمتطي جواداً هائجاً في وسط شارع مزدحم . عثر كوستر على ضالته في المطعم الرابع . تذكر البروفيسور بات على الفور . فترك الطعام وقصد بيته لجلب الأدوات الطبية اللازمة . وكان هذا هو المكان الوحيد الذي توقف عنده كوستر . في الطريق سأله جافه عن مكان المريضة . لم يسع كوستر الى إخباره عن مكانها حتى لا يثنيه طول المسافة عن السفر إليها . لذا عمد كوستر الى إخباره بان المسافة لا تبعد عن المدينة سوى أربعين كيلومتراً فقط . ثم لاذ بالصمت مرة ثانية . بعد فترة قطع الصمت وسأل البروفيسور :

- هل تظن ان حالتها خطيرة ؟

- نعم .

- أجب جافه .

عندها تحول كارل الى شبح طريق حقيقي وبدأ يطوي المسافات بسرعة جنونية ، فلاح الطريق يدور بسرعة أمام عيني كوستر كشريط سينائي . كان كوستر يخطف المنعطفات وفي بعضها على دولاين فقط . وكمن من المرات وجد نفسه يسير بكارل على الارصفة ، وكمن من المرات وجد نفسه يسير مخالفاً قواعد المرور بالسير في الاتجاه

المعكس في بعض الشوارع ذات الاتجاه الوحيد ، محاولاً بذلك الخروج من المدينة بأقصر الطرق .

صاح البروفيسور فجأة :

- هل جنت ؟

اذ كاد كوستر يلامس مؤخرة سيارة نقل كبيرة بسيارته وينزلق تحت عجلاتها ، ولكنه استطاع ان يخفف سرعته ويمنع حدوث الاصطدام المحتم . بعدها ترك لسيارته العنان متجاوزاً الباص :

- تمهل ، ارجوك ان تخفف من سرعتك .

صاح به البروفيسور غاضباً وتابع :

- ماذا يفيد لو وقع لنا مكروه ؟

وبيرود أجاب كوستر :

- لا تخف فلن يكون هناك أي حادث اصطدام .

- اذا تابعت القيادة على هذا الشكل فالحادث واقع لا محالة .

في تلك اللحظة انعطف كوستر بسيارته بقوة متفادياً الارتطام بعمود الكهرباء .

- لا تخف ، لن يكون هناك حادث .

بدا الطريق الآن واضحاً وطويلاً . فنظر كوستر الى البروفيسور وقال :

- أنا أعرف أن مهمتي هي ايصالك إلى المكان سليماً . تتبرر تخف ودعني أقود

السيارة كما أشاء .

- ماذا تنفع السرعة . أمن أجل اختصار دقيقتين نعرض انفسنا للهلاك ؟

- لا .

أجاب كوستر بينما راحت حجارة الطريق تندفع خلف عجلات كارل لترتطم

بسيارة شحن كان قد تجاوزها .

- أمامنا حتى الآن مثنان واربعون كيلومتراً حتى نصل المكان .

- نعم ؟

وعبر كالمهم بين سيارتين ، الأولى للبريد والثانية ناقلة كبيرة .

- لم أشأ باخبارك بطول المسافة قبل الآن .

- ولكنك لم تكن بحاجة إلى إخفاء الأمر فطول المسافة ليس في نظري عائقاً عن

قيامي بمساعدة مرضاي . أوصلني الى محطة القطار ، فالقطار يصل الى الهدف على

نحو أسرع وأضمن .

عندما وصل كوستر ضاحية المدينة اخذت الريح تنتزع الكلمات من فمه .
- لقد استعلمت مسبقاً عن موعد انطلاق القطار انه سينطلق في ساعة متأخرة .

ونظر الى جافه مرة ثانية .

- لتكن مشيئتك يا رب .

زجر البروفيسور بعد أن قرأ في وجه كوستر التصميم على متابعة السفر .
- هل هي صديقتك ؟

طاطاً كوستر رأسه علامة الايجاب .

* * * *

بدأت حرارة الغرفة تشتد وكأنها الفولاذ الساخن . فتحت النافذة وسألت
الطبيب .

- ألم يتوقف النزيف ؟

- لا .

رفعت بات بنظرها إلي . ابتسمت لها ثم استحالت ابتسامتي إلى تقلصات عضلية
في وجهي . قلت :

- أماننا نصف ساعة من الانتظار .

رفع الطبيب نظره :

- ما زال أماننا ساعة ونصف من الانتظار وربما ساعتان فالسواء تمطر .

كان المطر خارجاً يتساقط على أوراق الشجر وكنا نسمع صوته من داخل الغرفة .
نظرت الى الخارج ، يا الهي . كم مضى من الوقت منذ كنت اخرج مع بات في الليل
لنستلقي بين هذه الأشجار حيث كنت ادندن لها بعض الحان اغاني الاطفال . . كم
اصبح الوقت بعيداً منذ رأيت بات تحتال في عمرات هذه الحديقة لأخر مرة تحت ضوء
القمر رشيقة نحيلة كالغزال . قطعت المسافة أمام الباب وللمرة المائة جيئة وذهاباً .
كنت أعلم أن كل هذا التداعي لن يجديها نفعاً ولكنه كان يختصر وقت الانتظار .
اصبح الهواء ثقيلاً ورحت ألعن ، ثم أخذت أفكر بكوستر وما يعني السفر بالنسبة له
الآن . نعق غراب على احدى الأشجار . صحت به :

- أغلق منقارك .

لقد ذكرني ذلك الصوت بنعيق غريبان الموت .

- هراء .

صحت بصوت عال وقد اعترتني رجفة شديدة .

تناهى الى مسمعي من مكان ما أزيز صرصار بعيد ، وما لبث الصوت ان اختفى ثم عاد واقرب ثانية . وتنازلت اللعبة ، بدأت أرتجف بشدة . لم يكن ذلك الصوت صوت صرصار بل صوت محرك سيارة بعيدة جداً ، تنهب المنعطفات بسرعتها . تسمرت في مكاني كالعصا . حبست انفاسي لاتيمنن من الاصغاء . ثم عاد ذلك الازيز الخافت ليرتفع وكأنه صوت دبور حانق . اقرب الصوت وازداد ارتفاعاً ، وأخذت أتبين فيه صوت محرك لسيارة أعرفها جيداً .

فجأة شعرت بأن ذلك الافق المشدود بالقلق والتوتر أخذ يتهاوى ليصبح أفقاً مليئاً بالثقة والامان ، مخلفاً وراءه ذلك الليل والخوف والهول . تراجعت بشدة الى الوراء . تمسكت بالباب وصرخت :

- لقد وصلوا ايها الطبيب . يا حبيبتي بات ، لقد وصلوا اني اسمعهم .

كان الطبيب يرقبني طوال الوقت بنظرة غريبة وكأنه ينظر الى إنسان مسه الجنون . نهض وأصاخ السمع ، ثم قال :

- لا بد وأنها سيارة أخرى .

- لا فأنا أعرف صوت المحرك جيداً .

نظر إلي بانفعال . كان صبوراً وحذراً ، كالأم تجاه بات . ولم يكن حديثي يتعدى أنواع السيارات مما جعل الطبيب يعنى في النظر من خلال نظاراته مؤكداً لي بذلك أنه أدري مني بهذه الأمور .

- مستحيل ما تقول .

قالها باقتضاب وعاد الى داخل الغرفة . أما أنا فبقيت واقفاً في الخارج أرتجف من شدة الانفعال .

- كارل ، انه كارل .

صحت ، ثم تبدل صوت المحرك من مزجرج الى صوت هادئ رقيق . لا بد وأنهم الآن في منتصف القرية . استمر هدير السيارة في الانخفاض ، عندها تأكدت بأنهم اصبحوا الآن خلف الغابة . ثم عاد الصوت لينطلق عالياً واضحاً مخترقاً الضباب . ما هي إلا لحظات حتى كان وهج أضواء السيارة يبهر عيني . وقف الطبيب الى جانبي فاغراً فاه من شدة دهشته .

ركضت تجاههم .

ترجل البروفيسور ولم ينتبه لوجودي بل اتجه على الفور إلى الطبيب ومن ورائه
ترجل كوستر . سألني :

- كيف حالها ؟

- انها ما تزال تنزف .

- لا تخف كثيراً ، فمثل هذه الحوادث كثيرة الوقوع . هل معك سجائر ؟

ناولته سيجارة .

- حمداً لله على قدومك يا أوتو .

أخذ يدخن بنهم .

- كنت متأكداً من أن قدومي سيريحك .

- لكنك قدت بسرعة جنونية .

- لا يهم . العائق الوحيد الذي واجهنا هو الضباب الكثيف .

جلسنا جنباً إلى جنب على أحد المقاعد في الخارج وأخذنا ننتظر .

- هل تظن أنها ستنجو ؟

- بالطبع ، فالنزيف لا يعني دائماً الخطر .

- لم تحدثنا بإبات يوماً عن مرضها . انها بلا شك ستنجو من هذه المحنة يا أوتو .

لم يرفع كوستر بصره .

- أعطني سيجارة أخرى ، لقد نسيت سجائري .

- عليها أن تنجو أولاً أصبحت الحياة عدماً بالنسبة لي .

خرج البروفيسور من الغرفة . سارعت في الوقوف . قال مخاطباً كوستر :

- لتحل علي اللعنة لو عدت لمرافقتك يوماً في السفر .

أجابته كوستر :

- اعذرني ، انها زوجة رفيقي .

أخذ البروفيسور ينظر إلي . سأله :

- هل ستنجو ؟

استمر يتأملني بتمعن بينما أشحت بوجهي الى الجانب الآخر :

- هل تظنني أنني كنت سأبقى طيلة هذه الفترة هنا لو لم يكن عندي أمل كبير في

ذلك ؟ .

اصطكت اسناني واشتبكت يداي . أجهشت في البكاء
- اعذرني ، فلقد حدث الأمر في غاية السرعة .

أجاب البروفيسور :

- هذه الأمور تحدث غالباً بأسرع ممايتوقعه المرء .

ثم ابتسم :

- لا تلمني يا عزيزي اوتوعلى بكائي .

أمسك بي من كتفي ودفعني باتجاه باب الغرفة .

- استأذن البروفيسور وادخل اليها .

- انني مستعد الآن ، هل لي بالدخول ؟

- ليكن ، ولكن عليك ان تتجنب الحديث اليها . فحالتها لا تسمح بالانفعال .

سبحت عيناى بالدموع وأخذ الضوء يتأرجح أمام ناظري . كفكفت دموعي كي

لا ترى بات ذلك . تسلمحت ببسمة عريضة ودخلت الغرفة ولكنني سرعان ما

استدرت وعدت من حيث أتيت .

سأل كوستر الطبيب :

- كان حضورك كما اعتقد ضرورياً جداً ؟

- نعم .

أجابه البروفيسور ، ثم تابع :

- كان استدعائي ضرورياً .

- سأعود بك في الغد الى المدينة .

- لا أرجوك .

- أعدك أن أقود بهدوء .

- على أي حال ، فأنا أفضل البقاء يوماً الى جانبها ريثما أتأكد من سلامتها . هل

سريرك جاهز ؟

أومأت برأسي .

- حسناً ، سأوي الى الفراش الآن . ولكن هل هناك أمكنة للنوم في القرية ؟

- لا عليك ، ولكننا سنذهب في الحال لنحضر لك فرشاة اسنان وبيجاما .

- لا حاجة لي بذلك . فأنا مستعد دائماً للطوارئ ، ولكنها للمرة الأولى في

حياتي التي ادخل في سبق كهذا .

- اعذرني انت محق في غضبك . ولكن .

ضحك جافه :

- انني لست غاضباً .

- انني اكرر اعتذاري لعدم بوحى لك بالحقيقة .

- آه . ان رأيك خاطيء في الاطباء . والآن اذهباً وسأبقى أنا إلى جانبها .

دخلت وأحضرت ثياب نوم لكوستر ولي ثم ذهبنا الى القرية .

سألته :

- هل أنت متعب ؟

- لا ، دعنا نجلس في أحد الأماكن .

عاد إليّ هدوئي بعد ساعة تقريباً .

- بقاؤه هنا يؤكد بلا شك خطورة حالتها . فانا لا أجد تبريراً آخر لذلك .

أجاب كوستر :

- ان بقاءه من باب الحذر فقط . انه يجب بات . قال لي ذلك اثناء الطريق . وكان

ايضاً طبيباً والدتها سابقاً .

- هل كانت والدتها مريضة بالمرض ذاته ؟ على أي حال ، اذهب يا أوتو لتنام

وسأذهب أنا لأراها ولو من بعيد .

- حسناً سأذهب معك .

- سأبوح لك بشيء لا تعرفه عني يا أوتو : انني افضل النوم في العراء في مثل هذه

الليالي الدافئة . لا تزعج نفسك بمرافقتي .

- ولكن الارض مبتلة .

- لا عليك . سأجلس في السيارة وأرفع غطاءها .

- ليكن ، فانا أيضاً أفضل النوم في العراء .

ايقتت ان التخلص من كوستر بات مستحيلاً . أحضرنا بعض الاغطية والوسائد

واتجهنا الى حيث كان يقف كارل . ضغطنا على المقاعد الامامية الى الخلف بحيث

اصبح من الممكن الاستلقاء عليها . قال كوستر :

- ان فراشنا الليلة أفضل بكثير من فراشنا في الجبهة .

ساد المكان الظلام الا من ضوء واحد منبعث من نافذة غرفة بات . رأيت شبح

البروفيسور عدة مرات واقفاً أمام سريرها . أفرغنا كوستر وأنا علبة سجائر كاملة .

أطفئ نور الغرفة الكبير ولم يبق إلا نور خفيف مشعلاً الى جانب السرير .

- حمداً لك يا إلهي . .

أخذت بعض قطرات المطر تتساقط على غطاء السيارة ، بينما هبت ريح خفيفة تحمل في ثناياها بعض البرد .

- من الافضل لك يا اوتوان تحتفظ بغطائي أيضاً .

- دعك من هذا فأنا لا أشعر بالبرد .

- رجل مثالي وطبيب بارع في مهنته على ما أعتقد .

- بالتأكيد .

صحوحت مذعوراً من نومي . كان الجو غائماً وبارداً . نظرت حولي فرأيت كوستر

ما يزال مستقلياً الى جانبي .

- ألم تنم يا أوتو؟

- لا بأس .

ترجلت من السيارة وركضت عبر الممر الضيق الى النافذة . رأيت بات مستقلة في فراشها مغمضة العينين . للحظة اعتراني خوف من ان تكون قد فارقت الحياة ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الخوف عندما رأيتها تحرك يدها اليمنى . بدت شاحبة ولكن لم تعد هناك آثار للدم . عادت وحركت يدها . وفي تلك الدقيقة فتح البروفيسور عينيه حيث كان نائماً في السرير المجاور لها . هدأت عندما شاهدت اهتمامه وتيقظه . قلت لكوستر :

- علينا أن ننصرف من هنا قبل ان يرانا نرقبه .

- هل كل شيء على ما يرام في الداخل؟

- أعتقد ذلك . غريب أمر هذا البروفيسور . ينام رغم قرع الطبول ويصحو اذا

مر فأر من جانبه .

- هل تنزل معي الى البحر فالطقس جميل اليوم .

ثم تئأب .

- اذهب انت وسأبقى أنا هنا .

- تعال معي ثم نرجع سوية .

بدأت تلك السحابة الرمادية ترتفع تدريجياً من السماء وبان من خلفها شعاع من

اللون الاحمر البرتقالي .

قفزنا إلى الماء وقد انعكست على صفحته ألوان السماء ، وعندما عدنا وجدنا

الأنسة ميللر قد استيقظت وباشرت في قطف بعض البقدونس . ارتجفت عندما

كلمتها . أخذت أعتذر لها خجلاً عن الشتائم الكثيرة التي كنت قد تفوهت بها

بالأمس . بدأت تبكي :

- السيدة الجميلة ، ما زالت فتية جداً وجميلة جداً .

- ستعيش مئة عام .

أحببتها بغضب عندما رأيتها تنتحب ، وكان بات ستموت فعلاً .

- قسماً بهذا الصباح البارد ، بالريح والحياة المضيئة المتلاطمة في داخلي لن تموت

بات . لن أسمح لها بذلك . وإلى جانبي يقف كوستر - رفيقي ورفيق بات . وما دام

كوستر على قيد الحياة فلن أموت أنا ، وإذا كنا ، كوستر وأنا ، على قيد الحياة فلن

تموت بات وسأظل أنتشلها من براثن الموت ، فرابطة الصداقة التي تجمعنا هي أن

نحيا معاً أو نموت معاً .

- عليك أن تخضع لارادة القدر .

قالت الأنسة ونظرت إلي بوجهها البني المجدر موبخة وكأنني بها تشتمني

بصمت .

- الخضوع ؟ ولم الخضوع ؟ انه لا يجدي نفعاً . على المرء ان يدفع في الغالب

غالباً لقاء الحصول على القليل من هذه الحياة . يدفع ذلك مرات ومرات . لذا ما

نفع الخضوع ؟

- بلى يا عزيزي . الخضوع أفضل لك .

فكرت . ماذا يغير هذا الخضوع من القدر . الكفاح ولا شيء سوى الكفاح من

أجل من نحب رغم هزيمته المحتممة . أما نظرية الخضوع والاستسلام فهي مسألة لا

تعتنق الا بعد السبعين .

ما كاد كوستر يتبادل معها بضع كلمات حتى عادت تبتسم وسألته ماذا يفضل

لطعام الغداء .

بعد ان تركتنا خاطبني كوستر :

- هل رأيت ملياً ما حدث ؟ ان ما رأيته الآن هو هدية الشيخوخة . فالدموع

والضحكات تتبادل الادوار بسرعة وبدون تعقيد . هذا ما علينا تعلمه قبل

شيخوختنا . سرنا حول المنزل .

قلت :

- كل دقيقة نوم تعني مزيداً من الصحة لها .

عدنا الى الحديقة فوجدنا الأنسة ميلر قد أعدت لنا مائدة الافطار . احتسينا القهوة

السوداء الساخنة . اشرفت الشمس ولم يظل الوقت حتى أصبح الجو دافئاً بيننا كانت

أوراق الشجر ما تزال مبللة بقطرات الندى . ومن البحر علت صيحات طيور النورس .

وضعت السيدة مللر باقة ورد كبيرة على مائدة الافطار وقالت :
- سندخل هذه الباقة لبات فيما بعد .

ذكرني أريج الورد وسياج الحديقة بطفولتي .
- اني أشعر أنا الذي كنت مريضاً يا اوتو . لم نعد كما كنا عليه في السابق . عليّ أن أكون اليوم أكثر هدوءاً والتزاماً مما كنت عليه في الأمس . فهدوء الشخص يحدد مدى امكانية مساعدته للآخرين .
- ولكن لا يمكن التحكم بالنفس باستمرار . لقد مرت عليّ ظروف مشابهة ، ولكن لا تنس انه كلما تقدم العمر بالانسان كلما ازدادت عصبيته ، كصيرفي يعيش في خسارة مستمرة .

فتح باب غرفة بات وخرج البروفيسور بثوب النوم .
- هدىء من روعك .

وأشار لي من بعيد عندما رأى انفعالي وتعثري بالمنضدة لدى رؤيتي إياه .
- حالتها جيدة إن صح التعبير .
- هل استطيع الدخول اليها ؟
- ليس في الحال ، فالخادمة في الداخل تغسلها وتقوم على خدمتها .

صبيت له فنجاناً من القهوة . أغمض عينيه من تأثير وهج أشعة الشمس ثم استدار لكوستر وقال :

- في الحقيقة يتوجب عليّ أن أشكرك ، لأنك كنت السبب في خروجي من المستوصف لاتمتع بهذه الطبيعة .

أجابه كوستر :

- نستطيع أن نقوم برحلات مشابهة في المستقبل . نغادر المدينة مساء ونعود إليها في عشية اليوم التالي .

- باستطاعتي . الم لاحظ بعد اننا نعيش في زمن تمزيق الذات وان المرء يود عمل اشياء كثيرة يستطيع عملها ولكنه لا يفهم عدم قيامه بذلك . العمل أصبح في هذه الأيام شيئاً جباراً والسبب في ذلك على ما أظن هو عدم حصول الكثيرين عليه . كم هو جميل هذا المكان . لم أشعر منذ سنين بصدق جمال الطبيعة كهذا الصباح . إنني أمتلك سيارتين وفيللا فخمة يزيد عدد غرفها على العشرة . عندي مال ليس

بالقليل . ولكن ماذا تفيدني كل هذه الأشياء ؟ انها لا تعادل جمال هذا الصباح الصيفي المشرق في أحضان الطبيعة . العمل : - انه هوس مظلم يحمل في طياته حلماً لحياة أفضل، ولكن هل تصبح الحياة افضل ؟ لا ، انها لن تتغير ، غريب أمر هذا الانسان وكيف يسعى دائماً إلى تحطيم ذاته .

قلت :

- إن الطبيب في رأيي هو من القلة الذين يعرفون سبب وجودهم . هل يستطيع محاسب على سبيل المثال ان يتعرف على سبب وجوده كالطبيب ؟

أجابني البروفيسور :

- يا صديقي العزيز . من الخطأ الكبير الظن بأن البشر جميعاً لهم نفس القدرة على الاحساس .

أجاب كوستر :

- صحيح هذا القول ، ولكن عليك ان لا تغفل عن حقيقة هامة وهي ان أغلبية البشر لم تحترم مهنتها تمشياً مع قدراتها الحسية .

- صحيح ان هذه الامور بلا شك وعرة ويصعب الاسترسال في بحثها .

ثم اشار لي ان زيارة بات اصبحت مسموحة .

- حاول ان تكون هادئاً ، لا تمسها ولا تدعها تتكلم .

* * * *

كانت مستقلة متعبة وكأنها تلقت ضرباً مبرحاً ، فوجهها متعدد الالوان وقد أحاطت عينها ظلال زرقاء كثيفة ، فمها شاحب ، فقط عينها كانتا كبيرتان تلتمعان .

عندما أمسكت يدها أحسست ببرودتها وارتخائها .

- بات ! يا صديقي العتيد .

قلت خجلاً وحاولت الجلوس إلى جانبها ولكنني تنبعت إلى وجه تلك الخادمة ، كالرغيف يملق فينا بفضول . قلت لها غاضباً :

- اخرجي من هنا .

- ولكن السيدة طلبت مني اسدال الستائر .

- حسناً ، أكمل عملك واخرجي بعد ذلك على الفور .

أسدلت الستائر الصفراء . لم تذهب بل أخذت تشكلهم بدبابيس .

- اسمعيني . ان ما جرى هنا ليس عرضاً مسرحية . اخرجني بسرعة وإلا . . .

استدارت ثم أجابت بتبلد :

- غريب أمركم . الواحد يطلب شيئاً والآخر يطلب عكسه .

سألت بات :

- هل طلبت منها ذلك ؟

هزت رأسها بالايجاب .

- هل يزعجك الضوء ؟

هزت رأسها بالنفي ثم قالت :

- من الأفضل أن لا تراني اليوم بوضوح .

- بات .

قلت لها مشدوهاً :

- عليك ان لا تتكلمي الآن ، ولكن ان كان هذا هو السبب . .

فتح الباب وخرجت الخادمة . عدت الى جانب بات ولم أعد أشعر بالخجل بل على العكس فقد غمرني الفرح لخروج تلك الخادمة التي ساعدتني بدورها على التغلب على اللحظة الاولى في لقائي مع بات . فلقد صعب علي في البدء رؤية بات مستقلة هكذا .

جلست الى جانب السرير .

- بات . انك ستعافين عما قريب .

حركت فمها .

- في القريب ؟

- لا أقصد غداً ، ولكن في غضون أيام بالتأكيد . وبعدها ستمكين من النهوض وعندها نعود لبيتنا . كان علينا ان لا نقصد هذا المكان فالهواء جاف هنا .

- انك محق انني لست مريضة وما هذا الاحداث عارض .

نظرت إليها . ألم تكن تعي حقيقة مرضها ؟ أو انها كانت تحاول عدم معرفته .

أخذت عيناها تنظران بقلق شديد الى ما حولها . همست :

- لا تخف .

لم أفهم عندها ما كانت تقصد وما هي أهمية عدم خوفي بالنسبة لها . كل ما شعرت به تلك اللحظة يتمثل في عينيها القلقتين المعذبتين وفجأة فهمت ما كانت تقصده .

كانت تظن انني اصبحت حذراً بسبب مرضها .
- يا الهي . بات يا عزيزتي هل هذا هو السبب في اخفاء حقيقة مرضك عني طوال
هذه الفترة ؟

لم تجب ولكنني تأكدت من أن هذا هو السبب الوحيد .
- يا للجنة . هل فكرت هكذا حقاً ؟

انحنيت اليها :

- حاولي ان تبقي هكذا بلا حراك .

قبلتها وشعرت بحرارة وجفاف شفيتها . وعندما رفعت رأسي رأيتها تبكي .
كانت تبكي بصمت بينا أخذت الدموع تنسال من عينيها المشدوهتين الواسعتين
وجمدت تعابير وجهها .
- لا تبكي بحق السماء يا بات .

همست :

- انني سعيدة يا روبي .

وقفت أنظر إليها . ان ما تفوهت به كان جملة واحدة ولكنها جملة لم اسمعها من
قبل . تعرفت على نساء كثيرات . علاقتي بهن كانت سطحية . نتقابل لتبادل الحب
ولنمضي ساعات مرحة ، هادئة للهروب من أنفسنا ، من القلق والفراغ . لم أسمع
يوماً إلى إنشاء علاقات خلاف ذلك . فلقد علمتني الحياة ان الانسان لا يمكنه
الاعتماد إلا على نفسه ، وفي الحالات القصوى على رفيق له . أما الآن ، وفجأة ،
شعرت انني أصبحت شخصاً مهماً في حياة إنسان وان سعادته تكمن في وجودي إلى
جانبه . غريب حقاً ، فعندما نتحدث عن كل هذه الأمور تبدو بسيطة وسهلة ،
ولكننا عندما نبدأ في التفكير بها بجدية تبدو عندها مسألة صعبة لا نهاية لها . انها
مسألة تمزق صاحبها وتغيره . انها ليست حساً ولكنها شيء آخر . انها هدف يجي
الانسان من أجله ، فالمرء لا يجي من أجل الحب ولكنه يجي من اجل الانسان .

حاولت التحدث اليها وقول الكثير ، ولكنني لم اتمكن من ذلك . يصعب على
الانسان ان يعثر على الكلمات المناسبة عندما يشعر بحاجة ماسة للتعبير عن نفسه .
وفي حال عثوره على هذه الكلمات يجد نفسه خجلاً من نطقها . كل هذه الكلمات
أصبحت من خصائص القرون الماضية . أما عصرنا هذا فلم نجد بعد الكلمات التي
تناسبه . ان كلمات عصرنا صيبانية وكل كلمة عداها تبدو كاذبة .
- بات . أيها الصبي الشجاع .

في تلك اللحظة دخل البروفيسور الغرفة واحس بكل ما يجري .
- عمل رائع حقاً . ألم أقل لك بأن الكلام محظور عليها . ولكنني كنت متأكداً
من حدوث ما أراه الآن .
حاولت أن أوضح له الموقف ولكنه أمسك بي ورماني خارج الغرفة .

بعد مضي اسبوعين تحسنت حالة بات وأصبح من الممكن السفر والعودة . جهزنا حقائبنا وجلسنا ننتظر قدوم لينس ليعود بالسيارة بينما نستقل بات وانا القطار . كان يوماً حاراً ورطباً وبدت الغيوم وكأنها نثرات قطنية معلقة في صفحة السماء . ويدا البحر وكأنه قطعة فولاذ ملتتهبة مشعة . وصل جوتفريد عند الظهر . تبينته من بعيد بفضل شعره الاشقر المشعث ولكنه عندما اقترب من باب حديقة الأنسة ميللر تأكدت أنه لم يحضر بمفرده ، فالى جانبه ظهرت قبة سبق كبيرة الحجم ونظارة سبق كبيرة أيضاً ورداء أفرهول .

وبدت أذناه كبيرتين جداً ، بلون الاقحوان .

صرخت مندهشاً :

- يا إلهي . انه يوب .

أجاب يوب مازحاً :

- هو بعينه يا سيد لوكامب .

- وبهذا المظهر . ماذا دهاك ؟

- ان ما تراه حقيقة يا عزيزي روبرت .

قال لينس ذلك ومد يده لمصافحتي .

- انه يتدرب ليصبح يوماً مؤهلاً للسباق . فمنذ ثمانية أيام كنت أقوم بتدريبه على القيادة . وعندما علم بمجيئي الى هنا استحلفني أن أصحبه . انها فرصة سانحة ليقوم بتدريباته الاولية خارج المدينة .

أكد يوب بحماس :

- سأقوم بذلك على أكمل وجه .

أخذ جوتفريد يضحك :

- اني متأكد من أنه سيقوم بذلك على أكمل وجه . لم أر طيلة حياتي شخصاً

مهووساً بالقيادة مثله . تصور ، لقد حاول في الدرس الأول أن يسبق سيارة مرسيدس بسيارتنا القديمة . انه لشيطان صغير .

نظر يوب إلى جوتفريد مصغياً باحترام وقد بلله العرق من شدة فرحه .
- لقد حاول اللحاق بها واجتيازها مستغلاً وجود المنعطف كما يفعل في الغالب السيد كوستر .

لم يسعني إلا الضحك عالياً لدى رؤيته على هذه الحال .
- ان بدايتك في هذا الضمار موفقة بلا شك .

نظر جوتفريد الى طالبه نظرة أب فخور .
- أما الآن فاحمل الحقائب واوصلها الى محطة القطار .
- بمفردى ؟

وكاد ينفجر من شدة الانفعال .
- هل أستطيع قيادة السيارة بمفردى يا سيد لينس ؟

أوماً لينس بالاجاب بينما اندفع يوب مسرعاً إلى داخل البيت . أودعنا الحقائب في محطة القطار ثم عدنا واصطحبنا بات . كان ما يزال أمامنا ربع ساعة من الوقت على تحرك القطار . رصيف المحطة بدا خاوياً إلا من بعض أباريق الحليب المنتشرة هنا وهناك .

- لا حاجة بكم لانتظارنا . عليكم أن تنطلقوا الآن وإلا تأخرتم عن موعد وصولكم .

نظر يوب إلى نظرة عتاب وهو جالس وراء المقود .

سأله لينس :

- ان مثل هذه الملاحظات لا تروقك ، اليس كذلك ؟

عدل يوب جلسته وخاطبني معاتباً :

- لقد عملت حسابي يا سيد لينس وسنكون في تمام الساعة الثامنة في الورشة .

ربت لينس على كتفه قائلاً :

- حساب دقيق كما أرى ، ولكن هل تراهن معي على ذلك بزجاجة كازوز ؟

- زجاجة كازوز . لا ، ولكن إذا كان الرهان على علبة سجائر فسوف أجازف .

نظر إليّ مستفزاً . سألته :

- هل تعلم ان الطرقات سيئة جداً ؟

- أعلم ذلك وقد أدخلت ذلك في حسابي يا سيد لوكامب .

- وهل فكرت في المنعطفات ؟

- لا تهمني هذه المعوقات ، فلدي أعصاب لا تخاف المنعطفات .

أجبت بجد :

- حسناً يا يوب ، سأدخل معك في رهان ، شريطة ان لا تدع السيد لينس يمسك

المقود طوال الطريق .

رفع يوب يده ووضعها على صدره استعداداً للقسم .

- أقسم لك بشرفي .

- حسناً ، ولكن ما هذا الذي تمسكه بعصبية بيدك ؟

- انها ساعة التوقيت . أريد أن أحدد الوقت لأعرف مدى سرعة هذه الزحافة .

ضحك لينس .

- ها أنتم قد شاهدتم الآن استعداد يوب الكامل لهذه الرحلة ، لذا فها أنا أشعر

الآن بأن سيارتنا القديمة بدأت ترجف فزعاً منه .

تظاهر يوب بعدم سماع تلك الملاحظة الساخرة وأخذ يشد قبعته .

- ما رأيك بأن ننتقل الآن يا سيد لينس فالرهان رهان .

- ليكن ايتها الآلة الضاغطة الصغيرة . الى اللقاء يا بات .

- الى اللقاء يا روبي .

- هيا يا يوب ، أر السيدة كيف يقلع فارس مثلك مرشح لبطولة العالم في سباق

السيارات .

صاح يوب من وضع نظارته ، لوح بثقة وانطلق بسرعة متخطياً الرصيف .

جلست مع بات على احد المقاعد ننتظر قدوم القطار وقد انعكست اشعة الشمس

الحارة على جدار المحطة الابيض الذي يفصلها عن الطريق . كان الجو عابقاً برائحة

الصنوبر والملح . اسندت بات رأسها الى الخلف وأغلقت عينيها وجلست هادئة

صامته معرضة وجهها لاشعة الشمس .

سألها :

- هل انت متعبة ؟

هزت رأسها بالنفي .

- لا يا روبي .

- لقد وصل القطار .

اقتربت منا القاطرة وكأنها تهرس الارض ، سوداء ، صغيرة ضائعة في خضم الطبيعة الرحب الواسع المحيطها من حقول وغابات . صعدنا الى القاطرة بمسافريها القلائل . بدأت تشخر متحركة تاركة ورائها غيمة سوداء . وببطء بدأت المناظر الطبيعية تتحرك مبتعدة عن أعيننا . القرية باسطحها البنية ، بأبقارها وخيولها ، الغابة ، ومن ثم منزل الأنسة ميللر الذي بدا وكأنه يغط في سبات عميق . اقتربت القاطرة من المنزل في المنعطف الأول حتى كان باستطاعتنا رؤيته نافذة حجرتنا بكل وضوح .

قالت بات :

- انظرها هي الأنسة ميللر .

- نعم هي بذاتها .

رأيناها واقفة أمام الباب الخارجي ، تلوح لنا بيدها . أخرجت بات منديل جيبيها ولوحت به .
- لن تراه فحجمه صغير جداً . خذي منديلي فهو اكبر .

تناولته وأخذت تلوح به ، فردت عليها الأنسة بتلويح أشد ، تابع القطار سيره وظهر البحر من بعيد وأخذ يومض بين الحين والآخر كوميض عينين مترصدتين متعبتين . ثم ظهرت بعد ذلك أمامنا الحقول الخضراء الهادئة لتعانق الافق والرياح ، تداعبها من حين الى آخر .

اعادت بات منديلي وجلست في ركن المقصورة . رفعت زجاج النافذة وفكرت .
يا ألهي . أحقيقة اننا اجتزنا ذلك الحلم المزعج ؟ يا لمرارة التجربة . لقد كان الحلم قاسياً .

وصلنا المدينة في الساعة السادسة . ركبنا سيارة أجرة وانطلقنا الى منزل بات .
سألنتي :

- هل ستصعد معي ؟

- بالتأكيد .

أوصلتها ثم نزلت بسرعة لارجع مع السائق وأحضر الحقائب . عندما عدت وجدت بات ما زالت واقفة في مدخل البيت تتحدث إلى الملازم وعقيلته . دخلنا غرفتها وكان الليل في أوله . على المنضدة باقة ورد حمراء . اتجهت بات الى النافذة ونظرت الى الخارج ثم استدارت وسألنتي :

- ما اطول المدة التي قضيناها في الخارج يا روبي ؟

- ثمانية عشر يوماً .
- فقط . ظنتها أطول بكثير .
- وأنا أيضاً ، تلك هي حال المسافر دوماً .
- هزت رأسها .
- لا أعني سوءاً .

فتحت بات باب الشرفة وأمسكت مقعداً هزازاً أبيض مكرّوناً في إحدى زواياها ، وأخذت تتأمل به بصمت . امتقع لون وجهها منذ وصولنا ، وبدت عيناها تلتمعان سواداً .

- أنظري إلى باقة الورد . انها هدية كوستر .

تناولت البطاقة ، ولكنها اعادتها الى مكانها دون أن تقرأها . رمقت باقة الورد وأحست بأنها لم ترها ، لأن أفكارها كانت مشدودة لذلك المقعد الابيض .

ربما ظنت منذ مدة أنها تخلصت منه ، وها هو يعود ثانية ليصبح جزءاً من حياتها .

تركتها تغالب أفكارها ، إذ لا جدوى من محاولة إبعادها عن مسألة عليها أن تناقشها بوضوح مع ذاتها وتخرج بعدها بقرار . من الافضل ان يحصل هذا الصراع اثناء وجودي إلى جانبها فربما ساعدها ذلك بعض الشيء .

وقفت فترة هكذا الى جانب المنضدة حانية الرأس ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ دون أن تنبس بكلمة . مشت ببطء حول المنضدة واقتربت مني ووضعت يديها على كتفي . قلت لها :

- أيها الرفيق الحبيب .
- اتكأت عليّ . ضممتها .
- والآن . دعينا نجابه هذا الموقف سوية .

- حنت رأسها موافقة .
- كانت لحظة تفكير عابرة يا روبي .
- هذا بالتأكيد .
- قرع الباب ودخلت الخادمة تجر عربة الشاي .
- فكرة رائعة .

قالت بات .

- هل تفضلين الشاي ؟

- بل قهوة ، قهوة سوداء جيدة .

مكثت عندها ساعة تقريباً ثم بدا عليها التعب ، تبينت ذلك من عينيها . اقترحت عليها :

- عليك ان تنامي قليلاً .

- وأنت ؟

- سأذهب الى البيت وانام قليلاً وبعدها أعود لاصطحبك لتناول طعام العشاء .

- هل انت متعب أيضاً ؟

سألتنى بتشكك .

- نعم ، قليلاً ، كان الجو في القطار حاراً ، عليّ أن أمر على الورشة أيضاً .

لم تتابع أسئلتها فقد كانت متعبة جداً . أوصلتها إلى السرير ودثرتها بالاعطية ، وما هي إلا لحظات حتى غطت بنوم عميق . وضعت إلى جانبها باقة الورد وبطاقة كوستر . فربما أسعدها ذلك عندما تستيقظ . ثم ذهبت .

مررت في طريقي امام هاتف آلي فقررت على الفور مخابرة البروفيسور . ففي البنسيون لا يمكنني التكلم معه ، فلجميع هناك آذان صاغية . رفعت السماعة وطلبت رقم المستوصف ، بعد فترة جاءني صوته عبر السماء .
- هنا لوكامب . عدنا اليوم ووصلنا من حوالى ساعة .

سألني :

- هل سافرتم بالسيارة ؟

- لا ، بل استقلينا القطار .

- كيف حالها الآن ؟

- لا بأس .

فكر لحظة :

- سأقوم غداً بعد الظهر بمعاينة الأنسة هولمان . لنقل في الحادية عشرة تقريباً .

هل تستطيع أن تخبرها بذلك ؟

- لا . الأفضل عدم معرفتها بحديثي معك . انها ستكلمك بالتأكيد وعندها

تستطيع أن توضح لها رأيك .

- حسناً ، لندع الأمر جانباً . سأخبرها بذلك غداً .

أزحت أثناء حديثه دليل الهاتف الضخم ، بيقعه الدهنية والموضوع على قمطر خشبي صغير حفرت عليه بعض أرقام الهواتف . سألته :
- هل أستطيع أن أقابلك بعد ظهر غد ؟

لم يجب جافه وتابعت القول :
- انني اود معرفة المزيد عن حالتها .
- لا أستطيع أن أفيك بذلك في الغد . فعلياً أن أراقبها لفترة اسبوع على الأقل .
وعندها سأعلمك بالتفصيل عن حالتها .
- شكراً .

كنت طوال حديثي بالهاتف محملاً بالقمطر . لقد رسم أحد العابئين عليه فتاة بدينة تلبس قبعة قش كبيرة على رأسها ، وكتب في اسفلها : الين ، أيتها العنزة .
- هل من تعليقات معينة يجب أن أقوم بها حتى ذلك الوقت ؟
- هذا ما سأقرره في الغد . ولكن هل أنت متأكد من أن العناية جيدة في البيت الذي تقطنه ؟

- لا أعلم ، ولكنني سمعت اليوم أنهم سيسافرون في الاسبوع المقبل وعندها ستبقى مع الخادمة لوحدها .
- سأكلمها بهذا الأمر في الغد ايضاً .

أعدت دليل الهاتف إلى مكانه .
- هل ستعاودها تلك الحالة ثانية في رأيك ؟

تردد قليلاً .
- هذا ممكن ولكن ليس بالضرورة . سأجيب على سؤالك هذا بعد معاينتها .
- شكراً .

أغلقت الساعة ووقفت برهة على الرصيف قبل الذهاب إلى المنزل . كان الجو مغبراً حاراً ورطباً .

* * * *

لم أكد أفتح الباب حتى قابلتني السيدة تساليفسكي التي كانت خارجة لتوها من غرفة السيدة بندر وكأنها قذيفة مدفع أطلقت لتوها . وما أن رأني حتى توقفت .
- ماذا ؟ هل عدت ؟

- كما ترين . هل حدث شيء هام أثناء غيابي ؟
- لم يصلك أي بريد ولكن السيدة بندر رحلت .

- ولماذا رحلت ؟

وقفت السيدة تساليفسكي كعادتها وقد شددت يدها بحزم على وركيها .
- لأن أولاد الحلال موجودون في كل مكان . تركتتنا ورحلت لتسكن في ملجأ
للعجزة مع قطنها وأموالها البالغة ستة وعشرون ماركاً .

ثم سردت لي القصة بكاملها . أفلس بيت الاطفال الذي كانت تعمل فيه السيدة
بندر نتيجة حسابات مديره الخاطئة . ولم يكن مديره سوى القس نفسه . سرّحت
السيدة بندر مع غيرها من الموظفين دون قبض راتب شهرين مستحقين على صاحب
العمل .

- هل وجدت عملاً جديداً ؟

سألته شارد الذهن . أخذت السيدة تساليفسكي تنظر إليّ ولكنها لم تجب .
تابعت قولي :
- بالطبع لا .

- عرضت عليها البقاء وأوضححت لها أنني أستطيع انتظار دفع الايجار ريثما تحصل
على عمل جديد ولكنها رفضت عرضي .

- الفقراء يتمتعون غالباً بالصدق والكبرياء ولكن من سيسكن غرفتها ؟
- عائلة هاسه . فهذه الغرفة أرخص من غرفتهم .
- وغرفتهم ؟

- لا أعلم ولا أمل في العثور على مستأجر في هذه الايام .
- متى ستفرغ الغرفة ؟

- في الغد . لقد باشرت عائلة هاسه في نقل أمتعتها .
- كم هو إيجارها ؟

- سبعون ماركاً .
- سعر باهظ جداً .

أجبتها وشعرت بأنني عدت قليلاً إلى وعيي .

- ولكن يا سيد لوكامب ، هل نسيت اننا نقدم قهوة الإفطار والخبز الطازج
والزبدة ؟

- لا ، لم أنس كل هذا ، ولكن لنحذف من السعر قهوة فريدا التي هي ماء مغلي
قدر فيصبح إيجار الغرفة خمسين ماركاً . وهذا هو عرضي الأخير .

سألته السيدة تساليفسكي :

- هل تنوي استئجارها ؟

- ربما .

ذهبت إلى غرفتي وأخذت أرقب الباب المشترك بين غرفتي وغرفة هاسه . بات في نسيون تساليفسكي . لا ، انها فكرة غير واقعية لا يمكن تصورها . ولكنني بالرغم من رفضي لهذه الفكرة اتجهت الى غرفة هاسه وقرعت الباب .

كانت السيدة هاسه تجلس أمام مرآتها وسط غرفتها التي خلت من معظم أثاتها، وشرعت تضع البودرة على وجهها وقد علت رأسها قبعة زاهية الألوان . القيت عليها التحية وأجلت نظري في الغرفة . كانت أكبر مساحة مما توقعت وخاصة بعد ان أفرغت من معظم محتوياتها . لون ورق جدرانها مريح وما زال في وضع جيد . طلاء ابوابها جديد وشرقتها كبيرة وجميلة .

- لقد سمعت ، بالتأكيد عن المتاعب التي يحمّلني إياها زوجي في الآونة الأخيرة . انه يلزمي على النزوح إلى غرفة تلك العاهرة . يا للعار .
- العار .

- عار ، نعم وانفجرت بحق .

- انك ادري الناس بعلاقتي السيئة بتلك السيدة ، وها هو يجبرني على العيش في غرفتها بلا شرفة مكتفياً بالنافذة فقط . وكل هذا ليوفر بضع ماركات في الشهر . انني استطيع تصور فرحة تلك السيدة لانتصارها عليّ .
- لا أظنها في حالة تسمح لها بهذا الشعور .

- بلى . انها تحتفل الآن بهذا النصر ، ممرضة الرضع المزيفة ، انها كالماء الراكد تفوح منها رائحة الرذيلة ، كما ترى ، فالسيد هاسه يلزمي أيضاً بأن أصبح جارة تلك العاهرة إيرنا بويينغ . لا تنس رائحة القطن التي تفوح من الغرفة .

نظرت إليها مندهشاً من هذه التعابير التي أخذت تتفوه بها . غريب أمر هذا الانسان ، كم يتسع أفقه وينشط خياله عندما يياشر بالشتائم ، كم هي متساوية تعابير الحب . وعلى نقيض ذلك كم هي متقلبة أسماء الشتائم .
- لكن القطن حيوانات جميلة جداً ونظيفة ، ولقد دخلت منذ قليل الغرفة ولكنني لم أشتم رائحة القطن .
- هكذا .

أجابت السيدة هاسه بلهجة عدااء ثم تابعت :

- ان كل ما تقوله لا يهمني . عليه ان ينقل قطع الاثاث بمفرده فانا خارجة لأرفه عن نفسي . انها المتعة الوحيدة التي بقيت لي من حياة الكلاب التي أحيهاها .

نهضت وراح وجهها المنتفخ كالاسفنج يرتجف ، مما ادى الى سقوط ذرات المساحيق على ثوبها . بدت بحمرتها الفاقعة وكأنها من أولئك النسوة الرخيصات . وحين مرت أمامي أحسست بأن متجر عطور بكامله ينتصب أمام ناظري . تابعتها بنظري مشدوهاً ثم تمعنت بالغرفة وأخذت أفكر جدياً أين سأضع قطع ااثات بات . لكنني عدت وتوقفت عن التفكير . بات هنا . دائماً إلى جانبي . لا أستطيع تخيل هذا .

لولم تكن مريضة لما فكرت في ذلك مطلقاً ولكن في حالتها هذه . فتحت الباب وأخذت أقيس الشرفة . ولكنني عدت أهز رأسي وقفلت عائداً إلى حجرتي .

* * * *

كانت ما تزال نائمة عندما عدت إليها . جلست بهدوء على أريكة إلى جانب سريريها ولكنها استيقظت في الحال .
- لقد أيقظتك .
- هل جلست هنا طوال الوقت ؟
- لا ، عدت لتوي .

تململت ورمت بوجهها على يدي .
- حسناً ! فانا لا أحب أن ينظر إليّ أحد أثناء نومي .
- أفهمك جيداً وأنا أيضاً لا أحب ذلك . حاولت أن أدخل بهدوء كي لا أوقظك ، ألا تحاولين العودة للنوم مرة ثانية ؟
- لا ، فانا أشعر أنني أخذت كفايتي منه ، سأهض في الحال .
تركتها إلى الغرفة المجاورة ريشاً ترتدي ثيابها .

بدأ الظلام يخيم في الخارج . من إحدى النوافذ المفتوحة في العمارة المقابلة ارتفع نعيق حالكٍ بلحن عسكري . أخذ رجل أصلع الرأس يرتدي بنظلاً ويقطع الغرفة ذهاباً وإياباً . ثم بدأ يقوم بتارين رياضية . بدت صلعته الملتمة مع بداية حلول الظلام وكأنها قمر قلق . نظرت إليه بلا مبالاة . ففسي داخلي كان يكمن حزن عميق . دخلت عليّ بات وبدت رائحة الجمال ومرتاحة . خاطبتها مندهشاً :

- انك تبدين عظيمة الليلة .
- انني اشعر بارتياح كبير يا روبي ، وكأنني نمت ليلة بكاملها . حالات التعب والراحة تتبدل عندي بشكل سريع .
- بلى ، يعلم الله سرعة تبدل هذه الحالات عندك . وفي بعض الأحيان لا

يستطيع المرء متابعتها .

- اتكأت على كتفي ونظرت إلى :

- سريعة جداً يا روبي ، أليس كذلك ؟

- لا ، فالأصح من ذلك هو انني بطيء جداً يا بات .

ابتسمت

- البطء يعني الصلابة ، والصلابة هي الافضل .

- انني في صلابة فليئة طافية على سطح الماء .

وهزرت برأسي .

- انك أصلب مما يعتقد . انك في الحقيقة عكس ما تظن . لم أصادف في حياتي

شخصاً مخطئاً في تقييم نفسه مثلك .

- نعم ، يا عزيزتي ، انها الحقيقة اذا شئتها ، ولكن دعينا نخرج الآن لتناول

العشاء . إلى أين تودين الذهاب ؟

- إلى حانة الفونس . تبدو لي فترة غيابنا عنهم وكأنها دهر كامل . كم أتوق

لرؤيتهم جميعاً .

- حسناً ، ولكن هل انت جائعة حقاً ؟ من إحدى عادات الفونس ، رمي من لا

يشعرون بجوع كبير خارج الحانة .

ضحكت قائلة :

- انني جائعة حقاً .

- فلنمض إذن .

عندها شعرت بفرح كبير .

دخلنا حانة الفونس دخول الفاتحين . فما أن رأنا الفونس حتى حيانا بحرارة ثم

اختفى لحظة وعاد واضعاً قبة بيضاء وربطة عنق خضراء منقطة بالابيض . امثل

أمامنا وكأنه يقوم على خدمة القيصر بنفسه .

سألته بات :

- والآن أخبرنا يا الفونس ، ما عندك الليلة .

- انك محظوظة جداً هذه الليلة يا عزيزتي فطبقتنا اليوم جبيري .

تراجع خطوة الى الوراء ليرقب تأثير ما قاله علينا . وكانت ردة الفعل كما توقعها

ممتازة .

- كأساً من نبيذ الموزل الابيض .

همس برقة وتراجع خطوة اخرى الى الوراء . عندها صدر من اتجاه الباب تصفيق
حاد رافقه ظهور الرومانسي الاخير بجمجمته الضاحكة وشعره الاشقر المتوحش .
- جوتفريد .

صاح الفونس .
- انت هنا شخصياً . يا له من يوم عظيم . تعال يا عزيزي جوتفريد واسترح على
صدري .

قلت لبات :

- والان سترين مشهداً يصعب عليك نسيانه .

تعانق الاثنان بشدة ودوت طرقات يد الفونس على ظهر لينس وكأنها مطرقة
حداد .
- هانس .

صاح الفونس للنادل .

- اثتنا بزجاجة نابوليون .

ثم جر الفونس جوتفريد إلى البار وأسرع النادل إليهما ويده زجاجة كبيرة يعلوها
الغبار . صب الفونس قدحين من الكونياك المعتق .
- بصحتك يا جوتفريد ، أيها الخنزير المشوي .
- بصحتك يا الفونس ، يا ريبب السجون .
ابتلع الاثنان القدحين جرعة واحدة .
- ممتاز .

قال جوتفريد .

- انه كونياك صنع خصيصاً للآلهة .

أجاب الفونس مؤكداً كلامه :

- ومن العار ابتلاعه بهذه السرعة .

- ولكن هل يستطيع إنسان فرح ان يشرب بتأنٍ . دعنا نصب قدحاً آخر .

صب قدحاً آخر ورفع قائلًا :

- بصحتك ايته البندورة المتعفنة الخائبة .

ضحك لينس .

- يا صديقي الأبدي الحبيب - انت يا الفونس .

ترقرق الدمع في عيني الفونس ثم سأله بحنان :

- هل نشرب قدحاً آخر؟

- علينا بها ، فأنا لا أرفض رشفة كونياك حتى ولو أوقعتني هذه الرشفة أرضاً .

- أتقسم على ذلك ؟

وملاً له الفونس القدح الثالث .

عاد لينس إلى حيث كنا نجلس وأشار الى ساعته .

- كنا نقف في تمام الساعة الثامنة إلا عشر دقائق أمام باب الورشة . ما رأيكم بهذه

السرعة ؟

أجابت بات :

- انه رقم قياسي . مرحى ليوب ، وأنا بدوري سأتبع له بعلبة سجائر أخرى .

- لذا سأزيد من الجمبري .

صرح الفونس الذي كان يلزم جوتفريد كظله . ثم قدم لنا مناديل ورقية كبيرة

وقال :

- والآن إخلعوا ستراتكم واربطوا هذه المناديل حول اعناقكم . هل توافق السيدة

على ذلك ؟

أجابته باتريس :

- انني أعتبر هذه العملية ضرورية جداً .

هز الفونس رأسه فرحاً .

- انك امرأة عاقلة . هذا رأيي فيك ، لذا فسأعطيك ما يتناسب وأناقتك .

أحضر النادل هانس صدرية بيضاء كالثلج وساعد الفونس باتريس في ارتدائها ،

ثم قال مادحاً :

- انه يناسبك جداً .

- جداً جداً .

أجابته وضحكت .

- انني اطيير فرحاً عندما أسمعك ترددين كلماتي . انك تتقنين إدخال الدفء إلى

القلب .

ربط جوتفريد منديله حول عنقه .

- اننا يا الفونس نبدو جميعاً وكأننا نجلس في صالون للحلاقة .

- ستتبدل هذه الحال عما قريب ، ولكن قليلاً من الفن لا يعيب جلستنا .

ثم إنجبه إلى الحاكي ووضع إحدى اسطواناته المفضلة لكورال مشهور . أخذنا جميعاً نستمع إليه بصمت . لم يكده ينتهي آخر مقطع من نشيد الكورال حتى فتح باب المطبخ وظهر النادل ويده طبق كبير يتصاعد منه البخار وقد امتلأ بالجمبري ، ثم وضعه وهو يلهث من وطء حمله .

صاح به الفونس .

- ناولني منديلاً أيضاً .

- أتريد أن تشاركنا المائدة ايها الصبي الذهبي ؟

- إذا سمحت لي السيدة بالجلوس .

- سيرني ذلك يا الفونس .

أزاحت بات مقعدها قليلاً ليتسنى له أخذ مكانه ألى جانبها .

- ان جلوسي الى جانبك سيكون حتماً من مصلحتك فأنا ماهر في تحضير

الجمبري ، عدا ذلك فهذا العمل ليس من اختصاص السيدات .

أخرج من الطبق بعضاً من تلك الحيوانات وأخذ يفككها بسرعة فائقة . كان يقوم بهذا العمل بغاية الدقة والاناقة رغم يديه العريضتين . أما باتريس فاستعملت شوكتها وتناولت طعامها بكامل اناقته المعهودة . سألتها :

- ما رأيك في الطعام ؟

- لذيذ .

ورفعت كأسها .

- نخب الفونس .

قرع كأسه بكأسها وراح يشرب نخبه بكل فخر وتأن . وددت لو انها تناولت

عصير البرتقال بدل الخمرة . عرفت باتريس ما كنت افكر به . فقالت :

- نخب روبي .

كانت شديدة الجمال ، متألثة فرحة .

- نخبك يا بات .

وجرعت كأسي كلها .

- أليس هذا المكان رائعاً ؟

سألت بات وهي تنظر إليّ .

- رائع .

ثم صيبت لنفسي كأساً آخر .

- نخبك يا بات .

عندها أضاء وجهها شعاع خفي .

- نخبك يا روبي . نخبك يا جوتفريد .

شربنا كؤوسنا .

- نبئذ جيد .

قال لينس .

قال الفونس .

- انه نبئذ العام الماضي . يسعدني انه نال إعجابكم .

ثم اخرج جمبري آخر وقدمه إلى بات مع السكين لتقوم هي بتقشيره وتقطيعه .

تمنعت قائلة :

- هذا لك يا الفونس ، إذا تابعت على هذا الشكل فلن تأكل شيئاً .

- فيما بعد ، فأنا أسرعكم جميعاً .

- حسناً !

تناولت السكين من يده وشرعت تحاول تطبيق ما علمها إياه الفونس الذي أخذ

ينظر إليها فرحاً ويناولها الجمبري الواحد تلو الآخر .

كان شكله يشبه بوماً عجوزاً يطعم عصفوراً صغيراً في عشه .

كخاتمة لذلك العشاء الفاخر تناول كل منا قديحاً من الكونياك ثم ودعنا الفونس .

- كان العشاء فاخراً حقاً . لك جزيل الشكر يا الفونس .

صافحته . تتمم الفونس بكلمات غير مفهومة ثم انحنى وقبل يدها . لينس الذي

كان يراقب المشهد ، وقف مشدوهاً فاغر الفاه . قال الفونس :

- تعالوا في القريب العاجل ، وأنت أيضاً يا جوتفريد ولا تتأخروا عليّ .

في الخارج ، وتحت ضوء الشارع كانت سيارة الستروين تقف وحيدة منسية .

- آه .

قالت بات وتسمرت في مكانها وقد تغيرت تعابير وجهها .

- تكريماً لجهودها عمدتها اليوم باسم هرقل .

ثم سألتنا :
- هل أوصلكم بها ؟
- لا .

أجابت بات .

- هذا ما توقعته . إلى أين نذهب الآن ؟
- إلى البار . هل توافق على هذا الاقتراح يا روبي ؟
- بالطبع ، بالطبع ، سنذهب إلى البار .

سرنا ببطء عبر الطرقات الليلية . كان الجو حاراً والسماء صافية وقد عجت مقاهي الارصفة بالزائرين وصدحت الموسيقى من كل جانب . كانت بات تسير إلى جانبي . نظرت إليها . لم أعد أصدق انها مريضة . ومجرد التفكير في ذلك يجعل الدم يتوقد في رأسي . التقينا في البار ، فالتين وفرديناند ، الذي بدأ بمزاج رائع . نهض من مكانه واتجه مستقبلاً بات .
- ديانا .

قال لها :

- أيتها الآلهة العائدة من الغابات .

ابتسمت بينما أحاط كتفيها بذراعيه .

- قول لي أيتها الصيادة السمراء الجريئة بقوسك الفضي ، ماذا تشربين ؟

أمسك جوتفريد بذراع فرديناند وأبعدها عن كتف بات .

- ان العقلاء أمثالك لا يحسنون التصرف . ألم تلاحظ بعد ان السيدة هنا بصحبة

سيدين . بالطبع لم تلاحظ ذلك بعد أيها العجوز الثور العاقل .

- الرومانسيون أتباع فقط . ولا يمكن أن يصبحوا رفاق طريق . أجابه جراو

بشبات . ضحك لينس ساخراً وخاطب بات :

- سأقوم الآن بمزج مشروب خاص لك ، كوكتيل كوليبيري استحضرت وصفته

من البرازيل .

ذهب إلى البار ، مزج عدة أصناف في وعاء ، وعاد به إلى بات .

- ما رأيك به ؟

- مشروب خفيف رغم انه مستحضر من البرازيل .

ضحك جوتفريد :

- غريب فهو مزيج من الروم والفودكا وبعض العصير .

- انك انسان نهم .

قلت واشعلت النور الذي اضاء بشدة الاراتك الحمر ثم عدت واطفأته ثانية .
عبق جو الغرفة برائحة الصنوبر المنبعثة من خلال النافذة المفتوحة .

- كم هو جميل هذا المكان ؟

قالت بات واتكأت إلى زاوية النافذة .

- هل تجدين المكان جميلاً حقاً ؟

- نعم يا روبي . انه يبدو لي كحديقة كبيرة في الصيف . انه مكان خلاب .

- هل تنبته الى الغرفة المجاورة المضاءة ؟

- لا ، لماذا ؟

- ان لها شرفة كبيرة مطلة على الحديقة ولا أحد يستطيع رؤية الجالس فيها لعدم وجود أبنية في الطرف المقابل . لو كنت تقظنين هنا لما احتجت اثناء حمامك الشمسي إلى ثياب .

- صحيح ، لو كنت أظن هنا .

- ولكنك تستطيعين إن أردت ، فالغرفة ستخلو من مستأجرها خلال الأيام القليلة القادمة .

نظرت إلى وقالت مبتسمة :

- ولكن هل تظن أن وجودنا المستمر إلى جانب بعضنا البعض سيكون في صالح

علاقتنا ؟

- لن نكون معاً باستمرار ، فلدي عملي خلال النهار وفي بعض ساعات الليل

أيضاً . ولكننا حين نكون قرييين من بعضنا لا نعود بحاجة إلى الجلوس المستمر في

الحانات والبارات ، ولا نعود نفترق بعدها بسرعة وكان علاقتنا ترتبط فقط بزيارة

سريعة .

تململت قليلاً في مكانها .

- كلامك يؤكد أنك فكرت في هذا الأمر مسبقاً يا عزيزي .

- بالطبع ، فلقد أمضيت المساء كله أفكر فيه .

عدلت من وقفتها .

- هل تعني ما قلته حقاً يا روبي ؟

- يا للسءاء . بالطبع نعم . ألا تشعرين بصدق ما أقول ؟

صمتت فترة .

- روبي .

تابعت حديثها بصوت أكثر عمقاً من ذي قبل .
- ما السبب في إصرارك الآن على هذا الأمر ؟
- فكرت فيه الآن فقط .

أجبت بحدة لم أكن أريدها ، ولكنني شعرت بأننا ندخل في أمور أكثر جدية من أمر الغرفة .

- توصلت الى هذه القناعة لأنني شعرت خلال الاسبوعين المنصرمين بروعة البقاء معاً . لا أستطيع تحمل المزيد من هذه اللعبة : الالتقاء لساعات ، ثم العودة إلى الافتراق . أريد المزيد منك . أريدك أن تبقى دائماً إلى جانبي . لقد سئمت لعبة الاختباء ، لعبة الحب الذكية هذه . انني أمقتها وأرفضها . أريدك أنت وباستمرار إلى جانبي حيث انني لا أستطيع من خلال هذه اللعبة إشباع حاجتي اليك . لا أريد إضاعة دقيقة واحدة نستطيع فيها أن نكون معاً .

سمعت أنفاسها بينما كانت قابعة في زاوية الغرفة وقد شبكت يديها حول ركبتيها . ضوء الاعلان الاحمر من الجهة المقابلة من الشارع انعكس على حذائها ورجليها ويديها .

- لا يهمني إن كنت ستسخرين مني .

- ولماذا أسخر منك ؟

- لأنني دائم القول : أريد ، أريد ، ولكن عليك أيضاً أن تريدي أنت .

رفعت نظرها إلي .

- هل لاحظت على نفسك انك تغيرت يا روبي ؟

- لا .

- بلى ، انت تصرح بذلك . انك تريد ، انك تطلب ، انك تريد بإصرار .

- ان هذا ليس مؤشراً لتغير كبير . بإمكانك رفض طلبي بالرغم من كل إصراري .

فجأة انحنت واقتربت مني وأجابت بصوت أكثر رقة ودفئاً .

- لماذا أرفض كل ما تعرضه علي يا روبي . فانا أريد ما تريده أيضاً .

أمسكت كتفيها مستغرباً وقد لامس شعرها وجهي .

- هل تعنين ما تقولين حقاً يا بات .

- بكل تأكيد يا حبيبي .

قلت بعصبية :

- اللعنة ، لقد كنت اتوقع ان يكون إقناعك أكثر صعوبة .

هزت برأسها .

- عليك تتوقف صعوبته أو عدم صعوبته يا روبي .

أجبتها باستغراب :

- أصبحت أميل الى تصديق قولك .

أحاطت عنقي بذراعيها .

- ما أعظم الشعور في هذه اللحظات حيث تحس بأنك لست مجبراً على التفكير في أية قضية أو ملزماً بالقيام بكل الاعمال بنفسك ، هذه اللحظات التي تستطيع فيها أن تتكئ على من تحب .

يا حبيبي إن أمور الحياة أسهل بكثير مما يحسب لها ولكن عليك أن لا تصعبها بنفسك .

شعرت للحظة أن أسناني تصطك من شدة غيظي لأنها هي بالذات التي تقول كل هذه الكلمات .

- صحيح ، صحيح ما تقولينه يا بات .

كنت أكذب عليها وعلى نفسي أيضاً . وقفنا ملتصقين هكذا ولفترة طويلة أمام النافذة .

- سنقوم بنقل كل أثاثك الى هنا ، فلست بحاجة للتنازل عن أي قطعة منها . أما بالنسبة لعربة الشاي فسأقوم أنا بشراء عربة جديدة لك . وسأدرب فريدا على استعمالها .

- لماذا تشتري عربة جديدة ، فالعربة ملكني الخاص . انها عربتنا يا روبي .

- حسناً سأبأشر منذ الغد تدريباتي مع فريدا .

ألقت برأسها على كتفي وأحسست أنها متعبة جداً .

- هل أوصلك الآن إلى البيت ؟

- بعد قليل . أريد أن أستلقي هنا بضع دقائق .

استلقت على السرير بهدوء ، وبدون ان تتنفس بكلمة ، وكأنها نائمة ، لكن عينيها كانتا مفتوحتين بينما راحت أضواء الاعلانات من الخارج تنعكس على وجهها . خيم السكون في الخارج ، ولم يكن يقطعه بين الحين والآخر إلا أصوات تحركات

هاسة البطيئة وهو يقوم بنقل بقايا من أماله وزواجه وربما حياته .
- من الافضل ان تبقي الليلة هنا .

نهضت قائلة :

- لا ، ليس الليلة يا عزيزي .
- انني أفضل وأتمنى بقاءك الليلة هنا .
- غداً .

نهضت وسارت بهدوء في الغرفة المظلمة . عادت بي ذاكرتي الى الليلة الاولى التي قضتها بات في هذه الغرفة ، وكيف سارت بنفس هذا الهدوء لترتدي ثيابها مع أول أشعة الصباح . كان في تصرفها الطبيعي كثير من الحنان ، ولكن بالرغم من كل هذا الحنان فقد شعرت ان هناك شيئاً صاعقاً في ثنايا نفسها : فلسفة بالفطرة ، وحي من أزمته اندثرت أو طاعة وانصياع صامت للقدر لم نعد نعرفه في هذه الايام . عادت من الظلمة وامسكت وجهي بيدها .
- كم كان الوقت جميلاً عندك . جميل جداً . وجودك يعني الكثير بالنسبة لي .
لم اجب . لم استطع الاجابة بكلمة واحدة .

* * * *

أوصلتها الى بيتها ثم عدت الى البار حيث كان كوستر .
- اجلس كيف الاحوال عندك ؟
- لست على مايرام يا أوتو .
- ماذا تريد ان تشرب ؟
- أشعر انني بحاجة الى كميات كبيرة منه ، لذا لن أباشر بالشرب . على الامور ان تسير بدونه . سأقوم الآن بعمل آخر . هل أخذ لينس التاكسي ؟
- لا .
- حسناً . سأقوم بالعمل عليها لبضع ساعات . صاحبك معي الى الورشة .
أخرجت السيارة ثم ودعت اوتو وانطلقت الى مكان وقوفي المعتاد . كانت هناك سيارتان مصطفتان أمامي . بعدها انضم الينا جوستاف ومن ثم تومي الممثل .
انطلقت السيارتان الاماميتان ولم البث أن حصلت أنا أيضاً على طلب لتوصيل فتاة إلى فييتنا .

الفيتا هذا كان مرقصاً معروفاً يقصده في الغالب أبناء الريف القادمين إلى المدينة ، وهو ملهى مزود بكل أنواع اللهو التي تتناسب وأذواق هؤلاء الريفيين . يقع هذا الملهى في شارع جانبي مظلم ، بعيداً عن الملاهي الأخرى . توقفنا أمام مدخل المرقص . بدأت الفتاة تبحث عن محفظتها ثم أخرجت ورقة نقدية من ذات الخمسين ماركاً . هزرت لها بكتفي قائلاً :

- المعذرة يا سيدتي ، فأنا لا أحمل معي نقوداً لصرفها .

في تلك اللحظة تقدم منا بواب المرقص .

- هل تستطيع صرفها لنا ؟

- تعالي معي ، فسأصرفها لك من الصندوق .

فتح البواب باب السيارة بعنف وذهب مع الفتاة الى مكان المحاسب ثم عاد .

- خذ .

عددت المبلغ .

- ان المبلغ ناقص .

- هراء . لا تقم بأي عمل والا أحلت لونك إلى لون أخضر والآن إنصرف .

لقد جرت العادة على اعطاء البواب بعض البقشيش إذا قام هو بتأمين طلب لك وليس العكس كما هو اليوم .

- الخضرة في لوني لا تكفيني ، لذا أعطني بقية النقود .

- سأهشم وجهك إن لم تبرح هذا المكان في الحال .

لم تكن النقود التي احتفظ بها لنفسه هي السبب في عنادي ، بل شعوري بالاستغناء . قلت :

- لا تطل الكلام وأعد لي نقودي .

فجأة وبدون سابق إنذار سد لي البواب لكمة قوية وسريعة لم أستطع تداركها أو حماية وجهي منها ، هويت بوجهي على المقود . ثم رفعت رأسي وأحسست بأن طبلًا بات في داخله وبدأ أنفي ينزف . نظرت إليه وقد ظل واقفاً أمامي وقفة تحدي .

- هل انت بحاجة لضربة ثانية ، أنت يا جثة الماء الهامدة . حاولت خلال ثانية

تقييم إمكانياتي ووجدت بأنه لا قبل لي بمواجهته وأنا في مثل هذا الوضع ، فما زلت

جالساً في السيارة كما ان قواي أنهكت ولا أستطيع تسديد ضربة قوية له . نظرت اليه

بعد ان نفخ في وجهي بعضاً من انفاسه العابقة برائحة الجعة .

- محاولة أخرى منك وتصبح زوجتك أرملة .

نظرت إليه دون حراك وحملت في ذلك الوجه العريض المتدفق صحة . التهمته بنظراتي ثم أخذت أفكر في أي جهة ستكون الضربة موجعة أكثر . شعرت بأني أصبحت قطعة من الجليد من شدة غضبي ولكنني لم أتحرك من مكاني . رأيت وجهه بوضوح وكمن ينظر من خلال عدسة مكبرة ، ذلك الوجه ببشرته الحمراء الجافة .

فجأة لمعت خوذة شرطي

- ماذا يجري هنا ؟

حرك البواب وجهه بكل سداجة .

- لا شيء أيها الحارس .

نظر الشرطي إليّ فأجبتة :

- لا شيء .

أجال نظره بيني وبين البواب .

- ولكن أنفك ينزف .

- لقد اصطدمت بسيارتي .

تراجع البواب خطوة الى الوراء وقد لمعت عيناه ببريق النصر ظناً منه بأني لم أش به خوفاً منه .

قال الحارس :

- إذن تابع سيرك .

ضغطت على بدال البنزين وانطلقت عائداً الى الموقف .

بادرني جوستاف بالسؤال لدى رؤيته لي على تلك الحال .

- ماذا حل بك ؟

- انه الانف فقط .

ثم رويت له الحادثة بكاملها .

- ادخل معي إلى الحانة فسأقوم على تضميدك ، لقد كنت مساعد ممرض أثناء

خدمة العلم . انها لوقاحة كبيرة من ذلك النذل بتسديد ضربة كهذه إلى رجل جالس خلف المقود .

اصطحبني إلى مقهى الحانة وطلب قطعاً من الثلج وضعها على الانف ثم قام

بتضميدي ولمدة نصف ساعة كاملة .

- لن تظهر عليك أية ندبة بعد هذا الضهاد العظيم .

- هل تشكو من ألم في رأسك ؟ والآن دعنا نخرج دون إضاعة الوقت .

في تلك اللحظة دخل تومي الحانة وسأل :

- هل كان المعتدي هو بواب الفينيتا ؟ انه مشهور بضرباته ولكن للاسف ، فهو لم يصب ولا مرة واحدة بأذى .

أجابه جوستاف :

- أما اليوم فسينال نصيبه .

أجبتة :

- لا يا جوستاف ، فأنا الوحيد الذي سيوجه له ضرة الثار .

نظر إلي جوستاف بتشكك .

- هل سترجل من سيارتك أولاً ؟

- لا ، لقد فكرت في خطة ثانية ، إذا فشلت سيكون أمامك متسع من الوقت لضربه .

- حسناً !

وضعت قبة جوستاف على رأسي وركبنا سيارته كي لا يلحظ البواب شيئاً وخاصة في تلك الظلمة الشديدة التي تسود الطريق المؤدي الى المرقص . كان الطريق خالياً عندما وصلنا إلى المكان . قفز جوستاف إلى خارج السيارة وبيده ورقة عشرين ماركاً يلوح بها .

- اللعنة . أيها البواب هل لك بصرف هذه الورقة النقدية فأنا لا أحمل المال الكافي لصرفها .

مشى وكأنه يتجه الى صندوق المحاسب بينما اقترب البواب مني . وكالمرة السابقة أخذ مني النقود وأعادها ناقصة بينما بقيت يدي مفتوحة منتظراً منه إعادة المبلغ كاملاً .

هددني ناهراً :

- إنصرف الآن .

- اعطني الباقي أيها الكلب القدر .

وقف للحظة وكأنه تمثال من الحجر .

- سيكلفك هذا التصرف غالباً يا هذا .

قال لي ذلك وسدد لي ضربة قوية ، ولكنني كنت متهيئاً وعمسكاً بيدي اليسرى بسلسلة من الحديد . قفز البواب صارخاً من شدة الألم ووقف هكذا بدون تغطية ،

عندها تراجلت بسرعة من السيارة وسددت له ضربة قوية لمعدته ثم صحت به :
- هل تعرفت عليّ ثانية ؟

هو على الارض وقد باشر جوستاف من الخلف في العد :

واحد ، إثنان ، ثلاثة وعند الخمسة نهض البواب بوجهه وكأنه الزجاج المهشم . نظرت إليه وتذكرت هذا الوجه من قبل . هذا الوجه العريض الصحي ، الغني ، اللثيم . هذا الرجل القوي العضلات ، المكتمل صحة . هذا الخنزير الذي لا يمكنه أن يصاب يوماً بمرض في رئتيه . عندها شعرت بالدم يغلي في عروقي ونار تتأجج في رأسي . هويت عليه وأخذت أكيل له الضربات . أخذت انواع في تلك الضربات كل ما اختزنته في الايام الماضية من يأس وحزن . أخذت أسقطها على ذلك الوجه الممتلئ صحة . وبقيت هكذا حتى أبعدني أحدهم عنه . صاح جوستاف :
- تكاد ترديه قتيلاً يا روبرت .

نظرت حولي فرأيت البواب متكئاً على الحائط وقد أخذ الدم يتدفق من وجهه . عندها انهار على الارض ثم أخذ يزحف على الاربع كالحشرة في اتجاه باب المرقص .
قال جوستاف :

- لن يعود مرة ثانية لضرب أحد بتلك السرعة التي اعتادها . والآن دعنا ننصرف بسرعة قبل مجيء أحدهم . فاصابته بلا شك خطيرة .

رمينا بالنقود على الرصيف وانطلقنا بالسيارة مسرعين مبتعدين عن ذلك المكان .
- هل أنزف أنا أيضاً ، أم ان هذا الذي أشعر به هودم البواب ؟
- عاد أنفك ينزف من جديد ، فقد سد لك ضربة شديدة بيده اليسرى .
- لم أتنبه لذلك .

ضحك جوستاف .

- هل تعلم يا جوستاف انني الآن أحسن حالاً .

كانت سيارتنا التاكسي تقف أمام البار . دخلت لأحل مكان لينس ولاحضر
المفتاح والأوراق . رافقني جوتفريد إلى الخارج .

سألته :

- هل ربحت جيداً من عملك اليوم ؟
- لا بأس ، ولكنني أتساءل ، إما أن السيارات كثيرة ، أو أن عدد من يركب
السيارات قليل جداً . ولكن أخبرني كيف كان عملك في الليلة الفائتة ؟
- سيء جداً . انتظرت الليل بكامله ولم أكسب عشرين ماركاً .

رفع لينس حاجبيه :

- أزمته تعيسة .
- أفهم من كلامك أنك لست في عجلة من أمرك .
- لا ، ولكن لماذا تسأل ؟
- هل تستطيع أن تصطحبني معك إلى مكان قريب ؟
- حسناً .

ركبنا السيارة . سألته :

- إلى أين تريد الذهاب ؟
- إلى الكنيسة .
- ماذا ؟ هل صحيح ما أسمع ، تود الذهاب الى الكنيسة ؟
- نعم يا صديقي ، لقد سمعت جيداً ، أريدك ان توصلني إلى الكنيسة .

نظرت إليه متعجباً :

- لا تعجب بل تابع سيرك .
- حسناً .

وتابعت القيادة .

تقع الكنيسة في القسم القديم من المدينة في مكان واسع تحيطها منازل عدة تخص

القساوسة . توقفت أمام المدخل الرئيسي .

- لا تتوقف هنا ، در حولها إلى الجهة الثانية . أوقفني أمام مدخل خلفي ثم
ترجل .

- أتمنى لك الكثير من الراحة النفسية . السبب في زيارتك اليوم هو كرسي
الاعتراف بلا شك .
- تعال معي .

ضحكت .

- اليوم لا ، فقد قمت بصلاة الصباح وأظنها كافية لهذا اليوم .
- لا تهذي يا طفلي . تعال معي ، فسأكون كريماً معك ، وستكون لك مفاجأة
عندي .

تبعته يدفعني شعور بالفضول . عبرنا المدخل إلى ساحة مربعة الشكل محاطة
بأعمدة من الغرانيت الرمادي اللون . في منتصف الحديقة انتصب صليب قديم .
وقد علق على جدران المكان صور للقديسين ، وأمام كل صورة أقيم مقعد قديم
لمن يؤثر الجلوس والتأمل . كانت الحديقة تمرح في فوضى عامرة ، ولكنها ملأى
بالورد . أشار جوتفريد إلى بعض غرسات الورد الحمراء والبيضاء .
- هذا ما كنت أريدك ان تراه . هل تعرفت على هذه الورد ؟

تجمدت في مكاني من شدة دهشتي .

- بالطبع تعرفت عليها . إذن فمن هذا المكان حصدت باقتك الكبيرة يا سارق
الكنايس .

تذكرت منذ اسبوع تقريباً حين انتقلت بات إلى بنسيون السيدة تساليفسكي ،
أرسل لها لينس بواسطة يوب باقة كبيرة جداً من الورد لم يستطع يوب حملها مرة
واحدة مما اضطره نقلها على مرحلتين . فكرت آنذاك طويلاً ولكن بلا جدوى ،
من أين جاء لينس بها ؟ كنت متيقناً أن لينس لا يملك النقود الكافية لشرائها وأن
الحداثق العامة تفتقر إلى هذا النوع من الورد .
- انها فكرة رائعة ولكنها لم تحظر بيالي قط .

ضحك لينس بسخرية .

- هذه الحديقة تساوي منجم ذهب .

ثم احاط كتفي بذراعه بطريقته الأبوية .

- إنني أعلن امام الملأ وفي هذه اللحظة انك اصبحت شريكاً لي في هذه الحديقة .

لا تنس انك الآن في أشد الحاجة لمثل هذا المكان .

سألته :

- ماذا تعني الآن ؟

- لأن الحداثق العامة التي كانت مصدر رزقك تخلو من الورد في مثل هذه الأيام . اليس كذلك يا صغيري ؟

حنيت رأسي موافقاً . أما هو فتابع حديثه واعظاً .

- علاوة على ذلك فانك تخضع الآن لفترة اختبار هامة يتحدد بعدها ان كنت فارساً أو بورجوازيأ في أخلاقتك . الانسان البورجوازي يفقد الاهتمام كلما زادت معرفته بالمرأة ، اما الفارس فهو عكسه تماماً .

ثم قام بحركة كبيرة بيده مشيراً إلى غرسات الورد .

- بواسطتها تستطيع ان تصبح الفارس الذي لا يقهر .

ضحكت .

- كل هذا صحيح ، ولكن قل لي ما العمل لو اكتشفنا أحدهم أثناء السرقة ؟ من الصعب الفرار ، وأنت أعلم مني بنفوس المؤمنين الذين يعتبرون تصرفنا هذا خرقاً لحرمة الأماكن المقدسة .

- يا عزيزي . هل ترى أحدهم هنا ؟ لقد انصرف الناس منذ الحرب عن زيارة الكنائس ، والتحقوا بالتجمعات السياسية .

- هذا قول صحيح أيضاً ولكن ماذا عن القساوسة ؟

- القساوسة لا يهتمون بالورد والا لما كانت الحديقة مهملة على هذا الشكل . أما بالنسبة للاله فهو ليس بهذا الظلم كما يروى عنه . انه سيفرح حتماً عندما يراك تحمل باقة كبيرة من الورد لتدخل السعادة الى قلب من تحب .
- أنت محق فيما تقول .

وأخذت امعن النظر في تلك الورد .

- شكراً لك يا لينس فلقد زودتني بما أحتاجه من ورد لاسباع قادمة .

- ليس لاسباع فقط بل مدة أطول يا صاحب الحظ ، فهذا الصنف من الورد يبقى مزهراً لفترة طويلة جداً ، حتى أوائل شهر تشرين الثاني . وبعدها تنتقل إلى نوع آخر من الازهار موجودة ايضاً في هذه الحديقة تعال وانظر .

مشينا في الحديقة العابقة بأريج الورد ، وكغمامة سوداء مرت أمامنا أسراب من النحل متنقلة من زهرة إلى زهرة .

- أنظر إليها .

ووقفت أتأملها .

- ولكن من أين تأتي مجموعة كبيرة من النحل في وسط مدينة كبيرة كهذه ؟ انني لا أرى المصدر في هذه الحديقة ، أو هل تظن ان القاوسة يضعون سلال النحل على الاسطحة ؟

أجاب لينس :

- لا أيها الأخ . انها تأتي حتماً من إحدى المزارع البعيدة ولكنها تعرف طريقها جيداً .

قال ذلك وغمز بعينه ثم تابع :

- أما نحن الاشقياء ، فلا نعرف طريقنا . ما رأيك ؟

رفعت كتفي متسائلاً .

- ربما تعرفه ولكن لمسافة قصيرة فقط وللمدى الذي تستطيع تحمله ألا تعرف طريقك ؟

- لا ، لا أريد معرفته ، فالاهداف تجعل الحياة مملة .

رفعت نظري إلى قبة الكنيسة ، لونها بخضرة الحرير ، غاية في القدم والهدوء ، وتحيطها أسراب من السنونو .

- نعم يا رفيقي القديم . هنا يشعر المرء بأن الزمن قد فاته ليصبح إنساناً جيداً .

- الوقت والهدوء . نعم الهدوء .

ضحك .

- فات الاوان ، فلقد اصبح الهدوء يخنقنا ، لذا دعنا نعود ثانية لننتقل وسط

الزحام .

* * * *

أوصلت جوتفريد وتابعت سيرتي إلى موقف السيارات . مررت بطريقي على المقبرة وفكرت في بات المستلقية الآن في كرسيها الهزاز على الشرفة . لذا ضغطت على بوق السيارة عدة مرات ولكنها لم تطل ، فتابعت سيرتي ، وعلى زاوية الشارع لمحت السيدة هاسة متدثرة بشال من الحرير . لحقت بها لأسأله إن كانت تود أن أوصلها إلى مكان ما . ولكنني عندما اقتربت من تقاطع الطريق رأيتها تصعد إلى سيارة تقف على زاوية الشارع . كانت السيارة مرسيدس قديمة موديل ٢٣ ، انطلقت حال صعود السيدة هاسة إليها ، يقودها رجل له أنف كمنقار الاوزة ويرتدي بزة مصنوعة من

قماش كارو . تابعت السيارة بنظري حتى اختفت . ان ما رأيت هو بلا شك نهاية أية امرأة تمضي معظم أوقاتها في وحدة قاتلة بين جدران بيتها ، شردت بأفكاري بينما كنت متجهاً بسيارتي إلى مركز الانطلاق . وصلت واصطففت خلف بقية السيارات . كانت أشعة الشمس القوية تحمّل السيارة إلى فرن متوهج . ففتحت النوافذ وبدأت أنتظر . طال انتظاري . حاولت النوم ولكن خيال السيدة هاسة لم يفارق مخيلتي . بالطبع طريقها مختلفة تماماً ، فبات تمضي النهار بكامله وحيدة في غرفتها كذلك .

ترجلت ومشيت إلى سيارة جوستاف التي كانت تقف في المقدمة .
- خذ واشرب .

ومد لي يده حاملاً ترموس القهوة .

- انها باردة جداً ، اختراعي قهوة مع الثلج وتبقى هكذا لساعات طوال بالرغم من حرارة الجو المرتفعة .

إن جوستاف مشهور بتفكيره العملي . تناولت فنجاناً من القهوة المثلجة وشربتها .

- قل لي أيها الرجل العملي ، ما هي الطريقة للملء فراغ امرأة تقبع النهار بطوله وحيدة في بيتها ؟
- يا له من سؤال بسيط .

وراح ينظر إلي نظرة المنتصر ثم تابع :

- يا إلهي يا روبرت . طفل أو كلب يملان المشكل ولكن أرجوك ان تسألني سؤالاً أصعب .

- كلب . يا للجنة ، نعم كلب . انك محق بلا شك . فالكلب يساعد في تبديد وحدة صاحبه .

قدمت له سيجارة .

- قل لي . هل لك خبرة بأصناف الكلاب . لا بد وان سعر الكلاب متدن في هذه الفترة .

هز جوستاف رأسه معاتباً .

- ذلك على ما يبدو يا عزيزي روبرت لا تقدر مواهبي بعد . ان عمي مستقبلاً نائب رئيس جمعية الكلاب وستحصل على كلب رضيع بلا مقابل . فلقد أنجبت كلبته في الاسبوع المنصرم أربعة جراء ولا تنس ان جدتهم هي الفائزة المشهورة .

ان جوستاف رجل حسن الطالع ، فعمه المستقبلي العتيد ، إضافة الى كونه نائب

رئيس جمعية الكلاب فهو يمتلك أيضاً حانة ، وابنته زوجة المستقبل ، تمتلك مكوى . حياة جوستاف تسير بلا تعقيد ، يشرب ويتناول طعامه عند عمه وبلا مقابل ، بينما تقوم الخطيبة على غسل وكفي ملابسه . انه حالياً لا يفكر بالزواج ، حيث ان دخله لا يكفي لاعالة عائلته بكاملها ، وهذا ما يخافه جوستاف . اوضحت له رغبتى في اقتناء كلب من نوع دوبرمان. فحجمه كبير وذو مزاج غير مستقر . فكر جوستاف قليلاً وقال :

- تعال معي وسأختار لك كلباً آخر ولكن حاول أن لا تتدخل في قراراتى .
- اتفقنا .

أخذني إلى متجر صغير ، تزين واجهته بعض احواض السمك القديمة بينما تكومت في إحدى السلالات القديمة مجموعة من الارانب الغينية (ارانب هندية) وعلى الجدران علفت أفضاص تحوي بعض البلابل وانواعاً اخرى من الطيور .

استقبلنا رجل مسن ذو أرجل معوجة يرتدي صداراً صوفياً « حياكة يد » له عينان مائتان ، بشرة شاحبة وأنف كعرنوس ذرة . لا بد انه رجل كحولي .
سأله جوستاف :

- قل لي يا أنطون ما هي اخبار أستا .

- حازت على الجائزة الثانية وعلى مرتبة شرف في كولون .

- انها لقدارة حقاً ، ولكن لماذا لم تحصل على الجائزة الاولى . تتمم انطون .

- الجائزة الاولى كانت من نصيب بلانكيثيلز .

- ليس من عادتي اختلاق القصص ، ولكنى متأكد بأن الجائزة أعطيت لها عن طريق الوساطة .

تناهى إلى أسماعنا من الغرفة الخلفية نباح كلاب .

دخل جوستاف الغرفة ثم عاد منها حاملاً كلبين من نوع تيرير ، الأول أبيض وأسود والثاني أحمر بني . أخذت يد جوستاف التي تحمل الكلب الاخير تتحرك بشكل خفي . نظرت اليه ملياً وفهمت .

كان الكلب الأحمر جميلاً جداً ، لعوباً ، له أرجل مستقيمة ، جسمه مستطيل ورأسه مربع ، ذكي ووقح . انزل جوستاف الكلبين .

- انه حيوان غريب ، من أين أتيت به ؟

قال جوستاف وأشار بيده الى الكلب البني .

زعم أنطون بانه اشتراه من سيدة هاجرت إلى أميركا الجنوبية ، فلم يستطع

جوستاف كبح ضحكة عالية . ولكن أنطون الذي ظهرت عليه علائم الامتعاض أخرج شجرة العائلة التي تعود بابنائها إلى سفينة نوح .

أشاح جوستاف بيده رافضاً وأشار الى الكلب الأبيض والأسود ، طلب أنطون مئة مارك ثمناً للكلب البني ولكن جوستاف عرض عليه خمسة ماركات فقط ، متذرعاً بعدم عراقه جده كما انه شديد التلاعب بذنبه ، علاوة على ذلك فاذناه ليستا انيقتين ، أما الكلب الاسود والابيض فهو حيوان كامل . وقفت في إحدى زوايا المتجر أستمع إلى ذلك الحوار ، وإذ بقرد صغير يمسك قبعتي ويجلس متكوراً على عصاه له جلد أصفر ووجه حزين . عيناه سوداوان مستديرتان وشفاهه حاقدة شفاه عجوز . أحاط بطنه حزام جلدي ربطت به سلسلة حديدية ، أما يدها فصغيرتان سوداوان تشبهان إلى حد كبير يدي الانسان . وقفت أتأمله بهدوء ، أما هو فأخذ يقترب مني ببطء ناظراً إليّ . لم تكن نظرتة نظرة شك ، بل على العكس كانت نظرة فطنة متوقدة ، وأخيراً وبحذر شديد مد لي يده فمددت له بدوري أحد أصابعي . إرتعش قليلاً ثم امسك بها . شعرت بيده الرطبة الملتفة حول إصبعي وكأنها يد طفل وكان في داخل ذلك الحيوان المتكور إنساناً مسكيناً يطلب الخلاص . لم أستطع إطالة النظر إلى تلك العيون التي تحمل في داخلها حزناً كبيراً كحزن الموت .

رفع جوستاف نظره عن عشرات الأوراق التي ضاقت بسلالة الكلاب .
- اذن اتفقنا يا أنطون . فانت ستحصل على كلب اصيل من نادي الكلاب مقابل احتفاظنا بهذا الكلب . انها صفقة العمر بالنسبة لك .

ثم وجه حديثه لي .

- هل ستأخذه معك في الحال .

- ما ثمنه .

- لا شيء ، لقد أبدلناه بالكلب الاصيل الذي أهديتك اياه من قبل . عليك ان

تثق بي يا عزيزي وتعتبر حلولي صافية كالذهب .

اتفقنا على أن أمر عليه بعد انتهائي من عملي لاصطحب الكلب .

سألني جوستاف عندما اصبحنا خارج المتجر .

- هل تدرك قيمة ما حصلت عليه الآن ؟

ثم تابع قوله بحماس بالغ :

- انه حيوان فريد ؛ تيرير إيرلندي ، صنف أول وخالي العيوب ينحدر من سلالة

عريقة جداً . لا يمكنك ايها العزيز روبرت إطالة النظر اليه والا توجب عليك

الانحناء قبل ان تخاطبه .

- يا عزيزي جوستاف ، لقد أسديت لي خدمة كبيرة ، لذا دعنا نجوب الحانات
علنا نصيب أمتع كونياك ونشرب نخب صداقتنا .
- اليوم لا ، فلدي موعد في نادي البولو وعليّ أن أحافظ على إتزان يدي . عدني
بأن ترافقني يوماً إلى هذا النادي فاعضائه من الطبقة المرموقة وبينهم على ما أظن
مفتش دولة .
- أعدك بذلك ولو تخلف ذلك المفتش عن الحضور .

* * * *

عدت في الساعة السادسة مساء الى الورشة ووجدت كوستر في انتظاري .
- اتصل بنا البروفيسور وينتظر منك أن تكلمه .
وللحظة شعرت بأنفاسي قد توقفت .
- هل زودك بمعلومات محددة يا اوتو ؟
- لا ، ولكن أخبرني بانه سيلازم عيادته حتى الخامسة وبعدها سيذهب إلى
المشفى ، عليك الآن أن تتصل به في المشفى .
- حسناً !
دخلت المكتب وبالرغم من حرارة الجو شعرت بالبرد وبقشعريرة تجتاحني .
رفعت ساعة الهاتف بيد مرتعشة .
- يا للعنة .
واسندت يدي بقوة على المنضدة ، طال انتظاري ولكن بعدها جاءني صوته عبر
الاسلاك . سألني :
- هل لديك الآن وقت ؟
- نعم .
- إذن وافني في الحال فامامي ساعة من الوقت .
وددت سؤاله عن بات وهل حدث لها مكروه ولكنني لم أجرؤ على ذلك .
- حسناً ، سأكون عندك في خلال عشر دقائق .
أغلقت الساعة ، ثم رفعتها مرة ثانية وطلبت البنسيون .
ردت علي فريدا بصوتها المتذمر .
- لست متأكدة من وجودها ، ولكنني سأذهب إلى غرفتها .
شعرت بثقل في رأسي وكأن ناراً تشتعل داخله . طال انتظاري ومن ثم سمعت
صوت بات .

- روبي .

اغمضت لفترة عيني .

- كيف حالك يا بات .

- جيدة . كنت جالسة في الشرفة اقرأ كتاباً مثيراً حتى هذه الساعة .

- هكذا : كتاب مثير . عظيم أردت فقط ان أعلمك بأنني سأتأخر قليلاً في

العودة فلا تقلقي . هل انتهيت من قراءة الكتاب ؟

- لا ، فأنا في منتصفه وأحتاج إلى عدة ساعات لاتمام قراءته

- حتى ذلك الوقت سأكون حتماً بقربك . عودي حالاً إلى الشرفة وتابعي قراءته .

بقيت جالساً لفترة ثم نهضت .

- أوتو ، هل تعطيني كارل لمدة ساعتين ؟

- بالطبع ، وإن شئت فسارافكك فلا عمل لدي كما ترى .

- لا تزعج نفسك ، وبات في البيت ولا خوف عليها .

كان الغروب في أوله عندما انطلقت بكارل . ياله من شعاع رائع ذلك الشعاع

المتسرب من خلال الاسطحة . كم هي مفعمة وحلوة هذه الحياة .

انتظرت عدة دقائق قبل دخولي مكتب جافه ، قادتني ممرضة إلى غرفة صغيرة

تناثرت فيها بعض المجلات والجرائد ، وعلى ناصية النافذة وضعت أصص نباتات

خضراء .

المجلات بجلدتها البنية والنباتات الخضراء الحزينة ، جميعها تذكر بالمشافي وغرف

الانتظار . دخل جافه بلباسه الابيض المكوي النظيف . عندما اقترب مني شاهدت

بقعة دم حمراء على الجانب الداخلي لثوبه الابيض . أثارت هذه البقعة الصغيرة في

نفسي ضيقاً كبيراً لم تثره شلالات الدم الكثيرة التي رأيتها خلال الحرب . شعرت

بصوتي يحنن . بادرني جافه القول :

- وعدتك أن أكون صريحاً معك وأن أعلمك عن كل ما يتعلق بمرض الأنسة

هولمان .

هزرت رأسي وحملت في غطاء المنضدة بألوانه الزاهية .

قلت في نفسي : إذا استطعت الاستمرار في الحملقة ودون أن يرف جفني حتى

نهاية الحديث مع البروفيسور ، فلن يصيب بات أي مكروه .

- لقد قضت بات ستة أشهر في أحد المصححات منذ سنتين . هل تعلم ذلك ؟

- لا .

وتابعت الحملقة في غطاء الطاولة .

- منذ ذلك تحسنت صحتها . عاودت فحصها في الاسبوع الماضي وتوصلت إلى ضرورة إعادتها للمصح ، ولمدة ستة أشهر أخرى . إذ لا يمكنها البقاء هنا في المدينة . كنت ما أزال محملاً في غطاء الطاولة ولكنني شعرت أن الأشياء بدأت تتراقص أمامي .

- ومتى يتوجب رحيلها ؟

- في الخريف ، نهاية تشرين الاول في أقصى حد .
- إذن فما أصابها لم يكن نزيفاً عابراً .

ركزت فيه نظري ، فتابع قوله :

- لست بحاجة لايضاح قساوة هذا المرض وخطورته . لقد بدأت بعض الكهوف السلية في التكلس قبل سنة وكان هذا بداية طريق الشفاء ولكن توقعاتي خابت حيث أن الجرثوم بدأ ينهش بجدار الكهف المتكلس مما سبب لها ذلك التزيف . وكما ظهر هذا التزيف فجأة فهناك أمل في ان يتراجع فجأة أيضاً . لقد شاهدت حياتي الطبية حالات شفاء غريبة لا أستطيع تعليلها بالمنطق .
- وحالات مستعصية أيضاً .

نظر إلي قائلاً :

- بالطبع حالات كثيرة أيضاً .

بدأ البريفيسور يوضح لي دقائق المرض . فالرئتان مصابتان بالسل ولكن الرئة اليمنى أقل عطباً من اليسرى . ثم توقف عن الحديث ، قرع الجرس مستدعيًا الممرضة .

- احضري لي السجل الخاص المتعلق بالأنسة هولان .

وافته به فوراً . تناوله جافه وأخرج منه صورتين شعاعيتين كبيرتين للصدر ورفعها باتجاه النافذة .

- هذه الصور الشعاعية تريك الامور بوضوح أكثر .

فشاهدت من خلال الصورتين فقرات الظهر ، عظام الاكتاف ، عظمة الترقوة ، مفاصل الذراعين وأضلاع الصدر المعوجة كالكوس ، ولكن لم يكن هذا كل ما رأيت . فلقد شاهدت هيكلًا عظمياً يخرج إلى كشيح رمادي من تلك الصورة السوداء ، شاهدت هيكل بات العظمي . أخذ جافه يرسم بريشته دوائر حول مناطق معينة على تلك الصورة . لم يلاحظ أنني لم أعد أتبع شرحه واستمر في عمله العلمي الدقيق . بعدها توجه إلي قائلاً :

- هل فهمت ما حاولت شرحه ؟

- نعم .

- ما رأيك ؟

- لا شيء ، ولكنني لم أعد أستطيع الرؤية بوضوح .

- هكذا .

عدل وضع نظارته ، أعاد الصور إلى مكانها ثم توجه إلى بنظرة فاحصة .

- لا تشغل نفسك بأفكار عقيمة .

- لا توجد عندي أفكار عقيمة . ولكن ما يشغلني هو هذا الشقاء اللعين لماذا يرفل

ملايين البشر بالصحة وهي لا ؟

صمت جافه فترة .

- لا أحد يستطيع اجابتك على هذا السؤال .

- نعم .

أجبت وشعرت فجأة بمرارة كبيرة تجتاحني وبغضب كبير يصم أذني .

- لا احد يستطيع الاجابة . بالطبع لا . وهل يستطيع أحد الاجابة عن سر الشقاء

والبؤس . يا للجنة . الشقاء الحقيقي هو معرفة الامور والوقوف بعجز أمامها .

نظر إلى جافه طويلاً .

- المذرة ولكنني لا أستطيع الكذب على نفسي وهنا تكمن اللعنة .

سألني :

- هل لديك بعض الوقت ؟

- نعم ، فالوقت كثير .

نهض .

- علي الآن القيام بجولتي المسائية في المشفى وأريدك أن تصحبنى فيها . ستعطيك

المرضة ثوباً أبيض وهكذا ستبدو أمام المرضى كمساعدتي . لم أدرك ما كان يرمي

إليه . وبالرغم من عدم إدراكي الأمر ، ارتديت الثوب الابيض الذي جاءتنى به

المرضة .

عبرنا الدهليز الذي استضاء بشعاع الشفق ذي اللون الوردى المتسرب عبر النوافذ

الواسعة وسبح المكان في ذلك الضوء الهادئ الخافت فبدا كسفينة تبحر في

اللامعقول .

فتح جافه أحد الابواب ، فقابلتنا رائحة متعفنة خانقة . رفعت امرأة يدها المتعبة

وبدا شعرها الاشقر وكأنه سباتك من الذهب تحت انعكاس الضوء . جينها دقيق نبيل ولكن تحت عينيها ظهرت ضمادات وصلت حتى فمها . أزاح جافه الضهاد بحذر ، فرأيت أن المرأة فقدت أنفها وكل ما تبقى من تجويف أحمر وبقايا ، وثقبان . أعاد جافه وضع الضهاد .
- حسناً !

قال جافه بلطف ثم استدار وخرج من الغرفة وأنا اتبعه ، مغلقاً الباب ورائي . واتجه الى الغرفة المجاورة . استقبلتنا في تلك الغرفة حشرجة وارتمجاف انسان في نزعه الاخير . لون وجهه بلون الفولاذ تتخلله بقع حمراء كبيرة . فمه مفتوح وعيناه جاحظتان من مجحريهما وقد راحت يدها تلمسان الغطاء بشكل عصبي . كان الرجل يعيش في غيبوبة كاملة وترفع حروري ، هذا ما أشار إليه المخطط البياني الأحمر المرسوم في الطبلية المعلقة على مؤخرة سريرة ، والتي وصلت الى ٤٠ درجة .

بجانب سريره جلست ممرضة تقرأ ، ما لبثت أن وضعت الكتاب جانباً ووقفت عندما دخل جافه الغرفة .

نظر إلى الطبلية وهز رأسه قائلاً :

- التهاب رئوي مع التهاب ذات الجنب . بعد ان تماثل للشفاء عاوده المرض . منذ اسبوع وهو يصارع الموت كالثور . لقد دخل حياة العمل الشاق وهو صغير السن . له زوجة وأربعة أطفال . لا أمل في شفائه .

استمع إلى دقات قلبه وجس نبضه ، بينما راحت الممرضة تساعده . سقط الكتاب على الارض . تناولته من الارض ونظرت اليه : كتاب طهي . أما الرجل في السرير فاستمر في تحسس الغطاء بعصبية بيديه اللتين بدتا كنسج العنكبوت . صوت حركة يديه كان الصوت الوحيد المسموع في الغرفة .

توجه جافه بكلامه للممرضة :

- عليك ان تلازميه طوال الليل .

خرجنا إلى الدهليز الذي امتلأ بشعاع الشفق وغطاه بسحابة وردية .

- هذا الضوء اللعين .

- لماذا ؟

سألني جافه :

- انه يتناسب وأضواء تلك الحجرات .

- بل على العكس .

شاهدت في الغرفة المجاورة امرأة مستلقية في الفراش تتنفس بصعوبة . أدخلت المشفى بعد ظهر ذلك اليوم بسبب تسمم ناجم عن ابتلاع عدد كبير من الاقراص المهدئة . كان زوجها قد توفي في اليوم السابق إثر حادث سيارة أدى إلى كسر عموده الفقري ، حمل إلى البيت في حالة وعي كامل ولكنه توفي في الليل بين يدي زوجته .

- هل ستنجو؟

- بالتأكيد .

- ولكن لماذا؟

- مرت بي خمس حالات مشابهة في الستين الماضيتين ، واحدة فقط عادت الانتحار عن طريق الغاز وتوفيت ، اثنتان من الخمس تزوجتا للمرة الثانية .

كان يرقد في الغرفة المجاورة رجل مصاب بالشلل منذ اثني عشرة سنة ، لون بشرته اصفر كالشحم ، له لحية صغيرة سوداء وعينان واسعتان هادئتان .

سأله جافه .

- كيف حالك اليوم؟

قام بحركة غامضة بيده وأشار الى النافذة .

- انظر إلى السماء فالمطر سينهمر عما قريب ، فأنا إحس بذلك .

ابتسم ثم تابع :

- عندما تمطر السماء ، ينام الانسان بارتياح كبير .

أمامه وعلى السرير ثبتت لوحة شطرنج ، أحجارها مغناطيسية والى جانبيها عدد من

الجرائد والكتب .

تابعنا جولتنا . ولشد ما أثار انتباهنا امرأة مستقلة بعيون مرتاعة وشفاه زرق ، بدت منهكة متعبة من جراء ولادة صعبة وبعدها مررنا بطفل مشلول ، ساقاه معوجتان واهنتان نتيجة استسقاء دماغي . ثم رأينا رجلاً أعمل مبضع الجراح في معدته قصاً وبتراً . وفي الطرف الآخر استلقت عجوز شمطاء شوهاء تشكو وحدتها . فأقرباؤها قد انفصوا من حولها لموتها البطيء ، فكانت اشبه بيومة هرمة ، فهي عمياء ولكنها متأكدة من انها ستبصر يوماً . ووقع بصرنا على طفل طري العود غض الاهداب فتح عينيه على الحياة وهو يحمل في دمه جرثومة الزهري ، وقد غطت بشرته بقع دموية ويجلس إلى جانب سريريه . ثم شاهدت امرأة تنتظر استئصال ثديها في اليوم التالي والى جانبيها تكورت امرأة من شدة آلام الروماتيزم ، وأخرى ستجرى لها عملية استئصال المبيض ، كما وقع نظري على عامل ، كليته مزققتان . وهكذا مررنا بغرفة بعد غرفة ، نقابل في كل منها الالم والتأوه . اجسام متشنجة بلا حراك ،

اشباح آدميين أطفأ المرض حيويتهم . كتل بشرية . . مسلسل مرعب من البؤس والخوف والاستسلام والالام والضياع والأمل والضيق . وفي كل مرة نخرج من هذه الغرف يقابلنا ذلك الضوء الوردي لأمسية سهاوية . وبعد كل مظهر من مظاهر الهول في زرنانات الرعب كانت تعود تلك السحابة الهادئة ببريقها الذهبي لتثير تساؤلات في نفسي عما إذا كانت تمثل صورة صادقة عن سخرية القدر أم عن العزاء الالهي .

توقف البروفيسور أمام مدخل غرفة العمليات . اخترق ضوء مشع الباب الزجاجي بينا جرت ممرضتان أمامها عربة عليها امرأة مستلقية . تلاققت نظراتنا ولكنني شعرت بأنها لم ترني ، فنظرها كان سابحاً في البعيد . ارتجفت من تلك العيون الممتلئة بالشجاعة والانضباط والهدوء .

التفت الى جفاه الذي بدا الاجهاد واضحاً على وجهه فجأة .
- لست أعلم مدى صحة ما قمت به ، ولكنني كنت متأكداً من أن الكلام وحده لا يجدي نفعاً ولن يجعلك تصدق ما كنت سأقوله لك . لقد شاهدت بنفسك هؤلاء المرضى والذين هم أكثر مرضاً من الأنسة هولمان . بعضهم لا يملك إلا الأمل ولكن ثق بأن معظمهم سيتعافى ويعود صحيحاً . هذا ما أردت أن تشاهده .

حنيت برأسي موافقاً .

لقد كان تصرفه حكيماً في إقناعي .

- توفيت زوجتي منذ تسع سنوات ولها من العمر خمس وعشرون ربيعاً . لم تشك المرض طيلة حياتها . داهمتها الانفلونزا فأودت بحياتها .

صمت برهة ثم تابع حديثه :

- انك تعي جيداً السبب الذي حملني على مصارحتك بهذا .

حنيت رأسي مرة ثانية .

- لا يستطيع أحد التكهن بهذه الأمور ، فكما شاهدت الحياة تستمر لكثير من ذوي الأمراض المستعصية بينا يفقد كثير من الاصحاء حياتهم بسرعة . فيا لغرابة القدر والحياة .

دنت منه إحدى الممرضات وهمست في أذنه . تلملم في وقفته ثم أشار بيده المتعبة إلى غرفة العمليات . عندها شاهدت ولأول مرة منذ تعرفت عليه أن الايام قد حفرت أحاديدها على وجهه .

- أما الآن فعلي القيام بعملية جراحية . فان كنت بائساً مكتئباً فلا تدع بات تلمحظ ذلك . فهذه أكبر خدمة تسديها لها .

- أجل سأحاول .

صافحني مودعاً ومضى مسرعاً بصحبة المريضة إلى تلك الغرفة المشعة البيضاء
كلون الكلس .

هبطت السلم المعتم ببطء إلى الطابق الأرضي المضاء باضواء النيون . ثم خرجت
من المشفى . وقفت على الرصيف ورفعت بصري لأنظر إلى تلك السحابة الوردية
التي باغتني لونها الرمادي الحقيقي .

* * * *

ركبت السيارة وجلست خلف المقود بلا حراك أحرق بالمجهول . مضت علي فترة
وأنا على هذه الحال . بعدها تماكنت نفسي وانطلقت بسيارتي إلى الورشة حيث
وجدت كوستر بانتظاري .

سألته :

- اكنت على علم بكل هذا ؟

- نعم ولكن البروفيسور أصر على إعلامك إياه بنفسه .

نظر كوستر إلي .

- أوتو .

قلت له .

- إنني لست طفلاً وأعلم ان الامور لم تنته بعد . ولكنني لست متأكداً من قدرتي
على كبت مشاعري لو بقيت هذه الليلة بمفردتي مع بات . اخرج معنا الليلة ؟
- بالطبع يا روبي . فأنا بدوري فكرت في الأمر وتكلمت مع جوتفريد بهذا
الخصوص .

- إذن أعطني كارل . سأذهب أولاً لأحضر باتريس ثم أعود اليكم بعد ساعة .

- حسناً !

انطلقت مسرعاً ، واثناء الطريق تذكرت الكلب ، فعدت أدراجي لأحضره . لم
يكن المتجر مضاء ولكن بابه كان مفتوحاً دخلت فوجدت أنطون جالساً على سرير
حديدتي وممسكاً بيده زجاجة خمر .
- لقد خدعني جوستاف كعادته .

قالها وقد فاحت من فمه رائحة الخمرة . في تلك اللحظة دخل الكلب الغرفة .
هجم عليّ وأخذ يلحس يدي ، وقد التمتعت عيناه الخضراوان . نهض أنطون مترنحاً

ثم أجهش بالبكاء .

- آه ، يا كلبى الصغير . ستفارقني أنت أيضاً . جميعهم يذهبون وأبقى أنا وحيداً . ماتت ماتيلدا وذهبت مينا . أصدقني القول يا سيدي . لماذا نحيا ؟ ما هو الهدف الذي نحيا من أجله ؟

فكرت قليلاً : أما كان يكفي ما لاقيته ورأيته من مأسٍ وفواجع هذا اليوم لأجد نفسي في المتجر التعيس مع صوت زحف السلحفاة ، ورؤية الطيور الحبيسة وهذا الرجل المنتفخ من كثرة الشرب ؟
- الاغنياء يعرفون جواباً لسؤالي ولكنني أكرر عليك السؤال نفسه يا سيدي . لماذا نحن معشر التعساء ؟

في تلك اللحظة أطلق القرد صيحاً شاكياً وأخذ يقفز بعصبية على عصاه بينما أخذ الكبير يرسم قفزاته على الحائط .
- كوكو .

ناداه الرجل المسن شاهقاً .

- تعال إلي يا أنيسي الوحيد .

ومد إليه يده بالزجاجة فتناولها القرد .

- إنك تقضي عليه باعطائه الخمرة .

- ما الفائدة من بقاءه عدة سنوات أخرى سجيناً مقيداً بهذه السلاسل لم تعد للاشياء قيمة عندي . فكل الأمور سواسية عندي . كل الأمور سواسية في نظري .

أخذت الكلب الذي كان يلتصق بي بدفء وخرجت . مشى الى جانبي بخطوات واسعة هادئة متجهاً الى السيارة . وصلت المنزل ومشيت بحذر ممسكاً بالحبل الذي ربطه . وقفت في الدهليز ونظرت إلى وجهي في المرأة ، تصنعت الفرحة فارتسمت خطوطه على وجهي .

* * * *

قرعت باب بات ثم فتحته بحذر وادخلت الكلب بينما وقفت انتظر في الخارج . وعلى عكس توقعاتي سمعت من الداخل صوت السيدة تساليفسكي .
- يا رب السماء .

تنفست الصعداء ودخلت . كنت متخوفاً من الدقائق الاولى للقائي ببات . أما الآن فما هي السيدة تساليفسكي أفضل إنسانة يمكنها مساعدتي في تخطي هذا الموقف . دخلت ورأيتها تجلس بأبهة ووقار خلف المنضدة ، وإلى جانبها فنجان من

القهوة وقد نثرت أمامها أوراق اللعب . أما بات فجلست إلى جانبها بعينها المتألفتين تستمع بشغف إلى تنبؤاتها عن المستقبل .
- مساء الخير .
قلت فرحاً .

أجابت السيدة تساليفسكي بلهجتها الملكية .
- ها هو قد جاء . نعم لقد جاء مع غروب الشمس مصطحباً رجلاً أسود سيغدو يوماً سيد المنزل .

في تلك اللحظة اندفع الكلب بين أقدامي ليتجاوزني إلى داخل الغرفة . صاحت بات .
- يا إلهي . انه تيرير إيرلندي .
- لك تقديري ، فانا لم اكن قد سمعت بهذا التيرير الايرلندي إلا من بضع ساعات فقط .

انحنت اليه فاندفع إليها الكلب بحرارة .
- ما اسمه يا روبي ؟
- لا اعرف بعد . ربما كونياك أو ويسكي نسبة للملكه الأخير .
- هل يعني هذا انه اصبح ملكاً لنا ؟
- إذا صح امتلاك كائن حي لآخر فهو لنا .
شعرت بأنفاسها تتسارع من شدة فرحها .
- سنسميه بيللي يا روبي . كان لوالدتي كلب قبل زواجها وكان اسمه بيللي أيضاً .

لعلي احسنت الاختيار على ما يبدو .

سالت السيدة تساليفسكي

- هل هو نظيف ؟

- انه ينحدر من سلالة النبلاء . والنبلاء كما تعرفين يا سيدتي يحافظون على نظافتهم .

- ولكنهم لا يستطيعون ذلك عندما يكونون اطفالاً . كم عمره ؟

- ثمانية أشهر ، أي ما يعادل الست عشرة عاماً من عمر البشر .

- مظهره يوحي بأنه لم يتدرب على المحافظة على نظافته بعد .

أجبتها :

- انه بحاجة لحمام فقط .

نهضت بات وأحاطت السيدة تساليفسكي بذراعيها .

تأملتها باعجاب .

- كنت تمنيت العمر كله ان يصبح لي كلب . سوف تأذنين لنا بالاحتفاظ به اليس

كذلك ؟

ولأول مرة منذ معرفتي بالسيد تساليفسكي رأيته تتورد خجلاً .

- إذا كان الأمر متعلقاً بي فلا مانع لدي ، لقد أنبأتنا أوراق اللعب بذلك .

مفاجأة تأتينا عن طريق سيد المنزل .

- وهل أنبأتكم الأوراق بأننا سنخرج الليلة لنتفصح ؟

ضحكت بات :

- لم نكمل قراءتنا بعد . فلقد توقفنا عندك .

نهضت السيدة تساليفسكي ولملمت أوراقها .

- البعض يصدق ما تقوله الأوراق والبعض يرفض تصديقها . في بعض الاحيان

يقروها البعض بشكل عكسي كما كان الحال مع المرحوم تساليفسكي . كانت ورقة

التسعة سباتي الدمار الذي سيحل به عن طريق المواد السائلة . ومن هنا جاء خوفه

من الماء . كانت النتيجة ان الخمرة والجمعة سببت وفاته .

- بات .

احتويتها بين أحضاني بعد أن غادرتنا السيدة تساليفسكي .

- بات يا عزيزتي . كم تروفتي العودة إلى البيت . انني أشعر أن هناك مفاجأة

تنتظرنني كل يوم . انتظارك لي لدى عودتي وحين أصعد درجات السلم الاخيرة يبدأ

قلبي في الخفقان خوفاً من أن يبدد حلمي فلا أراك .

نظرت إليّ وابتسمت ، فلم تكن يوماً لتقابلني بعبارات ممتعة كتلك التي أنثرها

على مسامعها . ورغم ذلك فأنا أفضل هذا الصمت على الافصاح عنه بكلمات

ككلماتي . فمن رأيي أن على المرأة أن لا تفصح عن حبها للرجال بالكلمات . كانت

بات امرأة حقيقية تمتلئ عيناها بشعاع الفرح لتعبر عن حب صارخ تعجز عنه

الكلمة . احتضنتها فترة طويلة ، شعرت بدفء جسدها ورائحة شعرها العطرة

احتضنتها بشدة ونسيت كل ما في الوجود إلاها . انجلى الظلام عن نفسي ، فها هي

أمامي وفي أحضاني ، تعيش وتنفس . انها موجودة .

سألتنني وما زال وجهها ملتصقاً بي :

- هل سنخرج الليلة حقاً يا روبي ؟

- جميعنا سنخرج الليلة ، كوستر ولينس . كما أن كارل ينتظرنا أمام الباب .

- وبيللي ؟

- بيللي سيذهب معنا بالطبع . فعليه من اليوم فصاعداً أن يأتي على ما تبقى من

طعامنا . هل تناولت العشاء ؟

- لا ، لقد انتظرتك .

- عليك الا تنتظريني ، فالانتظار مزعج حقاً .

هزت برأسها .

- انك لا تفهم هذه الامور يا عزيزي . الشقاء كل الشقاء أن لا يجد الانسان من

ينتظره .

اشعلت الضوء إلى جانب المرآة .

- عليّ الآن أن أبدأ في تبديل ملابسي . هل ستبدل ملابسك أيضاً ؟

صفرت للكلب وجلست على الاريقة الى جانب النافذة .

كم أحب الجلوس هكذا والنظر إلى بات وهي ترتدي ثيابها. إن مشاهدة المرأة أمام مرآتها حدث عظيم ، فمن خلالها تكتشف سرها الخفي وجميع ابعادها الكامنة في حركتها المستمرة الصامتة . هنا وهناك مع التأمل والاستغراق في التفكير ، مما يبعث في المرء كوامن الحس الجنسي الخفي . لا يمكنني تخيل امرأة تثرثر وتضحك أمام مرآتها ، وإن قامت بذلك فانه بلا شك ينقصها ذلك السحر الخفي .

كنت أحب حركات بات . الانيقة أمام المرآة . كم هي متعة كبيرة مراقبتها وهي تشرح خصلات شعرها أو تمسك قلم الكحل لتخطبه سهماً جريئاً على حاجبها ، لتصبح مزيجاً من الغزال والفهد الانيق المتوثب لخوض معركة البقاء . كانت بات أمام مرآتها تنسى العالم من حولها وتحاول التأكيد بجدية وتماسك على صورة وجهها الذي ما ان تقرب منه كثيراً حتى تشعر وكأن ذلك الوجه لم يعد انعكاساً فقط لوجهها بل يصبح وجهاً حقيقياً لامرأتين متشابهتين خرجتا من غياهب آلاف السنين الماضية تنظر الواحدة إلى الاخرى نظرة تفحص جريئة .

هب نسيم الليل على الغرفة قادمًا من المقبرة المجاورة . جلست هادئاً رغم اني لم أنس أحداث ذلك اليوم . لكنني عندما كنت انظر إلى بات أشعر بأن كتلة الحزن الثقيلة القابعة في داخلي قد غلفت بغلاف من الامل ، بل ربما اختلطت الواحدة بالآخري . الأمل والحزن العميق والريح والمغيب وتلك الفتاة الجميلة الجالسة أمام

مرآتها المشعة . بدأت أشعر في تلك اللحظة بمعنى الحياة العميق وربما معنى
السعادة .

الحب الممزوج بالاسى ، الخوف والمعرفة الصامتة .

- ١٩ -

جاء جوستاف بسيارته ووجدتني أنتظره عند الموقف المعتاد .

سألني :

- ما هي أخبار كلبنا يا روبرت ؟

- أحواله جيدة جداً .

- وأنت ؟

أشرت له بيدي ساخراً .

- سأكون أحسن حالاً لو تحسن وضعي المالي . قمت اليوم بدوريتين مقابل

خمسین فنيكاً فقط .

هز برأسه .

- إن الأمور تزداد سوءاً ولا أحد يعرف لإم ستؤول حالتنا هذه .

- إنني بحاجة ماسة إلى النقود يا جوستاف ولا أعرف طريقة أستطيع بها مضاعفة

عملي .

حك جوستاف ذقنه .

- أحتاج الى كثير من النقود ؟

ثم نظر إلي وفكر .

- إن الواقع الراهن لن يجديك نفعاً يا روبرت ، الرهان هو الطريق الوحيد . ما

رأيتك في يانصيب سباق الخيل ؟ إنني أعرف مكاناً تشتري منه أوراق اليانصيب .

لقد ربحت في المرة السابقة ثمانية وعشرون ضعفاً عما وضعت .

- لا يهم المكان ، الأهم هو وجود احتمال ربح .

- هل جربت يوماً حظك في اليانصيب ؟

- لا .

- هذا يعني ان يدك كريمة كيد طفل . ربما ساعدنا ذلك .

نظر إلى ساعته .

- علينا بالانطلاق الآن وإلا تأخرنا عن موعد بيع أوراق اليانصيب .

- حسناً .

لقد ازدادت ثقتي بجوستاف خاصة بعد حصولي على الكلب . كان مكتب الرهان واسعاً ، اقتطعت منه زاوية لبيع السجائر وإلى جانبها شبك التذاكر . عجت واجهة المكتب بالجرائد والمجلات الرياضية بالوانها الوردية والخضراء وإعلانات مطبوعة عن نتائج السباق . ألصق على أحد الجدران قمير طويل تناثرت عليه بعض اعلانات السباق ووقف خلفه ثلاثة رجال بحركات عصبية . كان الأول يصرخ عبر سماعه الهاتف والثاني يتحرك بعصبية ممسكاً بيده عدة أوراق ، أما الثالث فقد ازاح قبعته إلى الخلف ووضع بين أسنانه سيجاراً برازيلياً عريضاً أسود . لم يكن مرتدياً صداراً وقد رفع أكمام قميصه وأخذ يدون بعصبية أرقام السبق الأخير . كان لون قميصه بلون البنفسج الصارخ .

من المدهش ان المكان كان يعج بالمراهنين من البسطاء ، عمال حرفيون ، صغار الموظفين ، عاهرات وبعض القوادين . على الباب اعترض طريقنا رجل بثياب قدرة وصدريه ممزقة .

- راهنوا على بيلينغ فستكسبون الرهان حتماً .

- سنكسب على القمر .

أجابه جوستاف الذي اكتسب وجهه تعبيراً مغايراً عن ذي قبل .

- خمسون فينكاً فقط لبيلينغ إنني أعرف المدرب معرفة جيدة .

أخذ جوستاف يتفحص قوائم السباق ، ثم صاح بالرجل الجالس أمام شبك التذاكر .

- متى يخرج عطيل للسباق ؟

نعق الرجل :

- في الساعة الخامسة .

- فيلومين ، أيتها العاهرة البدينة ، إنك تشبهين البغل العجوز .

تذمر جوستاف وتصبب عرقه من شدة الانفعال . ثم سأل .

- من المتسابق القادم ؟

- بجارتين .

أجابه احد الحضور .

عاد جوستاف يدرس القوائم .

- سنراهن بادىء ذي بدء على تريستاند .

سألته :

- هل انت ضليح بهذه الامور حقاً ؟

- عارف ؟ انني خبير بكل حوافر الخيول المشتركة في السباق .
خاطبه احد الحضور .

- خبير وتراهن على تريستاند ؟ لا أمل لك مطلقاً .

- إنني متأكد من تريستاند وأعرف مدربه جيداً .

ثم صَاح بالرجل الواقف خلف القمير . أملى عليه أرقامنا .

استلمنا أوراقنا وجلسنا إلى أحد المناضد المرصوفة في مقدمة المكتب . أخذت ترتفع من حولنا أسماء مختلفة وأخذ بعض العمال على المنضدة المجاورة يتناقشون حول رهان الخيل في نيس ، وجلس إلى المنضدة الثالثة مستخدمون من البريد يدرسون آخر نشرة رهان قادمة من باريس . بينما راح سائس عربية يتبجح عن ماضيه السابق . جلس إلى جانبنا رجل بدين صامتاً . واخذ يلتهم شرائح الخبز الواحدة تلو الاخرى بينما اتكأ رجلان على الجدار وأخذا ينظران الى الشرائح بنهم وقد أمسك كل واحد منهم ببطاقة . . بدت وجوههم ضامرة وكأنهم لم يتناولوا الطعام منذ عدة أيام .

علا صوت رنين الهاتف فتنبهت جميع الأذان . تلى المساعد أسماء الجياد الفائزة . ولكن إسم تريستاند لم يذكر لا من قريب ولا من بعيد .
- يا للعنة .

صاح جوستاف واندفع غاضباً محمر الوجه الى القمير .
- آه ، هذا الحصان سلمون ، لقد فعلها بي مرة ثانية .

ثم استدار إلى إحدى العاهرات التي نصحته من قبل بعدم المراهنة على تريستاند ودخل معها في نقاش حاد عن الرهان .

عاد بيلينغ إليّ :

- ليتكم سمعتم بما نصحتكم به أيها السادة ، فالحصان سلمون هو الجواد الذي نصحتكم به . إنه الوحيد الذي يربح . هل ستراهن على السبق القادم ؟

لم يستمع جوستاف اليه بل تابع حديثه الجدي مع تلك العاهرة العالمة على ما يبدو بمجريات السبق .

- هل عندك معلومات كافية عن الاحصنة ؟

أجبت :

- لا شيء من هذا القبيل .

قال بيلينغ :

- إذن إستمع إليّ ، واتبع ما أشير به عليك اليوم فقط . راهن على الحصان الذي تريد . الملك لير أو الفراشة الفضية أو على الحصان الازرق . انني لا اطمع في بيعك هذه الاوراق ولكن اشركني قليلاً في ربحك .

لقد اصابت ذلك الرجل حمى الرهان وأخذ يرتجف من شدة انفعاله .

- إنني عالم بقوانين البوكر والمبتدؤون يربحون دائماً .

- حسناً ، على أي أحصنة تريدني أن أراهن ؟

- أي حصان تريد .

- الحصان الازرق . انه اسم لا بأس به . انني اراهن عليه بعشرة ماركات .

- هل جنتت ؟

سألني جوستاف .

- لا .

- عشر بيضات كاملة تضيعها من أجل هذا العجوز . كان عليهم أن يذبحوه من

زمن ويصنعوا من لحمه السجق .

واقفته تلك العارفة بهزة رأس .

- هذا الغبي يراهن على الحصان الازرق ، انه ليس حصاناً بل بقرة ايها السيد .

ولكن ما رأيك ان تراهن على البقر ؟

نظر إليّ بيلينغ نظرة استحلاف وأشار بيده موافقاً .

- اذن النصر .

- لتذهب الى الجحيم .

قالت العارفة .

- ولكن ما هذا الذي تفعله ؟

سألني جوستاف وراح ينظر إليّ وكأنني من عالم آخر .

- لن أتخلى عن الحصان الازرق . من العبث التصدي لقواعد الحظ والتبديل يعد

من ألد اعداء الحظ .

ناولني الرجل صاحب القميص البنفسجي قسيمة الاشتراك ، بينما أخذ جوستاف

والعارفة ينظران إليّ وكأنني أصبت بداء الطاعون . ابتعدا عنا واتجهما نحو القمبر وقد

دوت ضحكاتهم الساخرة . في تلك اللحظة هوى شخص بشدة على الارض . كان

أحد هؤلاء الجياع والذي كان يقف إلى جانب منضدتنا . اسرع مستخدمو البريد اليه وحملوه وأجلسوه على أحد المقاعد . كان لون وجهه رمادياً أبيض وفمه مفتوحاً .
- يا الهي .

صاحت إحدى العاهرات ، امرأة ممتلئة الجسم ، داكنة اللون ، ذات شعر أملس وجبهة ضيقة .
- لي جلب أحدكم كأس ماء .

تعجبت لعدم اكتراث أغلبية الحضور بذلك الرجل المغمى عليه . فغالبيتهم نظروا إليه نظرة عابرة ثم عادوا ليتابعوا مجريات السبق .
قال جوستاف .

- مثل هذه الواقعة تحدث باستمرار . عاطلون عن العمل يراهنون على آخر فلس يمتلكون وبعدها يجلسون كما ترى يترقبون المال الكثير . ألف مقابل عشرة ماركات .

عاد السائس من قسم بيع السجائر بكوب ماء . بللت العاهرة منديلها بالماء ومسحت جبينه . وفي الحال تنهد الرجل وفتح عينيه . تناولت المرأة الكوب وأعطته للرجل ليرشف منه قليلاً واحتضنت رأسه كمن يحتضن طفلاً .

بعدها ناولت ذلك الجائع بشعره المشعث كسرة خبز التقطتها عن المنضدة .
- خذ هذه وكلها ولكن ببطه وحاول أن لا تقرض اصبعي . والآن اشرب من هذا الكوب مرة ثانية .

تابع الرجل البدين الجالس الى المنضدة مصير كسرة خبزه ولكنه لم يعترض على ذلك . رويداً ، رويداً عادت بعض الحيوية إلى وجه ذلك الرجل الجائع . التهم كسرة الخبز ثم نهض بصعوبة . أسندته المرأة حتى باب المكتب ثم عادت إلى مكانها مسرعة . فتحت حقيبة يدها وناولته شيئاً .
- خذ هذا وانصرف الآن وحاول أن تأكل بدل المراهنة .

أحد القوادين ، والذي كان يقف ألفترة بكاملها وراء العاهرة دون أن يتلفت إلى ما حدث ، استدار إليها . كان له وجه الطيور الجارحة ويتنعل حذاء لماعاً ويضع على رأسه قبعة رياضية سألها .

- ما هذا الذي أعطيته إياه ؟

- عشرة فنيكات .

- انك أعطيته أكثر من هذا المبلغ . ولكن عليك في المرة القادمة ان تسأليني أولاً .

لم تجب العاهرة بشيء ، بل أخرجت علبة المساحيق من حقيبتها وأخذت تطلي شفاهها بلون أحمر قان . رن جرس الهاتف ولكنني لم أنتبه إليه بل أخذت أتابع حركات العاهرة . سمعت فجأة جوستاف يصيح :

- إن ما حدث الآن هو الحظ بعينه . أيها السادة إنه حظ كبير ثم هزني من كتفي .
- لقد ربحت مئة وثمانين بيضة أيها الرجل . حصانك بإسمه الغريب كسب الرهان .
- نعم . ماذا . حقاً .

هز الرجل الواقف خلف القمبر رأسه بامتعاض وخطف من يدي قسيمة الاشتراك .
- من أشار عليك بذلك ؟
- أنا ، أنا إذا سمحت ، انها وساطتي .

أجابه بيلينغ وعلت وجهه بسمة مليئة بالذل والامل . لم يعره المحاسب أي اهتمام وانشغل في تسليمي النقود .

اتجهتُ إلى أنظار الحضور بصمت . وحتى ذلك الرجل الملتهم للشرائح توقف عن الأكل وأخذ ينظر إليّ . وضعت الورقات النقدية في جيبي .
- اتسحب الآن ؟

همس بيلينغ في أذني .

نظرت إليه فلاحظت بقعاً حمراء كبيرة تغطي وجهه . صافحته ودسست في يده عشرة ماركات . ضحك جوستاف وسدد ضربة قوية إلى أضلعي .

- هل صدقت الآن ما قلته لك ؟ عليك ان تعيرني دائماً أذنأ صاغية وعندها ستجرف المال جرفاً .

تجنبت تذكير عمري السابق جوستاف بأسماء الخيول التي اقترحها ، سألتني :
- هل تغادر المكان ، فهذا اليوم على ما يبدو صالح للفنانين .

على الباب أمسكت تلك العاهرة العارفة ، بسترتي وسألتني بكثير من الجدية عن الجواد الذي سأراهن عليه في السبق القادم .

لم اجبها بل تركتها ضاحكاً وأخرجت مع جوستاف وقصدنا أقرب حانة لنشرب نخب حصاني الازرق . سرعان ما تذكرت بأنني أنفقت ثلاثين ماركاً في ساعة

واحدة . وتذكرت أيضاً بأن بيلينغ دس في جيبي قصاصة ورق لدى مغادرتي المكتب . أخرجتها . كانت القصاصة إعلاناً دعائياً للسينما البيئية كتب عليها « اذا احتجت يوماً لمساعدة فساكون في خدمتكم . اقوم بتأمين الثياب المستعارة والدفع مسبقاً » .

عدت في تمام الساعة السابعة مساء الى الورشة حيث كان كارل يقف في وسط الفناء . صاح كوستر :
- من حظنا انك جئت يا روبي . سننطلق في الحال مع كارل للروداج تعال وشاركنا السفره .

كانت الورشة بكاملها متأهبة للمشاركة في تلك الرحلة التجريبية بعد أن عمل كوستر لعدة أيام على تصليح كارل وتهيئته للسباق الذي سيشارك فيه لينس بعد أربعة عشر يوماً . ركبنا جميعاً السيارة . جلس يوب إلى جانب كوستر وقد غطت نظارة السبق الكبيرة نصف وجهه . أما لينس وأنا فقد جلسنا في المقعد الخلفي .

انطلق كارل مسرعاً . وعندما وصلنا إلى الطريق العريض أطلق كوستر لسيارته العنان فأشار عداد السرعة إلى المئة والاربعين كيلومتراً . إنحنينا إلى الأمام متمسكين بالمقاعد الأمامية خوفاً من أن تطير رؤوسنا لشدة الريح . كانت السرعة كبيرة بحيث بدت حجارة الرصيف وكأنها تهرب من أمامنا . وكان صوت هدير المحرك ، والأشبه بصوت الوحوش الكاسرة ، ممتزجاً بصوت زعيق العجلات يصم الأذان . بعد ربع ساعة تقريباً شاهدنا من بعيد نقطة سوداء أخذت تكبر كلما اقتربنا منها . ثم بدأت تتضح تدريجياً ، وإذ هي سيارة سوداء فاخرة تسير بسرعة تتراوح بين الثمانين والمئة كيلومتر تقريباً . لم تكن تسير باستقامة بل كانت تترنح في سيرها كخطوات مخمور . بدأ الطريق يضيق مما حدا بكوستران يخفف سرعته وحين أصبحنا على بعد مسافة مئة متر منها ، شاهدنا فجأة دراجة نارية قادمة من الاتجاه المعاكس . لشوان ، وقبل التقاطع غاب راكب الدراجة عن أنظارنا . صاح لينس :
- يا للجنة . لن يمر الأمر بسلام .

في تلك اللحظة ظهرت الدراجة ثانية على الطريق واصبحت المسافة التي تفصلها عن السيارة السوداء عشرين متراً فقط . لم يستطع راكب الدراجة تحديد المسافة التي تفصله عن السيارة ، فانحرف بدراجته على شكل قوسي لتفادي الاصطدام . ولسوء الحظ انحرفت السيارة أيضاً إلى اليسار فارتطم جناحها الايسر بمؤخرة الدراجة فوقع سائقها على الارض بينما ارتفعت دراجته في الهواء لتهبط في الحقل المجاور للطريق ، وارتطمت السيارة بقوة بعمود الكهرباء ومن ثم بشجرة على حافة الطريق حيث

حدثت كل هذه الأمور خلال ثوان فقط . حافظ كوستر على سرعته وكحصان عات انطلق بسرعة ثم توقف بقوة مصحوباً بصرير العجلات بين راكب الدراجة الملقى على الارض والسيارة السوداء بداخنها المتصاعد . زجر المحرك لثانية فقط ثم ساد سكون رهيب . صاح لينس .
- عملاً متقناً يا اوتو !

ترجلنا مسرعين الى السيارة السوداء وفتحنا الباب عنوة . ادار كوستر المفتاح وصمت محركها وعندها سمعنا أنات تتصاعد من داخلها . كان زجاج نوافذ السيارة قد تهشم كله وشاهدنا رغم ذلك في الظلام النسبي وجه امرأة يطفح دماً والى جانبها رجلا قيع خلف المقود على صدره . أخرجنا المرأة أولاً ومددناها على ناصية الطريق . كان وجهها ممتلئاً بالجروح التي حملت بداخلها بعض نثرات الزجاج واستحال لون كم بزتها البيضاء إلى لونٍ أحمر قاني . مزق لينس كمها بسرعة وفجأة تدفق من شريانها دم غزير . لف لينس منديله على شكل حبل وربط الذراع فتوقف التزيف .
- حرروا أنتم الرجل وأنا اتدبر أمرها . علينا أن نسرع إلى أقرب مشفى .

توجب علينا لتحرير الرجل فك المقاعد . كنا نحمل معنا ولله الحمد عدة عمل كاملة ، الأمر الذي ساعد في سرعة عملنا . كان الرجل ينزف أيضاً وقد تكسرت بعض اضلاعه . أخرجناه من السيارة واسندناه على بابها . ولكنه هوى فجأة مطلقاً صيحة مدوية . فلقد كسرت ساقه أثناء الارتطام .

تقدم كوستر بكارل خطوة خطوة إلى جانب السيارة ، وراحت المرأة تصرخ بشكل تشنجي خوفاً من أن يدهسها كارل . مددنا الرجل على المقعد الامامي وأجلسنا المرأة بين لينس وبينني على المقعد الخلفي .
- أما أنت يا يوب فابق هنا وانتبه للسيارة .

سألت :

- ولكن أين راكب الدراجة ؟

أوضح يوب

- هرب أثناء انهماككم في نجدتهما .

سرنا ببطء ، وبالقرب من القرية المجاورة وجدنا مصحاً كنا نمر بقربه خلال نزهاتنا على هذا الطريق . بناء أبيض على أحد التلال . كل ما كنا نعرف عنه انه مستوصف يؤمه الذين يعانون من الامراض الداخلية ولطبقة معينة من البشر ،

الأغنياء فقط . فكرنا أنه لا بد وأن يكون هناك طبيب .

ارتقينا التلة وقرعنا الباب ففتحت لنا ممرضة رائعة الجمال شحب وجهها عندما رأت الدم وركضت مدعورة إلى الخلف لتظهر ممرضة أخرى متقدمة في السن .

- نعتذر عن استقبالكم ، فالمصح غير معد لاستقبال حالات إسعاف كهذه .
عليكم بمتابعة طريقكم إلى مشفى فيرخوف الذي لا يبعد كثيراً عن هنا .

أجابها كوستر حانقاً .

- انه يبعد قرابة الساعة عن هذا المكان .

نظرت المرأة بتحد الى كوستر

- هذا المصح تنقصه الاستعدادات اللازمة لحوادث كهذه . وعلاوة على ذلك لا يوجد طبيب هنا .

- إذن فأنتم تعملون بما يتنافى والقانون . فعلى المشافي الخاصة أن توظف طبيباً مقيماً . هل تسمحين لي باستعمال الهاتف ؟ أود مكالمة رئيس الشرطة وإدارة الصحيفة المحلية .

تراجعت الممرضة قليلاً إلى الوراء ثم قالت :

- هدىء من روعك أيها السيد ، فسأقوم بعمل اللازم .

أجابها كوستر بهدوء .

- أما الآن فنحن بحاجة إلى حمالة وبعدها عليك بإبلاغ الطبيب أن يحضر في الحال .

ترددت بعض الشيء .

- الحمالة .

صاح بها لينس .

- فالقانون ينص على وجود حمالة في كل المشافي كما انه ينص على وجود كمية كبيرة من الضماد .

- نعم ، نعم .

أجابت بسرعة وقد فاجأتها معلوماته الدقيقة في هذا المضمار .

- في الحال سأرسلها لكم مع أحد المستخدمين .

ثم انصرفت .

- لا بأس .

قلت .

أجاب لينس بلا مبالاة .

- من المحتمل أن يصادفك مثل هذا الموقف في المشفى الوطني أيضاً . المال هو الأهم ثم تتبعه البيروقراطية ومن ثم خدمة المريض . عدنا الى السيارة وأخرجنا المرأة المصابة . لم تنطق بكلمة واحدة بل أخذت تنظر إلى يديها . أوصلناها إلى غرفة الانتظار . بعدها جاءنا أحد المستخدمين بالحالة فرفعنا الرجل عليها وحملناه إلى غرفة الاسعاف .

- لحظة من فضلكم .

نظرنا اليه ، فاغمض عينيه وتكلم بصعوبة .

- لا أريد أن يعلم أحد بالحادث .

أجابه كوستر .

- ولكنك لست مذنباً . نستطيع أن نشهد إلى جانبك .

- انني لا أعني هذا السبب ، بل هناك أسباب اخرى .

قال ذلك ونظر إلى الباب حيث كانت تقف المرأة

- لا تخف فأنت الآن موجود في المكان المناسب . نحن الآن في أحد المشافي

الخاصة . لم يبق عليك إلا سحب السيارة من على الطريق كي لا يتعرف عليها البوليس .

رفع الرجل رأسه .

- هل باستطاعتكم مخابرة ورشة التصليح لتأخذ السيارة ؟ ساكون ممتناً لكم لو

تفضلتم باعطائي عنوانكم . فانا أود أن اشكركم على . . .

منعه كوستر من الكلام .

- بلى قال الرجل أود معرفة .

أجابه لينس .

- الأمر في غاية البساطة فنحن نمتلك ورشة لتصليح السيارات ومختصون

بالسيارات التي من نوع سيارتك . إذا وافقت سنأخذها معنا الآن وسنباشر

بإصلاحها وبهذا نكون قد أسدينا لك معروفاً وساعدنا أنفسنا في الوقت نفسه .

- حسناً ، هل تودون معرفة عنواني ؟ سأتي لأخذ السيارة بنفسي أو أرسل

أحدهم لأخذها .

تناول منه كوستر بطاقة ووضعها في جيبه ثم أدخلناه إلى إحدى الغرف . في تلك

الثناء حضر الطبيب . كان شاباً . أزال الدم عن وجه المرأة وبدأت الجروح واضحة

وعميقة . حسنت من جلستها واتكأت على يدها السليمة ثم حملت في وعاء من النيكل المشع الموضوع على منضدة الاسعاف .
- آه .

صاحت وسقطت إلى الخلف مغمىً عليها .

اتجهنا إلى القرية وسألنا عن ورشة تصليح واستعرنا من الحداد جبلاً لجر السيارة وعدة مساعدة ووعدناه باعطائه عشرين ماركا مقابل ذلك . لكنه بدا متشككاً وطلب منا ان نصحبه الى مكان الحادث .

اصطحبناه معنا وعدنا إلى مكان الحادث حيث وجدنا يوب واقفاً في منتصف الطريق يلوح بيده ، ولم يكن بحاجة لان يلوح . فلقد شاهدنا بوضوح ما كان يجري على الطريق . فهناك وقفت سيارة مرسيدس قديمة بيننا بأشر أربعة رجال في عملية جر السيارة المنكوبة .

قال كوستر

- أرى اننا وصلنا في اللحظة المناسبة .

أعقبه الحداد .

- إنها عصابة شرسة ، يقطنون بالقرب منا ، ولا يتنازلون عن أي شيء . إنني أرى أن الأمر أصبح مرهوناً بهم .

قال كوستر :

- لنر ذلك .

همس يوب :

- لكنني أوضحت لهم يا سيد كوستر .

- إنها عصابة قذرة وتسعى إلى كسب السيارة لورشتها .

- حسناً يا يوب ، إبق أنت هنا .

توجه كوستر إلى أكبرهم وأخذ يحادثه ويحاول أن يوضح له أن العربة أصبحت الآن من نصيب ورشتنا .

سألت لينس :

- هل تحمل معك شيئاً صلباً ؟

- حمالة المفاتيح فقط وأنا بحاجة إليها . خذ معك أحد المفكات .

- من الأفضل عدم أخذ ذلك . فعندها تصبح الاصابات خطيرة مع الأسف .

فأنا أنتعل حذاء خفيفاً ، فالضرب بالارجل أفضل الطرق في مثل هذه الحالة .

سأل لينس الحداد .

- هل ستساعدنا فيما نحن بصدده ؟ عندها نصبح أربعة مقابل أربعة .

- سأفادى أي عراك معهم ، فانا أخاف على دكاني من انتقامهم انني افضل الحيات .

- هذا رأي صحيح .

قال جوتفريد

- أما أنا فسأشترك معكم .

صاح يوب .

- لا تتدخل أنت ، وابق هنا وانتبه لثلا يفاجئنا البوليس .

ابتعد الحداد عنا ليظهر حياده وبشكل واضح .

- لا تهذي يا هذا .

سمعت الأخ الاكبر يصيح في كوستر ثم تابع .

- من يحضر أولاً يبدأ بالرسم . انتهى الأمر والآن اغرب عن وجهي .

أوضح له كوستر وللمرة الثانية إن السيارة أصبحت ملكاً لنا وطلب منه أن يصحبنا الى المصح ليتأكد بنفسه من صحة قوله .

ضحك الأخ الاكبر منه بينما أخذت ولينس نتقدم من الأخوين الآخرين .

- هل تودون الذهاب إلى المصح أيضاً ؟

لم يجبه كوستر بل اتجه صوب السيارة .

وقف الاخوة الثلاثة في وجهه متلاصقين يريدون القتال .

- إليّ بحبل الجر .

صاح بنا كوستر .

- ماذا تفعل يا هذا .

صاح الأخ الاكبر بكوستر الذي كان أطول منه بارتفاع رأس تقريباً .

- نأسف لذلك . ولكن علينا الآن أن نباشر في سحب السيارة .

بدأنا لينس وأنا بالتقدم إليهم وقد وضعنا أيدينا في جيوبنا . في تلك اللحظة انحنى كوستر إلى السيارة فرفسه الأخ الأكبر برجله ، لكن كوستر كان مستعداً لمثل

هذه الضربة فأمسك في اللحظة ذاتها بقدم الأخ الأكبر ورماه أرضاً ثم رفع رأسه بسرعة وسدد إلى أحد الاخوة ، المتسلح برافعة السيارة في يده ضربة قوية إلى معدته رمت به إلى الأرض. في تلك اللحظة هممت مع لينس على الاخوين الآخرين فتلقيت ولسوء حظي منذ البداية لكمة قوية على وجهي وبدأ انفي ينزف ثم عدت وفشلت في المحاولة الثانية ، فتلقيت ضربة على معدتي هويت على أثرها أرضاً فأمسك احد الاخوة عنقي وراح يشدني بعزم إلى الاسفلت . وشدت كل عضلاتي كي لا يتمكن من خنقي وحاولت الالتواء لامسك باحد ساقيه . حاولت أن أسدده له رفسة قوية إلى أحشائه برجلي ولكن لينس وأحد الاخوة وقعاً فوق أرجلي ، الأمر الذي جعلني متمسراً لا أستطيع حراكاً . بدأت اشعر بصعوبة في التنفس من خلاله . رويداً ، رويداً بدأت أشعر وكان ضباباً كثيفاً أخذ يلفني وبدا لي وجه فوجت يتراجع أمام عيني ثم شعرت بشبح أسود يقف خلف رأسي . كان يوب أثناء العراك يجلس إلى حافة الطريق منتظراً سنوح الفرصة للانقضاض على أحد هؤلاء الاخوة . وفي لحظة صمت وعندما أيقن أن الوقت قد حان انقض على أحد المصارعين وضربه برأس مطرقة كان يحملها بيده فأصاب مفصل يده ، وفي الضربة الثانية تركني الفوجت غاضباً واستدار ليقبض على يوب الذي كان قد ابتعد عنه ولبضعة أمتار . وبكل هدوء عاد يوب ليوحه إليه ضربة ثالثة على أصابعه ومن ثم على رأسه . نهضت بسرعة وألقيت بنفسي عليه وأخذت أصابعه ثم قبضت على عنقه محاولاً خنقه . في تلك اللحظة علا صياح حيواني ثم حشرجة .

- اتركني ، اتركني .

كان ذلك صوت الفوجت الأكبر الذي كان كوستر قد قبض على ذراعه ولواها خلف ظهره وقد لامس وجهه أسفلت الطريق . ركع كوستر إلى جانبه وأخذ يلوي يده بشدة . أخذ الفوجت يصيح ويولول من شدة الألم محاولاً التخلص منه ، ولكنه لم يفلح ، فكوستر كان ممسكاً بها جيداً . وبحركة سريعة لوي يده للمرة الاخيرة وهب واقفاً بينما بقي الاخ الأكبر مستقلياً على الاسفلت بلا حراك . رفعت نظري فشاهدت أحد الاخوة يقف متاهباً للانقضاض عليّ ولكن صياح أخيه شل حركته .

- انصرفوا بسرعة وإلا قضينا عليكم .

صاح بهم كوستر . أما أنا فسدت للوداع لكمة أخيرة إلى جمجمة مصارعي المستلقي على الاسفلت ثم تركته . ركض لينس ليقف إلى جانب كوستر بسترته الممزقة وقد أخذ الدم ينزف من إحدى زوايا فمه . لقد انتهت المعركة بالنسبة له بالتعادل . فغريمه كان ينزف أيضاً ولكنه بقي واقفاً على قدميه . لقد حددت هزيمة الاخ الأكبر نهاية المعركة ولهذا لم يتجرأ أحدهم على التفوه بكلمة . ساعدوا أخاهم

الأكبر على النهوض ومشوا في اتجاه سيارتهم بينما عاد أحدهم ليأخذ الرفاعة ورمق كوستر بنظرة وكأنه الشيطان بعينه . بعدها علا أزيز عجلات المرسيديس واختفى الأخوة الأربعة .

عاد الحداد ليظهر من جديد بعد رحيلهم .

- لقد أخذوا نصيبهم . لم يتعرضوا لمثل هذا الموقف من زمن بعيد . الأخ الكبير قضى عدة سنين في السجن بتهمة القتل . لم يجبه أحد ، أما كوستر فهز رأسه بعصبية .

- خنازير . والآن دعونا نرحل من هذا المكان .

- ها أنا قادم .

قال يوب وأمسك الحبل بيده .

قلت له :

- تعال إلي . من الآن فصاعداً ستصبح برتبة رقيب أول ويسمح لك بالتدخين علناً .

ربطنا السيارة المعطوبة بواسطة الحبل بمؤخرة كارل .

سألت كوستر .

- هل تظن بأن كارل قادر على جر هذه العربة دون أن يتأثر بذلك ؟

- لا تنسَ يا عزيزي ان كارل جواد سبق وليس حمار جر . المسافة ليست بعيدة والطريق مستقيم .

* * * *

ركبنا العربة وانطلقنا . ضغطت منديلي على أنفي الدامي ورحت أنظر إلى الحقول الملتفة بغلالة الغروب . صعقتني ذلك الهدوء الرهيب المخيم على تلك الحقول والطبيعة ، وبلا مبالاة تجاه ما تعانیه من اكوام النمل المسماة بالبشرية على أرضها . لقد كانت الطبيعة منهمكة في إعداد لوحتها المسائية ، فبدت الغيوم ، وكأنها جبال من ذهب وامتد الشعاع الليلكي بهدوء مغطياً الأفق . أما العصافير فعدت أسراباً إلى جحورها مودعة تلك الحقول . وهكذا بدأت الطبيعة مراسيم استقبال الليل .

وصلنا إلى فناء الورشة فترجل لينس من مقعده وانحنى أمام زائرنا ورفع قبعته .

- عليك التحية . انك تأتين إلينا بسبب حزين فمعدرة . إن استقبالناك بعيوننا

الطيبة والتي تحفي وراءها فرحة كبيرة . فزيارتك سندر علينا نحن الثلاثة ، حتى ثلاثة آلاف وخمسة مارك . أما الآن فإلي بكأس من خمرة الكرز وبقطعة صابون

لابعد عني آثار الاخوة فوجت .

شربنا جميعاً كأساً من الخمرة ثم نهضنا وباشرنا العمل في إصلاح السيارة المعطوبة .

لم يكن صاحب العلاقة في بعض الاحيان كافياً للقيام باصلاح سيارته بل كانت هناك اجراءات اخرى يجب أن تتم عن طريق شركة التأمين ، لذا كان علينا ان نقوم بفك بعض قطع السيارة قبل مجيء أحد مندوبي شركة التأمين ، عملنا بجهد وحتى ساعة متأخرة من الليل . سألت لينس :

- هل ستعمل الليلة على التاكسي ؟

- محال . على الانسان أن لا يبالغ في السعي من أجل جمع المال يكفيننا اليوم ما قنا به .

- لكنه لا يكفيني . لذا فسأعمل الليلة على التاكسي وأجوب أبواب الحانات من الحادية عشرة حتى الساعة الثانية صباحاً .

قال لينس ساخراً :

- دعك من هذا واذهب لتلقي نظرة في المرآة ، فانفك سيء الطالع في الآونة الأخيرة . نصيحتي لك ، اذهب إلى البيت وضع شاشاً معقماً وثلجاً على تلك الجزرة الضخمة التي تسميها أنفاً .

كان لينس محقاً بما قاله . فأنفي ما زال ينزف ، لذا ودعتهم وذهبت إلى البيت . وفي الطريق التقيت بهاسه فشاركته في السير على الطريق . كان شكله يوحى بالحنزن والالم .

بادرته الكلام :

- لقد نقص وزنك كثيراً في الآونة الأخيرة .

هز رأسه موافقاً وحدثني عن مشكلته . فزوجته تخرج ليلاً لزيارة معارفها الجدد . انه لا يمانع في ذلك ولكن جلوسه بمفرده على مائدة العشاء يحد من شهيته . وفي أغلب الاحيان ينام بلا طعام حيث يجد نفسه متعباً جداً للقيام بتحضير طعام العشاء . تأملته طويلاً وأنا مصغٍ إليه . ربما كان صادقاً حقاً فيما يقول ولكن الاصغاء إليه اصبح مشقة كبيرة .

مسكين . ان زواجهما ضحية المال القليل وعدم الاحساس بالثقة . فكرت بملايين البشر الذين يعانون مثله . فالحياة أصبحت فقط كفاحاً مريراً من أجل البقاء . فكرت بعراك ذلك اليوم ، فكرت بأمور كثيرة صادقتني في الاسابيع

الأخيرة ، فكرت بكل عمل قمت به ثم فكرت ببات وأيقنت ان هذا الواقع الأليم لن يستمر . لقد أصبحت القفزة الى السعادة كبيرة جداً ، لا نستطيع القيام بها كما ان حياتنا القذرة لم تعد قادرة على استيعاب السعادة . لا . . لا يمكن للحياة ان تستمر على ما هي عليه ، فالإيمان بها ينقصنا . انها فترة استراحة قصيرة ولكنها ليست ميناء أبدياً . سعدنا سلم البنسيون وفتحنا الباب وعندها وقف هاسه مودعاً .

- إذن إلى اللقاء .

- عليك تناول وجبة دسمة الليلة .

هز رأسه وقد علت وجهه بسمة واهنة وكأنه يعتذر بها عن ثرثرته ثم توجه إلى غرفته المعتمة بينما تابعت طريقي في الدهليز . فجأة سمعت غناء خافتاً . وقفت وأصغيت . لم يكن ذلك الصوت خارجاً من حاكي أيرنا بونينغ بل كان صوت بات . كانت تجلس وحيدة في غرفتها تغني . نظرت إلى الباب مرة ثانية ثم وقفت أسترق السمع . فجأة شعرت بيدي تتكاتفان بصلاة . يا للجنة . فمهما حاولت تصديق الأمل بأن هذه الحياة القاسية ستمضي وبأننا سنعبرها غير راسين في مينائها لمدة طويلة ، تبقى الاحوال مفرعة ومرعبة فبعدنا عن الايمان بالمستقبل وتمسكنا بمخالبها بدون امل .

* * * *

لم تسمعني بات وأنا أدخل غرفتها . جلست على الأرض أمام المرأة تجرب قبعة سوداء صغيرة وقد وضعت إلى جانبها مصباحاً مضيئاً . كل شيء في الغرفة غطته أشعة الغروب الذهبية البنية إلا وجهها فقد انعكس عليه ضوء المصباح فبدأ متلألئاً . على المقعد إلى جانبها وضعت قطعة حرير ومقص . وقفت هادئاً أمام الباب ونظرت إليها وهي تجرب تلك القبعة بكل جدية . كانت تحب الجلوس على الأرض . وكم من مرة وجدتها جالسة عليها في إحدى زوايا الغرفة ممسكة كتاباً وإلى جانبها الكلب وقد غطت في نوم عميق . بدأ الكلب بالنباح حين رأني . رفعت بات رأسها وشاهدتني من خلال المرأة . ابتسمت لي فأدخلت ابتسامتها الحبيبة بعضاً من النور في حياتي المظلمة . عبرت الغرفة ثم ركعت خلفها ولا مست بشفتي وبكل قذارة وأوساخ ذلك اليوم بشرة عنقها الدافئة اللدنة .

رفعت القبعة السوداء عن رأسها :

- لقد غيرت من شكلها يا عزيزي . هل تعجبك بشكلها الحالي ؟

- انها قبعة رائعة .

- ولكنك لا تنظر إليها . ألم تلاحظ التغيير الواضح الذي قمت به ؟

- انني أراه بوضوح .

ثم غمرت وجهي بشعرها الأسود وتابعت :
- لو رأها خياطو باريس لأغمي عليهم من شدة الحسد .
- روبي .

وأبعدتني عنها ضاحكة .
- انك لا تلاحظ كل هذه المسائل . هل ترى بعض الاحيان ما أرتدي ؟
- انني ألحظ حتى دقائق الاشياء .

قلت لها وجلست ملتصقاً بها على الارض محاولاً البقاء في الظل كي لا تلاحظ
أنفي .

- هكذا ؟ لذا قل لي ما هو الثوب الذي كنت أرتديه البارحة ؟
- البارحة ؟

فكرت طويلاً ولكنني لم أهدأ إلى جواب .
- هذا ما توقعت منك يا عزيزي . انك لا تعرف شيئاً عني .
- صحيح ، وهذا سر جمال علاقتنا ، فكلما ازدادت معرفة الانسان بالآخر كلما
قلت إمكانية التفاهم . وكلما ازدادت القربى بين البشر كلما ازدادت الفرة بينهم .
فكري في الزوجين هاسه . يعرف الواحد منهم كل شيء عن الآخر ولكنها أبعد
الناس عن بعضهم البعض .

وضعت القبعة السوداء على رأسها ثانية وأخذت تجربها أمام المرآة .
- إن ما تقوله يا روبي لهو نصف الحقيقة .

- إن ما أقوله ينطبق على جميع الحقائق ، فنحن لا نستطيع التقدم أكثر من هذا
المضمار لكوننا بشراً ، علاوة على ذلك ، هل فكرت بكل السخافات التي تقوم بها
بمعرفة نصف الحقيقة فقط ، فكيف لو عرفنا الحقيقة الكاملة . إن الحياة ستنتهي بلا
شك لدى معرفتنا بالحقيقة الكاملة . أزاحت القبعة ووضعتها جانباً ثم استدرت
إليّ . وعندها رأت أنفي الدامي . سألت فزعة :

- ماذا حل بك ؟

- لا شيء يستحق الذكر . وقعت على إحدى قطع السيارة عندما كنت مستقياً
تحتها أحاول إصلاحها .

نظرت إليّ نظرة متشككة .

- من يدري في أي مكان تهت اليوم ثانية . انك لا تعلمني بشيء البتة . فأنا

أعرف القليل عنك بقدر معرفتك القليلة بي .
- هذا أفضل .

أحضرت وعاء ماء ومنشفة صغيرة وأخذت تعالج أنفي بالكمامات الباردة ثم
عادت وتأملتنني ملياً .

- كانت بلا شك لكمة قوية كما أن خدوشاً كثيرة ظاهرة على عنقك . لا بد وأنك
قمت اليوم بمغامرة جديدة يا عزيزي .
- مغامرتي الكبرى ستبدأ هذا المساء .

نظرت إليّ باستغراب .

- في مثل هذا الوقت المتأخر يا روبي . أفصح لي عن مشاريعك العظيمة لهذه
الليلة .

- سأبقى الليلة هنا .

قلت ذلك ورميت بالكمامة جانباً ثم احتضنتها بحرارة .
- سوف أمضي الليلة بكاملها هنا ، عندك .

كان شهر آب حاراً وصافياً ثم أعقبه شهر أيلول بطقسه المعتدل ، لم تهطل الامطار إلا في أواخره ، نعم لقد جاء الخريف وغابت الزرقة الصافية عن السماء لتحل مكانها غلالة سوداء من سحب كثيفة وبدأت العواصف تهب من كل جانب حاملة معها أوراق الشجر وذكريات الصيف .

وقفت في صبيحة يوم الأحد ناظراً عبر زجاج نافذتي . أوراق أشجار المقبرة وقد لونها الخريف باللون الأصفر يسقط أكثرها على الأرض تاركاً الاغصان عارية إلا من بعضها .

أفرعني المشهد ، فمند عودتي من البحر وأنا على شبه يقين بأن بات سترحل مع الأوراق والخريف بعيداً . كان هذا الامر ككل الامور في هذا العالم يلاحقنا ولكنه لا يقعدنا . صحيح ان السنين ستمضي وان الواحد منا سيكبر ولكن لن يعيش إلى الأبد . ورغم ذلك نحاول في واقعنا اليومي زج هذه المقولات في الظل فقط إلى نسمة أمل مشرقة . وهكذا شأني مع بات ، فطالما هي بجانبني وطالما هناك أوراق خضراء مورقة فكل الاشياء كالخريف . والرحيل والوداع ، تبقى كلمات وغلالات سحب في الفضاء لا تبعدنا بل تزيدنا قرباً وإصراراً على البقاء جنباً إلى جنب . نظرت إلى تلك المقبرة المبتلة وإلى أحجار القبور المغطاة بأوراق الشجر البنية القذرة . لقد مر الخريف عليها كوحش شاحب فامتص منها كل نضارتها وتركها خلفه ذابلة واهنة تحت رحمة الريح تتلاعب بها كما تشاء . فجأة شعرت بألم حاد يكاد يمزق أحشائي . أحسست أن الفراق أصبح حقيقة كحقيقة الخريف المائل أمامي بألوانه الصفراء وأغصانه العارية . لم يعد باستطاعتي إبقاء هذه الامور في الظل كما كنت أفعل في العادة . ذهبت إلى غرفتي بعد أن القيت نظرة عليها فالفيتها نائمة ، كانت تغطي نوم عميق هادئ وبلا سعال .

لدقيقة غمرني أمل كبير بأن البروفيسور سيكلمني ليقول لي أن بات لم تعد بحاجة للذهاب إلى المصح ، ولكن سرعان ما اختفى الامل حين تذكرت الماضي والليالي التي كنت أجلس فيها لساعات طوال أستمتع الى حشرجة تنفسها الذي هو

أشبه بصوت المنشار . وبنفس السرعة التي سيطر الأمل فيها عاد ليختفي . عدت إلى النافذة وأخذت أنظر إلى المطر المنهمر ثم جلست إلى الطاولة وأخذت أحصي نقودي وأحسب الوقت الذي أحتاجه في جمع المال المتبقي لإلحاق بات بالمصحح . ولكن شعور الألم عاودني فأعدت النقود إلى مكانها . كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة . ما زالت أمامي ساعتان من الوقت حتى موعد استيقاظها . قررت وبسرعة أن أنطلق في التاكسي لاكسب بعض المال ، فهذا أفضل لي من الجلوس وحيداً مع أفكارى السوداء .

اتجهت أولاً إلى الورشة ، أحضرت السيارة وانطلقت بها بتؤدة عبر الطرقات الخالية إلا من بعض المارة . مررت بحي العمال أمام صفوف البيوت الضيقة المؤجرة التي اصطفت إلى جانب بعضها البعض كبراكات الجنود في الشكنات ، قبيحة وشاحبة كالعاهرات المتقدمات في السن تحت المطر . كانت واجهة البيوت متصدعة ، متسخة بغيار المداخن الأسود وتسربت من نوافذها أضواء كثيرة غمرت الصباح بالحزن والكآبة . لقد ترك القدم على جدران هذه البيوت آثاره فبدت حافلة بالحفر كمن أصيب بأورام خبيثة . عبرت القسم القديم من المدينة وتوجهت بعدها إلى الكنيسة وتوقفت أمام بابها الخلفي وترجلت . سمعت صوت الأورغ المنبعث من وراء الباب السندياني . كان ذلك الوقت موعد صلاة الصبح وتبينت من الصوت المنبعث أن الصلاة لن تنقضي قبل عشرين دقيقة . دخلت تلك الحديقة القابعة في ضوء رمادي وقد امتلأت الورود بمياه المطر .

أخذت أقطف بعض الاغصان وأخفيها بين ثنيات معطفي الفضفاض . ذهبت إلى السيارة وأودعت الباقة الأولى دون أن يراني أحد وعدت لاحضر باقة ثانية . قطفتها وخبأتها تحت معطفي ولكنني عندما هممت بالخروج سمعت وقع أقدام خلفي . ضغطت بيدي على الباقة خوفاً من سقوطها أمام احدى غرسات الورد متصنعاً الصلاة اقتربت الخطوات مني ثم توقفت خلفي . عندها شعرت بمجزة قوية تتنابني . وجهت نظري متأملاً اللوحة الجدارية أمامي ، رسمت علامة الصليب وتابعت سيرى ببطء محاولاً الوصول الى الباب ولكن الخطوات تبعثني وعادت لتقف خلفي من جديد . تحيرت فيما أنا فاعله . وقفت ولفترة حاسر الرأس ثم استدرت ببطء وحذر وقد رسمت على وجهي علائم الغضب لازعاجي في صلاتي الصباحية . استدرت فوقع نظري على وجه مستدير لطيف ، وجه القسيس . عندها تنفست الصعداء لاعتقادي بأنه لن يسمح لنفسه بقطع صلاتي . ولكن لدهشتي وجدت نفسي قريباً جداً من باب الخروج وان المكان الذي أقف فيه ليس مكاناً للصلاة ، لذا قررت عدم إطالة الموقف واتجهت ببطء إلى الباب .

حياتي :

- صباح الخير . على المسيح السلام .

- آمين .

وأيقنت أنني أمام قس كاثوليكي .

- من النادر جداً أن يأتي أحد الرعية للصلاة هنا وفي مثل هذه الساعة المبكرة .

قال القس ونظر إليّ نظرة حانية من عينيه الزرقاوين وكأنها عينا طفل وديع .

تمت ببعض الكلمات .

- للأسف ، أصبح ارتياد الناس للكنيسة أمراً نادراً وخاصة الرجال منهم . لذا

فأنا سعيد جداً بمخاطبتك . إنك جئت هنا بلا شك للابتهاال ولطلب المعونة وخاصة

في هذا الوقت الباكر وفي مثل هذا الطقس الماطر .

- نعم .

ولكن طلبي الوحيد هو ان تتركني وشأني ، قلت ذلك في سري . لم يلحظ بعد

على ما يبدو ، باقة الورد المخبأة تحت معطفي ، لذا عليّ أن أفكر بطريقة جديدة

للتخلص منه والخروج من هذا المأزق . ابتسم لي مرة ثانية .

- سأذهب الآن لتلاوة صلاة الصباح وسأتلو قسماً خاصاً منها آملاً في ان يستجيب

الله لدعائك . هل دعاؤك بخصوص أحد أمواتك ؟

- شكراً .

قلت ذلك مندهشاً وخجلاً . حملت به دققة وشعرت بعدها بأن الباقة بدأت

تنزلق .

- لا .

قلت له وضغطت بيدي على الباقة بشدة كي لا تسقط من تحت المعطف . نظر إليّ

بعينيه الزرقاوين ببراءة . ربما كان ينتظر مني أن أعلمه سبب مجيئي وهدف دعائي .

ولكنني لم أجد الكلام المناسب . ولأنني لم أرد الاسترسال في الكذب . لذلك

لذت بالصمت .

قال أخيراً :

- إذن سأدعوه لمساعدة أحد المجهولين في ضيقه .

- نعم إذا قمت بهذا الدعاء من أجلي فساكون شاكراً لك .

أشار بيده رافضاً .

- لا حاجة لك بشكري . فنحن جميعاً نقف تحت رحمته تعالى . نظر إليّ بتمعن ثم

حتى رأسه قليلاً إلى الأمام بينما احسست ان ابتسامه خفية تملأ وجهه .
- كن واثقاً أيها الانسان ، ان الاب السماوي سيساعدك . انه يساعد دائماً بالرغم
من عدم معرفتنا به .

انحنى انحناءة الوداع وذهب في طريقه .

تابعته بنظري حتى غاب مغلقاً الباب ورائه . نعم قلت في نفسي آه ، لو كان
الامر بهذه البساطة . لو كان الله غفوراً ودائم المساعدة فلم لم يساعد برنار عندما
اصيب بطلق في احشائه ومات صارخاً من شدة الالم مخلقاً ورائه زوجة مريضة
وطفلة لم يرها بعد . هل ساعد تيشسكي عندما سقط على الجبهة . هل ساعد ميللر
ولير وكوينغ . لماذا نسي مساعدة يورجن وبدغر وملايين غيرهم . لماذا لم يوقف كل
هذه المجازر التي سالت منها شلالات من دماء الابرياء كم من شبان ماتوا في سبيل
هذا الايمان بالاب السماوي . اوصلت السورد الى البيت ثم عدت الى الورشة
واودعت التاكسي وقلت عائداً .

من المطبخ عبقت رائحة القهوة الطازجة . بينما علا صوت تحرك فريدا . غريب
حقاً فرائحة القهوة تعشني . . كان ذلك ايضاً أيام الحرب، لم تكن الامور الكبيرة هي
التي تغري الانسان ، بل الامور الصغيرة التي ينظر اليها الناس وكأنه لا قيمة لها .
ما كاد باب الدهليز يغلق حتى انطلق هاسه خارجاً من غرفته . كان وجهه شاحباً
وعيناه منتفختين محمرتين . مظهره يوحي وكأنه امضى الليل نائماً بسترته . على وجهه
خيبة أمل كبيرة عندما رأيته تتمم :
- هذا انت

نظرت اليه مندهشاً

- هل توقعت شخصاً آخر في هذا الصباح ؟

- نعم زوجتي . لم تعد البارحة الى البيت . هل رأيتها ؟

هزرت رأسي بالنفي

- خرجت لساعة واحدة فقط

- فكرت للمحظة انك ربما قابلتها

رفعت منكبي حائراً .

- ستعود بعد بضع ساعات بالتأكيد . هل تكلمت معها بالهاتف ؟

نظر الي خجلاً .

- خرجت مساء البارحة لزيارة معارفها ولكنني لا اعرف مكان اقامتهم .
- هل تعرف اسماءهم ؟ فعندها نستطيع أن نسأل الاستعلامات عن عنايتهم .
- حاولت ذلك ، ولكن الاستعلامات لا تعرف شيئاً عن هذا الاسم .

كانت نظرتة اشبه بنظرة كلب مصاب .

- انها مسترة جداً فيما يتعلق بمعارفها . فكلما سألتها عنهم تستشيط غضباً ، لذا توقفت عن سؤالها . لقد فرحت لها بهذه العلاقة فهي ترميني دائماً بعدم سعي لفهمها ولاسعادها .

- ستأتي عما قريب . فانا متأكد من ذلك . ولكن لمزيد من الحرص هل استفسرت عنها في مركز الاسعاف او مركز البوليس ؟

- نعم ولكنني لم اجدها هناك

- اذن لا عليك ولا ترهق نفسك بافكار سوداء . ربما استمتعت باسميتها وقررت البقاء هناك طوال الليل . هذه مواقف تصادف الجميع . ربما عادت بعد ساعتين او ثلاث من الآن .

- هل تظن ذلك .

فتح باب المطبخ وظهرت فريدا تحمل صينية القهوة .
سألتها :

- لمن هذه يا فريدا

- للآنسة هولمان .

اجابت بحدة مستفزة من نظرتي اليها .

- هل استيقظت ؟

- لا بد انها استيقظت والا لما كانت قد طلبت الافطار بنفسها .

- ليباركك الله يا فريدا . هل باستطاعتك كبت مشاعرك العدائية نحوي واحضار قهوتي ايضاً .

تمتت ببعض الكلمات غير المفهومة وعبرت الدهليز محرمة قفاها باستخفاف .
لقد كانت تتقن ذلك . وقف هاسة منتظراً . خجلت فجأة عندما رأيته واقفاً ذليلاً الى جانبي .

- سيزول قلقك بالتأكيد وفي خلال ساعات .

ثم مدت له يدي مصافحاً . لكنه لم يمد يده لمصافحتي بل حدجني بنظرية غريبة ثم سألني بصوت خافت .

- الا تستطيع الخروج معي للبحث عنها ؟
- ولكنك لا تعرف مكانها

اجاب على عجل

- وهذا لا يمنع من البحث عنها . دعنا نخرج بسيارتك وسأقوم بالطبع بدفع
الاجرة كاملة .

- ليس لهذا السبب علاقة في الموضوع ، ولكن لا فائدة من الجري في الطرقات
لأنها وبالتأكيد لن تقوم في مثل هذا الوقت بنزهة .

اجاب بصوت خافت ومضطرب .

- انني حائر في امري ولكنني افضل المضي في البحث عنها

عادت فريدا بصيبتها الفارغة .

- علي ان اذهب الآن ولكنني متأكد من انك تعذب نفسك بلا سبب . كنت أود
مساعدتك ولكن الأنسة هولمان سترحل عما قريب . وربما كان يوم الاحد هو آخر
يوم احد نقضيه سوية . انك بلا شك تفهم ما أعني .

حتى رأسه . حزنت عليه ولكنني كنت متشوقاً لرؤية بات .

- اما اذا كنت فصرأ على المضي في البحث عنها فاستأجر تاكسي ولكنني انصحك
بعدم القيام بذلك . انتظر قليلا ، وربما استطعت الاتصال بصديقي لينس ليقودك
بالسيارة .

احسست انه لم يعد يسمع ما قلته له .

- الم ترها هذا الصباح ؟

اجبته متعجباً

- لا . لو كنت رأيتها لاعلمتك في الحال .

حتى رأسه مرة ثانية ثم عاد إلى غرفته وعلائم الشرود بادية على وجهه .

وجدت بات في غرفتي وقد انشغلت بتأمل باقة الورد . ضحكت عندما رأته .

- روبي . اني بسيطة التفكير ولكن فريدا اوضحت لي قبل قليل ان باقة الورد
النضرة هذه لا بد وان تكون مسروقة . فمتاجر بيع الورد مغلقة في ايام الاحاد ، كما
انه لا يوجد من نوع هذا الورد في المتاجر وفي مثل هذا الوقت من السنة .

- لا يهم ما توصلت اليه . الاله هو مدى فرحك بها .

- اني فرحة بها اكثر بكثير مما لو كنت قد ابتعتها يا عزيزي . ولكنك لا بد وان
عرضت نفسك للمخاطر

- آه لو تعرف في اية مخاطر مررت بها هذا الصباح .

وفكرت في القس .

- ولكن لماذا استيقظت مبكراً هذا اليوم ؟

- حلمت حلماً مزعجاً فاستيقظت . حاولت العودة الى النوم فلم اوفق . نظرت اليها فرأيت التعب بادياً على وجهها بينما احاطت عينها ظلال زرقاء .
- منذ متى تحلمين احلاماً كهذه ؟ ظننت انني الوحيد المختص في مثل هذه الاحلام .

هزت رأسها .

- هل لاحظت قدوم الخريف يا روبي ؟

- نحن هنا لا نسماه خريفاً بل اواخر الصيف ، فالورد ما زال مزهراً ، السماء فقط تمطر وهذا كل ما في الأمر .

- انها تمطر ، نعم انها تمطر منذ فترة طويلة يا عزيزي . انني استيقظ كثيراً من الاحيان في الليل واشعر نفسي مدفونة حية تحت هذا المطر الغزير .
- عليك ان تأتي لي ليلاً وعندها تتخلصين من هذه الأفكار .

- بل على العكس ، فلا يوجد اجمل من الاستلقاء في الظلام في حين ينهمر المطر في الخارج .
- ربما

وألقت رأسها على كتفي .

- أما انا فأفضل المطر يوم الاحد . عندها اشعر بقيمة وجودك الى جانبي . لنا غرفتنا الخاصة وامامنا يوم كامل بانتظارنا اليس هذا ضرب من ضروب الحظ ؟
تلاًلاً وجهها .

- نعم . نحن من المحظوظين في هذا العالم اليس كذلك ؟ فانا عندما افكر في الماضي واقارنه بالحاضر ، عندها اشعر بقيمة كل هذا .

- كم هو جميل سماعك وانت تنفوه بمثل هذه الكلمات . لقد بدأت اصدقها ولكن عليك ان ترددها اكثر
- الا اقولها دائماً .
- لا .

- ربما . انني لست لطيفاً . لا اعرف السبب في ذلك بالرغم من حلمي الكبير بأن اصبح لطيفاً في يوم من الايام .

- لست بحاجة يا عزيزي فانا اتفهمك ولكن بالرغم من فهمي لك اتوق في

بعض الاحيان لسماع بعض الكلمات الجميلة .

- سأحاول من الآن فصاعداً تلاوة هذه الكلمات باستمرار على مسامعك حتى ولو شعرت بسخافة موقعي .

- آه ، في الحب لا توجد سخافات .

- حمداً لله على ذلك .

تناولنا طعام الافطار ، ثم عادت بات الى الفراش حسب تعليمات البروفيسور .

- هل ستبقى هنا ؟

- اذا اردت

- اريد ذلك ولكنك لست بحاجة للبقاء .

جلست على حافة السرير الى جانبها .

- لم أعن ذلك ولكنني تذكرت فقط انك كنت تمنعني ان انظر اليك اثناء النوم .

- كان ذلك في السابق . اما الآن فأنا اشعر احياناً بالخوف من الوحدة .

- لا عليك ، فلقد عشت فترة تحت شعور الخوف هذا ، كان ذلك على اثر عملية

جراحية اجريت لي في المشفى العسكري اصبحت بعدها اخاف النوم في الليل وابقى

ساعراً حتى الصباح فابدد الوقت بقراءة الكتب أو بالتفكير في شيء ما . لا تخافي

فهذه فترة ستمضي وتزول .

مالت برأسها على يدي .

- اني اخاف عدم العودة يا روبي .

- هذا ما كان يراودني في تلك الفترة ايضاً ولكنك تلاحظين انك تعودين دائماً

ويتبدد الخوف . الانسان يعود دائماً ولكن ليس دائماً الى نقطة الانطلاق .

- هذا ما اخافه بالتحديد

اجابت وهي مغمضة العينين من شدة التعاس ثم تابعت :

- ان هذا ما اخافني ولكنني واثقة من انك ستسعى وراء عودتي الى هنا .

- سأبذل قصارى جهدي .

ومررت بيدي على جبينها وعلى شعرها . تنفست بعمق واستدارت قليلاً الى

الجانب ولم تمض دقيقة حتى غطت في نوم عميق .

عدت للجلوس امام النافذة انظر الى المطر المنهمر بغزارة ، وبدا لي المنزل المقابل

وكأنه جزيرة تسبح في بحر اللانهاية .

تسرب القلق الى نفسي ، فلم يكن من عادة بات ان تستيقظ متعبه وحزينة ،

ولكنني عدت وتذكرت انها قبل ايام معدودة فقط كانت تعج بالحيوية وانها ربما ستعود الى حيويتها حينما تستيقظ . انها بلا شك تفكر كثيراً في مرضها . كما واني علمت من البروفيسور ان حالتها الصحية لم تحرز اي تحسن .

لقد شاهدت في حياتي الماضية كثيراً من الموت ، لذا اصبح المرض بالنسبة لي جزءاً من الحياة والامل . شاهدت المئات يموتون بسبب الجروح الناجمة عن الاصابات في الحرب . لذا اصبح صعباً علي تصديق وجوب الموت نتيجة مرض لا يظهر على جسد الانسان الخارجي . وهذا ربما كان السبب وراء خروجي الدائم من عدم الاستسلام والخيبة اللذين كانا يراوداني اغلب الاحيان .

قرع الباب ، نهضت وفتحته لأرى هاسة . رفعت اصبعي منذراً بالصمت وخرجت الى الدهليز .

- اعذرني .

قال مرتبكاً .

- تعال الى غرفتي .

وفتحت الباب .

لم يدخل هاسة الغرفة بل تسمر في مكانه على عتبة الباب وقد استحال وجهه الى وجه صغير ابيض كالحوار .

- اردت اعلامك فقط انه لم يعد لنا حاجة للخروج للبحث عنها .

- تفضل اولاً بالدخول . الأنسة هولمان نائمة وعندي الوقت الكافي لمناقشة مشكلتك .

كان ممسكاً برسالة في يده وبدا كأنه اصيب بطلقة لم يشعر بها بعد او لم يرد بعد تصديقها ويظن بأنها مجرد لكمة قوية فقط .

- من الافضل ان تقرأها بنفسك .

قالها وناولني الرسالة .

- هل شربت القهوة ؟

هز برأسه .

- اقرأ الرسالة أولاً .

- حاول ان تقرأ الرسالة لبينا آتي .

خرجت الى المطبخ وطلبت من فريدا ان تعد لنا ابريقاً من القهوة ثم عدت وقرأت

الرسالة . كانت مرسله من السيدة هاسة وتحوي عدة سطور فقط تقول فيها بأنها حرمت من الاحساس بالحياة خلال حياتها معاً . حالفاً الحظ اخيراً فعثرت على شخص يفهمها اكثر منه ولذلك قررت عدم الرجوع اليه ابدأ وتنصحه بعدم القيام بأية محاولة لارجاعها . انها برحيلها تخفف عنه التزامه تجاهها فلا يعود مجبراً على ان يقضي الساعات الطوال ليحصي نقوده بقصد توفير معيشتهم واعلمته انها اخذت جزءاً من حاجياتها وملابسها وستعود يوماً لتأخذ ما بقي لها . كانت الرسالة واضحة وعملية . طويتها واعدتها اليه نظر الي وكان الأمر متعلق برأيي . سألني :

- ما العمل ؟

- اشرب أولاً قهوتك وتناول بعض الطعام ، فالجري وراءها الآن لا يجديك نفعاً بل يحطمك . حاول ان تحافظ على هدوئك وعندها ستجد حتماً الحل المناسب .

شرب قهوته صاعراً بينما راحت يدها ترتجفان ، ولكنه لم يستطع تناول اي طعام .
عاود سؤاله .

- ماذا عسانا نفعل ؟

- لا شيء سوى الانتظار .

قام بحركة رافضة بيده . سألته :

- ماذا تريد ان تعمل ؟

- لا اعلم ، فأنا ما زلت أرزح تحت وطأة الصدمة .

بعدها ساد سكون عجيب . كان من الصعب مواساته وكل ما كنت استطيع عمله هو تهدئته . اما ماتبقى فكان عليه ان يتوصل بنفسه الى حل . كان من الواضح انه لم يعد يجب تلك المرأة ولكنه اعتاد عليها . ولمحاسب مثله تعني العادة اكثر من الحب . بعد فترة عاد للكلام في امور غير واضحة عاكساً اضطرابه الداخلي ثم اخذ يلوم نفسه ولكنه لم ينبس ولا بكلمة مفرضة في حق تلك المرأة . حاول فقط ان يقنع نفسه بأنه السبب وراء كل ما حصل .

- اسمعني يا هاسه . ان ما تقوله هو الجنون بحد ذاته فلا يوجد في هذه الامور ظالم ومظلوم ، المرأة هي التي تركتك ولست انت الذي تركها . لذا عليك ان تكف عن توجيه اللوم لنفسك .

- بلى ، انه فشلي .

- ماذا ؟

- لقد فشلت معها وهذا هو الذنب : الفشل .

نظرت متعجباً الى ذلك الرجل القصير المسكين الجالس على الاريقة الحمراء .

- اسمعني يا سيد هاسة . ان ما تقوله يمكن ان يكون سبباً وليس ذنباً ، كما انك نجحت معها حتى هذا الوقت .

هز رأسه بشدة .

- لا ، لا . . . فأننا السبب في دفع تلك المرأة الى الجنون نتيجة خوفاي الدائم من التسريح . لقد فشلت ايضاً . ماذا قدمت لها في كل هذه السنين . لا شيء و . . .

نهضت واحضرت زجاجة الكونياك .

- دعنا نشرب قدحاً ، فالأمر حتى الآن لم ينته .

رفع رأسه .

- لا ، لم ينته الأمر بعد ، فخسارة الانسان تكمن في موته .

هز رأسه وبسرعة ثم تناول الكأس ولكنه ما لبث ان اعاده دون ان يشرب منه شيئاً .

- عينت بالأمس رئيس مكتب ، محاسب اول وبالتالي رئيس قسم . هذا ما انبأني به الرئيس الأول . لقد ترفعت بسبب عملي اللدؤوب خارج اوقات الدوام في الاشهر الماضية . سيزيد راتبي الشهري خمسين ماركاً . رماني بنظرة متشككة .

- هل تظن انها كانت ستبقى لو علمت بالنبأ ؟

- لا .

- خمسون ماركاً علاوة ، كنت سأعطيها لها لتشتري لنفسها ما تشتهي كما انني استطعت ادخار الف مارك في البنك . من اجل من ادخرت كل هذا المبلغ ؟ حاولت تأمين المبلغ ليكون عوناً لها في ايام سيئة اسوأ من هذه الايام ، وها هي تتركني الآن بسبب ادخاري لهذا المبلغ . عاد وحملق في كأسه .

- يا عزيزي هاسة ، لا اظن ان هناك ترابطاً بين ما تقول وبين سبب ترك زوجتك لك . عليك ان لا تقلق نفسك بالتفكير في الأمر الآن . فالأهم هو رباطة الجأش في الايام القادمة وبعدها نستطيع ان نتوصل وبكل هدوء الى حل معقول . ربما عادت زوجتك الليلة او صباح غد وربما كانت تفكر بكل هذه الأمور بذات الطريقة التي تفكر بها انت . أجب هاسة :

- انها لن تعود .

- من اين لك ان تعلم هذا ؟

- لو استطاع احد ان يطلعها على العلاوة التي حصلت عليها وانه اصبح بإمكاننا ان نقوم برحلة .

- تستطيع ان تقول لها كل هذا بنفسك .

تعجبت من عدم تقديره للموقف وعدم تفكيره بوجود رجل آخر في حياة زوجته . ربما كانت هذه الخطوة الثانية ، اما الخطوة الاولى والتي شلت كل تفكيره هي ترك زوجته البيت اما الامور الاخرى فقد بدت له ضبابية غامضة. حاولت ان اقنعه بأن الزمن كفيفل بأن بنسيه فداحة الفراق وانه سيرجع سعيداً بحريته بعد عدة اسابيع ولكنني وجدت هذا القول قاسياً بالنسبة لحالته المضطربة . فالحقيقة تبدو قاسية وغير محتملة لمن جرحت احساسهم .

تحدثت معه لفترة طويلة مفسحاً امامه المجال للتنفيس عن حزنه ولكن بلا جدوى . فهو ما زال يتخبط ضمن دائرة مغلقة ، ولكنني بين الحين والآخر كنت اشعر انه استعاد بعض هدوئه .

شرب قدحاً ثانية من الكونياك ثم سمعت صوت بات يناديني .
- لحظة واحدة .

اجبتها ونهضت .
- نعم .

رددتها كأني طفل مطيع .
- ابق هنا فسأعود بعد قليل .
- اعدرني .

- سأعود في الحال .
ثم ذهبت الى بات .

كانت تجلس في سريرها وقد بدا عليها الارتياح .
- لقد نمت جيداً يا روبي . لا بد وان الوقت قارب الظهر .
- نمت لساعة واحدة فقط .

ورفعت لها الساعة لتراها .
- سأنهض الآن وارتيدي ثيابي .
- حسناً ، سأعود اليك بعد عشر دقائق .
- هل عندك ضيف ؟
- هاسة ولكن بقاءه لن يطول .

عدت الى غرفتي فلم أجد هاسة ، فتحت الباب وعبرت الدهليز ثم توجهت الى غرفته وقرعت الباب ، لم يجب ، فتحت الباب واذا به امام دولاب الملابس وقد

اخرج قسماً كبيراً من داخلها .
- هاسة . تناول قرصاً مهدئاً وحاول ان تمام . انك شديد التوتر الآن . أجبته بأن
ما يتخوف منه سيزول وسيتبدل وضعه . وان هناك بشراً كثيرون يقضون الليالي
الطوال بمفردهم .

لم يجيني ، فطلبت منه وللمرة الثانية أن يأوي الى سريره وينام فرجماً وجد زوجته
قد عادت الى البيت بعد ان يصحو .

هز رأسه وصافحني .

- سأمر عليك هذا المساء .

ثم تركته فرحاً بالرجوع الى بات .

وجدت بات جالسة تطالع الجريدة .

- ما رأيك في ان نذهب اليوم لزيارة المتحف يا روبي .

- الى المتحف ؟

- نعم فهناك يقام اليوم معرض السجاد الفارسي . لا بد وأنتك اعتدت على زيارة
المتحف .

- لم اذهب يوماً لزيارة متحف وما عساي ان افعل هناك ؟

- قولك صحيح .

ثم ضحكت بصوت عال .

- من الافضل ان يقوم الانسان في يوم ماطر كهذا بتوسيع ثقافته . ارتدينا معاطفنا

وخرجنا . كان الهواء في الخارج منعشاً وعليلاً يحمل في طياته رائحة الغابة
والرطوبة .

اثناء مرورنا امام الانترنتاسيونال ، رأينا من خلال الباب المفتوح روزا تجلس امام

البار ، وامامها كوب كبير من الكاكاو - شرايها التقليدي في ايام الأحاد - جلست

ووضعت الى جانبها طرداً صغيراً . لا بد وانها ذاهبة اليوم لزيارة طفلتها . لقد مضى

وقت طويل على زيارتي الاخيرة لمقهى الانترنتاسيونال ، لذا فقد تعجبت من جلسة

روزا اللامبالية . حدثت في الأونة الأخيرة تبدلات كثيرة في حياتي وبدأت أفكر ان

هذا التغيير لا بد وان يكون قد شمل حياة الآخرين ايضاً . وصلنا المتحف ولشدة

دهشتي كان يعج بالزائرين ، فلقد ظننت اننا سنكون بمفردنا أو أنه سيكون هناك

عدد قليل من الزائرين . سألت الحاجب عن السبب :

- لا يوجد سبب غير عادي ، ولكن الدخول الى المتحف اليوم مجاني .

قالت بات :

- هل رأيت يا روبي بأنه ما زال هناك كثير من الناس يهتمون بهذه الامور .

أرجع الحاجب قبعته الى الخلف وقال :

- ليس هذا هو السبب يا سيدتي ، فغالبية هؤلاء الناس يعانون من البطالة ،
انهم لا يترددون على المتحف لمشاهدة الفن بل لانهم لا يدرون اين يذهبون .

قلت :

- هذا تحليل منطقي .

- ان هذا التجمع ليس بالكثير ، عليكم ان تأتوا هنا في الشتاء عندها لا تجدون
مكاناً ، فالتاس تتوافد الى هذا المكان طلباً للدفء .

اتجهنا الى صالة العرض حيث علق على جدرانها عدد من السجاد الفاخر . كانت
نافذة الصالة العريضة تطل على الحديقة التي اكتظت باللون الاخضر ، بينما تسربت
اشعة الشمس الخريفية واستراحت على السجاد المعلق فاضفت على الوانه القديمة
مزيداً من الهدوء فبدت وكأنها آتية من عالم الاساطير . كانت هناك سجادتان من
القرن السادس عشر ، عدة قطع اصفهانية وبعض القطع المصنوعة من الحرير بلون
عسلي نقشت حوافها بلون السمرقند الاخضر .

امضينا فترة طويلة في مشاهدتها ثم غادرنا الصالة وتوجهنا الى غرف اخرى من
المتحف الذي يعج بزائريه ، تأملتهم ، فتأكدت من انهم ليسوا من رواد المتاحف
الحقيقيين بل كانوا تجمعاً كبيراً من أناس شاحبي الوجوه بثياب رثة عتيقة يجولون
غرف المتحف خجلين بعيون تختلف كثيراً عن تلك العيون التي عرفها عصر النهضة
أو العصور القديمة . جلس عدد كبير منهم على المقاعد الحمر تعبين ، متحفزين
للخروج في اية لحظة يرميهم احد المسؤولين خارجاً . كان واضحاً انهم اتوا لينعموا
بالجلوس ، ولولفترة وجيزة على تلك المقاعد الوثيرة بلا مقابل على غير عاداتهم ، فقد
اعتادوا ان يدفعوا الكثير مقابل الحصول على القليل .

بالرغم من السكون الذي كان يسود غرف المتحف رغم كثرة زائريه فقد بدا لي
المكان كساحة قتال يعتريها كفاح البشرية الصامت ، كفاح المتعبين والذين لم
يستسلموا لليأس بعد ، فلاذوا بغرف المتحف الساكنة كي لا يقفوا فريسة الجمود
والضياع ، شاغلهم الوحيد هو الخبز ، الخبز والعمل . جاءوا الى هنا ليهربوا ولو
لبضع ساعات من تلك الافكار .

اخذوا يتنقلون بين الرؤوس الرومانية الصافية وبين تماثيل نساء الاغريق القدامى

المنحوتة من المرمر الابيض ، ثقيلي الخطوات منحني الاكتاف ، بلا هدف ، تناقض كبير ، لوحة مقفرة تعبر بصدق عما حققته البشرية في غضون آلاف من السنين : الارتقاء الى قمة الابداع الفني ، ولكنها في الوقت ذاته فشلت في تأمين الخبز لابنائها .

بعد زيارتنا للمتحف ذهبنا الى السينما وعند خروجنا منها كان المطر قد توقف وبدأ الطقس اكثر وضوحاً . شعت واجهات المتاجر بالانوار . واثناء عودتنا الى المنزل اخذنا نتوقف بين الحين والآخر امام واجهات المتاجر المضاء نتأمل معروضاتها . توقفت لفترة طويلة امام واجهة احد محلات بيع الفراء . شدني الى ذلك الجو البارد وتلك المعاطف الوثيرة التي تعطي الاحساس بالدفء . نظرت الى بات التي كانت ترتدي كعادتها سترة من الفراء فوق ثيابها الخفيفة .

قلت :

- لو كنت انا بطل الفيلم لدخلت في الحال الى المتجر واخذت لك أفخر معطف فيه .

ابتسمت :

- أي واحد منها ؟

- ذاك .

واشرت الى أفخر المعاطف المعروضة .

- ان ذوقك رفيع جداً يا روبي ، فهذا المعطف مصنوع من الفراء الكندي الفاخر .

- هل تودين اقتناؤه حقاً ؟

نظرت الي :

- هل تعرف حقاً ثمن هذا المعطف يا روبي ؟

- لا ، ولا اريد معرفة ذلك . اريد فقط ان احلم بأنني اهديك اياه لماذا لا نأخذ لانفسنا الحق كما يأخذه غيرنا ؟

تأملتني بانتباه :

- ولكنني لا اريد هذا المعطف يا روبي .

- بلى ، سيكون لك وبدون اي تعليق . سوف نرسل في الغد موفداً لاحضاره .

ابتسمت :

- شكراً لك يا عزيزي .

ثم قبلتني بحرارة وسط الطريق وتابعت :
- اما الآن فقد جاء دورك .

توقفت امام واجهة متجر آخر لبيع الملبوسات الرجالية .
- تلك البزة السوداء والقبعة السوداء الطويلة ، انها تلائم بلا شك ذلك المعطف
الوثير . كم اود رؤيتك في تلك البزة .
- سأبدو فيها بلا شك كعامل تنظيف المداخلن .

كانت البزة معروضة في واجهة فرشت بالمخمل الرمادي ، امعنت النظر فيها
وتذكرت انه هونفس المتجر الذي ابتعت منه في الربيع الفائق ربطة العنق الفاخرة
بعد الليلة الاولى مع بات والتي سكرت بعدها حتى الشالة . انتابني شعور
بالاختناق ، ففي ذلك الوقت لم اكن ادري ما كان يجنبه لنا القدر . تناولت يد بات
النحيلة وجعلتها لدقيقة تلامس وجهي .

- ما زال ينقصك الكثير للظهور بذلك المعطف ، فالمعطف وحده يبدو كسيارة
فاخرة بلا محرك . سأشتري لك ثلاثة فساتين نسائية .
- انها فكرة عظيمة ، واجد نفسي حيالها عاجزة عن الرفض .
انتقينا من احدى الواجهات ثلاثة فساتين فاخرة .

اعادت هذه اللعبة الى بات حيويتها ، فالفساتين المسائية كانت نقطة ضعفها .
تابعنا انتقاء كل الامور المكملة بينما ازداد نشاط بات وانغماسها الكامل في هذه
اللعبة . برقت عينها بينا ووقت الى جانبها ارقب حركاتها .
- يا لللعنة . كم هو صعب على رجل فقير الوقوع في حب امرأة جميلة .
- تعالي .

قلت أخيراً بشعور يائس

- اذا بدأ الانسان عملاً فعليه ان ينهيه على اكمل وجه .

سحبته من يدها ووقفنا امام واجهة متجر مجوهرات .
- الاسواره تلك ؟ المطعمة بالزمرد والخاتممان والحلق التابع لهما ؟ لا مجال هنا
للتقاش ، فالزمرد هو اكثر الاحجار الكريمة ملائمة لك .
- اذا كان الامر هكذا فعليك بتلك الساعة من البلاطين واحجار القميص
المصنوعة من اللؤلؤ .

- لماذا لا ابتاع المتجر بكامله ؟

ضحكت ثم القت برأسها على كتفي واخذت تنفَس بعمق .

- يكفي يا عزيزي يكفي ، دعنا نبتاع الان عدة حقائب ثم نتجه الى مكتب
سياحي ونرحل من هذه المدينة ، من هذا الخريف ، ومن هذا المطر .
- نعم ، قلت في نفسي ، لنذهب بعيداً من هنا ، عندها ستعافين بسرعة .
سألتها :

- الى اين تنوين السفر؟

- الى مصر ، أو الى ابعد من ذلك ، الى الهند او الصين ؟
- الى حيث الشمس يا عزيزي ، الى الجنوب ودفئه ، الى الطرقات المليئة بالنخيل
والصخور والمنازل البيضاء ، ولكن ربما امطرت هناك ايضاً .
- عندها نتابع سفرنا الى ان نجد مكاناً لا مطر فيه ، في المنطقة الاستوائية او الى
بحر الجنوب .

وقفنا امام واجهة مكتب خطوط امريكا - هامبورغ السياحي . توسط الواجهة
نموذج سفينة وسط امواج من الاسفنج الازرق وقد ارتفعت خلفها صورة فوتوغرافية
ضخمة لناطحات سحاب مانهاتن بينما علقت على زجاج الواجهة خرائط ملونة .
- سنسافر ايضاً الى امريكا ، الى كنتاكي وتكساس ونيويورك وسان فرانسيسكو
وهاواي ، بعدها نتابع سفرنا الى المكسيك ثم نتابع سفرنا مروراً بقنال بنما الى بيونس
ايرس وريوديجانيرو والعكس .

نظرت الي فرحة .

- هذا ما سنقوم به حتماً .

- لم اكن يوماً قد زرت ريو ، لقد كذبت عليك .

- اعلم ذلك .

- هل تعلمين ذلك حقاً ؟

- لكن يا عزيزي روبي ، بالتأكيد اعلم ذلك ، لقد شعرت بعدم صدقك في

الحال .

- لقد قاربت على الجنون في ذلك الوقت ، كنت عديم الثقة بنفسي مخبولاً
ومجنوناً ، لذا حاولت خداعك .

- واليوم ؟

- انني اليوم اكثر جنوناً من اي وقت مضى .

ثم اشرت الى السفينة المعروضة في تلك الواجهة .

- اللعنة . لماذا لا نستطيع ان نبحر فيها نحن ايضاً ؟

ابتسمت وشدت على يدي .

- لاننا لسنا اثرياء يا عزيزي . لو كنا اثرياء لاختلقت طريقة حياتنا عن هؤلاء
الاثرياء الذين لا يعرفون من الحياة سوى الذهاب الى مكاتبهم ومصارفهم .
- ان هذا بالذات سبب ثرائهم ، لو كنا مكانهم فلن يطول ثراؤنا كثيراً .
- هذا ما اعتقده ايضاً . سنبذر الثروة سريعاً .

- وربما سيدفعنا الخوف من اضعائها الى عدم الانتفاع بها . الشراء اصبح في هذه
الايام مهنة ومن الصعب على غير صاحب هذه المهنة الاحتفاظ بها .

- ويح هؤلاء الاغنياء . والان دعنا نقنع انفسنا بأننا كنا في احد الايام اغنياء
وأضعنا ثروتنا . لنفترض انه صادفك سوء حظ ، مما ادى الى اعلان افلاسك ، الامر
الذي دفعك الى بيع منزلنا الفاخر وجواهري وسيارتك . ما رأيك في هذا ؟
- ان ما تقولينه يتناسب مع روح العصر .

ضحكت .

- والان ، دعنا نعود نحن المفلسون الى غرفتنا في البنسيون لنجلس بهدوء
ونتحدث عن تلك الاوقات العظيمة .
- فكرة رائعة .

تابعنا سيرنا في تلك الطرقات بأجوائها المسائية حتى وصلنا الى المقبرة وهناك
شاهدنا طائرة تعبر السماء الخضراء بناوفاذها المضيئة . كانت تجوبها وحيدة وجميلة
وكأنها طائر احلام من عالم الاساطير . وقفنا وتتبعناها بنظرنا الى ان غابت في الافق
البعيد .

لم يمض على وجودنا في الغرفة نصف ساعة حتى قرع الباب بعنف. ظننت القارع
هاسة . فتحت الباب واذا بالسيدة تساليفسكي تقف هناك بادية الاضطراب .

همست :

- تعال معي ، اسرع .

- ما الخبر ؟

- هاسة . لقد اقبل على نفسه ولا يجيب احدأ .

- لحظة .

عدت الى بات واخبرتها بأنني سأحدث قليلاً الى هاسة وطلبت منها ان تستلقي
قليلاً لتستريح .

- حسناً يا روبي ، فأنا اشعر بالتعب .

تبعَت السيدة تساليفسكي حتى غرفة هاسة حيث تجمع كل سكان البنسيون .

ايرنا بونينغ التي ارتدت كيمونو وصبغت شعرها بالاحمر الذي كان قبل اسبوعين ابيض من شدة شقاره ، ثم المحاسب وجامع الطوايع بسترتة البيتية التي تشبه الى حد كبير ستره عسكريه . أورلوف ، شاحب وهادىء ، عاد لتوه الى البيت ، جورجي ، يطرق الباب بعصبيه وينادي هاسه بصوت مختنق ، واخيراً فريدا التي ازداد حولها من شدة الاضطراب ، والخوف .

سألت :

- منذ متى وانت تقرع الباب هكذا يا جورجي ؟
- منذ ربع ساعة .

صاحت فريدا وقد احمر وجهها ثم تابعت :

- انني متأكدة من وجوده في غرفته . لم يغادرها منذ الظهيرة سمعته يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً ، وبعدها ساد الصمت والهدوء .
- المفتاح في الباب من الداخل ، والباب موصد .

نظرت الى السيدة تساليفسكي .

- علينا ان نحاول اخراج الباب باحدى الوسائل ، اعندك مفتاح آخر للغرفة ؟

تطوعت فريدا على غير عاداتها .

- سأحضر لك رزمة المفاتيح ، ربما وجدت المفتاح المناسب . طلبت سلكاً وادخلته في ثقب الباب ودفعته فسقط المفتاح على الارض من الجهة المقابلة . صرخت فريدا وغطت عينيها بيديها .
- ابتعدي من هنا .

قلت ذلك واخذت اجرّب المفاتيح الى ان دار احدها . فتحت الباب ، كانت الغرفة تسبح في الظلام الا من ضوء الدهليز الذي تسرب اليها خافتاً ، الاسرة موضبة ، الدولاب مقفل والمقاعد في مكانها خاوية .
- ها هو هناك .

صاحت فريدا التي كانت قد عادت لتقف خلفي مباشرة وقد نفخت بوجهي نفسها الحار المشوب برائحة البصل .
- هناك على النافذة .
- لا .

صاح اورلوف الذي كان قد خطى عدة خطوات الى داخل الغرفة ، ثم عاد واغلق الباب من ورائه ثم خاطب الواقفين في الدهليز :

- من الافضل لكم ان تنصرفوا ، فهناك مشهد سيحزنكم .

تكلم بهدوء بلغته الالمانية ذات اللكنة الروسية القاسية وبقي واقفاً امام الباب ليمنعهم من الدخول .
- يا الهي .

صاحت السيدة تساليفسكي وتراجعت الى الوراء ثم تبعتها ايرنا بونينغ ، فريدا فقط حاولت التقدم عدة خطوات الى الامام محاولة فتح الباب ولكن اورلوف صدها بقوة .

- من الافضل لك انت بالذات ان تنصرفي . قالها للمرة الثانية .
- يا سيد اورلوف .

تكلم المدير المالي فجأة بتعال :

- انك تسمح لنفسك بالكثير ايها الاجنبي .

حدجه اورلوف بنظرة ثاقبة :

- اجنبي او غير اجنبي ، فهذا لن يغير من الحقيقة المؤلمة .

نبحت فريدا :

- هل مات حقاً ؟

توجهت بكلامي للسيدة تساليفسكي .

- من الافضل ان تبقي انت فقط هنا وربما انا واورلوف ايضاً .

- من الافضل ان نستدعي طبيباً على الفور .

رفع جورجي في الحال سماعه الهاتف ، ولم تمض ثوانٍ حتى علا صوت المدير المالي للمرة الثانية وقد احمر وجهه كالديك الرومي .

- اما انا فسأبقى هنا . ان هذا من حقي كالماني . هز اورلوف كتفه ثم فتح باب الغرفة واشعل النور .

تراجعت النسوة بصرخة عالية ، فقد كان هاسة معلقاً بربقته بحبل امام النافذة يتأرجح بوجه ازرق اسود وقد تدلى لسانه الاسود من فمه .

- لنقص الحبل .

- لا جدوى من ذلك .

اجاب اورلوف ببطه وجمود وحزن ، ثم تابع :

- رأيت الكثير من هذه الوجوه في حياتي ، لقد مضى ساعات على وفاته .

- دعنا نحاول .

- الافضل لا ، على البوليس ان يحضر أولاً .

في تلك اللحظة دخل الطبيب الذي كان يقطن في المنزل المجاور للبنسيون ثم
لقى نظرة سريعة على ذلك الجسم النحيل المنحني .
- لا أمل في ذلك ، ولكن علينا ان نقوم بتجربة تنفس صناعي .

اتصلوا بالبوليس واعطوني سكيناً .

كان هاسة قد شقق نفسه بحبل مبروم وردي اللون وهو في الاصل حزام ثوب
صباحي لزوجته الهاربة . ربطه باتقان على كلاب فوق النافذة بعد ان طلاه بكثير من
الصابون . لا بد وانه وقف على مصطبة النافذة ثم انزلق .

بدت يدها متشنجتان ووجهه مخيفاً . في تلك اللحظة فقد لاحظت انه كان يرتدي
بزة غير التي كان يرتديها في صباح ذلك اليوم لقد ارتدى افضل ثيابه : بزة زرقاء ،
كما انه حلق دقنه وارتدى ثياباً داخلية نظيفة . وضع على الطاولة وبشكل مرتب جواز
سفره ، دفتر التوفير ، اربعة ورقات ذات العشرة ماركات وبعض قطع نقود فضية .
وكانت الى جانب هذه المنشورات رسالتان ، احدهما لزوجته والثانية للبوليس ،
والى جانب رسالة زوجته وضع علبة سجائر فضية وخاتم الزواج .

كان من الواضح جداً ان هاسة فكر طويلاً قبل ان يقدم على هذا العمل ، فغرفته
نظيفة والنقود التي وضعها على طرف الطاولة والتي كتب الى جانبها :

مؤخر ايجار الغرفة حتى نهاية الشهر ، كل هذه الدلائل تشير الى ذلك .

قرع باب البنسيون ، دخل موظفان بلباس مدني .

نهض الطبيب واقفاً لدى رؤيتهم بعد ان قام بفحص الجثة .

- انتحار . كل الدلائل تشير الى ذلك .

لم يجب الموظفان بشيء بل اخذا يتفحصان الغرفة بكل دقة ، اخرجوا بعض
الرسائل القديمة في دولاب الملابس وقارنا الخط .

- هل يعرف احدكم سبب انتحاره ؟

سردت عليها ماحدث . هز الموظف رأسه ودون اسمي وعنواني .

سأل الطبيب :

- هل نستطيع الآن نقله من هنا ؟

- لقد اتصلنا بسيارة الاسعاف . ستصل في اية لحظة .

انتظرنا في الغرفة التي سادها صمت الموتى . رجع الطيب الى جانب جثة هاسة ، نزع عنه ملابسه واخذ يفرك صدره بمنشفة محاولاً انعاشه . لم يسمع في الغرفة صوت سوى صفير حشرة الهواء الداخلة والخارج من رئة الميت .
- انه المنتحر الثاني عشر في هذا الاسبوع .

قال الموظف الاصغر سناً . سألته :

- للاسباب ذاتها ؟

- لا فاعلهم انتحروا بسبب البطالة ، عائلة واطفالم الثلاثة بالغاز ، فالانتحار الجماعي يتم على الغالب بواسطة الغاز . اثناء دخول رجال الاسعاف الى الغرفة اندست فريدا بينهم واخذت تنظر بنهم الى جثة هاسة وقد غطت وجهها بقع حمراء واخذ يتصبب منه العرق .

- ماذا تريدان هنا ؟

سألها الموظف الاكبر سناً برعونة .

اجابته مرتعشة :

- ظننت انكم تودون استجوابي .

- هيا اخرجي .

صاح بها الموظف . غطى رجال الاسعاف جثة هاسة وحملوه الى الخارج ثم هم الموظفان الاخران بالخروج بعد ان اخذا جميع الاوراق معها .

- اما بالنسبة لتكاليف الدفن فقد رتب المنتحر ذلك . سنحول بدورنا النقود الى الجهات المختصة . اما اذا حضرت زوجته فنرجو اعلامها بان تمر على قسم الجنائيات لتأخذ المال المودع لها . لقد اورثها المتوفي كل ما يملك . هل من الممكن الاحتفاظ ببقية الامتعة هنا ؟

أومأت تساليفسكي بالايجاب .

- الغرفة ستبقى فارغة ولا اظن احدا سيقوم باستئجارها .

- حسناً .

صافحنا الموظف وخرج . تبعناه ثم اوصد اورلوف باب الغرفة من وراءنا وناول المفتاح للسيدة تساليفسكي .

قلت :

- من الافضل للجميع عدم الاسترسال في الحديث عن هذه الحادثة .

أجابت السيدة تساليفسكي :

- وهذا رأيي أيضاً .

تابعت حديثي :

- وخاصة تلك اللعينة فريدا .

عندها لمعت عينا فريدا وكأنها استفاقت من حلم طويل ولكنها لم تجب .

- اياك ان تنسني بكلمة واحدة امام الأنسة هولمان والا حلت عليك لعنتي .

اجابت بوقاحتها المعهودة .

- اعرف ذلك ، فهي سيدة مريضة جداً .

لمعت عيناها ، أما أنا فتمالكت نفسي عن ضربها .

- مسكين هاسة .

قالتها السيدة تساليفسكي بحزن وقد غطى الظلام ذلك الدهليز الطويل .

- كنت فقطاً جداً مع الكونت اورلوف .

قلت لرئيس المالية معاتباً ثم تابعت :

- الا ترى انه من واجبك الآن ان تعتذر منه ؟

نظر الي العجوز مندهشاً .

- في العادة للرجل الالماني الحق في عدم الاعتذار ، فكيف تريدني ان اعتذر ،

ولرجل اسويوي ؟

ثم دخل غرفته واغلق الباب بصوت مرتفع .

سألت متعجباً :

- ماذا الم بجامع الطوابع هذا . فلقد كان في الغالب رجلاً وديعاً كالحمل .

- ازداد خروجه في الاشهر الاخيرة الى اجتماعات معينة .

اجاب جورجني من خلال الظلام :

- هكذا اذن .

بدأت السيدة تساليفسكي تنتحب بعد ان تركنا اورلوف وايرنا .

تغير الواقع .

- انه لأمر فظيع . علي ان انتقل من هذا المنزل فأنا لا استطيع الاستمرار في

العيش هنا بعد هذا الحادث .

- ستتابعين حياتك هنا وبالتأكيد . لقد رأيت في ليلة واحدة مئات الاشخاص

كهاسة من انجليز وغيرهم وقد تسمموا بالغاز . وها انا قد اجتزت تلك الحادثة من زمن بعيد .

صافحت جورجى وعدت الى غرفتي المظلمة . لم اشعل النور . نظرت الى بات من خلال الباب المؤدى الى غرفتها فوجدتها نائمة . فتحت الدولاب واخرجت زجاجة الكونياك وصببت قدحاً . انه كونياك جيد وانا في امس الحاجة اليه . كان علي ان لا اترك هاسة صباح هذا اليوم بمفرده ، ولكنني وبسرعة طردت تلك الافكار من مخيلتي ، فلا داعي للشعور بالذنب . حاولت مساعدته باستمرار ولكنني لم افلح . كان السبب في انتحاره هو وصول تلك الرسالة اللعينة من زوجته ، وفي صبيحة يوم الاحد بالذات . لو صادف وصورها في احد ايام الاسبوع ، لذهب كعادته الى المكتب وربما ساعده ذلك على اجتياز محنته .

صببت قدحاً آخر من الكونياك . لا جدوى من الاستمرار بالتفكير في هاسة ، فلا احد يستطيع التكهن بما يجبته لنا القدر . قد يأتي اليوم الذي سننعت به هذا الانسان الذي نحزن لحاله الآن بالسعادة .

سمعت حركة في غرفة بات فذهبت اليها . نظرت الي .

- ان حالتي يا روبي تدعو لليأس . فها انا قد عدت للنوم الكثير ثانية .

- وما الضير في ذلك ؟

- لا ، لا اريد ان انام طويلاً .

- لم لا ؟ كم اود ان انام الخمسين سنة القادمة مرة واحدة .

- لا اظنك تريد ان تكبر خمسين سنة دفعة واحدة .

- لست ادري ، ولكنني سأعرف ذلك بعد مضيتها .

- هل انت حزين ؟

- لا ، بل على العكس ، علينا ان نبدل ثيابنا لنخرج الليلة ونتناول طعام العشاء

في مكان ما . سنتناول الطعام الذي تفضلين ، كما أمل ان نكثر من الخمرة .

- فكرة رائعة . هل هذا من ضمن مشروع افلاسنا ؟

- نعم ، انه بالفعل جزءاً منه .

- ٢١ -

دعاني البروفيسور جافه في منتصف شهر تشرين الاول لمقابلته. كانت الساعة تشير الى العاشرة صباحاً عندما قصدته في المشفى الذي اضيء بالأنوار بسبب سوء الطقس بضبابه الكثيف وسحبه السوداء .

قرعت باب مكتبه وعندما دخلت رفع رأسه الاصلع وحياني ثم اشار بتكدر الى المطر الغزير المترطم على زجاج النافذة .
- ما رأيك في هذا الطقس اللعين ؟
- أمل أن يتوقف عما قريب .
- لن يتوقف .

نظر الي بصمت ثم تناول قلماً بين يديه واخذ يتأمله ، نقر به قليلاً على الأوراق المتناثرة على المكتب وما لبث ان وضعه جانباً قلت :
- انني اعرف سر دعوتك لي هذا الصباح .

دمدم ببعض الكلمات غير المفهومة . انتظرت برهة ثم قلت :
- انها بات . يجب ان تغادر ؟
- نعم .

حملت جافه في مكتبه حانقاً .
- لقد قررت في البدء ان يكون رحيلها للمصح في نهاية هذا الشهر ولكن هذا الطقس اللعين اجبرني على تغيير قراري .

ثم عاد وامسك بقلمه الفضي . اخذ المطر المنهمر في الخارج يطرق زجاج النافذة بقوة وعلا زخمه فاصبح كصوت طلقات رشاش ناري بعيدة .
- متى سيكون رحيلها ؟
- غداً .

للحظة شعرت وكأن الأرض انزلقت من تحت اقدامي وان الهواء أصبح قطعة من القطن التصقت في رثتي . للحظة فقط ، ولكنني عدت احاول ان اتماسك واصطنع الهدوء . ولكن فجأة هتف صوت الشك ، صديقي القديم . من بعيد وكأنه

شخص آخر في داخلي متسائلاً :
- هل ساءت حالتها فجأة الى هذا الحد ؟

هز جافه رأسه بعصبية ثم وقف :
- لو كان الأمر هكذا لما كان بإمكانها السفر ولكن خوفاً من هذا الطقس وما يسببه
من رشوحات هو الذي دفعني للاسراع بارسالها الى المصحح ، فكل تأخير يعني
الخطر .

تناول عدة رسائل من مكتبته ثم قال :
- لقد حضرت كل شيء وما عليك الا الرحيل . رئيس المصحح صديقي منذ زمن
الدراسة ، انه طبيب ناجح . شرحت له حالة بات بالتفصيل .

تناولت الرسائل ، ولكنني لم اضعها في جيبي . تأملني وبقي واقفاً أمامي ثم
وضع يده فوق ذراعي :
- انني اقدر صعوبة الأمر .

قالها بصوت خافت حزين ثم تابع :
- ولهذا السبب تقصدت تأجيل سفرها حتى هذا الوقت .
- الامر ليس صعباً .
- دعك من هذا ، فأنا افهمك جيداً .
- لا ، لم اعن ذلك ، كل ما اعنيه هو هل ستعود يوماً ؟

صمت جافه لحظة ، ثم غطى بريق حزين عينيه السوداوين . سألني بعد فترة :
- لماذا تود معرفة كل هذه الأمور الآن ؟
- اذا كانت حالتها سيئة فيما جدوى رحيلها .

ارتجف لدى سماعه ما قلت .
- ماذا تقول ؟
- اذا كان لا امل يرتجى فالأفضل لها ان تبقى .

حملق بي ثم سألني بهدوء وحدة :
- هل تقدر معنى ما تقول ؟
- نعم ، ان ما أقوله يعني انني لا اريدها ان تموت وحيدة .

رفع جافه منكبيه وارتجف كمن اصابته الحمى ، ذهب الى النافذة واخذ ينظر الى
المطر المنهمر ولكن عندما عاد كان وجهه قد اكتسب ملامح اخرى واصبح كالقناع .

سألني :

- ما عمرك ؟

- ثلاثون .

أجبتة ولم ادر سبباً لسؤاله .

- ثلاثون .

أجاب بنبرة غريبة وكأنه يتكلم مع نفسه دون ان يلحظ وجودي .
- ثلاثون عاماً . يا الأهي . . . ما قلته جرأة كبيرة . لقد تجاوزت الستين ورغم ذلك فأنا لا استطيع اتخاذ قرارك الحازم هذا ، لذا تراني احاول واحاول رغم معرفتي الاكيدة في كثير من الاحيان ان لا فائدة ترتجي من هذه المحاولات .

صمت ونظرت الى جافه الذي وقف وكأنه نسي كل شيء حوله . عاد ونظر الي بعد فترة وقد تبدلت تقاسيم وجهه ثم ابتسم .

- انني واثق من انها ستتغلب اثناء اقامتها في المصح على هذا الشتاء .

- هذا الشتاء فقط؟

- أمل ان ترجع لنا مع الربيع القادم .

- أمل . ماذا يعني الأمل ؟

- كل شيء . الأمل يعني الحياة . لا استطيع ان اقول لك اكثر من ذلك وكل قول عداه ليس سوى احتمالات . علينا ان ننتظر التقارير التي ستصلنا من المصح . ولكنني كلي أمل أن ترجع لنا بات في الربيع .

- حقاً ؟

- نعم .

دار حول مكتبه ولكنه اصطدم بعنف بدرج مكتبه المفتوح .

- يا لللعنة . والآن اسمعني يا هذا ، ان مسألة رحيل بات تؤلني انا ايضاً .

في تلك اللحظة دخلت الغرفة ممرضة فأشار اليها جافه بأن تعود ادراجها ، ولكنها بقيت واقفة ، قصيرة القامة ، مكعبة الشكل ، لها وجه كلب علاه الشيب من فصيلة البولدوك .

صاح بها جافه :

- فيما بعد ، عودي لي فيما بعد .

استدارت الممرضة غاضبة وضغطت اثناء خروجها على زر الكهرباء واطفشت النور لتثار من اهاتته لها .

فجأة سبحت الغرفة بضوء حليبي رمادي وبان وجه جافه تحت تأثيره طويلاً شاحباً .

- هذه العجوز الشمطاء . عشرون عاماً وانا افكر جدياً في طردها من خدمتي ولكن كفاءتها في العمل تمنعني من ذلك .
- والآن ؟

أجبتة :

- سنسافر الليلة .

- الليلة ؟

- نعم ، اذا كان السفر هو الحل الاخير ، فاليوم افضل من الغد سأصحبها الى المصح وسأمكث عندها بضعة ايام .

صافحني مودعاً . خرجت وشعرت بأن الدهليز المؤدي الى الباب الخارجي نفق لا نهاية له .

وقفت في الخارج ، وعندها فقط تنبهت الى الرسائل التي ما زالت في يدي وقد بللتها بعض قطرات المطر . مسحتها ووضعتها في جيب سترتي الداخلية ثم تلفت حولي . في تلك الدقيقة توقف باص امام المشفى وقد تراحم راكبوه امام باب الخروج . وقفت عدة فتيات بمعاطف سوداء لامعة واقية من المطر يتضحكن مع سائق الياص الشاب . هذا محال . قلت في نفسي ، لا يمكن ان تكون هذه هي الحقيقة . الحياة من حق الجميع ، لماذا يتحتم على بات مغادرتها ؟

تابعت سيرتي واتجهت اولاً الى كوستر لاعلمه بما جرى ، على أن اذهب بعدها لاتباع تذاكر القطار .

عدت الى البيت عند الظهر بعد ان انهيت جميع الاعمال وابرقت للمصح .
- بات .

خاطبتها بينما كنت ما زلت وافقاً على عتبة الباب .

- هل تستطيعين توضيب حقائبك حتى المساء ؟

- هل حان وقت رحيلي ؟

- نعم يا بات .

- لوحدي ؟

- لا بل سنسافر معاً ، سأوصلك بنفسي الى هناك .

عاد وجهها واكتسب لونه الطبيعي لدى سماعها ذلك .

- كم لدي من الوقت ؟
- سيتحرك القطار في تمام الساعة العاشرة مساء .
- وهل ستركني الآن ؟
- لا ، سأبقى الى جانبك حتى موعد سفرنا .
- تنفست بعمق .
- هذا سيهون عليّ الامر يا روبي . هل نباشر في الحال ؟
- لدينا الوقت الكافي لذلك .
- افضل ان اباشر الآن كي انتهي منه بسرعة .
- حسناً .

ذهبت الى غرفتي والقيت في حقيتي بعض ما يلزمني للسفر ثم توجهت الى السيدة تساليفسكي واعلمتها بسفرنا المفاجيء واتفقت معها على تسليم غرفة بات في اوائل شهر سبتمبر. كعادتها دفعها فضولها لخوض حديث مطول معي ولكنها تتساءل وعدت مسرعاً الى بات حيث وجدتها راكعة امام حقيبتها وقد تناثرت على السرير ثيابها الداخلية وفساتينها . ذكرني منظرها الحالي باليوم الأول لدى انتقالها الى هذا المنزل . بدا لي كذلك الوقت بعيداً جداً ولكنه ما لبث ان عاد فجأة قريباً جداً وكأنه حدث بالأمس .

رفعت نظرها اليّ . سألتها :
- هل ستأخذين فستانك الفضي الطويل أيضاً ؟

هزت رأسها بالايجاب .

- ولكن ماذا عسانا سنفعل ببقية الحاجيات يا روبي ؟ اعني قطع الاثاث ؟
- لقد تكلمت مع السيدة تساليفسكي بشأنها سأضع قسماً منها في غرفتي وسأودع القسم الآخر لدى شركة لحفظ المفروشات لحين عودتك .
- هذا اذا عدت .

- نعم يا بات ، ستعودين لي في الربيع ببشرة لوحتها الشمس وسيحسدك عليها كل من سيراك .

ساعدتها في اتمام توضيب الحقائق ولم تنته من ذلك حتى العصر ومع قدوم اول غلائل الظلام .

أمر غريب حقاً فقد بدت الغرفة خالية خاوية بالرغم من وجود قطع الاثاث في اماكنها .

جلست بات على حافة سريرها وقد بدا عليها التعب الشديد .

- هل اشعل النور ؟

- لا ، دعنا نجلس قليلاً هكذا .

جلست الى جانبها .

- هل ترغيبين في تدخين سيجارة ؟

- لا يا روبي ، كل ما اريده فقط هو الجلوس هكذا .

نهضت واتجهت الى النافذة واخذت ارقب ضوء الفوانيس في الخارج الذي بدا مضطرباً مرتجفاً من خلال المطر المنهمر ، بينما اخذت الريح تعبت بقسوة بالاشجار . على الطريق رأيت روزا تمشي ببطء متجهة الى مقهى الانترنت ناسيونال ، منتعلة جزماتها السوداء اللامعة ومتأبطة تحت ذراعها حقيبة صغيرة . لا شك انها حقيبتها التي تضع فيها الصوف لتحكيك لطفلتها ثياباً دافئة . تبعتها فريتسي وماريون اللتان ارتدتا معاطف بيضاء ضيقة ومن خلفهن وعلى مسافة قصيرة مشت ميمي متعبة مهلهلة . استدرت ولم استطع رؤية بات من شدة الظلام . ولكنني سمعتها تتنفس .

كانت الساعة تشير الى الثامنة عندما علا بوق السيارة .

- انه لينس . جاء ليصطحبنا للعشاء .

ناديته من النافذة واشرت اليه اننا سننزل في الحال . ذهبت الى غرفتي التي بدت لي غريبة واخرجت زجاجة الروم وشربت قدحاً على عجل ثم جلست على الاريقة واخذت أحملق في الحائط . نهضت بعد فترة واتجهت الى المغسلة لأسرح شعري ولكنني نسيت ذلك بعد ان رأيت وجهي في المرآة . وجهاً متسماً بالبرود والفضول . ابتسمت لنفسي في المرآة فردت علي ابتسامة شاحبة متشججة .

- أنت يا هذا : اضبط اعصابك .

قلت لنفسي بصوت خافت وعدت الى بات .

- والآن . هل تخرج ايها الصبي الشجاع ؟

نعم ولكن دعني ادخل غرفتك لدقيقة واحدة فقط .

- لماذا ؟ ماذا تبغين من تلك الغرفة المهترئة ؟

- ابق هنا ، سأعود في الحال .

انتظرتها فترة ثم تبعتها . كانت تقف في منتصف الغرفة تتأمل الاشياء بصمت . انتفضت عندما تنبعت الى وجودي . لم ارها يوماً بهذا الشحوب والوجوم استمر ذلك ثانية فقط ثم عادت لتبتسم :

- تعال ، دعنا نخرج الآن .

أمام باب المطبخ وجدنا السيدة تساليفسكي في انتظارنا وقد ارتدت ثوبها الحريري الاسود وزينته بتلك الحلية التي تحمل صورة زوجها المرحوم . همست في اذن بات .

- تماسكي يا عزيزتي . . انها تنهياً لاحتضانك .

لم اكد انهي كلمتي حتى اختفت بات بين ثنايا صدر تساليفسكي الواسع وراح يرتجف من فوقها ذلك الوجه الضخم . ثوان فقط وستغرق بات في بحر من دموع الام تساليفسكي ، فقد كانت دموعها سخية وغزيرة وكأن عينها نبع يقع تحت ضغط مياهه الجوفية .

- المعذرة ، ولكن علينا ان نسرع في الخروج فالوقت ضيق .
- ماذا ؟

ورمتني بنظرة مدمرة .

- ما زال هناك ساعتان من الوقت لحين تحرك القطار هل تريد ان تسكرها قبل الرحيل ؟

لم تقو بات على كبت ضحكة عالية .

- لا يا سيدة تساليفسكي . ولكننا نريد توديع رفاقنا .

هزت السيدة تساليفسكي رأسها وقالت :

- يا طفلتي الحبيبة . انك ترين في هذا الشاب وعاء من ذهب بينما ليس هو في الحقيقة سوى زجاجة خمر ذهبية اللون فقط .

قلت :

- انه تشبيه رائع حقاً .

- آه يا طفلتي الحبيبة .

ثم عادت بوجه الخنان المتدفق لتغمر من جديد وجه السيدة تساليفسكي ،

- نأمل عودتك في القريب العاجل . ستكون غرفتك جاهزة دوماً لاستقبالك ولو سكنها القيصر بنفسه سيخرج طوعاً حالماً ترجعين .

- شكراً لك يا سيدة تساليفسكي ، شكراً لكل عمل قمت به من أجلي . سأتذكر باستمرار الساعات التي كنا نقضيها سوياً في لعب الورق .

- عفواً يا عزيزتي . والآن أمل لك الشفاء العاجل وعودي لنا سريعاً .

- سأبذل جهودي . الى اللقاء يا سيدة تساليفسكي .

- الى اللقاء يا فريدا .

خرجنا من تلك الردهة المعتمة نسبياً ثم نظرت الى بات وهي تنزل السلم بخطواتها الرشيقة الهادئة واحسست ان طلة جميلة قد قاربت على الانتهاء . وها انا عائد بشعور كثيب لالتحق بالجبهة.فتح لينس باب السيارة وصاح :
- انتبهوا .

امتلاً مقعد السيارة الخلفي بباقتين كبيرتين من الورد الابيض والاحمر . تعرفت في الحال على مصدرهما ، انهما من حديقة الكنيسة .
- انها آخر ورد الصيف . كلفني قطفها جهداً كبيراً . والزمني الدخول في نقاش طويل مع احد القساوسة .

- هل كانت له عينا طفل زرقاوين ؟

- آه . هذا انت ايها الأخ ، لقد كلمني عنك وكم كانت خيبة ظنه كبيرة عندما اكتشف حقيقة المصلين في تلك الحديقة بعد أن ظن الايمان عاد ليقطن في النفوس البشرية وخاصة الرجال منها .

- هل سمح لك بأن تأخذ هذه الورد معك ؟

- في البدء تحدثنا عن الموضوع وبعدها ساعدني بنفسه في قطفها .

ضحكت بات .

- هل هذا صحيح ؟

- بالطبع صحيح . تأملوا كم كان منظر ذلك القسيس رائعاً وهو يقفز محاولاً الوصول الى اعلى الاغصان . لقد تحول فجأة من رجل دين الى رجل رياضي وروى لي انه كان لاعب كرة ماهر اثناء دراسته الثانوية .

- ستطول اقامتك في الجحيم لمئات من السنين . فلقد جعلت من قس مؤمن لصاً محترفاً ، ولكن اين اوتو ؟

- سبقنا الى حانة الفونس . سنتناول سوية طعام العشاء .

- هيا بنا .

قدم لنا الفونس وجبة عشاء فاخرة : أرانب مشوية مع الملفوف الاحمر وفي الختام اسمعنا مقطوعاته المحببة : صوت مغن وحيد بصحبة كورال يدمدم وكأنه أت من مكان بعيد . تخيلت وانا استمع اليها ان باب الحانة قد فتح ودخل رجل مسن ثم جلس الى المقاعد واخذ يستمع بصمت الى اغنية شبابه .

- ايها الاولاد .

صاح الفونس بعد ان تضاعل صوت الكورال وغاب كغيباب تأوهة .

- ايها الاولاد . هل تعرفون بماذا تذكركني هذه المقوطة ، انها تذكركني بالجبهة سنة ١٩١٧ ، هل تذكر ذلك الوقت يا لينس في مايسن وتلك الليلة مع برتلسان ؟
- بلى يا الفونس . . كانت تلك امسية اشجار الكرز .

نهض كوستر .

- اعتقد ان الوقت قد حان .

ثم نظر الى ساعته .

- نعم لقد حان وقت الرحيل .

قال الفونس :

- لنشرب قدحاً من الكونياك ، كونياك نابليون ، فلقد ابتعت الزجاجه خصيصاً لكم .

شربنا الكونياك ثم تاهبنا للخروج .

- الى اللقاء يا الفونس ، كم كنت احب الامسيات عندك .

ثم مدت له يدها مصافحة . احمر وجهه بينما احتفظ بحرارة بيدها بين مخلبيه ثم نظر اليها نظرة حياء .

- اصبحت فرداً منا . لم أفكر يوماً من الايام بأن تغدو امرأة ما ضمن مجموعة الرفاق هذه .

- شكراً لك يا الفونس . ان قولك هذا أجمل ما سمعته في حياتي الى اللقاء يا عزيزي الفونس مع تمنياتي لك بكل الخير .
- الى لقاء قريب .

اوصلنا لينس وكوستر الى محطة القطار وأثناء الطريق توقفنا قليلاً امام البنسيون فصعدت بسرعة لاحضر الكلب . فلقد كان يوب قد اودع الحقائق في المحطة . وصلنا في الوقت المناسب . فلم نكد نصعد حتى بدأ القطار في التحرك . وعندما بدأت القاطرة تنفث دخانها الاسود ، عندها اخرج جوتفريد من جيبه زجاجة ملفوفة .

- خذها يا روبي ، ستحتاجها اثناء سفرك .

- شكراً . اشربوها انتم اما انا فقد زودت نفسي بالكثير .

- خذها . لا يمكن للمرء ان يأخذ الكثير منه . سار بمحاذاة القطار ورمى لي بالزجاجة من خلال النافذة المفتوحة .

- الى اللقاء يا بات . اذا ساءت حالتنا المادية وتعرضنا للافلاس سنأتيك كلنا .

اوتو كمدرب للتزلج وانا كمدرب للرقص وروبي كعازف بيانو . وبفرتنا هذه ننتقل من فندق الى فندق .

زاد القطار من سرعته بينما بقي جوتفريد واقفاً على رصيف المحطة. انحنى بات الى الخارج واخذت تلوح لجوتفريد حتى غاب عن بصرنا ثم استدارت : لقد شحب وجهها وامتلات عيناها بالدموع .

احتضنتها .

- تعالي سنشرب قدحاً . فلقد تماسكت بشجاعة .
- ولكن نفسي حزينة جداً .

اجابت وحاولت ان ترسم ابتسامة على وجهها .
- وانا ايضاً ، سنشرب الآن كأساً .

فتحت الزجاجاة وقدمت لها كأساً من الكونياك .
- هل انت الآن احسن حالاً ؟

القت برأسها على كتفي .

- يا عزيزي . كم اود معرفة هذا كله .
- لا تبكي . لقد كنت فخوراً بك النهار بكامله لشجاعتك .
- انني لا ابكي .

واخذت الدموع تنهمر من عينيها لتغطي وجهها النحيل .
- تعالي أشربي كأساً آخر .
واحتضنتها بشدة .

- ان اللحظات الاولى هي اصعب دائماً . لا عليك فستخف حدة هذه الامور عما قريب .

- لا تقلق بشأن دموعي يا روبي ، سأعود بعد قليل الى طبيعتي . من الافضل ان لا تراني على هذه الحال . دعني بضع دقائق بمفردي لانني هذا الموقف مع نفسي .
- لماذا ؟ لقد كنت شجاعة النهار بكامله . لذا فلا ضير عليك لو بكيت الآن .
- لم اكن شجاعة . ولكنك لم تلحظ شيئاً .
- ربما ، ولكن الشجاعة هي القدرة على اخفاء الخوف امام الآخرين .
حاولت ان تبتسم .

- ولكن ماذا تعني الشجاعة للانسان ؟

- انها تعني عدم الاستسلام . فطالما ان الانسان يرفض الاستسلام فهو اقوى من

- انها ليست الشجاعة التي امتلكها كما تظن يا عزيزي ، بل هو الخوف ، خوف من ذلك الخوف الاخير ، الخوف الكبير .

- لا ، انك تخطئين ، ان ما نسميه الخوف هو الشجاعة بحد ذاتها

- آه يا روبي ، انك لا تدرك ما هو الخوف .

- بلى .

فتح باب المقصورة ودخل الجابي طالباً التذاكر . ناولته اياها .

- هل تذكرة مقصورة النوم تخص السيدة ؟

- نعم .

- اذن عليك التوجه الى مقصورتك يا سيد فالتذكرة لا تخولك البقاء في اماكن

اخرى من القطار .

- حسناً .

- اما الكلب فيجب ايداعه في قسم الكلاب .

- حسناً ، ولكن اين العربية المخصصة لمقصورات النوم ؟

- الى اليمين ، العربية الثالثة .

ثم خرج .

- علينا ان ننتقل الآن ، اما يبلي فسوف اهربه معك . لن اسلمه للمستودع .

لم اكن ابتعت لنفسى تذكرة لمقصورة النوم ، فانا استطيع النوم في اي مقعد عادي ، كما اني في هذه الحالة اخفف من تكاليف الرحلة . كان يوب قد اودع الحقائب في المقصورة التي شابهت غرفة صغيرة جميلة وقد غطيت جدرانها بخشب المهاجوني فيها سريران على شكل طابقين .

سألت الجابي ان كان السرير العلوي محجوزاً ام لا .

- نعم . من فرانكفورت .

- متى سنصل الى فرانكفورت ؟

- في الساعة الثانية والنصف .

ناولته بقشيشاً ، وبعد ان خرج قلت لبات :

- سأكون عندك بعد نصف ساعة .

- لا يمكن ذلك ، فالجابي سيبقى جالساً في هذه القاطرة .

- سأندبر الأمر ولكن عليك ان لا توصدي الباب .

عدت الى قاطرتي ماراً أمام الجابي ليراني وبعد نصف ساعة وفي المحطة التالية

نزلت من القطار وعدت الى قاطرة بات متخطياً رصيف المحطة . مستغلاً ذهاب الجايبي الى سائق القطار وانشغاله في التحدث اليه . وصلت الى بات دون ان يراني احد . وجدتها وقد ارتدت معطفاً خفيفاً ابيض وبدت رائحة الجمال .
- لقد تخطيت الازمة يا روبي .

- هذا خبر مفرح ، ولكن حاوي الآن ان تنامي قليلاً وسأجلس الى جوارك .
- لكن

واشارت باصبعها الى السرير العلوي .

- ولكن اذا دخلت علينا مسؤولة نادي الفتيات الساقطات ، ماذا اذن ؟

- لدينا متسع من الوقت حتى نصل فرانكفورت .

- سأنتبه ، فأنا لن أنام .

قبل وصول القطار فرانكفورت بقليل غادرت بات واتجهت الى المقصورة ، جلست في احدى زواياها قرب النافذة وحاولت النوم . في فرانكفورت صعد رجل له لحية كلحية كلب البحر الى المقصورة . فتح حقيبته واخرج طعاماً وشرع في الاكل . طالت وجبة طعامه هذه حوالى الساعة تقريباً ، بعدها مسح كلب البحر لحيته بيده ثم تمدد على المقاعد ولم يمض وقت طويل حتى احيا لشخيره حفلة موسيقية . لم يكن شخيره عادياً بل اشبه بتأوهات منتحب مختلف الذبذبات . لم استطع النوم ولكن لله الحمد غادرنا الرجل في حوالى الساعة السادسة والنصف صباحاً .

عندما استيقظت وجدت الثلج الابيض يغطي الاراضي التي نمر بها.عندها تأكدت اننا نعبر الآن سلسلة الجبال . الساعة حوالى التاسعة نهضت لاغتسل واحلق ، وعندما عدت وجدت بات في انتظاري بدت مشرقة مرتاحة .
- هل نعمت بنوم هادىء ؟

أومات برأسها .

- وما هو انطباعك عن تلك الموجودة في مقصورتك ؟

- انها شابة جميلة اسمها هيلجا جوتمان وتقصد ذات المصح الذي سأنزل فيه .
- حقاً ؟

- نعم يا روبي ، ولكنك لم تنم جيداً ، لذا عليك ان تتناول افطاراً جيداً .
- انني بحاجة الى قهوة ، فنجان كبير من القهوة مع قرح من خمرة الكرز .

توجهت الى عربة الطعام . فجأة شعرت بتحسن في مزاجي وبدت لي الامور اقل سوداوية مما كانت عليه ليلة البارحة .

هيلجا جوتمان سبقتنا الى عربة الطعام ، شابة ، نحيلة حيوية ذات طابع جنوبي ، حبيتها وقلت :

- صدفة غريبة حقاً الاثنان في نفس المصح وفي ذات العربة .

أجابت :

- وما وجه الغرابة ؟

نظرت اليها ، ضحكت ثم تابعت :

- في مثل هذا الوقت من العام تتجمع الطيور في اسراب كبيرة لتعود الى اماكنها المشمسة ، انظر هناك .

واشارت الى زاوية المطعم .

- ان المجموعة التي تجلس هناك متجهة بكاملها ايضاً الى المصح .

- من اين لك كل هذه المعلومات ؟

- اعرفهم جميعاً من العام الماضي . ففي المصح يعرف كل واحد الآخر .

احضر النادل القهوة .

- كأساً كبيرة من قهوة الكرز من فضلك .

احسست بحاجتي الملحة للخمرة . فجأة غمرني شعور بالاطمئنان وبدا لي الأمر اسهل مما كنت أتوقع . ها هم سكان المصح يسافرون للمرة الثانية الى مصحهم وكأنهم يقومون بنزهة للمرة الثانية . تبدد خوفي الكبير وبدا لي مضحكاً . ستعود بات في الربيع كما عاد هؤلاء المرضى ايضاً . لم اعد افكر بأن جميع هؤلاء ذاهبون الى المصح بل اخذت افكر فقط في انهم عادوا منه وقضوا سنة جديدة بين احبائهم سنة مفعمة بالحياة .

كان يكفي ان تعود الي بات ولسنة كاملة . نعم هذا يكفي ففي خلال سنة تحدث امور كثيرة . لقد علمنا ماضينا بأن نفكر في الأمور المستقبلية بشكل مختصر وان نرضى بالقليل القليل .

وصل القطار بعد الظهر الى هدفه . كان الجو رائعاً . السماء زرقاء ، صافية . والشمس مشرقة وقد نشرت اشعتها كغلالة ذهبية على حقول الثلج . طقس جميل لم نشهده منذ اسابيع .

على رصيف المحطة تجمع عدد كبير من المستقبلين يلوحون ويطلقون صيحات الاستقبال عالية في الفضاء للقادمين الذين احتشدوا خلف نوافذ القطار يلوحون

بمناديلهم ويردون التحية بنفس الحماس . استقبلت هيلجا هوعمان من قبل امرأة شقراء ورجلين بلباسهم التقليدي . بدت فرحة ومنفعلة كفرحة اللقاء بعد غياب طويل الى بيتها وذويها .
- الى اللقاء فيما بعد في المصح .

صاحت بنا مودعة واعتلت زحافة جليد مع اصداقائها .

بسرعة غريبة تمكك ذلك التجمهر على رصيف المحطة ولم نلبث ان وجدنا انفسنا وحيدين مع ذلك الرصيف . اقترب منا حامل امتمة وسألنا الى اي فندق تودون الذهاب ؟
- الى المصح .

أوما الى الحوزي . تعاوننا في وضع الحقائب في زحافة جليد زرقاء يقودها حصانان . زينت رؤوسهم بريش متعدد الالوان . ركبنا العربية .
- هل تفضلون الصعود الى المصح بواسطة المركبة الهوائية ام بهذه العربية ؟
- كم يستغرق الوقت بهذه العربية ؟
- نصف ساعة .
- لتتابع بهذه العربية .

انطلقنا بالزحافة عبر القرية واخذنا نصعد الجبل مارين بمنعطفات كثيرة فالمصح يقع على رأس الجبل ، بناء ابيض طويل يزين واجهته صف من النوافذ تطل كل نافذة منها على شرفة صغيرة . وعلى السطح كان هناك علم يرفرف . تخوفت من ان يكون المصح مبنياً على شكل مشفى ، ولكن ما ان رأيت الطابق الارضي حتى تبددت مخاوفي . فلقد بدا هذا البناء اشبه بفندق منه الى مشفى . كان في قاعة الاستقبال موقد وطاولات صغيرة وضعت عليها بعض الجرائد والمجلات .

اتجهنا الى مكتب الادارة، سلمناهم الاوراق اللازمة والرسائل الموجهة من قبل البروفيسور جافه . بعد الانتهاء من التسجيل تقدم منا احد المستخدمين وحمل الأمتعة الى غرفة رقم ٧٩ حسب توجيهات موظفة متقدمة في السن سألتها ان كان بإمكانني الحصول على غرفة لبضعة ايام :
- لا يمكنك الاقامة في المصح ولكن هناك بناء ملحق به .

- اين يقع الملحق ؟

- في البناء المجاور .

- حسناً ، اعطني غرفة بسرير واطلبي من احد المستخدمين نقل امتعتي الى هناك .

ركبنا مصعداً هادئاً اوصلنا الى الطابق الثاني . ذكرني الدهليز بمشافي الدرجة الاولى ، الطابع ذاته ، دھات وابواب بيضاء تعج باللوائح الزجاجية والنيكل والنظافة . استقبلتنا رئيسة القسم وسألت :

- الأنسة هولمان ؟

- نعم ، الغرفة ٧٩ .

هزت الممرضة رأسها . تقدمتنا وفتحت احد الابواب .

- هذه غرفتك يا آنسة هولمان .

الغرفة بيضاء ، متوسطة المساحة ، تتوسطها طاولة وضعت عليها باقة ورد حمراء ، لها نافذة عريضة تطل على السهول وعلى القرية المغطاة بالثلج الابيض الساطع .

- سألت بات : أعجبتك الغرفة ؟

نظرت الي فترة ثم أجابت :

- نعم .

احضر المستخدم الحقائب .

- متى سأتقدم للفحص الطبي ؟ سألت بات الممرضة :

- في صباح الغد ، لذا عليك ان تخلدي باكراً للنوم .

خلعت بات معطفها والقته على السرير الذي علقته عليه ورقة لقياس النبض

والحرارة . سألت :

- الا يوجد هاتف في الغرفة ؟

- لا ولكن من الممكن وضع هاتف اذا شئتم .

سألت بات :

- هل يتوجب علي القيام بعمل معين اليوم ؟

هزت الممرضة رأسها نفيماً .

- اليوم لا ، ولكن في الغد تتقرر عدة أمور . الفحص الطبي سيكون في تمام

الساعة العاشرة صباحاً وسآتي لاصطحبك .

- شكراً لك .

غادرتنا الممرضة والمستخدم بعد ان حصل الاخير على بقشيشه . ساد الغرفة

صمت رهيب وقد وقفت بات امام النافذة واخذت تنظر الى الخارج .

- هل انت متعبة ؟

استدارت : لا

- ولكنك تبدين متعبة جداً .

- ان تعبي من نوع آخر يا روبي ، ولكن امامي الوقت الكافي لاتغلب عليه .

- الاتبعين تبديل ملابسك قبل النزول الى القاعة أم تفضلين نزولنا على الفور .

- نعم من الافضل ان نغادر الغرفة على الفور .

هبطنا بالمصعد الى القاعة . وجلست حول احد المناضد الصغيرة . بعد فترة انضمت الينا هيلجا جوتمان ورفاقها . كانت هيلجا فرحة ومنفعلة الامر الذي بعث في بعض الطمأنينة ، لشعوري بأن اناساً طيبين سيكونون الى جانب بات في غيابي .

عدت الى برلين بعد ان امضيت اسبوعاً كاملاً مع بات في المصحح . عندما وصلت محطة القطار كان الظلام قد خيم على المدينة . ورذاذ المطر ما زال يتساقط بلا توقف . توجهت على الفور الى الورشة حيث وجدت كوستر في المكتب .

صاح جوتفريد :

- ها انت قد جئت في اللحظة المناسبة .

- سألتهم : ما الأمر ؟

- قال كوستر : دعه يدخل أولاً .

تناولت كرسياً وجلست الى جوارهم . سألني كوستر :

- كيف حال بات ؟

- حسن ، ان امكن التعبير ، ولكن ما الامر ؟

- الامر يتعلق بتلك الزحافة التي تشاجرنا من اجلها وامضينا فترة طويلة في تصليحها . وبعد ان انتهينا من تصليحها ذهب كوستر ليحضر النقود فوجد صاحبها قد اعلن افلاسه وحجزت املاكه بما فيها السيارة .

- ولكن الامر لا يدعو للقلق ، فعلاقتنا مع شركة التأمين فقط .

- لقد ظننا ذلك في البدء ، ولكن اكتشفنا ان السيارة غير مؤمن عليها .

- يا للجنة ، اصحيح ما تقوله يا اوتو ؟

- نعم ، لقد تأكدت اليوم من ذلك .

- وكم تكبدنا من اجل تلك الزحافة من وقت وجهد . وها نحن الآن نخرج من

هذه التجربة بخسارة قدرها اربعة آلاف مارك .

- ولكن من اين لنا معرفة ان نهاية الامر ستكون هكذا ؟

- انه واقع مضحك ، هذا الذي نعيشه .

- سألته : وما العمل يا اوتو؟

- لقد اعلمت المشرف على بيع الممتلكات المصادرة بمطالبتنا ولكنني اخشى اننا لن نحصل على شيء .

قال جوتفريد :

- سنغلق الورشة ، هذا ما سنقوم به . فزيادة على الخسارة هناك دائرة المالية التي تطالبنا بتسديد الضرائب المستحقة علينا .
- سنبيعها ، ربما ، قال كوستر .

نهض لينس :

- اللامبالاة وتمالك الاعصاب في مثل هذه المواقف العصبية صفتان يتحلى بهما كل جندي شجاع .

ثم ذهب الى الدولاب واخرج زجاجة الكونياك .

- لا تنسوا افاضل الكونياك علينا ، انه سيساعدنا على الوقوف في وجه المصائب كابطال ، ولكن للأسف . فهذه آخر زجاجة كونياك لدينا ان لم تخني الذاكرة .

قلت ان المواقف البطولية يا عزيزي لينس هي من نصيب الازمنة الصعبة ولكنك تنسى اننا نعيش في ازمنة الضياع ولا يمكن ان يكون من نصيبها سوى المواقف الهزلية .

جرع كأسه :

- والآن سأنتقل في التاكسي لاجمع بعض قطع النقود الصغيرة .

اتجه الى الفناء المظلم وركب السيارة وانطلق بها .

جلست كوستر وانا هكذا ، ولفترة طويلة .

- انه سوء حظ كبير يا اوتو فسوء الحظ هذا شريكنا الدائم في المدة الاخيرة .

- عودت نفسي على عدم الاسترسال في التفكير الا بالامور الاكثر ضرورة وهذا في رأيي كاف جداً .

ولكن قل لي كيف سارت الأمور في المصح؟

- لولا المرض لكان المصح قطعة من الفردوس ، ثلج وشمس .

رفع رأسه :

- ثلج وشمس ، امر غريب .

- معك حق ، انه امر غاية في اللاواقعية ، ولكن كل الامور هناك تمتاز
باللاواقعية .

نظر الي :

- ما هي مشاريعك لهذه الليلة ؟
- أول ما سأقوم به هو ان اودع حقيقتي البيت .
- وانا علي ان اذهب لمدة ساعة . هل نلتقي في البار ؟
- بكل تأكيد فما عساي ان افعل ؟

ذهبت الى المحطة فاحضرت حقيقتي وذهبت الى البيت . فتحت الباب بكثير من
الحذر . فقد كنت افتقد المزاج المناسب للاجابة على اسئلة احد . تمكنت من
الدخول دون ان تعترضني السيدة تساليفسكي .جلست فترة في غرفتي على المنضدة ،
وجدت رسائل مطبوعة غير شخصية .لم يكن احد ليكتب لي رسائل ، اما الآن
فسيحمل لي ساعي البريد رسائل بات .

نهضت بعد فترة ، اغتسلت وابدلت ثيابي ، ولكنني لم افرغ حقيقتي كي اجد ما
اقوم به لدى عودتي للبيت . ولا تخطى الفراغ الذي سأشعر به بعد غياب بات . لم
ادخل غرفتها ، بل خرجت بحذر وتسللت عبر الردهة ، وعندما اصبحت خارج
البنسيون تنفست الصعداء . قصدت الانترناسيونال لتناول بعض الطعام . حياني
النادل ألوي على الباب .

- اهلاً ، ها انت قد عدت

نعم ، لا بد للانسان من العودة الى مكانه الحقيقي
- جلست روزا مع بقية الفتيات حول طاولة كبيرة ، جميعهن كن هناك للاستراحة
قبل الخروج الى الوردية الثانية . صاحت روزا عندما رأته .

- روبرتو . يا الهي ، لقد اصبحت ضيفاً نادراً .

- لا تسأليني الكثير ، اهم ما في الأمر هو انني عدت .

- لا افهم ما تعني ولكن هل افهم من ذلك ان زيارتك للانترناسيونال ستتكرر ؟

- على الغالب ؟

- لا عليك انها محنة وتزول .

- قول صحيح انها الحقيقة الثابتة في هذا العالم .

- بالطبع انظر الى ليلي ، فهي اقدر على رواية الاساطير التي مرت بها .

- ليلي ؟

عندها فقط تنبهت اليها . كانت تجلس الى جانب روزا .

- ما تفعلين هنا ؟ مكانك الحقيقي في بيت الزوجية وفي متجرك للادوات الكهربائية على ما ظن .
- لم تجب ليلى .
- متجرك ؟

اجابت روزا بتهمك .
- لم يكن لماضيها اي تأثير على حياتها طوال الفترة التي كانت تعطيه فيها النقود ، ولكن الامر اختلف عندما نصبت محفظتها فاصبح غير قادر على معايشة عاهرة سابقة ، فقدم اوراق الطلاق .

سألتها :

- ما هي قيمة مدخراتك التي سلبها منك ؟
- اربعة آلاف مارك ليس بالمبلغ التافه . هل تستطيع ان تتخيل عدد الخنازير الذين ضاجعتهم كي تدخر مثل هذا المبلغ ؟
- اربعة آلاف مارك ، انه رقم اليوم المميز .

نظرت الي روزا متعجبة ثم قالت :

- اعزف لنا شيئاً فربما ساعدنا عزفك على التغلب على هذا المزاج السيء .
- حسناً ، سأعزف لاجتماع شملنا جميعاً مرة ثانية .

جلست الى البيانو وعزفت عدة مقطوعات خفيفة ، ولكن افكاري كانت كلها بعيدة عن المكان . كانت محمقة مع بات . فكرت أن النقود التي ادخرتها لا تكفي لاقامة بات في المصح الالنهاية كانون الثاني لذا علي ان اضاعف عملي لمدها بالمال اللازم . اخذت اضرب بشكل آلي على مطارق البيانو ثم نظرت الى روزا الجاسلة بالقرب مني وهي تستمتع بشغف الى الموسيقى وقد جلست الى جانبها ليلى بوجه شاحب يضاهي في شحوبه صفرة وجوه الموتى . لقد جعلت منها خيبة الامل جثة هامدة بتعابير وجه متحجرة .

صحوت من تأملاتي على صوت صياح روزا التي وقفت خلف المنضدة بقبعتها المائلة محمقة فاغرة الفاه وبيطه وبدون ان تشعر اخذت القهوة تسيل من الفجان المقلوب لتستقر في داخل حقيبة يدها المفتوحة .
- آرثر ، هل انت آرثر هنا ؟

توقفت عن العزف ونظرت الى الرجل الداخل الى الحانة . نحيل جداً له اطراف طويلة ، تعلق رأسه قبعة كبيرة ، لون وجهه اصفر مرضي . له انف كبير ورأس

صغير جداً على شكل بيضة .

- ارتحفت روزا من جديد .

- آرثر . اهذا انت ؟

- نعم ومن اكون اذن ؟

اجابها الرجل متذمراً

- يا الهي من اين اتيت ؟

- اتيت من الطريق ودخلت الحانة عبر الباب .

كان واضحاً بأن الرجل قد فقد العاطفة . فبالرغم من غيابه الطويل لم تظهر عليه حتى بعض علائم اللطف . نظرت إليه بفضول . هذا هو اذن مثال روزا الاعلى ووالد طفلتها . ان مظهره يوحي بأنه خارج من السجن . حاولت ايجاد ميزة فيه تدعو روزا الى حبه على هذا الشكل المسعور . ربما كانت فظاظته بالذات هي السبب لكل هذا الحب . عجيب امرهاته النسوة الخبيرات انهن دائماً يقعن تحت رحمة هؤلاء الرجال القساة .

بدون سؤال احد تناول آرثر كأساً كبيرة من الجعة موضوعة على المنضدة وشرب . . اخذت روزا اثناء ذلك تتأمله بكل فخر . سألته :

- هل تريد كأساً ثانية ؟

- بالطبع .

زجر آرثر : ولكن افضل كأساً كبيرة .

أومأت روزا الى النادل فرحة :

- الوى قدم له كأساً كبيرة من الجعة .

- لقد فهمت ما يريد ، أجب آلوى ببرود .

- والصغيرة يا عزيزي آرثر . انك لم تر بعد صغيرتنا الفيرا .

- اسمعيني ايها . . .

ولأول مرة منذ دخوله الحانة بدت عليه علائم الحياة .

رفع يده لروزا متوعداً .

- لا تبداي من الآن في التذمر بخصوص تلك الطفلة ، الامر لا يعنيني وانست تعلمين كم كانت رغبتني صادقة في التخلص منها ، ولكنك انت التي اردت الاحتفاظ بها .

ثم صمت وغرق في تفكير كثيب .

- بالطبع ستكلفنا هذه الطفلة كثيراً .
- الامور ليست سيئة كما تحسبها ، ولا تنسى انها فتاة .
- فتاة ، انها تكلف ايضاً .
- اجاب آرثر بتذمر وصب لنفسه كأساً ثالثة من الجعة .
- ربما حالقنا الحظ وعشرنا على امرأة غنية تستطيع ان تتبناها بشرط ان تدفع سعراً جيداً .
- استفاق فجأة من تفكيره .
- هل لديك نقود ؟
- بولاء مطلق تناولت روزا محفظتها المملوطة بالقهوة وفتحتها .
- خمسة ماركات يا آرثر ، لم اكن اعلم بقدمك ولكني احتفظ بكمية اكبر في البيت .
- كالباشا ترك آرثر قطعة الخمس ماركات الفضية تنساب في جيب سترته .
- لا يمكن كسب نقود اكثر اذا بقيت جالسة على قفاك هكذا في هذه الحانة .
- سأخرج في الحال يا آرثر ، ولكن في مثل هذا الوقت يخف العمل فالوقت ما زال وقت عشاء .
- لا تنسي يا عزيزتي بأن الصغير له نفس غرائز الكبير .
- سأخرج في الحال .
- اتفقنا ، سأمر عليك في حوالى الثانية عشرة .
- خرج وكأنه يمشي على عكاكيز من الخشب . تبعته روزا بنظرها فرحة .
- سعيد خرج مزهواً دون أن يلتفت اليها . كما أنه لم يغلق الباب خلفه .
- خنزير .
- صاح ألوى وطرق الباب .
- نظرت اليه روزا بفخر .
- ما رأيكم فيه ؟ انه عظيم . لا يمكن لأحد في العالم ان يحطمه . ولكن أين كان مخفياً كل هذه الفترة ؟ قالت فالي :
- ألم تتبهي الى لون بشرته ؟ واضح انه كان في زنزانة أمينة ، انه بلا شك كتلة من الغائط مغطاة بورق الشجر الخريفي الاصفر .
- انك لا تعرفينه جيداً .
- لقد عرفت الكثير من أمثاله .

- انك لا تفهمين هذه الأمور . . انه رجل حقيقي وليس كهؤلاء الرجال الاعضاء في نادي الدموع . والآن علي ان أسرع للعمل . . الى اللقاء يا اولاد .

خرجت روزا مرحلة فرحة تهز وسطها وكأنها استعادت جزءاً من شبابها والآن جاء رجل آخر تسعد برجوعه والسياح لها بأن تعطيه نقودها ليصرفها على سكره ولينهال عليها بعد ذلك بالضرب . كم هي غريبة سعادتها هذه .

بعد ذلك بنصف ساعة خرج الجميع للعمل ولم يبق في الحانة سوى ليلى بوجهها المتحجر . عزفت قليلاً ثم تناولت شريحة جبن وتركت الحانة فالبقاء مع ليلى على تلك الحال مدعاة للاختناق مشيت وحيداً في الطرقات الليلية المعتمة المبتلة . أمام المقبرة تجمهر عدد من جنود الله ينشدون ويرافقهم في ذلك عدد من عازفي البوق . وقفت قليلاً ولكنني سرعان ما احسست بأنني لا استطيع البقاء لمدة طويلة بدون بات .

نظرت الى حجارة الاضرحه المرمية اللامعة . وتذكرت بأن معرفتي ببات لا تتعدى السنة ففي العام الماضي وفي مثل هذا الوقت لم اكن اعرفها وكم كنت اشعر بالوحدة آنذاك . اما الآن وبالرغم من عدم وجودها الى جانبي . . هذ الافكار عن الوحدة او عدمها لا تجدي نفعاً ، ما دمت انا نفسي ضائع في متاهة كبيرة وضعيف امام مأزق لا استطيع الخروج منه . ذهبت الى غرفتي أملاً ان اجد رسالة منها . فكرة جنونية بلا شك حيث انني اعلم علم اليقين بأن وصول البريد بهذه السرعة أمر مستحيل .

وصلت الى الغرفة وبدأت افتش في كل مكان فيها عن الرسالة . مكثت فترة ولكنني لم استطيع البقاء اكثر من ذلك وخرجت وعلى باب الغرفة التقيت باورلوف الذي كان مرتدياً بزة سوداء متأهباً للذهاب الى الفندق الذي يعمل فيه كراقص سألته عن اخبار السيدة هاسة فأجاب بالنفي وتابع :

- انها لم ترجع الى هنا ولم تذهب بالتالي الى قسم الشرطة من الافضل لها ان لا تعود .

سرنا معاً ، وعلى زاوية الشارع مرت امام أعيننا شاحنة مسرعة محدثة صريراً عادياً ، ارتجف اورلوف فجأة وامتقع وجهه . سألته : هل أنت مريض ؟ ابتسم بشفاه شاحبة وهز رأسه قائلاً :

- لا ولكن في الغالب يتبابني الذعر حينما اسمع صوتاً عالياً غير متوقع . صوت الشاحنة هذا ذكرني باعدام والدي في روسيا . فلقد أوقف الجناة سيارة شحن امام المنزل وتركوا صوت المحرك يعلو ويرعد حتى لا نسمع صوت الرصاص المنهال على صدر والدي .

وبالرغم من ذلك سمعنا صوت الرصاص . ابتسم ثانية وكأنه يطلب مني المَعذرة ثم تابع ، عندما أعدموا والدتي لم يعقدوا الامور بل أطلقوا عليها الرصاص في ساعات الصباح الباكر وفي قبو المنزل . هربت مع أخي وبعض المجوهرات - تجمد أخي اثناء هروبنا من شدة البرد .

- لماذا اعدموا والدك ؟

- كان والدي قبل الحرب رئيساً لكنتية قوزاق وقد ساعد في اخاد انتفاضة شعبية لانه كان يعرف مسبقاً ان الامور ستؤول الى ما هي عليه الآن . كان مشجعاً لذلك بينما كانت والدتي مخالفة له في الرأي .

- وأنت ؟

قام بحركة يد متعبة .

- لقد حدثت أمور كثيرة منذ ذلك الوقت .

- نعم تحدث في الغالب امور كثيرة يتعذر على الانسان فهمها .

وصلنا الى الفندق الذي كان يعمل فيه . في تلك اللحظة ترجلت سيدة من سيارة بويك فاخرة وارتمت مع صبيحة فرح عالية في أحضانه . كانت بدينة أنيقة ، لها وجه فتاة شابة ، شقراء ، وكأنها لم تعرف الشقاء يوماً .

- اعذرني انه العمل .

انحنى امام تلك الشقراء وقبل يدها .

في البار وجدت فالتين ، فرديناند جراو ، كوستر ومن ثم جاء لينس . جلست اليهم وطلبت نصف زجاجة روم ، جلس فرديناند في زاوية الطاولة . عريض ، ضخم ، بوجه مترهل وعينين زرقاوين صافيتين وقد بدا واضحاً أنه قد اكثر من الشراب .

- ماذا ايها الصغير روبي ؟

قالها وربت على كتفي .

- ما بك ؟

- لا شيء يا فرديناند ، وهنا تكمن المشكلة .

تأملني فترة ثم قال :

- لا شيء ، لا شيء العدم وهذا يعني الكثير .

- العدم هو المرأة التي يرى الانسان العالم من خلالها .

- عظيم ، صاح لينس :

- عظيم فكرة رائعة يا فرديناند .

- اصمت انت يا جوتفريد فلا يمكن لرومانسي مثلك ان يكون شيئاً آخر سوى راقص منبري على هامش الحياة ، يفهمها دائماً بشكل خاطيء . ماذا تفهم عن العدم ايها الوزن الخفيف ؟
- أنهم عنه الكفاية التي تمكنني من الاحتفاظ بوزني الخفيف .
- العقلاء فقط هم الذين يحترمون العدم . انهم لا يحاولون سبر اغواره كدودة الارض .

حلق به جراو .

- نخبك يا فرديناند .

- نخبك يا جوتفريد . نخبك ايها الفلينة .

شرباً قدحيهما .

- كم أود ان اكون فلينة انا ايضاً .

قلتها وشربت قدحي .

- كم اود ان اكون ذلك الانسان الناجح الذي يضع الاشياء وينجح في صفها ولو لفترة قصيرة .

- ما بالك ، هل تريد ان تصبح فأراً في وجه رفاقك وان تغدر بهم ؟

- لا ، لا اهدف الى خيانة الرفاق ولكنني اتمنى ان تصطلح امورنا .

انحنى فرديناند الى الامام وارتحف وجهه الوحشي العريض .

- لا تنسَ ايها الاخ انك تنتمي الى طائفة الفاشلين الكسالى بأمانهم الكثيرة بلا هدف ، ورغباتهم التي لا تعود عليهم بشيء وحبهم الذي بلا مستقبل ، وضياعهم الذي بلا تعقل :

ابتسم :

- انهم طائفة سرية يفضلون الفشل والضياع على النجاح ، يقامرون بالحياة ، يفتنونها الى قطع ويضيعونها مقابل عدم تغير تلك الصورة اللاواقعية عنها . تلك الصورة المحفورة في قلوبهم ، مدفونة فيهم لا يمكن محوها من تلك الساعات والايام والليالي التي لا يوجد فيها سوى الحياة العارية والموت العاري ؟

- رفع كأسه وأشار الى فريدي الواقف خلف الباب :

- اعطني المزيد .

- هل ترغبون في سماع بعض الموسيقى .

صاح به لينس : الى الجحيم بموسيقاك ناولنا كؤوساً أكثر وخفف الاضائة . ثم زدونا ببعض الزجاجات واغرب بعدها عن وجهنا .

انحنى فريدي ونفذ كل ما طلبه لينس . .

- لنشرب نخبنا جميعاً نخب وجودنا ، نخب الحياة المتأججة فينا والتي لا نعرف ما نحن فاعلين بها .

أجاب فرديناند :

- هذه هي الحقيقة ، الشقي وحده يعرف السعادة أما السعيد فهو عارض لمشاعر الحياة ، انه يعرضها فقط ولكنه لا يمتلكها ، فالضوء لا يشع في الضوء بل يشع في الظلمة . . . نخب الظلام ، من عاش يوماً وسط العاصفة لا يستطيع تقبل النور الكهربائي . اللعنة على العاصفة والرحمة للبقية الباقية من حياتنا وبما أننا نخب هذه البقية الباقية فلا نريد ان نحياها بالتقسيم ، دعونا نحطمها دفعة واحدة ، اشربوا ايها الرفاق فهناك نجوم تشع كل ليلة رغم مضي آلاف السنين الضوئية على انفجارها . اشربوا ما دام هناك الوقت الكافي لذلك ليحيا الشتاء ، ليحيا الظلام !

صب لنفسه قدحاً كبيراً من الكونياك وشربه جرعة واحدة ، بدأ الروم يضرب كالمطرقة في رأسي ، نهضت بهدوء وتسللت الى فريدي في مكتبه وجدته يغط في نوم عميق أيقظته وطلبت منه أن يطلب لي المصح .

- لا تذهب فالخطوط في مثل هذه الساعة ليست مثقلة . . . انتظرها . لم تمض خمس دقائق حتى دق جرس الهاتف ورد علي المصح .
- هل استطيع التحدث الى الأنسة هولمان .
- لحظة من فضلك سأوصلك بالقسم .

ثم جاءني صوت رئيسة القسم :

- الأنسة هولمان نائمة .

- الا يوجد هاتف في غرفتها ؟

- لا .

- هل من الممكن ايقاظها ؟ . . . تردد الصوت :

- لا ، لا يمكنها اليوم مغادرة الفراش .

- هل حدث لها مكروه ؟

- لا ، ولكن عليها ملازمة الفراش لعدة ايام .

- هل انت متأكدة من أنه لم يحدث لها مكروه ؟

- لا ، بالتأكيد لا ، ولكنها العادة المتبعة هنا ، فعلى المرضى ان يلازموا الفراش

لعدة ايام ليعتادوا على ذلك .

اغلقت الساعة قال فريدي :

- ان الوقت على ما يبدو متأخر للتحدث اليها .
- ماذا تعني ؟

اشار الى ساعة يده :

- انها تقارب الثانية عشرة .
- نعم كان علي ألا أطلبها .

عدت الى الرفاق وتابعت الشرب حتى الساعة الثانية صباحاً . عندها غادرنا الحانة . اصطحب لينس معه فرديناند وفالنتين ليوصلهم بالتاكسي .

قال كوستر وأدار محرك السيارة كارل :

- استطيع ان اسير هذه الخطوات بمفردي . نظر الي :

- دعنا نقود كارل الى خارج المدينة .

- حسنا ثم صعدت الى جانبه .

- قدها انت قال كوستر .

- انه الجنون بعينه فأنا مخمور جداً ولا استطيع القيادة .

- قدها على مسؤوليتي .

- سوف ترى ذلك ثم جلست خلف المقود .

زجر المحرك واربع المقود بين يدي بينما راحت الطرقات تتأرجح والبيوت تتهاوى على جانبي ، أما أعمدة مصابيح الشارع فبدت معوجة من خلال المطر المنهمر .
- لا يمكنني الاستمرار في القيادة ، سوف أصدمةا لا محالة .
- لا مانع عندي .

نظرت اليه ، وجهه واضح المعاني مسترخ ومتناسك ، كان ينظر الى الطريق امامنا ، ضغطت بظهري على المقعد وأمسكت المقود بشدة صررت بأسناني وركزت نظري ، وبيبته شديد بدا الطريق أمامي يتضح .

- الى اين يا اوتو ؟

- تابع الى خارج المدينة .

وصلنا الى الطريق العريض المؤدي الى خارج المدينة

- استعمل النور العالي !

أضأت الطريق الاسفلتية ، كان الرذاذ خفيفاً ولكنني شعرت به وكأنه حبات برد

تضرب وجهي . جاءت الريح بدفعات ثقيلة وبدت الغيوم منخفضة وأخذ الضباب يتلاشى من امام عيني . هدير المحرك اخترق ذراعي وتمركز في جسدي ، شعرت بصيحات تطرد الخمر من جمجمتي وتطرق كالمضخات الصاخبة في عروقي .
- اسرع . صاح كوستر .

بدأت العجلات في الصفير وراحت الاشجار واعمدة التلغراف تهرب مذعورة من أمامي .
- اسرع . اسرع . صاح كوستر للمرة الثانية .
- ولكنني لا استطيع السيطرة عليها فالطريق مبتلة .
- لا تخف فأنت ستمكن من ذلك ولكن حاول استعمال الغيار الثالث قبل المنعطفات .

زق المحرك واخذت الريح تصفع وجهي ، وعندها شعرت بأني التحمت مع السيارة واصبحنا هي وأنا واحدا .

توتر واحد ، ارتجاج عال ، اصبحت احمس دوران العجلات ، احسست بالطريق وبالسرعة ، اصبحت الليل يصيح ويسرع طارداً كل المخاوف من داخلي اصطكت اسناني وتحوّلت يداي الى ملاقط واصبحت في تلك الدقيقة قيادة وسرعة انتباه مبتعداً عن ذلك الشعور اللاواعي الذي كان يخيم علي قبل ذلك . في أحد المنعطفات انزلت السيارة . أدت المقود يميناً ويساراً ثم ضغطت على البنزين ، للحظة شعرت بانسياب الاشياء من حولي وكأنني بالون ، ثم عدت وتماسكت واولفت المحرك .
- حسناً . قال كوستر .

- السبب في ذلك هي أوراق الاشجار المبتلة .
قلت ذلك وشعرت بالدفع والاسترخاء اللذين يعمان جسد الانسان بعد زوال خطر كبير .

- هذه المشكلة الدائمة في اجتياز المنعطفات القريبة من الغابات وخاصة في فصل الخريف هل تريد سيجارة ؟
- نعم .

توقفنا واشعلنا سجائرنا ثم قال كوستر :
- والآن نستطيع العودة .

قدت عائداً الى المدينة ثم توقفت امام البنسيون :

- لقد كانت فكرة رائعة منك يا كوستر . فهذه النزهة ابعدت عني شعور المرارة التي كنت اشعر بها .
- في النزهة القادمة سأدربك على تقنية جديدة للسيطرة على مثل هذه المنعطفات .
- حسنا يا اوتو الآن اتمنى لك نوماً هادئاً .
- ولك يا روبي .
- صعدت الى غرفتي متعباً وهادئاً بعد أن تبدد حزني .

قمنا في أوائل شهر نوفمبر ببيع سيارة الستروين لتمويل الورشة بشمنا ، وبالرغم من ذلك فقد استمر وضعنا المادي يتطور من سيء الى أسوأ . تفاقم الضائقة المالية أجبر معظم الناس على ايداع سياراتهم المرائب خوفاً من تكاليف البنزين والتصليح . وهكذا أصبح التاكسي مصدر رزقنا الوحيد . ولكن هذا الدخل لم يكن ليكفي ثلاثة أشخاص ، لذا تلقيت دعوة صاحب مقهى الانترنتاسيونال بالعودة الى العزف بفرح كبير .

لقد اسعف الحظ صاحب مقهى الانترنتاسيونال في الفترة الاخيرة فوضع احدى غرف المقهى الداخلية تحت تصرف جمعية تجار الماشية لاجتماعهم الاسبوعي ، ومن ثم انضمت اليهم جمعية تجار الخيول ، ورابطة مستخدمي الدفن . تنازلت عن العمل كسائق تاكسي للينس وكوستر وكنت سعيداً بالعودة الى العمل كعازف ليلى حيث لم اعد امضي الليالي الطويلة وحيداً مع افكاري السوداء المؤرقة .

اخذت بات تكتب لي بشكل منتظم . كنت انتظر رسائلها بفارغ الصبر ، أقرؤها مرات ومرات وأحاول ان استشف من خلال سطورها طريقة حياتها الجديدة ، وخاصة في الاسبوع الاولى من شهر كانون الاول المظلمة ، والتي لا تظهر الشمس فيها في الغالب الالدقائق . ولكنني كنت عاجزاً عن تكوين صورة واضحة عن ذلك . كان اليأس يدفعني للظن بأنها اصبحت بعيدة جداً عني وبأنها هربت من حياتي وبأن كل ما كان بيننا اصبح جزءاً من الماضي ، اخذ يراودني احساس بأنها لن تعود ثانية الي ، وفي بعض الاحيان كانت تمر بي ليال طويلة يؤرقني فيها الحنين اليها والرغبة الجامحة لمقابلتها ، فأحاول كبت هذا الحنين بالجلوس حتى الصباح مع العاهرات وتجار الماشية ، اجرع الكأس تلو الأخرى .

حصل صاحب مقهى الانترنتاسيونال على موافقة لفتح حانته في ليلة الميلاد بهدف اقامة احتفال لجميع الشباب العازبين من كل الاندية. تبرع رئيس جمعية تجار الماشية ، وهو اشهر تجار الخنازير المعروف ستيفان جريجولايت بخنزيرين وعدد كبير من السجق لليلة الميلاد . انه ارمل منذ سنتين ، شديد الحساسية ، وقد قرر ان يمضي ليلة الميلاد مع لفيث من المعارف .

ابتاع صاحب الحانة شجرة صنوبر طولها حوالى اربعة امتار ووضعها الى جانب البار . قامت روزا وهي اكثر العاهرات ذوقاً واناقة بتزيين الشجرة ، يساعدها في ذلك ماريون وكيكي الخبير بالجمال هو ايضاً شرع الثلاثة في تزيين الشجرة بعد ظهر ذلك اليوم وانفقوا في سبيل ذلك اعداداً كبيرة من الكرات الملونة والشمع والخيوط الفضية . وعندما فرغوا من ذلك بدت الشجرة كلوحة عظيمة .

اويت بعد ظهر ذلك اليوم الى الفراش لأنام بضع ساعات ولم استيقظ الا والظلام قد اسدل استاره . للحظة لم استطع معرفة الوقت هل كان صباحاً أم مساء . خاصة بعد ذلك الحلم الذي لم اعد اذكر تفاصيله . ولكنني اذكر انني كنت فيه في مكان بعيد جداً وظننت انني اسمع طرق باب اسود اغلق من خلفي . عندها تنبعت الى طرقات خفيفة على باب غرفتي .

- من ؟

- انا يا سيد لوكامب .

تبينت صوت السيدة تساليفسكي .

- ادخلي فالباب غير موصد .

وقفت على الباب وقد تسربت انوار الدهليز الصفراء الى الغرفة المعتمة .

- همست : السيدة هاسة هنا ارجوك ان ترافقني فانا لا اقوى بمفردي على اطلاعها على الحقيقة .

- ارسلها الى قسم الشرطة .

- ارجوك يا سيد لوكامب ان تساعدني . فلا احد في البنسيون سواك .

- كفي عن العويل ، فسأتيك في الحال .

ارتديت ثيابي وخرجت الى حيث كانت تنتظرني

- هل تعرف السيدة هاسة شيئاً عن الموضوع ؟

- لا اظن ذلك .

- اين هي الآن ؟

- في غرفتها السابقة .

امام باب المطبخ وقفت فريدا وقد ابتلت عرقاً من شدة انفعالها وهمست .

- انها تلبس قبعة فاخرة وحلية كبيرة مرصعة بالماس .

- التفت الى السيدة تساليفسكي وقلت :

- انتبهى جيداً كي لا تسترق السمع بهيمة المطبخ هذه .

ثم دخلت الى السيدة هاسة التي كانت تقف امام النافذة . التفتت الي وبانت عليها الدهشة لدى رويتها لي . وربما كانت تتوقع رؤية احد غيري ، لا ادري سبباً لذلك ، ولكن القبعة والحلي كانت اول ما لفت انتباهي ، وبالرغم مني . كانت فريدا على حق . فلقد بدت السيدة هاسة بمظهرها المتصابي كالطاووس ، واجمل مما كانت عليه اثناء معرفتي بها كزوجة لهاسة .

- اين هاسة ؟ لا بد وانه ما زال يعمل بجد في المكتب غير عابىء بليلة الميلاد .
- لا .

- اين هو اذن ؟ هل ذهب في اجازة ؟

اقتربت مني تهب اردافها بينا عبق عطرها الكثيف في انفي . سألتها :

- ماذا تبغين منه بعد ؟

- اريد ان انهي ما بيننا من علاقة . كما لا تنس بأن لي الحق في الحصول على بعض من مدخراته .

- لست بحاجة لمشاركته فلقد آلت لك كل مدخراته .

- حملقت بي .

- لقد توفي .

- ماذا اسمع ؟

- نعم ، لقد توفي .

وددت ان انقل لها الخبر بطريقة لبقة ، ولكنني كنت ما ازال تحت تأثير نوم بعد الظهر . هذا النوم الذي يبعث في النفس شعوراً بالانتحار .

وقفت السيدة هاسة في وسط الغرفة . . . في تلك اللحظة كان همي الوحيد هو الخوف عليها ان تهوى متأثرة بالخبر ، وليس الى جانبها شيء ترتكز عليه . ولكنها لم تسقط بل بقيت صامته واقفة تحملق بي . هكذا الأمر اذن ؟

ولم يهتز بها شيء سوى بعض الريش الذي زينت به قبعتها . فجأة وبدون ان اعني ما يدور حولي تحولت هذه المرأة المزينة المعطرة المتصابية الى امرأة هرمة ، وكان الزمن قد صفعها بقوة كمطر العاصفة . لقد تحولت كل ثانية من تلك اللحظة الى سنة : تكسر الوجوم وانطلقاً الزهو وبدا وجهها هشاً . بدأت تجاعيد وجهها تظهر تدريجياً وكأنها دود يزحف بيظه . وعندما جلست بتؤدة الى احد المقاعد وكأنها تخاف على شيء ما من الكسر ، بدت شخصاً آخر ، شخصاً متعباً هرمأ .

- ماذا اصابه ؟

- توفي فجأة .

لم تسمع ما قلت بل راحت تنظر الى يديها .
- والآن ما العمل ؟

انتظرت فترة شعرت خلالها بالاختناق .

- انك بلا شك على علاقة برجل آخر ، اذهبي اليه وأسأليه رأيه . من الافضل لك عدم البقاء هنا ، ولا اظنك كنت تنوين ذلك .

- الأمر اصبح الآن مختلفاً عما كان في السابق . ولكن قل لي بحق السماء ماذا عساي ان افعل الآن ؟

- لا بد وان شخصاً آخر ينتظرك الآن . اذهبي اليه . تحدثي معه في كل الامور . بعد انقضاء عطلة الميلاد اذهبي الى مركز الشرطة لتأخذي حاجياتك ودفتر الادخار . يتوجب عليك الحصول على موافقة الشرطة ليتسنى لك سحب المبلغ من المصرف .

- المال . من اين جاء المال ؟

- انه مال كثير ، حوالى الالف ومائتي مارك .

رفعت رأسها ولمعت عيناها ببريق جنوني .

- لا ، هل ما تقوله صحيح ؟

لم اجبها .

- قل لي ان ما ذكرته الآن ليس حقيقة .

- ربما لم يكن حقيقة ، ولكن اظن انه ادخر بعض المال تحسباً للايام العسيرة .

نهضت وقد تغيرت ملامح وجهها . اقتربت مني كالآلة حتى اصبح وجهها موازياً

لوجهي .

- نعم هذا حقيقة . اني احس بصحة ما قلت . هذا النذل . نعم انه نذل حقاً .

سنون مضت ونحن نعيش هذا الحرمان ، وها هو قد ادخر مثل هذا المبلغ . سوف

اذهب لسحب المبلغ . وسأفقه في ليلة واحدة . سأرميه على رصيف الشارع كي لا

يبقى من اثره شيء . لا شيء لا شيء .

صمتت ، ولم يعد لي ما أقوله . لقد قمت بالخطوة الاولى باخبارها وعليها الآن

ان تجرد الحلول بمفردها . ربما هوت ارضاً لو علمت بأنه شئت نفسه . ولكن هذه

ستبقى مسألتها ولا علاقة لي بذلك . لقد اخبرتها انا بالحقيقة . فهذا لن يبعث روح

هاسة ثانية الى الحياة .

بدأت البكاء ثم اخذت تنتحب بصوت عال كالطفل . بقيت هكذا فترة طويلة .
كم تلهفت في تلك الدقائق الى سيجارة فانا تمحس من رؤية انسانيتي . بعد فترة
طويلة توقفت عن البكاء كفكفت دموعها واخرجت من حقيبة يدها علبة مساحيق .
عدلت لون وجهها دون النظر الى مرآة علبة المساحيق .
- لست ادري ما ا قوله ولكن بالرغم من كل شيء كان زوجاً صالحاً .
- كان هكذا بالتأكيد .

كثبت لها عنوان قسم البوليس . واكدت لها ان القسم لن يفتح ابوابه الا بعد
انتهاء عطلة الميلاد تحسباً لعدم ذهابها في هذا اليوم فما سمعته اليوم كاف . لم تكذ
السيدة هاسة تخرج حتى دخلت علي السيدة تساليفسكي ، قلت لها :
- الا يوجد احد غيري في البنسيون يمكنه القيام بمثل هذه المهمة ؟
- السيد جيورجي فقط ولكن ماذا قالت السيدة هاسة ؟
- لا شيء .

- هكذا افضل .
- ليس دائماً ، فالصمت يصبح عدو صاحبه في بعض الاحيان .
- انني لارثي لحالها .
- الشفقة هي المادة الاقل فائدة على هذه الارض ، انها الوجه الآخر للشهامة ،
عليك ان تعي ذلك ، والآن ما هي الساعة ؟
- الساعة الاربعة .

- اريد تسجيل مكالمة للمصح بعد الساعة السابعة لتهنئة الأنسة هولمان
بعيد الميلاد ولكنني لا اريد ان يستمع اليها احد ، هل هذا ممكن ؟
- لا احد في البنسيون سوى السيد جيورجي اما فريدا فلقد اجزتها لفترة العيد .
اما اذا اردت ان تكون لوحده فباستطاعتك التكلم من المطبخ فشريط الهاتف يكفي
لذلك .
- حسناً .

قرعت باب جيورجي . لقد مضى وقت طويل منذ كنت عنده آخر مرة . جلس
امام مكتبه مريضاً ومتعباً جداً ولقد تناثرت من حوله اكوام من الورق الممزق .
- نهارك سعيد يا جيورجي . ماذا تفعل ؟
- اصفي حساباتي ، فهو بلا شك عمل يليق بليلة الميلاد .
قال ذلك محاولاً الابتسام .

انحنيت وتناولت قصاصة ورق امتلأت بالرموز الكيماوية .

سألته :

- ما السبب وراء ذلك ؟

- لا جدوى من هذا العناء يا روبي .

عدت أتأمل وجهه الشاحب واذنيه اللتين شاهتا الشمع .

- هل تناولت طعاماً اليوم ؟

اشار بيده نفيًا :

- لم يعد الطعام مهماً ، كما انه ليس السبب وراء ما قمت به لأن المسألة تكمن في

انه لم يعد بإمكانني الاستمرار ، لذا سأترك الدراسة جانباً .

- هل ساء الامر لهذا الحد ؟

- نعم .

- جيورجي ، اسمعني ، الا تظن بأن طموحي كان اكبر من ان اصبح عازفاً ليلياً

في وكر العاهرات ؟

أجاب جيورجي بينما راح يقضم اظافره :

- اعلم ذلك يا روبي ولكن هذا الكلام لن يجديني نفعاً ، لقد استسلمت ولا امر

يرتجى من استمراري في ذلك .

كانت الدراسة كل شيء في حياتي ، والآن ، والآن اتساءل ما جدوى الدراسة

وما جدوى الحياة ايضاً .

لم اتمالك نفسي من الضحك بالرغم من الجدية الكاملة التي كان يتكلم بها .

- انك حمار صغير . ها انت بدأت تكتشف بعضاً من الحقيقة ، هل تظن نفسك

الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة ؟ بالطبع وبالتأكيد لا جدوى من هذا كله ، ولكن

الانسان لا يعيش من اجل هدف . فالامور ليست بهذه السهولة . والآن انهض

وابدل ثيابك لتصبحني الى مقهى الانترنت ناسيونال سوف نحفل اليوم بكونك اصبحت

رجلاً ، ففي الماضي لم تكن سوى طالب مدرسة فقط ، سأمر عليك بعد نصف

ساعة لاصطحبك .

بدا هزياً جداً . لا بد انه لم يتناول اي طعام منذ عدة ايام .

- لا . لا اود الخروج .

- بلى ستأتي معي . انك لن تمخذني فانا لا استطيع تمضية ليلة الميلاد بمفردي .

نظر الي متشككاً :

- اذا كان هذا هو السبب فلن ارفض طلبك ، وكما قلنا قبل قليل فلقد اصبحت

الامور سيات بالنسبة لي .

- هكذا ؟ انها حكمة عميقة لمطالع رجولتك .

طلبت مكالمات في تمام الساعة فتكاليف المكالمات منخفضة بعد هذا الوقت الى النصف . وهذا يمكيني من اطالة فترة حديثي مع بات جلست على المنضدة في بهو البنسيون انتظر الرد . لم اجلس في المطبخ كما اقترحت على السيد تساليفسكي . ففكرة مزج صورة بات برائحة الفاصوليا والدهن لم ترق لي . رن جرس الهاتف بعد ربع ساعة وجاءني صوت بات عبر الاسلاك . اضطربت عندما سمعت صوتها الدافئ العميق ولم استطع الرد عليها في البداية ، شعرت برجفة رافقها زلزال في دمي ولم تفلح ارادتي في تهدئته .

- يا الهي . أحقاً انت بات التي تتكلم معي ؟

ضحكت :

- اين انت الآن يا روبي ، في المكتب ؟

- لا . بل على طاولة السيدة تساليفسكي ، كيف حالك ؟

- حسن يا عزيزي .

- هل ما زلت مستلقية في الفراش .

- لا ، فأنا اجلس الآن امام النافذة وارتي ثوب الصباح الابيض وانظر الى الثلج وهو يتساقط .

فجأة رأيت بوضوح امامي ، رأيت ندفات الثلج المتساقط ، وذلك الرأس النحيل الاسود والاكثاف المنحنية قليلاً وتلك البشرة البرونزية .

- بات . يا الهي . يا للجنة ، الفقر . لو كان بحوزتي قليل من المال لركبت طائرة

في الحال واتيت لقضاء الليلة معك .

- آه يا عزيزي .

صمت واخذت اصغي الى صوت حشرة خفيفة عبر الساعية .

- بات ، اما زلنا على الخط ؟

- نعم يا روبي ، ولكن عليك ان لا تقول مثل هذا الكلام ، انني اشعر بالدوار

من جراء كلامك هذا .

- وانا اشعر بالدوار ايضاً ، ولكن اخبرني بالتفصيل عما تفعلينه .

بدأت تتكلم ولكنني لم اعد استمع الى ما تقول ، بل رحبت انصت فقط الى صوتها وانا جالس في مدخل البنسيون بين جمجمة الوعل المحنطة وبين باب المطبخ . فجأة خيل لي ان باب المطبخ قد فتح وتسربت منه موجة من الدفء والبهاء غنية

بالاحلام والرغبة والشباب ، وضعت رأسي بين راحتي وحاولت طرد تلك الافكار بتركيز النظر على جمجمة الوعل ولكن دون جدوى . عادت لي ذكريات الصيف والربيع وتلك الامسيات بين طرقات الغابة .

- كم هو جميل التحدث اليك يا بات ولكن اخبريني عما ستفعلينه الليلة .

- سيقام احتفال صغير في تمام الثامنة وها انا استعد لارتداء ملابسني .

- ماذا سترتدين . الثوب الفضي ؟

- نعم يا روبي . الثوب الفضي الذي حملتني به في تلك الليلة عبر ردهة بيتك .

- ومع من ستخرجين ؟

- بمفردي . هل نسيت انني في المصح والجميع هنا يعرفون بعضهم البعض سيقام الاحتفال في القاعة .

- سيصعب عليك خيانتني بهذا الثوب الفضي . ضحكت :

- من المستحيل حدوث ذلك ، فهذا الثوب يعني لي الذكريات الجميلة .

- وانا ايضاً ، لقد عرفت تأثيره جيداً ، لذلك سأخفف من فضولي ولا اطمح في

معرفة الاشياء . بامكانك خيانتني ولكن لا تخبريني عنها . وفي القريب وعندما تعودين إلي ستصبح الخيانة ايضاً حلماً بعيداً منسياً .

- آه يا روبي .

قالتها ببطء وقد اصبح صوتها اكثر عمقاً من ذي قبل .

- لا استطيع خيانتك فأنا دائمة التفكير بك ، انك لا تستطيع تخيل هذا المكان

المرتفع ، انه سجن جميل مضيء ، يحاول سكانه اللهلونسيان واقمعهم ، هذا كل ما في الامر . عندما تجزني الذكريات الى غرفتك اشعر بالاختناق . عندها اهبط الى

محطة القطار ، ارقب القطارات القادمة وفي بعض الاحيان اجلس في واحدة من تلك العربات الواقفة ، عندها اشعر بأنني اصبحت اكثر قرباً اليك .

عضضت على شفتي ، لم اسمعها يوماً تتكلم على هذا الشكل ، لقد كانت

خجولة وردود افعالها في الغالب تنجلي على شكل حركة او نظرة دون الاستعانة بالكلمة .

- سأحاول ان آتي لزيارتك في الفترة القادمة .

- احقاً ما تقول يا روبي ؟

- بالتأكيد ربما كان ذلك في نهاية كانون الثاني .

كنت متأكداً من استحالة الأمر ، فشهركانون الثاني يعني مضاعفة العمل

لتسديد تكاليف المصح لكنني قلت لها ذلك لتشعر به ولتعيش على امل جديد بلقاء

قريب . وبعدها يمكن تأجيل الموعد تدريجياً حتى تعود من المصح .
- الوداع يا بات ، عديني بأن تكوني سعيدة الليلة فسعادتك هي سعادتي
بعينها .
- نعم يا روبي ، اني اشعر منذ الآن بالسعادة الحقبة .

مررت على جيورجي ، ثم ذهبنا الى مقهى الانترناسيونال . بدت القاعة المعتمة
غريبة علي عندما دخلتها ، اضيئت شموع شجرة العيد وانعكست اضوائها الدافئة
على الزجاجات المصفوفة على البار وعلى الكؤوس والنيكل والنحاس الذي يغطي
سطح البار . جلست العاهرات بشباب السهرة المزينة بحلي كاذبة حول المنضدة
الكبيرة وقد التمعت عيونهن ببريق الترقب .

في تمام الساعة الثامنة دخل القاعة كورال جمعية تجار الماشية اصطفوا جميعاً امام
الباب يتقدمهم نقيهم ستيفان جريجولايت الارمل واخذوا يرتلون ترانيم الميلاد .
- كم هو مؤثر .

قالت روزا وراحت تكفكف دموعها . انتهى الكورال من وصلته الاولى علا
تصفيق الحضور بينما انحنى الكورال شاكراً . جفف جريجولايت عرقه المتصبب
وصاح :
- بيتهوفن يبقى الاكبر ، ودوغما منازع .

لم يعترض احد على قوله . أعاد منديله الى جيبه وقال :
- والآن ليمتشق كل منا سلاحه .

انتظمت مائدة الطعام في غرفة الاجتماعات وقد توسطها طبقان فضيان كبيران
لامعان امتلأ كل منهما بخنزير مشوي ، زينا بشرائح من الليمون وبشجرتي ميلاد
صغيرتين مضاءتين بالشموع . ارتدى ألوي بزته القديمة ولكن بصيغة جديدة هدية
من صاحب الحانة ، دخل الغرفة حاملاً صينية عليها نصف دزينة من زجاجات
الكونياك والروم .

في تلك اللحظة دخل بوترا احد اعضاء جمعية عمال الدفن والذي انتهى لتوه من
العمل . حيا الموجودين .
- ليعم السلام الارض .

ثم صافح روزا وجلس الى جانبها . دعا ستيفان جريجولايت جيورجي لمشاركتنا
المأدبة وبعد ان اخذ الجميع اماكنهم على المائدة وقف جريجولايت والقى اقصر
واعظم خطبة في حياته ، رفع كأسه المشبعة بالكونياك ثم التفت الى من حوله فرحاً

وقال :

- نخبكم جميعاً .

ثم عاد وجلس في مكانه ، دخل ألوى حاملاً أطباق الخضار والبطاطا بينا قدم صاحب الحانة كؤوس جعة طويلة انيقة .

همست في اذني جيورجي :

- حاول ان تأكل بتأن يا جيورجي ، فعلى معدتك ان تعتاد تدريجياً على الطعام الدسم .

- علي ان اعتاد انا أولاً .

- ستعتاد بسرعة على كل الامور ولكن على الانسان ان ينسى اولاً مراسم المقارنة .

هز رأسه ثم عاد ليحنيه فوق طبقه .

فجأة علا صوت شجار في الجهة الاخرى من المائدة وسمعنا من بين الاصوات المتنازعة صوت نعيق السيد بوثر الذي كان يصر ان يصب الخمرة للسيد بوشه احد المدعويين وهذا بدوره رفض الخمرة باصرار بحجة عدم قدرته على تناول كمية كبيرة من الطعام ان هو شرب الخمرة صاح به بوثر :

- ان ما تدعيه اقرب الى الجنون ، فالخمرة الزامية على مائدة كهذه ومن يشرب الخمرة يستطيع الاكثار من تناول مثل هذه الاطعمة الدسمة .
- ان ما تقوله هو السخف بحد ذاته .

اجاب بوشه رجل نحيل طويل له انف منبسط ويلبس نظارة عظيمة .
- اجابه بوثر بصوت عال :

- ان ما تقوله هو . . وكيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا انت يا بومة التبغ .
- هدوء .

صاح بهم ستيفان جريجولايت :

- فالمشاجرة محظورة في ليلة الميلاد .

ثم طلب من الجانبين توضيح سبب الخلاف ، وبعد فترة تفكير اصدر ستيفان عليهم حكم سليمان .

ففرض على المتخاصمين ان يجرب الاكل كل واحد على طريقته ، وضع امام المتنازعين طبقاً مترعاً بكميات كبيرة من الطعام . عرض على بوثر ان يجتسي الخمرة الى جانب الطعام . اما بوشه فعليه ان يتناول الطعام بدون اي رشفة خمر . انقسم

الحضور الى قسمين ودخلوا في عملية رهان على المشتركين . اما جريجولايت فقد نصب نفسه حكماً عليهم .

احيط طبق بوثر باكليل من كؤوس الجعة الكبيرة واصطفت بينها كميات من الماس ، اقداح صغيرة مملوءة بشراب الكورن ثم اعطى الحكم اشارة بدء السباق .

احنى بوش رأسه على الطبق واخذ يلتهم الطعام بجديّة مفرطة اما بوثر فبدأ كفاحه شامخ الرأس مستقيم الظهر ، وكان كلما افرغ جرعة في فمه يرسل الى مبارزه صيحات فرحة مؤكداً له بأن يشرب باستمرار نخبه . اخذ بوشه يتلقى تلك الصيحات بوجه حقود وبنظرات عدائية .

همس جورجى في اذني :

- انني اشعر بالعثيان .

- سأخرج معك .

رافقته الى المغسلة وانتظرته في الخارج حتى يفرغ ما في معدته . كان المكان يعبق برائحة الشموع والصنوبر المحترق . فجأة شعرت وكأنني اسمع خطوات رشيقة حبيبة تقترب مني ، احسست بالنفس الدافئ وتلك العينين السوداوين الواسعتين وكأنها ملتصقتان بي .

- يا للجنة ماذا حل بي ؟

افقت من الحلم على صيحات عالية .

- عظيم يا بوثر ، فعمال الدفن هم دائماً الراحون .

عبقت غرفة الاحتفال بدخان السجائر وسال الكونيالك . بقيت جالساً الى البار

بينما أخذت الفتيات يرحن ويحئن الى مداعبات . قالت ماريون :

- لقد هيننا هدايا عيد الميلاد .

- هكذا ؟

القيت برأسي على البار ورحت افكر في بات وما عساها تفعل في هذه اللحظة .

تخيلت قاعة المصح والموقد المتوهج بالنار وبات تجلس الى احدى الطاولات القريبة من النافذة مع هيلجا جوتمان وبعض اصدقائها . احسست بأن فترة غيابي عنها طويلة جداً . كنت في بعض الاحيان افكر بأنني سأصحو يوماً لأجد ان كل الذي كان لم يعد له وجود . واصبح منسياً غريقاً وغائراً في الظلمات .

هكذا الحياة لم يكن فيها شيء اكيد ، حتى ولا الذكريات .

قرع جرس صغير فتسارعت الفتيات كقطيع من الدجاج ودخلن غرفة البليارد .
وقفت روزا ويدها الجرس وأشارت الى بأن انضم اليهم.زينت الحجرة بشجرة ميلاد
صغيرة واصطفت تحتها هدايا لفت بطريقة فنية وعلقت على كل هدية قصاصة صغيرة
تحمل اسم صاحب الهدية . روزا هي التي اشرفت على اعداد هذه المفاجأة .

اخذت الفتيات يتحدثن منفعلات كالاطفال متلهفات لمعرفة ما سيكون فهمهن
من هذه الهدايا .

سألتنى روزا .

- الا ترغب في اخذ هديتك ؟

- اية هدية .

- هديتك ، لقد فكر البعض فيك .

بالفعل كان هناك طبق كبير عليه اسمي باللونين الاحمر والاسود وبخط واضح
كبير ، وفيه ، تفاح ، بندق ، برتقال ، كنزة صوفية تبينت فيها حياكة روزا ، ربطة
عنق خضراء ، من زوجة صاحب المقهى ، زوج جوارب وردية من الحرير
الاصطناعي من اللوطي كيكي، حزام جلدي من فالي ، نصف زجاجة روم من النادل
ألوى ، نصف دزينة مناديل جيب من ماريون وميمي ولينا وزجاجتي كونياك من
صاحب المقهى .

- يا ابنائي الاحباب ، لم اكن اتوقع شيئاً من هذا .

صاحت روزا : وهنا تكمن المفاجأة .

- انها مفاجأة حقاً .

وقفت خجلاً وقد سرى التأثير بي حتى عظامي .

- هل تعرفون متى قدمت لي هدية في ليلة الميلاد لآخر مرة ؟

انا نفسي لا اعرف ذلك بالتحديد ، كان ذلك قبل الحرب بفترة طويلة سيطر
الفرح على المجموعة ، لأنهم استطاعوا ان يفاجئوني حقاً بادرتنى لينا متوردة الوجه :
- انك تعزف لنا دائماً المقطوعات التي نحبها .

واعقبته روزا :

- انه سيعزف لنا الليلة وستكون هديته لنا .

- سأعزف كل المقطوعات التي تحبونها - كما تريدون .

صاحت ماريون :

- لتعزف لنا الحاناً من ايام شبابتنا .

اعترض كيكي :

- لا ، بل اعزف لنا معزوفات طريفة .

ولانهاء الخلاف صوت الجميع ولم يؤخذ رأي كيكي ، لاختلافه عن الجنسين جلست الى البيانو ، وبدأت العزف ، وشارك الجميع في الغناء ، زمن الشباب يعيش دائماً في داخلي ، آه كم هو بعيد . . من كان لي .

اطفأت زوجة صاحب المقهى جميع الاضواء الكهربائية ولم يبق سوى ضوء الشموع الخافت ، جاءني صوت القطرات المتساقطة من صنوبر الجعة كنبع غابة بعيد ، وبدا لي ألوى ذو القدمين المبسطين كشبح يتحرك من الخلف جيئة وذهاباً ، تابعت العزف وقد اصطففت الفتيات حول البيانو بعيون متلألئة وكأنهن ينحدرن من ارقى العائلات ، زاد ذلك المظهر طرافة كيكي الذي راح ينتحب بشدة وقد سألت دموعه وسأل انفه ايضاً .

فتح الباب المؤدي الى غرفة الاجتماعات ، بتؤدة وتسلسل منه كورال تجار المشية ومستخدمي الدفن ثم اصطفوا بانتظام خلف الفتيات يتقدمهم كالعادة جريجولايت وقد زين فمه سيجار برازيلي اسود . تابعت العزف وتابعت الفتيات الغناء : عندما ودعتها شعرت بالعالم يعج من حولي ولكنني عندما عدت لم اجد احداً .
-رائع .

صاحت لينا مبتهجة بينا اشعلت روزا الشمعة السحرية التي اخذت تتقد وتتوهج ، قلت :
- والان دعونا ننتقل الى مقطوعات طريفة ، فكيكي حزين جداً وعلينا ان نفرج كربه .
- وانا ايضاً .

أجاب جريجولايت .

انضم الينا لينس وكوستر في حوالى الحادية عشرة ، جلسنا ثلاثتنا الى جانب البار مع السيد جريجولايت الذي طلب بعض شرائح الخبز والجبن ليستعيد نشاطه ولم تمض لحظات على وجودنا معاً حتى اختفى لينس بين ضوضاء تجار المشية ولكنه بعد ريع ساعة عدنا لنشاهده جالساً على البار مع جريجولايت متعانقين وقد شرعا في شرب نخب الاخوة بينهما .

- قال جريجولايت .

- انا ادعي ستيفان .

- وانا جوتفريد .

اجابه لينس ثم افرغاً كأسيهما من الكونياك .

- سأرسل لك في الغد صندوقاً مليئاً بالسجق يا جوتفريد ، فالأمر في غاية البساطة وكل الامور كما ترى على ما يرام .

ربت لينس على كتفه .

- بل العالم كله على ما يرام ايها العزيز ستيفان .

انفرجت اسارير جريجولايت ، واخذ يخاطب لينس بحرارة :

- انك تضحك بصدق . . انني معجب جداً بهؤلاء البشر الذين يستطيعون

الضحك بصدق وعفوية . انني اميل الى الحزن بسرعة وهذا عيبي الكبير .

- انه عيبي ايضاً لذلك اخفيه بالضحك تعال يا روبي واشرب معنا نخب ضحكة

العالم الابدية . ذهبت وجلست اليهم . اشار جريجولايت الى جورجي وسألني :

- ما خطب ذلك الصغير ؟ انه يبدو حزيناً جداً .

- من السهل جداً ابعاد الحزن عنه ، انه بحاجة فقط الى عمل .

- الحصول على عمل اصبح فناً صعباً في هذه الايام .

- انه يستطيع القيام بأي عمل يطلب منه .

- الجميع يقومون في هذه الايام بكل الاعمال .

هذا الحديث الجاد اعاد جريجولايت الى صحوه .

- ان هذا الصبي بحاجة الى خمسة وسبعين ماركاً فقط في الشهر .

- انك تمزح فهذا المبلغ لا يمكن ان يكفي احداً .

اجابه لينس : اما هو فيكتفي بهذا القدر .

- جوتفريد يا عزيزي ، انني سكير قديم ، ولكن العمل قضية جدية فانا لا

استطيع اعطاءه لاحد اليوم واسلبه منه غداً ، فمسألة اعطاء العمل اكثر تعقيداً من

الزواج بامرأة اليوم وتركها غداً . ان كان هذا الصبي صادقاً بشأن الخمسة والسبعين

ماركاً فسيكون حظه عظيماً . عليه ان يأتي لمقابلتي يوم الثلاثاء في الثامنة صباحاً فانا

بحاجة الى مساعد يأخذ عني بعض اعباء جمعيتنا . وسيحصل بين الحين والآخر على

بعض اللحومات مجاناً .

سأله لينس :

- هل ما تقوله الآن كلمة شرف ؟

- انها كلمة ستيفان جريجولايت .

صفرت لجورجي :

- تعال الينا .

بدأ يرتجف عندما سمع بالنبأ ، اما انا فرجعت الى حيث كان يجلس كوستر .

- اسمعني يا اوتولو اتيحت لك الفرصة لتبدأ حياتك من جديد فهل تختار حياتك

هذه ثانية ؟

- كما هي ؟

- نعم .

- لا .

- وانا ايضاً لا .

مضت ثلاثة اسابيع على تلك الليلة . جلست في الانترنت اسبوعين مع صاحب الحانة نلعب الورق ، كان المقهى خالياً من العاهرات اما المدينة فكانت على العكس ، يسودها التوتر . تناهى الينا من الخارج وقع اقدام الجنود وهم يسرون في ارتال كبيرة وينشدون اناشيدهم العسكرية المدوية ، بعدها بقليل سمعنا نشيد الاممية واعقبها مسيرات طويلة صامته تتقدمها لافتات تطالب بالخبز والعمل . كان وقع اقدامهم الضاربة على اسفلت الشارع اشبه بدقات ساعة كبيرة لا ترحم ، وقد وقع بعد ظهر ذلك اليوم اشتباك بين البوليس وجماعة من المضربين ادى الى جرح اثني عشر رجلاً . كانت صفارات الانذار متواصلة النعيق والشرطة متأهبة في كل مكان باسلحتها الكاملة تنشر الرعب في الشوارع .
- لن يكون هناك استقرار .

قال صاحب المقهى و اشار الى اوراقه :
- لقد غاب الاستقرار . غريب امر هذا العالم ، لقد حاربنا جميعاً من اجل الهدف ، ولكن اين هو الان . . . عالم مجنون حقاً .
- العالم ليس مجنوناً ، البشر فقط المجانين .

اعترض ألوى الذي كان يقف خلف البار :
- انهم ليسوا مجانين ، المشكلة ان الطمع قد تفشى في نفوس البشر فاصبح الواحد لا يضمرا الخير لاخيه الانسان . العالم اصبح يعج بهؤلاء الناس ، لذا تقبع الغالبية بلا شيء . . المشكلة هي سوء في التوزيع .
- صحيح .

صمت مؤكداً كلامه واكملت اللعب رامياً بورقتين .
- نعم انها المشكلة بحد ذاتها ، والتي نعانيها نحن البشر منذ آلاف السنين .
كشف صاحب الحانة اوراقه . لقد كان في حوزته ورقة اشترى ورقة اخرى ،
الاس . عندها اخذ يكييل لنفسه الشتائم .
- يا للعة ، لن اتابع اللعب .

واستمر في انزال اللعنة بنفسه :
- يا لها من خدعة .

شارك آلوى صاحب الحانة ونظر الى الساعة .
- الساعة قاربت منتصف الليل . لنغلق الحانة ، فلن يأتي احد هذه الساعة .

قال آلوى :
- انني اسمع احدهم قادماً .

فتح الباب ودخل كوستر .
- هل من جديد في الخارج يا اوتو؟
- نعم فهناك في صالة بروسيا . . . اصيب اثنان باصابات خطيرة الى جانب عدد كبير من المصابين بجروح طفيفة . اما المعتقلين فيزيد عددهم على المئة ، اما في القسم الشمالي من المدينة فقد جرى اطلاق نار كان ضحيته شرطي ، ولا اعلم كم هو عدد الجرحى اما المعركة فستبدأ بعد قليل عند انفضاض الجماعات الكبيرة .

- هل انهيبت لعبك ؟
- نعم .

- اذن تعال معي .

نظرت الى صاحب الحانة فاذن لي بالخروج .
- الوداع .
- الى اللقاء .

قالها وتثائب ثم تابع ، انتبهوا لانفسكم .

خرجنا من المقهى ، الطقس يئب بسقوط الثلج . امتلأت ارض الشارع بالمناشير التي بدت وكأنها فراشات كبيرة بيضاء ميتة .

قال كوستر :

- جوتفريد ليس هنا . لا شك انه موجود في احدى تلك الاجتماعات . سمعت احدهم يقول بانه توجد نوايا في تفجير بعض تلك القاعات المزدحمة . فستشهد الليلة بعض الحوادث ، لذلك دعنا نمضي الان ونفتش عنه قبل انفضاض الاجتماعات . انني اخاف عليه ، فانت ادري الناس بطبيعته النارية .

- ولكن ، هل تعرف مكانه ؟

- لا ولكن سيكون حتماً في احدى الاجتماعات الثلاث الكبرى . سنمر عليهم جميعاً وليس من الصعب التعرف عليه بشعره الغزير المشع .

ركبنا كارل وانطلقنا الى اول مكان لمثل هذه الاجتماعات .

كانت تقف امام المبنى سيارة كبيرة امتلأت بالشرطة التي علت رؤوسهم الخوذ الحديدية تحضراً للهجوم ، بينما وقف القناصة على اهبة الاستعداد خلف اعمدة مصابيح الشوارع ، وظهرت من خلال النوافذ المضاءة اعلام ملونة . احتشد امام مدخل البناء عدد كبير من الشباب بزيمهم الموحد . ابتعنا تذكريتين للدخول . ورفضنا كراسات دعائية . لمحنا صناديق تبرع وطلبات انضمام ، ثم دخلنا القاعة التي كانت مزدحمة بالحضور ومضاءة بشكل جيد لرصد تحركات المعارضين من بين ذلك الحشد .

وقفنا عند المدخل واخذ كوستر يجول بعينه الثابنتين وسط صفوف الحضور .

وقف على المنصة رجل قصير قوي البنية واخذ يتكلم بصوت جهوري يخرج من صدر قوي وبلا عناء ، يستطيع فهمه اكثر الحضور بعداً عن المنصة . كان هذا الصوت مقنعاً رغم ان بعض كلماته لم تكن مفهومة . اخذ المتكلم يذرع المنصة جيئة ذهاباً بكل ثقة ثم رشف بعض الماء من كأس موضوعة الى جانبه والقي طرفه ، وفجأة وقف في منتصف المنصة وجها الى وجه مع مستمعيه واخذ يقذف الجمهور بجمل سريعة وبصوت عال ، من تلك الحقائق التي يعرفها كل مستمع في القاعة ، جلاً عن الفقر ، الشقاء ، الجوع ، والبطالة ، تصاعد المتكلم في حماسة شاداً بذلك الجمهور اليه ثم صاح بصوت عال وكأنه صوت اله الثار .

- لا . لا يمكن الاستمرار هكذا . . . التغيير . هذا ما نطالب به . هاجت الجموع المحتشدة صائحة ومصفقة ، وكأن كلمات ذلك الخطيب قد احوالها الى بركان هائج . انتظر المتحدث ريثما هدأ الجمهور ثم عاد ليتكلم من جديد وقد التمعت عيناه واخذ يمطر الحضور بالوعد تلو الاخير ، بصوت مقنع ثاقب يصعب تكذيبه مبشراً اياهم بالفردوس

احال القاعة الى مكان خيالي ساحر زاوي الالوان - شرع كل مستمع يحلم بان يكون هو اول المنتفعين من هذا العالم الزاهي حيث يجد فيه كل واحد منهم حظه . حقه وثاره .

اخذت انظر الى الحضور . كان تجمعاً من مختلف المهن ، محاسبون اصحاب مهن ، موظفون ، عدد من العمال ، والكثير من النساء .

جلسوا جميعاً في تلك القاعة الساخنة . حانين رؤوسهم الى الامام . الصف تلو

الصف ، الوجه الى جانب الوجه وقد جرفهم شلال من الكلمات في تياره ، علت وجوههم رغم اختلاف مهتهم ذات النظرة الشاردة نظرة ناعسة تنو الى البعيد ، الى السراب ، يكمن في نظراتهم فراغ كبير وتطلع للهروب من ذلك القلق ، والتناقض والاستئثار عن الحاضر والواقع . ان هذا المتحدث على المنصة يعرف جواباً لكل سؤال وحلا لكل مشكلة . في تلك اللحظة شعرت بحاجة الانسان الملحة لايجاد شخص يثق به ويفكر عنه ، نعم الجميع يفتش عن الايمان ، الايمان بشيء .

لكزني كوستر مشيراً الى باب الخروج بعد ان تأكد من عدم وجود لينس في المكان وخرجنا تلاحقنا نظرات حرس القاعة المراقبة وقفت في الغرفة الامامية جوقة موسيقية متأهبة لدخول القاعة ، وقد اصطف خلفها حاملوا الاعلام .

خاطبني كوستر عندما اصبحنا خارج البناء :

- لقد قام الخطيب بعمله على اكمل وجه ، اليس كذلك ؟
- بامتياز . . . استطيع الجزم بذلك لكوني رئيس اعلام سابق .

ركبنا كارل وعبرنا عدة شوارع ووصلنا مكان الاجتماع السياسي الثاني . اعلام اخرى ، بزات موحدة ، ولكنها تختلف عن البزات التي شاهدناها في الاجتماع الاول ، وقاعة الاجتماع تختلف قليلاً عن السابقة . اما ما تبقى فلا اختلاف هناك . لقد علت وجوه الحاضرين التعابير ذاتها بالامل المعسول والفراغ المؤمن . منضدة طويلة مجللة بغطاء ابيض جلس خلفها اعضاء المجلس ، من بينهم سكرتير الحزب وعدة عرائس متحمسات . الخطيب موظف ، كما يبدو من مظهره لم يكن يمتلك تلك القوة الخطابية كزميله السابق كان يتكلم بلغة حزبية ويدعم كلامه بالارقام والحجج . كان ما نطق به جل الحقيقة ، ولكنه كان يفتقر الى ملكة الافناع كسلفه الذي لم يزد كلامه بالادلة والبراهين ، بل كان يعرض وقائع فقط . جلس اعضاء المجلس يحملقون في الجمهور متعبين ، وكانوا قد عقدوا بلا شك مئات الاجتماعات المماثلة في الفترة الاخيرة .

- هيا بنا .

قال كوستر بعد فترة . ان لينس ليس هنا ولم أكن اتوقع وجوده في هذا الاجتماع .

اكملنا طريقنا الى الاجتماع الثالث . لاقتنا بعد ذلك الجو الخائق في تلك القاعة نسبات الهواء البارد المنعش في الخارج . انطلقت السيارة مخترقة الطرقات الى ان وصلت القناة التي انعكست على صفحة مائها السوداء اضواء المصابيح ، على الجانب الآخر من القناة ظهرت البيوت المضاءة وكأنها قطع ذهبية صغيرة متألثة . على الجسر فوق القناة أخذت الباصات والسيارات تمر بشكل مستمر في كلا

الاتجاهين فبدا الجسر وكأنه افعى ملونة مشعة فوق تلك المياه السوداء .

قال كوستر بعد فترة :

- من الافضل ترك السيارة هنا والسير الى مكان الاجتماع الثالث توقفنا بكارل تحت أحد مصابيح الطريق أمام احدى الحانات . هرعت قطة بيضاء من امامنا عندما ترجلنا من السيارة . وصممت العاهرات اللواتي كن واقفات أمام الحانة لدى مرورنا بهن . اتكأ الى أحد جدران البيوت القديمة المتسخة ، رجل مسن وقد غط في نوم عميق واسند احدى يديه الى آلة اورغه اليدوي . بينما اخذت عجوز رثة الثياب تنقب بين اكوام القمامة عن أي شيء تسد به جوعها .

مررنا بصفوف من البيوت التي تشابهت ، والشكنات العسكرية وقد تخللتها باحات صغيرة وممرات ضيقة في الطابق الارضي لاحد تلك البيوت . كانت هناك عدة متاجر ، مخبز ، ومركز لتجميع الثياب الرثة والادوات الحديدية القديمة . أمام احد الممرات وقفت شاحتين ممتلئتان برجال الشرطة .

في احدى زوايا الفناء نصب كشك من الواح الخشب وصفائح التوتياء ، والتصقت عليه لافتات تحمل نجوماً كبيرة . ووضعت امامه منضدة غطت سطحها مناشير مطبوعة . كان الى جانب المنضدة منصة صغيرة وقف خلفها رجل ملتجح يلبس عمامة والتصقت على الحائط خلفه لافتة كبيرة عليها : عام الفلك ، تجارة فنون ، رؤية المستقبل ، قراءة الطالع بخمسين فينكاً تجمهر حوله عدد كبير من الجمهور منتظراً كل منهم دوره لمعرفة طالعهم . عكس المصباح نوره القوي على كل منهم فبدا أصفر متجعداً ومعيباً . اخذ يخاطب المتجمهرين المنصتين بعيونهم ذات النظرات الشاردة ، النათئة المتلهفة للعجائب ، انها النظرات ذاتها التي حفلت بها القاعات التي زرناها من قبل .

- اوتوا ، الان فقط عرفت ما يسعى اليه كل هؤلاء الناس ، انهم لا يلهثون وراء السياسة بل يبحثون عن بديل للاديان ، نظر اوتو مرتاباً الى من حوله .
- بالتأكيد ، انهم يبحثون على الايمان ولكن لا يأبهون بما يؤمنون به ، وهذا هوسر تطرفهم .

اجتزنا المكان الى الفناء الثاني حيث مركز الاجتماع الرئيسي . كانت جميع النوافذ مضاءة وفجأة علت اصوات من الداخل ، وفي اللحظة ذاتها ظهر لفيف من الشبان بسترات جلدية وأخذوا اماكنهم بالترتيب وكانهم على موعد بمحاذاة النوافذ وأمام المدخل . دفع أولهم الباب عنوة ثم دخل ولحقه الباقون .

أوضح كوستر الامر :

- انهم فرقة اقتحام ، تعال وقف بمحاذاة الجدار خلف براميل الجعة . علا في القاعة صباح وضوضاء ، وبعد ثوان تكسر زجاج احدى النوافذ وقفز شخص من خلاله وما هي الا لحظات حتى تحطم الباب واندفعت منه اكوام من البشر، وقع اولهم فداسته اقدام الهاربين ، علا صباح امرأة تستغيث بأعلى صوتها.لحق الفوج الاول من الهاربين ، فوج آخر حاملاً عصياً من خشب الكراسي وكؤوس جعة مكسرة . قفز من بينهم رجل ضخم ، ووقف على مقربة منا في احدى الزوايا وتربص لاعدائه . فكان كلما خرج رجل من فرقة الاقتحام سدده ضربة مفاجئة قوية بذراعه العريضة ليعيده الى داخل تلك الاكوام البشرية . كان يقوم بعمله بمنتهى الهدوء كحطاب يقوم كعادته بتقطيع الخشب .

اندفع من جديد فوج آخر من الداخل وفجأة رأينا وعلى بعد ثلاثة امتار من مكاننا ، تلك الناحية الصفراء المميزة بين يدي رجل غاضب ذى شارب ولحية . انحنى كوستر واختفى بسرعة فائقة بين تلك الجموع الهائجة . ثوان فقط ، ورأيت بعدها ذلك الرجل الملتحي يرفع يده مشدوها ثم يهوى على الارض كشجرة جزت من ساقها . وما هي الا لحظات حتى رأيت كوستر يسوق لينس امامه وقد أمسك بياقة قميصه . أخذ لينس يتذمر ويعارض سحبه على هذه الطريقة من المعركة وأخذ يصيح بصوت مبحوح :

- اتركني دقيقة واحدة فقط يا اوتوا .

صاح به كوستر :

- ان ما تطلبه هو المستحيل ، فالشرطة ستصل في الحال دعنا نخرج من هنا ، وبسرعة هرعنا عبر الفناء الى مخرج جانبي مظلم ولم نكد نخفي حتى علا صوت الصفارات في الفناء الذي احتلته الشرطة وبسرعة صعداً سلماً بالقرب من مكاننا كي لا نجر مع البقية الى مركز الشرطة . وأخذنا نتابع من خلال احدى نوافذ الدهليز مجرى الاحداث . قامت الشرطة بعملها على أكمل وجه أحاطت المكان وضربت اسفينا في تلك الكتلة البشرية . وبهذا تمكنت من تفريق تلك المجموعة عن بعضها ثم اخذت تعتقل الكثير منهم وتودعهم في الشاحنات المعدة لأخذهم للمركز . كان أول المعتقلين ذلك الرجل الضخم الذي حاول جاهداً أن يوضح للشرطة موقفه ولكن دونما جدوى ، فتح خلفنا احد الابواب وظهرت منه امرأة ترتدي ثوب نوم ، حافية ذات أرجل نحيلة وتحمل شمعة في يدها ، سألت بتبرم :

- أهذا أنت ؟

أجابها لينس الذي كان قد استعاد بعض قوته ، اغلقت المرأة الباب فاذا بلينس يخرج من جيبه فانوساً صغيراً ليتبين به واجهة الباب الذي أغلق .

- انها تنتظر البناء غيرهارد غيشكة ، هذا فقط ما كانت تريد معرفته انسحبت الشرطة وساد الهدوء مكان المعركة ووقع الفناء خاوياً .

انتظرنا بعض الوقت ثم هبطنا السلم بحذر . بكى طفل بصوت منخفض وباحتجاج في الظلام ، خلف أحد الأبواب .

عبرنا الفناء الامامي حيث وجدنا ذلك الفلكي يقف وحيداً بين خرائطه الفلكية .

- أبراجكم أيها السادة أو هل تفضلون قراءة طالعكم من السيد ؟
- لم لا .

قال لينس ومد له يده .

تفحصها الرجل ثم قال بلهجة حازمة :

- انك تشكو من مرض في القلب أحاسيسك متطوره جداً وبصيرتك رأيت خطأ بيانياً قصيراً ، لذا فأنت موسيقي موهوب تحلم كثيراً ، ولكنك لا تصلح زوجاً ، بالرغم من هذا فأنا أرى ثلاثة أطفال . انك تسيب تحب الانفتاح وستعمر ثمانين عاماً .

- هذا صحيح . لقد كانت الانسة والدتي تقول دائماً :

- الشرير هو الذي يعمر طويلاً . الاخلاق من صنع البشر وليست حتمية الحياة .

ناول لينس الفلكي نقوده وتابعنا سيرنا في ذلك الشارع الخاوي الا من قطعة سوداء أشار لينس اليها وقال :

- يتوجب علينا أن نعود أدراجنا .

عبرنا الشارع من الجهة الثانية ظهر فجأة أربعة شبان يلبس أحدهم سترة جلدية صفراء أما الباقون فكانوا ينتعلون جزماً شبيهة بجزم الجند ، توقفوا وأخذوا ينظرون الينا :

- هذا هو .

صاح فجأة صاحب السترة الجلدية وركض بمحاذاة الشارع . علا صوت طلقتين ناريتين ، قفز الشاب هارباً ولحق به الثلاثة الآخرون بأقصى سرعتهم رأيت كوستر وقد تأهب للجري وراءهم ، ولكن لشدة استغرابي استدار وفتح ذراعيه وصاح صيحة وحشية محاولاً أن يحتضن لينس الذي هوى بشدة على الاسفلت ، ظننت لثانية أنه ارتطم بشيء ووقع ولكن سرعان ما رأيت الدم . أسرع كوستر ونزع عن لينس سترته وأخذ الدم يتدفق بشدة ، ضغطت بمنديلي على الجرح ، ولكن النزيف لم يتوقف ، صاح بي كوستر :

- ابق انت هنا ريثما آتي بالسيارة .
- جوتفريد ! هل تسمعني يا جوتفريد ؟

استحال اللون وجهه في ثوان الى لون رمادي وعينه الى نصف مغمضتين أما جفونه فقد تشنجت بلا حراك . رفعت رأسه بيد وضغطت باليد الاخرى وبشدة على مكان الجرح . ركعت الى جانبه واخذت استمع الى صوت حشرجة ولكنني لم استطع سماع انفاسه . صمت كل شيء حولي ، الشارع اللامنتهي والبيوت اللامنتهية . كل ما سمعته هو صورة سقوط الدم على الاسفلت . كنت دائماً متأكداً من أن شيئاً من هذا القبيل سيحدث يوماً للينس ، ولكنني وبالرغم من ذلك لم أستطع في تلك اللحظة تصديق الحقيقة .

جاء كوستر ، وبسرعة البرق فتح الباب الآخر للسيارة وانزل ظهر المقعد الايسر حملنا جوتفريد بحذر ومددناه على المقعدين . قفزت الى السيارة وانطلق كوستر مسرعاً . اتجهنا الى أقرب مركز للاسعاف أوقف كوستر السيارة بحذر :

- انظر اذا كان في الداخل طبيباً ، والا علينا الاسراع الى مركز آخر . هرعت الى الداخل فقابلني ممرض :

- هل الطبيب هنا ؟

- نعم ، هل معكم مصاب ؟
- نعم أسرع الينا بحمالة .

رفعنا جوتفريد ومددناه على الحمالة وأدخلناه المستوصف حيث وجدنا الطبيب وقد رفع أكمامه ووقف متاهباً :

- الى هنا .

- وأشار الى منضدة ، وضعنا الحمالة عليها . سلط الطبيب الضوء على وجه لينس .
- بماذا أصيب ؟
- بطلقات مسدس .

تناول كتلة من القطن ومسح بها الدم ثم أمسك يد جوتفريد لقياس نبضه ثم رفع رأسه :

- لقد فات الوقت وليس بالامكان مساعدته .

حملق به كوستر .

- ان الطلقة جانبية ولا يمكن أن تكون بهذه الجدية .

- هناك طلقتان .

عاد الطبيب لمسح الدم . انحنينا الى الامام فرأينا الى جانب الجرح المفتوح جرحاً آخر ، ثقباً صغيراً أسود في جهة القلب . . . قال الطبيب :
- لا بد أنه أسلم الروح في اللحظات القليلة الماضية .

نهض كوستر وأخذ ينظر الى جوتفريد . غطى الطبيب الجروح ولصقها بالضماد وسألني :

- هل تود أن تغسل يديك ؟
- لا .

اصبح وجه جوتفريد الآن أصفر شاحباً وفمه معوجاً وعيناه نصف مغمضتين الواحدة أكثر من الأخرى .

انه ينظر الينا واستمر هكذا في النظر الينا .
- كيف حدث الامر ؟

سألنا الطبيب . . . لم يجبه أحد . كان جوتفريد ينظر الينا باستمرار .
- انني أقترح بأن تدعوه هنا .

قال الطبيب . تمللمل كوستر :
- لا ، سوف نأخذُه معنا .

- هذا غير مسموح به . علينا ان نخاطر الشرطة وبوليس الجنائيات أيضاً انهم سيقومون بكل التحريات لمعرفة القاتل .
- القاتل ؟

سأل كوستر ونظر الى الطبيب وكأنه لا يفهم شيئاً ، ثم أجاب بعد فترة :
- حسناً سأنتقل في الحال لاحضار البوليس .
- تستطيع استعمال الهاتف فهذا اسرع .

هز كوستر رأسه ببطء :
- لاداعي لذلك ، سأذهب لاحضارهم .

خرج ، وبعد برهة سمعنا كارل ينطلق . قدم لي الطبيب كرسيّاً .
- ألا تود الجلوس ؟
- شكراً .

وبقيت واقفاً . كان الضوء الساطع يضيء صدر جوتفريد المجرع .
- كيف حصل الامر ؟

سألني للمرة الثانية :

- لست أدري ، ولكن لا بد وأن يكون هناك التباس .

- هل شارك في الحرب ؟

هزرت رأسي :

- لقد تبينت ذلك من الندبات ومن يده أيضاً .

- لا بد وأنه أصيب بجروح عدة مرات .

- نعم أربع مرات .

كان جوتفريد مازال ينظر الي بلا انقطاع .

عاد كوستر بعد فترة ليست بالقصيرة ، عاد بمفرده.عندما دخل ، وضع الطبيب

جريدته التي كان يقرأ فيها جانباً :

هل جاء البوليس ؟

وقف كوستر وكأنه لم يسمع ما قاله الطبيب .

- هل جاء البوليس ؟

أعاد الطبيب السؤال مرة ثانية :

- نعم البوليس ، علينا أن نتصل بهم ليأتوا .

نظر اليه الطبيب واتجه الى الهاتف ودونما تعليق لم تمض دقائق حتى دخل الغرفة

موظفان جلسا الى الطاولة وشرعا بتدوين المعلومات الكاملة عن جوتفريد . بدا لي

كل هذا عبثاً . فما فائدة اعطائه الاسم والرقم ومكان وتاريخ الولادة ، لماذا ؟ لقد

مات جوتفريد . حملقت في رأس القلم الاسود الذي كان يكتب به الموظف الذي كان

يضعه بين الحين والآخر بين شفثيه ليبله . أما الموظف الثاني فأخذ يدون وقائع

الحادث التي كان يملئها كوستر عليه . سأل كوستر :

- هل تستطيع أن تصف لي بالتقريب شكل القاتل ؟

- لا لم انتبه لذلك .

نظرت اليه وفكرت في تلك السترة الجلدية الصفراء وتلك الجزم والبزات

الموحدة .

- ألا تعرف لاي من الاحزاب السياسية ينتمي القاتل ؟

- ألم تلاحظ اشارات يحملونها أو هل تنبعت الى الزي كانوا يرتدونه .

- لا لم أر شيئاً قبل اطلاق الرصاص . أما بعدها فاستدرت لكي ...

واختنق صوته ، ولكنه تابع :
- وبعدما استدرت لاسعف رفيقي . .
- هل تنتمي الى أحد الاحزاب ؟
- لا .

- أعني لانك قلت رفيقي ؟
- أنه رفيق من أيام الحرب .

استدار الموظف لناحيته
- هل تستطيع أن تصف القاتل ؟
نظر الي كوستر نظرة ثابتة محذرة .
- لا ، فأنا أيضاً لم أر شيئاً .
- غريب .

- كنا نتبادل الاحاديث ولم انتبه لاحد . سارت الامور على شكل مفاجيء وبغاية السرعة .

تنهد الموظف :
- لي هناك أمل كبير في العثور على هؤلاء الاشقياء .

سأله كوستر :
- هل نستطيع أن نأخذه معنا ؟
- في العادة - ثم نظر الموظف الى الطيب :
- هل حددت سبب الوفاة ؟

هز الطيب رأسه بالايجاب :
- نعم فلقد خطيت لتوي شهادة الوفاة .
- أين الطلقات ؟ علينا أن نحفظ بها .
هناك طلقتان ، علي تردد الطيب :
- علي الاحتفاظ بالطلقتين لا قارن بينهما ، ان كانتا قد اطلقتا من المسدس ذاته .
- نعم .

أجاب كوستر رداً على نظرة الطيب :

قام الممرض بتهيئة جوتفريد . لذلك سلط الضوء على الجرح ثم تناول الطيب مقصه وملقطه وغاص في الجرح الاول . وجد الرصاصة الاولى بلا عناء ، فلقد كان الجرح خارجياً . . . أما بالنسبة للجرح الثاني فقد تعسر الامر ، مما اضطره الى

تشريح الصدر ، رفع قفازه الى أعلى وتناول الملقط والسكينه.في تلك اللحظة أسرع كوستر الى الحماله وأغمض عيني جوتفريد اللتين كانتا ما تزالان مفتوحتين نصف فتحة .

حولت نظري جانباً عندما سمعت صوت صرير السكين . شعرت انه مغمى عليه فقط وان الطبيب بعمله هذا يدفعه الى الموت . ولكنني عدت لاجابه الحقيقة لقد شاهدت الكثير من الموتى في حياتي .
- ها هي .

قالها الطبيب وعدل من وقفته ، مسح الطلقة من الدم وناولها للموظف .
- انها مطابقة للطلقة الاولى ، أليس كذلك ؟

انحنى كوستر الى الامام ونظر بتركيز الى الطلقات الصامته اللامعة التي أخذت تندرج في راحة يد الموظف :
- نعم انها متطابقة مع الرصاصة الاولى .

أودعها الموظف في قطعة من الورق ووضعها في جيبه :
- في العادة لا يسمح بأخذ الجثة الى البيت ولكن بما أن سبب الوفاة قد تحدد فربما استطعتم أخذه معكم ، أليس كذلك ايها الطبيب ؟
هز الطبيب رأسه موافقاً .

غادر الموظفان المكان . عاد الطبيب الى جوتفريد والصق جروحهم ثم غطاه .
- بامكانكم أخذه على المحفة بشرط اعادتها غداً صباحاً .
- شكراً ، هيا بنا يا روبي .

سأل الممرض . . . هل أستطيع مساعدتكم ؟
- لا شكراً فنحن نستطيع ذلك بمفردنا .

حملنا المحفة ووضعناها على المقعدين اليساريين ، خرج الطبيب والممرض الى الباب وأخذنا ينظران الينا .

غطينا جوتفريد بمعطفه وانطلقنا . وبعد فترة استدار الي كوستر .
- سنفقد السيارة في ذلك الشارع . قمت بذلك قبلا ولكن الوقت كان مبكراً لذلك . ربما عثرنا عليهم الان . بدأ الثلج يتساقط . كان كوستر يقود السيارة بطريقة غير مسموعة وكان يظفيء محركها بين الحين والآخر وكان بذلك يهدف الى حجب صوت السيارة عن مسامع هؤلاء الاشقياء رغم عدم معرفتهم بأننا نمتلك سيارة .

عدنا نعبير بيطة ذلك الطريق الذي أصبح أبيض من ازدياد سقوط الثلج . اخرجت من الصندوق مطرقة ووضعتها الى جانبي تحفراً للانقضاء بسرعة حال العشور عليهم .

دخلنا الشارع الذي وقعت فيه الكارثة وتحت فانوس الطريق شاهدنا بقعة سوداء كبيرة من دم جوتفريد . أطفأ كوستر نور السيارة . زحفنا بيطة شديد بمحاذاة الرصيف . واخذنا نرقب الطريق . لم يكن أحد هناك ، علت بعض الاصوات من احدى الحانات المضيئة . توقف كوستر قبل التقاطع :
- الزم أنت جوتفريد وسأدخل أنا لارى ان كانوا في الداخل .
- سأذهب معك .

نظر الى نظرة اعادتنى انى أيام الحرب ، عندما كان يخرج بمفرده في دورية استطلاعية .
- لن أقوم بتصفية احساب في اخانة فرما استطاع الافلات منى أريد فقط ان أتأكد من وجودهم في الداخل . عندها نستطيع انتظاره هنا وبعدها نقوم بتصفية الحساب .
ابق هنا الى جانب جوتفريد .

هزرت رأسي بينما اختفى هو في ذلك الثلج المتساقط . أخذ الثلج يسقط على وجهي ثم يذوب مع ملامسة بشرتي الدافئة .
لا أستطيع تحمل وجود جوتفريد الى جانبي وهو مغطى هكذا وكأنه لم يعد واحداً منا . رفعت المعطف عن وجهه . وسقط الثلج على وجهه وعينيه وفمه ولكنه لم يذب . أخرجت منديلي ومسحت الثلج ثم أعدت اغطيته . عاد كوستر :
- هل وجدتهم ؟
- لا .
استقل السيارة .
- سنجوب الشوارع الان فعندي شعور أكيد بأننا سنقابلهم الليلة .

زجر كارل عند الانطلاق ثم عاد واختنق وهكذا اخذنا تتسلل بيطة وحذر عبر تلك الليلة البيضاء المائجة نتقل من شارع الى شارع وعند المنعطفات أمسك بجوتفريد بشدة خوفاً عليه من الانزلاق . كنا نقف بين الحين والآخر أمام الحانات المضاء . فيقفز اوتو اليها ثم نعود لنبدأ من جديد ، لقد تملكه جنون عميق ولم يفتن لايصال جوتفريد الى مكانه بل اخذ يجوب الشوارع ظناً بأنه سيقابل هؤلاء الاربعة في كل

فجأة وعلى احد الشوراع الطويلة المفجرة شاهدنا مجموعة مظلمة من البشر. أطفأ كوستر في الحال المحرك واخذنا نقرب منهم بحذر وبدون ضوء لم يسمعنا هؤلاء لانهما كهم في حديث فيما بينهم همست في اذن كوستر انهم أربعة .

ادار كوستر في تلك اللحظة المحرك فانطلقت السيارة مزجرة مسافة المائتي متر الاخيرة اندفعت على الرصيف وتوقفت لاهثة مرعدة بعد متر واحد من تلك الجماعة الضائعة المذعورة . كالبرق قفز كوستر من السيارة وتحول جسده المنحني الى الامام الى قوس فولاذي متأهباً للوثوب وقد اصبح وجهه قاسياً كقسوة الموت .

كانت تلك المجموعة مؤلفة من أربعة رجال متقدمين في السن واحدهم مخمور جداً . اخذوا يشتموننا ، ولكن كوستر لم يبههم بل عدنا الى السيارة وتابعنا سيرنا . - اوتوا لا اظن بأننا سلتقاهم الليلة ، كما أن القاتل لن يجرؤ على الخروج تحسباً للثأر .

- نعم ربما .

أجاب كوستر بشرود ، وهكذا عدنا . اتجهنا الى منزل كوستر ، ففرفته لها مدخل خاص بها . وبذلك نتجنب ايقاظ أحد . سألته عندما ترجلنا : - لماذا لم تفصح للبوليس عن أوصاف القاتل ؟

- كان بإمكانهم مساعدتنا في العثور عليه فنحن رأيناه بوضوح . نظر الى كوستر :

- علينا ان نسدد هذا الحساب بأنفسنا وبدون البوليس .

- هل تظن أن . . واحتنق صوته ، ولكنه عاد وتماسك :

- هل تظن انني لو وجدته - اسلمه للبوليس ليأخذ عقاباً لمدة سنة او سنتين أو عدة سنين سجن ؟

- انت اعلم الناس بسير الاحكام وهؤلاء الاشقياء يعرفون بالتأكيد بانهم سينالون احكاماً غير قاسية ، لم ادع ذلك يحصل ، ها انا اقولها لك . لو عثر عليه البوليس شأشهد بأنه ليس القاتل لاحصل عليه بمفردي . لن اقبل ان يموت جوتفريد ويبقى ذلك الوجد على قيد الحياة .

حملنا المحفة وسرنا بها عبر تلك العاصفة الثلجية وذلك الريح وكأنا في فلاندرن ننقل رقيقاً استشهد في الخطوط الامامية الى الخطوط الخلفية . وهكذا حملنا جوتفريد وادخلناه غرفة كوستر .

ابتعنا نعشاً وضريحاً في المقبرة القريبة من بيت كوستر . كان يوم مواراته التراب يوماً صافياً مشمساً . اغلقنا النعش بانفسنا وحملناه الى مثواه الاخير . لم يرافقه الا قلة من الاصدقاء . . فرديناند ، فالتين ، ستيفان جريجو ، الفونس ، فريدي ، جيورجي ، يوب ، السيدة شتوس وروزا . انتظرنا على باب المقبرة فترة طويلة ريثما تنتهي مواكب التأبين التي سبقتنا ، البعض وضع فقيده في داخل سيارة دفن سوداء ، واخر على عربة تجرها احصنة . رافق الموكبين عدد كبير من المشيعين الذين اخذوا يتحادثون بحبوية فيما بينهم .

رفعنا النعش من السيارة ، حملناه ثم انزلناه الحفرة بواسطة الحبال . من الواضح ان حفار القبور كان ممتألاً لنا ، فلقد بدا متعباً من كثرة العمل في ذلك اليوم . احضرنا معنا رجل دين بالرغم من معرفتنا الاكيدة برفض جوتفريد ذلك لو كان جياً .

ولكن فالتين ارتأى صواب هذه الفكرة . طلبنا من رجل الدين عدم القاء خطبة وكل ما عليه هو تلاوة مقطع صغير من الانجيل . كان رجل الدين هذا مسناً قصير النظر ، تعثر لدى اقترابنا من القبر بكتلة من التراب وكاد ان يهوي الى القبر لولا مسارعة كوستر وفالتين الى امساكه . ولكن اثناء ذلك سقط من بين يديه الانجيل والنظارة التي كان يهيم بوضعها واستراحا في القبر.نظر رجل الدين بهلع واخذ يحمق الى الاسفل .

خاطبه فالتين :

- دعك منهم وسنعوض لك ثمنهم .

- انه ليس الكتاب الذي اسفت عليه ولكن نظارتي ، فانا بحاجة لها الآن . اقتطع فالتين غصن شجرة قريبة ثم انحنى الى جانب القبر وتمكن بعد عناء من اخراج النظارة التي كان اطارها مصنوعاً من الذهب الخالص . . ربما ولهذا السبب بالتحديد اراد القس استرجاعها ، اما الكتاب المقدس فقد انزلت عن النعش وغاص في التراب .

سأل القس خجلاً من فقدان الكتاب المقدس .

- هل ترغبون في تلاوة مقطع من الانجيل ؟

اجابه فرديناند :

- دعك من هذا ايها الاب ، فها هو فقيدنا يحتفظ بالانجيل بكامله.عبقت رائحة التراب الرطب . من هذا التراب سينمو في السنة القادمة عشب ينطلق الى الحياة من جديد . اما جوتفريد فقد مات وانطفأ نر حياته . وقفنا على قبره متأكدين من ان عيون وشعره وجسده ما زالوا هناك ، لقد تغيرت معالمهم ولكنهم ما زالوا

موجودين . ذهب جوتفريد الى حيث لا عودة . . لا يمكن ان يكون كل هذا ممكناً . . . جسدنا دافئ ، عقولنا ما زالت تفكر ، وها هو قلبنا ينبض بالدم ويوزعه على الشرايين : نحن هنا كما كنا بالامس ولم ينقصنا فجأة ذراع ، لم نصبح بعد عمياناً ، ولا طرشنا كل شيء فينا كالسابق ، لحظات فقط ، وبعدها سنترك هذا المكان . اما جوتفريد لينس فسيبقى هنا ولن يلحق بنا . لا ، لا يمكنني فهم كل هذا .

ناولنا حفار القبور معولاً لردمه بالتراب ، فالتتين ، كوستر ، الفونس ، وانا كنا نقوم بردم قبور بعض الرفاق ، فجأة قفز الى ذاكرتي وبشكل عاصف نشيد عسكري حزين ، وقد كان لينس ينشده دائماً .

يا غابة الارغون يا غابة الارغون عن قريب ستصبحين مقبرة ساكنة. وضع الفونس صليباً اسود بسيطاً على ذلك الضريح الترابي كبقية الصليبان المثبتة على رؤوس القبور في فرنسا .

قال فالتتين بصوت مختنق :

- دعونا نذهب .

- نعم لنذهب .

ردد كوستر ولكن احد لم يجبه . مكثنا واقفين واجمين . نظر فالتتين الينا الواحد بعد الآخر .

- لماذا ؟

سأل ببطء .

- لماذا ؟ اللعنة .

لم يجب احد . ثم قام بحركة من يده المتعبة :

- دعونا نذهب .

مشينا الطريق المرصوف بالحجارة البيضاء الصغيرة الى بوابة المقبرة حيث كان فريدي ، جيورجي والآخرين في انتظارنا .

- كم كانت ضحكته صادقة

قالها ستيفان واخذت الدموع تتساقط من عينيه لتغطي وجهه الغاضب. نظرت الى الخلف ، ولكنني لم أر أحداً .

تأزم وضعنا المالي في شهر شباط مما اضطرنا الى بيع الورشة . جلست وللمرة الاخيرة مع كوستر في المكتب في انتظار الدلال لاقامة المزاد على محتويات الورشة . تقدم كوستر بطلب عمل الى احدى شركات السيارات الصغيرة كسائق سبق ووفق مبدئياً على طلبه وسيلتحق بالعمل في بداية الربيع . اما أنا فبقيت كعازف بيانو في مقهى الانترناسيونال وسأحاول العثور على عمل اضافي اثناء ساعات النهار لكسب المزيد من المال . بدأ بعض الراغبين في الشراء في التجمع في فناء الورشة ، وما هي الا دقائق حتى حضر الدلال . سألت كوستر :

- هل ستخرج اليهم يا اوتو؟

- لا ادعي لذلك فالدال في الخارج وهو اعلم منا بأمور البيع. بدا كوستر متعباً. لم الحظ عليه التعب يوماً رغم صداقتنا الطويلة ، اما اليوم فبدا وجهه صلباً ومتوتراً . كان يخرج الليلة تلو الليلة الى تلك المنطقة يفتش عن القتلة الاشقياء الى أن توصل الى معرفة اسمائهم ، اسماء قتلة جوتفريد . ولكنه لم يتمكن من العثور عليهم ، فالقاتل الرئيسي كان قد غير مكان اقامته خوفاً من ملاحقة البوليس له . الفونس هو الذي توصل الى كل هذه المعلومات قبل كوستر الذي كان يتربص بدوره ليشار لرفيقه . ربما كان القاتل قد فر من المدينة بالرغم من عدم معرفته بأن كوستر والفونس يلاحقانه ويتظران عودته . قلت :

- سأخرج الى الفناء وراقب سير المزاد .

- حسناً .

خرجت الى الفناء . مقاعد العمل ، فكل ما كان يوماً ملكاً لنا تكوم في وسط الفناء . بينما وقفت التاكسي الى جانب الجدار نظيفة بعد ان قمنا بغسلها ، اخذت اتأملها . . اتأمل عجلاتها وفرشها الداخلي . بقرتنا الحلوب . هكذا كان يدعوها رفيقنا لينس. ان التنازل عنها يعني الكثير بالنسبة لنا .

ربت احدهم على كتفي . استدرت فجأة وفوجئت حيث رأيت رجلاً متأنقاً مرتدياً معطفاً بحزام يقف خلفي . اخذ يغمز في عينيه ويلوح بعصا من البامبوس في يده .

- نهارك سعيد ، الا تذكرني ؟

. اوجست خيفة منه .

- غيدوتيس من شركة الانكا .

- اذن يا عزيزي فانت ما زلت تذكرني .

قالها بكثير من الارتياح ثم تابع :

- تقابلنا في السابق ولنفس الغاية ، لشراء تلك العربة القديمة و اشار بعصاه الى

التاكسي .

- كان بصحبتك آنذاك شخص سقيم ، كم وددت لطمه .

تقلصت عضلات وجهي رغم ارادتي حين تذكرت انه كان على وشك تسديد

ضربة لرفيقي كوستر . اما تيس فتذكر تلك الحادثة بابتسامة شماته .

- اما الآن فلا حاجة بنا للذكر ذلك . لننس الموضوع ، فغيدو يا عزيزي لا يحمل

ضغينة . انني ما زلت اذكر انكم ابتمتم ذلك الجسد العجوز بمبلغ عال ، فهل عاد

عليكم بنفع ؟

- بكل تأكيد فالسيارة جيدة .

تذمرتيس :

- لو اتبعت نصيحتي في ذلك الوقت لكان ربحك اكثر مما حصلت عليه لكن دعنا

ننسى الموضوع فأنا من جهتي صفحت ونسيت ما حدث ، اما اليوم فدعنا نعمل

معاً ، ونحاول شراء هذا الصندوق القديم سوية بخمسمائة مارك فقط . هل فهمتني

جيداً ؟

نعم فهمت ما رمى اليه هذا المتألق المتبجح ، لقد ظن اننا قمنا ببيع السيارة بعد

ان ابتعناها في المزاد . من الواضح انه ليس على علم بأن هذه الورشة المعروضة للبيع

هي ملك لنا ، واعتقد اننا اتينا الى هنا لابتياح السيارة من جديد . قلت له :

- ان السيارة اليوم تساوي اكثر من الف وخمسمائة مارك .

- بالضبط هذا ما أعنيه . ندخل سوية في المزاد ، فادفع ثمنها خمسمائة مارك

واسلمك نقداً ثلاثمائة وخمسين ماركا بعد الحصول عليها بشرط ان لا تزايد على السعر

الذي اذكره .

- لا استطع قبول عرضك فلدي زبون آخر يريد شراءها .

- ولكن هذا لا يمنع من شرائها بسعر بخس .

- لا تحاول فلا أمل في ذلك .

ثم تركته واتجهت الى وسط الفناء . كنت متأكداً أن شركته قد رصدت الفأ وماتني
مارك على الاقل لشراء التاكسي .

افتتح الدلال المزاد واخذ يعرض الاشياء الصغيرة من اثاث ومعدات باسعار
زهيدة ومن ثم جاء دور العربية . بدأ العرض بثلاثمائة ماركاً .
- اربعمائة .

قال غيدو .

- اربعمائة وخمسون .

صاح رجل آخر بعد تردد طويل مرتدياً ثياب حداد .

رد عليه غيدو وعرض خمسمائة . جال الدلال نظره متسائلاً اذا كان احدهم يود
ان يزيد على ذلك المبلغ . صمت الحداد ، اما غيدو فغمزني ورفع لي يده مشيراً
باربعة اصابع . . . صمت .
- ستائة

هز غيدو رأسه بحنق وارتفع بالعرض الى سبعمائة . واصلت المزايدة بينما راح
غيدو يواصل هو الآخر المزايدة بنزق ثم اخذ ينظر الي وقد تطاير الشرر من عينيه ثم
اشار لي بيده مؤكداً بأنه سيعطيني مئة مارك علاوة على المبلغ المتفق عليه ان توقفت
عن المزايدة عرض الف ومائة مارك . اصبح الغضب بادياً على وجهه الذي اصطبغ
بالحمرة بينما اخذ صوته يعلو . . . وصلت بعرضي الى الف ومائتي مارك ثم توقفت
ظناً مني بأنه سيزيد عليه ولكن غضب غيدو تجاه تصرفي الارعن جعله يرتفع بعرضي
الى الالف وثلاثمائة مارك وكأنه بذلك يريد تلقيني درساً قاسياً ، كان بلا شك يعتقد
في قرارة نفسه بأنني املاك المال الكافي لشراء تلك السيارة . رفعت عرضي عشرة
ماركات ولكنني فوجئت به ينادي بأعلى صوته : الف واربعمائة .
- الف واربعمائة وعشرة .

اجبت متردداً وخائفاً من عدم استمرار غيدو في هذه اللعبة .

- الف واربعمائة وتسعون .

صاح غيدو ونظر الي نظرة المنتصر الساخر معتقداً بأنني سأزاود عليه بالسعر
وعندها يتركني اتخبط في ورطتي .

رددت على نظرتة بنظرة متشابهة وصمت .

سأل الدلال للمرة الاولى والثانية ثم رفع مطرقة ولم يكذب يضربها حتى تبدل وجهه

غيدو المنتصر الى وجه حائر ومندهش . اقترب مني مهيبض الجناح وقال :

- ظننت انك ستشتري .

- لا .

اجبته ببرود . نهض واخذ يفرك جلدة رأسه :

- يا للجنة كيف يمكنني اقناع شركتي بالموافقة على هذا السعر الخيالي . ظننت بأنك

ستراود على الالف وخمسةائة . على اى حال لقد استطعت هذه المرة سلبك السيارة .

- هذا ما كنت اريده منك .

لم يستطع غيدو فهم ذلك الا عندما رأى كوستر يخرج من الغرفة متجهاً الينا ،

عندها شد شعره وصاح .

- يا الهي هل السيارة ملككم ؟ يا لي من حمار . انني بلا شك حمار مجنون - لقد

خدعتني باقدم خدعة عرفتها البشرية وانا المجنون الذي وقع فريستها . والآن دعنا

ننسى الأمر فاذكى الرجال يقعون في اكثر الخدع عمومية . في المباراة القادمة سأكون

انا المنتصر حتماً .

جلس وراء المقود وانطلق . رافقنا السيارة بانظارنا وقد ملاً الحزن قلوبنا . بعد

ظهر ذلك اليوم ظهرت ماتيلدا شتوس في الورشة ولآخر مرة استدعيناها لتصفية

الحساب ودفع اجرها عن الشهر المنصرم . ناولها كوستر النقود وعرض عليها ان تقابل

صاحب الورشة الجديد فربما استطاعت الاستمرار في عملها لديه على غرار يوب

الذي حصلنا له على موافقة صاحب الورشة الجديد للاحتفاظ بعمله .

هزت ماتيلدا رأسها بالنفي :

- لا يا كوستر ، لقد تصلبت عظامي من كثرة العمل .

- سألتها : ولكن ماذا ستعملين ؟

- سوف ارحل عن هذه المدينة لاعيش الى جانب ابنتي المتزوجة التي تسكن

برنسلو ، هل سمعت مرة بهذا الاسم ؟

- لا يا ماتيلدا .

- ولكن لا بد وان السيد كوستر سمعه من قبل ؟

- وانا ايضاً لم اسمع به .

- غريب لا احد يعرف شيئاً عن برنسلو . لقد سألت عدة اشخاص وكان ردهم

واحد . لم يسمع بها احد من قبل بالرغم من ان ابنتي تقطن هذه البلدة . منذ اثنتي

عشرة سنة ومتزوجة من رئيس ديوان .

- اذا كان الامر هكذا فلا بد من وجود بلدة اسمها برنسلو ، خاصة وان كان

يقظنها باش كاتب كزوج ابنتك .

- ولكن بالرغم من ذلك فالامر غريب حقاً . جميع من اسألهم لم يسمعوا قط بهذا الاسم .

وافقناها على كلامها ثم سألتها :

- ولكن اخبريني عن سبب عدم زيارتك لابنتك كل هذه السنين ؟

ابتسمت ماتيلدا بخبث

- انها مسألة خاصة جداً . اما الآن فقد طلبت مني ابنتي ان ابقى الى جانب اطفالها الاربعة .

- سمعت انه يوجد في منطقة برنسلو ونيبيذ فاخر لا اعرف اسمه بالتحديد ولكن ، احتجت ماتيلدا :

- هذه هي المشكلة بحد ذاتها ، مشكلتي التاريخية . ان زوج ابنتي من هؤلاء المتقشفين والذين لا يتعاطون الخمرة .

اخرج كوستر الزجاجة الاخيرة من الدولاب الفارغ :

- علينا ان نشرب كأس الوداع يا سيدة شتوس .

- انها كأس ضرورية جداً .

كانت هناك ثلاثة كؤوس موضوعة على المنضدة صب كوستر الروم وقدم كأساً للسيدة شتوس ولكنه لم يكد ينتهي من صب الكأسين الآخرين حتى كانت السيدة قد جرعت كأسها بسرعة عجيبة فارتجفت شففتها واهتز شاربها . سأها كوستر :

- كأساً ثانية ؟

- لن ارفض عرضك .

تناولت الكأس الثانية ثم صافحتنا مودعة .

- اتمنى لك كل التوفيق في برنسلو .

- شكراً ولكن امر غريب حقاً ان احدا لم يسمع بهذا الاسم من قبل . خرجت متأرجحة . وقفنا فترة وحيدتين في تلك الغرفة الفارغة ثم قال كوستر :

- هيا بنا ننصرف .

- نعم ، فلم يعد لوجودنا في هذا المكان من مبرر . اغلقنا الباب وخرجنا لنحضر كارل الذي كان يقف في موقف قريب . ثم ذهبنا الى المصرف ، وبعدها الى البريد حيث ارسل كوستر حوالة بريدية بالمبلغ المتوجب عليه دفعه لشركة التأمين . سألتني :

- سأذهب لانام قليلاً ، هل سنلتقي ؟

- لقد فرغت نفسي من كل الواجبات وانا على استعداد لقضاء الليلة معك .

- حسناً ، سأمر عليك في حوالى الثامنة .

تناولنا طعام العشاء في احدى الحانات الصغيرة خارج المدينة ، وفي طريق عودتنا تعطل احد دواليب السيارة فابدلناه بدولاب جديد ، اتسخت ايدينا وثيابنا ، فكارل لم ينعم بغسل من زمن بعيد قلت :
- علي ان اغسل يدي .

اتجهنا كوستر وانا الى مقهى كبير بالقرب من المكان الذي كنا نقف به . دخلنا المقهى ولم نعر على مكان الا على منضدة بالقرب من المدخل . كان المكان يعج بالناس وقد علا صوت الموسيقى التي كانت تعزفها فرقة نسائية زينت رؤوسها بقبعات ورقية ملونة . كان معظم الحضور يلبس ازياء تنكرية وقد بدى المرح عليهم . اما سقف المكان وجدرانه فقد زينت ببالونات ملونة وبأوراق على شكل افاعي زاهية الالوان .
- هل هناك احتفال ؟ سأل كوستر :

رمتنا فتاة شقراء من المنضدة المجاورة بقصاصة ورق ملون ثم ضحكت ضحكة عالية .

- من اين انتم قادمون ؟ الا تعلمون ان اليوم هو اول ايام الكرنفال ؟
- هكذا ، اذا كان الامر كذلك فعلي ان اغسل يدي اولاً .

اتجهت الى دورة المياه . كان علي ان اجتاز الحانة بكاملها قبل الوصول اليها . أوقفني اثناء طريقي رجل مخمور كان يحاول ان يرغم امرأة على الصعود على المنضدة لتغني . اخذت المرأة تدافع عن نفسها بشدة فقلبت المنضدة على المجموعة الجالسة اليها . انتظرت ريثما يصبح الطريق مفتوحاً لتابعة طريقي وبعد لحظات هممت بمتابعة سيرى ولكنني توقفت وشعرت وكأن تياراً كهربائياً اصابني . تجمدت في مكاني . اخذت احمق في ركن المقهى . لم اعد اشعر بالحانة ولا بضجيجها ولا بالموسيقى الصاخبة المنبعثة منها . لم اعد اشعر بوجود احد واستحالت الاشياء والاشخاص امامي الى اشباح . شيء واحد فقط ازداد وضوحاً على النقيض . كانت منضدة جلس اليها شاب مخمور زين رأسه بقبعة ملونة واحتضن فتاة مخمورة ذات عيون زجاجية فارغة وشفاه دقيقة جدا ، اما تحت المنضدة فقد ارتمت سترة جلدية صفراء لامعة ونظيفة . صدمني نادل ، فتابعت سيرى كالمخمور ثم عدت لاتوقف من جديد . شعرت بقشعريرة رغم الجمر المتوقد في داخلي . وابتلت راحتي يدي بالعرق عندما تنبهت الى بقية المجموعة الجالسة الى تلك المنضدة . سمعتهم يغنون وقد علت وجوههم نظرات عدائية ، واخذوا يطرقون كؤوس الجعة بعضها ببعض

برتابة تتناسب مع الموسيقى . عاد احد الحاضرين ليصدمني مرة ثانية .
- يا هذا ، ابعده عن طريقي .

تابعت سيرتي كالمسحور الى دورة المياه . شرعت في غسل يدي ولم انتبه الا وقد
كاد الجلد ينسلخ عنهما . عدت الى كوستر الذي سألتني .
- ما بك ؟

لم استطع الاجابة . عاد وسألني :
- هل تشعر بشيء ؟

هزرت رأسي ونظرت الى المنضدة المجاورة حيث تجلس الفتاة الشقراء فجأة اكفهر
وجه كوستر وتقلصت عيناه ثم انحنى الى الامام :
- نعم ؟

سألني بصوت هامس :

هناك ، أجبت .

- اين ؟

فنظرت باتجاه المنضدة . انتصب كوستر كالفعى .
- انتبه .

همست في اذنه :

- ليس هذا المكان المناسب .

ردني بقبضة يده ومشى في الاتجاه الذي اشرت اليه . تمالكت نفسي كي لا اندفع
وراءه . وضعت احدى المخمورات على رأسي قبعة ورق حمراء ما لبثت ان سقطت
دون ان يظن لها . بقيت محملاً به . جال في الحانة على شكل قوس ثم عاد وقال :
- لم يعودوا هنا . وقفت ونظرت الى حيث كانوا يجلسون . كوستر محق . لقد
غادروا . سألته :

- هل تظن انهم تعرفوا علي ؟

هز كوستر منكبيه . تابعت :

- لا اعرف انا ايضاً . ولكنني لم ابق في دورة المياه اكثر من دقيقتين

- بل امضيت فيها اكثر من ربع ساعة .

- ماذا ؟

نظرت مرة ثانية الى تلك المنضدة . لم تعد تلك الفتاة التي تصحبهم موجودة .

ولكن لو تعرف علي لخرج بمفرده .

اشار كوستر للنادل :

- هل يوجد للحانة مخرج آخر؟

- نعم في الجهة المقابلة وهو يؤدي الى شارع هارور .

اخرج كوستر من جيبه قطعة نقود وناولها للنادل .

- والآن تعال معي .

- يا للاسف .

قالت الفتاة الشقراء الجالسة الى الطاولة المجاورة .

- انكم فرسان جديون .

مستنا الريح الباردة في الخارج ف شعرنا باسرها بعد ان كنا ننعم بهواء الحانة

الدافئ . قال كوستر :

- اذهب انت الى البيت .

- كانوا عدة اشخاص .

أجبتة وأخذت مكاني الى جانبه في السيارة التي انطلقت تجوب الشوارع المحيطة

بالحانة . لم نعثر عليهم . واخيراً توقف كوستر :

- لقد ضاعوا منا هذه المرة ايضاً ولكننا سنجدهم حتماً .

- اوتو علينا ان نتركهم وشأنهم .

نظر الي . اما انا فتابعت :

- لقد مات جوتفريد ولن يعيده الثأر الينا .

قلت ذلك وعجبت لهذا الكلام الصادر عني .

استمر كوستر ناظراً الي .

- انني لا استطيع تعداد الذين قتلهم في الحرب ولكن واقعة واحدة ما زلت

اذكرها جيداً من بين عمليات القتل التي مارستها كجندي يوم اطلقت الرصاص على

جندي بريطاني لم يكن قادراً على استعمال مسدسه الذي كان بيده . وقفت خلفه

وعلى بعد عدة امتار شاهدت وجهه الشبيه بوجه طفل ، وقد تجمع في عينيه كل خوف

العالم . تأكدت بعد قتله من انه ما زال في الثامنة عشر من عمره وانه يشترك لأول مرة

بطائرته في القتال . لقد حطمت رصاصة بندقيتي ذلك الوجه الجميل المدعور بلا

رحمة . لم اكن قد شاهدت ذلك الوجه من قبل ولم يمسنى يوماً بأذى . لقد مضى

زمن طويل على تلك الحادثة ولكنني ما زلت اتخبط في بحر تائب الضمير . صحيح

اني وبعد تلك السنين استطعت ان اخفف كثيراً من ذلك الشعور على اعتبار ان الحرب حرب .

- والآن اصغ الي جيداً وحاول ان تفهم ما سأقوله اذا لم اجد قاتل جوتفريد وانتقم من ذلك الذي اطلق الرصاص على رفيقي بلا سبب وكأنه يطلق الرصاص على احد الكلاب ، اذا سمحت لهذا القاتل بالبقاء حياً فستكون جريمتي تجاه ذلك البريطاني جريمة لا تغتفر هل تفهم ما اعنيه ؟
- نعم . . . قلت له .

- والآن اذهب الي بيتك فعلي ان انهي هذا الامر . انه يقف امامي كحاجز كبير لا استطيع الاستمرار في الحياة قبل ازالته .
- لن اذهب الي البيت يا اوتو . اذا كان الامر هكذا فعلينا ان نلتزم به سوية .
- جنون ما تقوله .

قال ذلك وقد نفذ صبره :

- لست في حاجة لمساعدتك .

ثم وضع يده عندما لاحظ بأنني اريد الكلام :

- سأنتبه الي نفسي لا عليك . سأحاول ان انفرد به بدون زمرة . لا تخف ، سأنتبه لنفسي جيداً . ورماني بعصية خارج السيارة وانطلق مسرعاً . عندها تأكدت من اصراره على الانتقام ولم يستطيع احد أن يشبهه عن عزمه . كنت متأكداً من عدم سباحه لي بمرافقته . انه يريدني ان ابقى موجوداً بسبب بات . لو كان جوتفريد حياً لاصطحبه .

ذهبت الي الفونس ابحت عن مشورة فهو الوحيد الذي استطيع التحدث اليه في هذا الصدد . انتابنتي خيبة امل كبيرة عندما لم اجده هناك . اخبرتني الفتاة شبه النائمة خلف البار انه خرج الي احد الاجتماعات من حوالي الساعة . ارتيمت جالساً الي احدى الطاومات منتظراً عودته . كانت الحانة فارغة ومظلمة الا من قنديل واحد معلق فوق البار . تركت الفتاة البار وجلست على احد المقاعد ولم يمض وقت طويل حتى غطت في نوم عميق . اخذت افكر في اوتو وجوتفريد ، في ذلك القبر والصليب الاسود المغروس فوقه ناظراً من خلال زجاج النافذة الي الطريق التي بدت وهي تحتضن ضوء القمر ليعث فيها النور .

افقت من ذلك الكابوس فجأة لاجد نفسي مجهشاً بالبكاء . بدأت امسح قطرات الدموع المتساقطة على سطح الطاولة ولكنني لم اتوقف عن البكاء الا حين سمعت وقع اقدام مسرعة في الفناء الخلفي للحانة . فتح الباب ودخل الفونس بوجه يلتمع من

كثرة العرق المتصبب منه .

- انا روبي يا الفونس

تعال .. الحقني بسرعة .

تبعته الى الغرفة الجانبية . اخرج من الدولاب صندوقين صغيرين من صناديق الضمادات التي كنا نستعملها ايام الحرب .

- هل تستطيع تضميدي ؟

خلع بنطاله ببطء . عندها رأيت الدم ينزف من جرح في فخذه ، كان جرحاً كبيراً .

- اسرع وضمدي .

- الفونس . اين اوتو ؟

- من اين لي معرفة ذلك ؟

قال ذلك وعض على شفته وهو يعتصر جرحه .

- الم تكونا معاً ؟

- لا .

- الم تره ؟

- من اين لي ان اراه والآن افتح الصندوق الثاني واكمل الضماد ، ولا تخف انه خدش بسيط .

- الفونس . لقد رأينا الليلة الشخص ... انت تعرف من اعني ... ذلك

القاتل ولقد لحق به اوتو .

- ماذا ؟ اوتو ؟

في الحال تنبهت كل حواسه .

- اين هو الآن ؟ لا جدوى من اللحاق بذلك القاتل . على اوتو ان يختفي

وبسرعة .

- لن يختفي قبل ان يثار لجوتفريد .

رمى الفونس المقص الذي في يده جانباً .

- اخذ تاكسي والحق به . هل تعرف مكانه ؟ عليه ان يختفي وقل له بأن قضية

جوتفريد قد انتهت . لقد توصلت الى معرفة مكان القاتل قبلكم . انت ترى ذلك

بأم عينك . حاول ان يطلق الرصاص علي ، ولكنني وبسرعة امسكت يده المسكة

بالمسدس واطلقت عليه النار من مسدسي ولكن اين اوتو الآن ؟

- في مكان ما بالقرب من شارع مونكه .
- الحمد لله لقد ترك القاتل ذلك المكان منذ زمن بعيد ، ولكن بالرغم من ذلك عليك العثور عليه وبسرعة واجباره على مغادرة المدينة .

هرعت الى الهاتف وطلبت موقف التاكسي حيث يقف جوستاف في الغالب :
- جوستاف . هل تستطيع ان توافيني بسرعة الى شارع فيزة . انني انتظر على زاوية الشارع .

- ليكن ما تريد سأكون عندك خلال عشر دقائق . اغلقت الساعة وعدت الى الفونس الذي ارتدى بنظلاً آخر .

- لم اكن اعلم انكم وراء القاتل ايضاً .
- كان عليكم ان تجلسوا في احد الاماكن المعروفة حتى تثبتوا وجودكم لو سئلتهم من الشرطة عن ذلك .

- لا تتعب نفسك في التفكير بنا . فكر في نفسك الآن .
- كلام فارغ .

قالها بنبرة سريعة على غير عادته ثم تابع :

- لقد استفردته في غرفته ، اطلقت عليه الرصاص وخرجت بسرعة ودون ان ينتبه احد الي فالمكان خال من السكان . اما بالنسبة للشرطة فيوجد لدي العديد ممن سيشهدون بأنني كنت معهم اثناء وقوع الحادث .

كان يجلس على المقعد بوجهه العريض المبتل وفمه الواسع المعوج . وعينيهِ اللتين لم استطع الاستمرار في النظر اليهما لامتلائهما بالالم والعذاب والحب والأمل .
ابتدرني قائلاً بصوت خافت اجش :

- اخيراً يستطيع جوتفريد ان يرقد في قبره مستريحاً بعد كل هذه المدة على وفاته .
كان يتملكني شعور غريب منذ وفاته ، وهو بأنه لا يرقد مستريحاً في قبره .

وقفت واجماً أمامه .

- اذهب الآن .

عبرت الحانة واتجهت الى زاوية الشارع . نظرت الى الفتاة التي كانت ما زالت نائمة . كان الليل مضاء بالقمر ونوافذ البيوت تشع بأنوار مصابيحها الكهربائية . اما الريح فقد خفت عويلها وخيم على العالم المحيط بي هدوء غريب . وصل جوستاف بعد عدة دقائق سألني :

- ما الأمر يا روبرت ؟

- لقد سرقت سيارتنا الليلة ويقول البعض أنهم رأوها في المنطقة المحيطة بشارع

مونكة هل تصحبي الى هناك ؟

- بالتأكيد .

في الحال تحول جوستاف كعادته في مثل هذه المواقف الى انسان شديد الجدية .

- السرقات ازدادت في هذه الايام فنحن نسمع عن عدة سرقات في اليوم الواحد . . . لصوص السيارات في الغالب يستعملون السيارات المسروقة حتى ينفذ وقودها ثم يتركونها على قارعة الطريق .

- نعم لا شك ان سيارتنا من ضمن تلك السيارات . اخذ جوستاف يحدثنني عن مشاريعه وبأنه مجبر على الزواج في القريب العاجل . فخطيبته حامل ولا امل في تمديد الفترة . عبرنا شارع مونكة ودخلنا احدى الطرق المتفرعة منه .
- ها هي السيارة .

صاح فجأة و اشار بأصبعه الى كارل الذي كان يقف في ظل شجرة كبيرة . تراجلت واخرجت مفتاحي وادرت المحرك .

- كل شيء على ما يرام شكراً لك لاصطحابي الى هنا .
- الا تريد ان تتناول قدهاً في احد الاماكن ؟
- اليوم لا وليكن غداً .

ادخلت يدي في جيبي لاعطيه الاجر ولكن صاح بي .
- هل جننت ؟

- شكراً لك يا جوستاف والآن عد الى عملك .
- الى اللقاء .

- ما رأيك ننتظر قليلاً عسانا نتوصل لمعرفة السارق ؟
- لا ، بل انه فر . الى اللقاء يا جوستاف .
- هل ما زال الوقود كافياً ؟

- نعم ، لقد تأكدت من ذلك . تصبح على خير يا جوستاف . ذهب جوستاف بينما جلست في السيارة أرقبه حتى اختفى عن ناظري عندها فقط ادرت المحرك وانطلقت بكارل الى شارع مونكة ابحت عن كوستر . ولما لم اجده عدت الى المكان الذي وجدت كارل به لأجد كوستر ينتظرنني قلقاً على زاوية الطريق .
- ما هذا الذي فعلته ؟

اصعد اولاً ولا حاجة لك للوقوف اكثر من ذلك . الفونس عرف مكان القاتل وسدد الحساب .

- ماذا ؟

- نعم .

صعد كوستر السيارة وجلس الى جانبي صامتاً .

- هل نذهب الى غرفتي ؟

هز رأسه موافقاً . عبر القنال وقد بدت مياهه وكأنها صفحة من الفضة المشعة .

- كم انا سعيد بهذه النهاية يا اوتو .

- اما انا فلا .

وصلنا البنسيون . كانت حجرة السيدة تساليفسكي ما زالت مضاءة . لم نكد

تفتح الباب حتى خرجت تساليفسكي الينا .

- لقد وصلت هذه البرقية لك يا سيد لوكامب .

- برقية ؟

قلت متعجباً فحوادث اليوم كانت ما تزال تسيطر على مجمل افكاري . اسرعت

الى غرفتي وامسكت البرقية البيضاء والتي كانت موضوعة على الطاولة . مزقت

المظروف وشعرت باختناق في صدري ، رححت التهم الاحرف بسرعة ثم تنفست

الصعداء ، وقفت صامتاً لفترة ثم ناولت كوستر البرقية .

- الحمد لله ، ظننت بأن -

(روبي اسرع الي)

تناولت البرقية للمرة الثانية وعاد الارتفاع ليخفني ويحل مكانه الخوف من جديد .

- ما الأمر يا اوتو اخبرني بحق السماء . لماذا لم تعد تكلمني لا بد وار شيئاً ما قد

حدث .

- متى كلمتها للمرة الاخيرة ؟

منذ اسبوع وربما اكثر .

- اطلبها في الحال فإذا كان هناك سبباً جدياً فسننطلق اليها في الحال .

طلبت المصح واحضرت من غرفة السيدة تساليفسكي جدول اقلاع القطارات

اخذ كوستر يتفحص المواعيد ثم قال :

- غدا عند الظهيرة ينطلق القطار الاول في اتجاه تلك المنطقة . من الافضل لنا ان

نسافر الليلة بسيارتنا الى اقرب مكان للمصح ثم نستقل القطار من هناك ، وبهذا

نستطيع كسب بضع ساعات من الوقت ما رأيك ؟

- بكل تأكيد رأي صائب . فانا لا نستطيع السفر بمفردي واحتمال كل هذه

الساعات الطويلة في القطار .

رن جرس الهاتف . ذهب كوستر حاملاً الدليل بيده الى غرفتي ، رفعت الساعة ، رد المصح ، سألت عن بات . فأجابتي بعد لحظات المرضة المسؤولة واوضحت لي بأنه ليس هناك امكانية للتحدث الى بات . صحت .
- ماذا بها ؟

- لقد تعرضت الأنسة لتزف قبل عدة ايام وهي اليوم تشكو من ارتفاع كبير في الحرارة .

- ارجوك ان تجربها اني قادم اليها ، سننطلق الليلة اليها ، انا وكوستر وكارل هل فهمت ؟

اجاب الصوت :

- نعم مع كوستر وكارل .

- لا تنسي ان تجربها ذلك في الحال .

- سأقوم بذلك .

عدت الى غرفتي وشعرت بأن ارجلي اصبحت خفيفة كالريشة ، اما كوستر فقد جلس الى الطاولة واخذ يدون مواعيد القطارات .
- وضب حقيبتك وسأذهب في هذه الاثناء الى غرفتي لتوضيب حقيبتني ايضاً .
- سأمر عليك بعد نصف ساعة .

انزلت الحقيبة عن ظهر الدولاب . حقيبة لينس المليئة بالملصقات الملونة لعدة فنادق . وضبتها بسرعة ثم هرعت الى السيدة تساليفسكي ومن ثم الى صاحب مقهى الانترناسيونال لاعلمهم عن سفري المفاجيء . بعدها جلست خلف نافذة غرفتي ورحت انتظر كوستر . كل شيء حوي يعج بالصمت . رححت افكر بأنني في الغد وقبل هذا الوقت سأكون الى جانبها وفجأة شعرت بموجة عارمة من الحنين تملكني ، ازاحت كل المخاوف والقلق والحزن واليأس . نعم وسأكون مساء الغد الى جانبها . نعم انها سعادة ظننتها استحالت علي ، فقد حدث الكثير الكثير منذ لقائنا الاخير وضاع كثير من الامل .

حملت حقيبتني ونزلت الى الشارع . لأول مرة منذ زمن شعرت بأن كل شيء حوي اصبح قريباً ودافئاً ، السلم ، هواء الدهليز الاسود ، لون الاسفلت الرمادي البارد الذي تحطاه كارل في تلك الدقيقة :

- لقد جلبت معي عدة بطانيات ، فالطريق باردة وطويلة . دفيء نفسك جيداً .

- سنقود السيارة بالتناوب اليس كذلك ؟

- نعم ولكن الآن سأقودها بنفسني فلقد نعمت ببضع ساعات من النوم بعد ظهر

هذا اليوم .

لم تمضِ نصف ساعة حتى كنا قد اجتزنا المدينة واحتضنا صمت تلك الليلة المقمرة امتدت الطريق امامنا بيضاء ملتفة بالافق . لم نشعل اضواء كارل فالقمر كان مضيقاً جداً ، اما صوت المحرك والذي شابه نغمات اورغ عميقة ، لم يكسر ذلك السكون بل قربنا منه . قال كوستر :
- عليك ان تنام قليلاً .

هززت رأسي بعدم الموافقة

- لا استطيع ذلك يا اوتو .

- عليك ان تنام قليلاً لتصحو نشيطاً في الصباح علينا ان نخترق المانيا بطولها .
- دعني من النوم فأنا مستريح هكذا .

بقيت جالساً هكذا على مقعدي الى جانب كوستر . اعتلى القمر قبة السماء وانساب ضوءه الفضي فوق الحقول فاحالها الى صدفة لؤلؤة كبيرة . كانت القرى والمدن تطير من حولنا خاوية نائمة وقد امتلأت ازقتها الضيقة بذلك الضوء القمري الذي احال تلك الليلة الى فيلم لا واقعي .

ازداد البرد باقتراب الصباح واخذت الحقول تلتمع بالجليد الذي يغطيها وظهر الشجر وكأنه اعمدة فولاذ فارعة الطول بدأت الريح تتسلل من بين اشجار الغابات ، بينما راحت مداخن البيوت تنفث سمها الاسود في الافق . تبادلنا الامكنة واخذت دفعة القيادة حتى الساعة العاشرة حيث توقفنا امام احد المطاعم الصغيرة لتتناول طعام الافطار ومن ثم تابعت القيادة حتى الساعة الثانية عشرة حيث تبادلنا الامكنة مرة ثانية ليتابع كوستر القيادة فهو امهر واسرع مني .

وصلنا الى المرتفعات الجليدية بعد الظهر وعندما بدأت اول ملامح الغروب في الظهور ركبنا السلاسل الحديدية حول العجلات حيث كنا قد تزودنا بها متحسبين لخطر الانزلاق في تلك المرتفعات التي يكسوها الثلج والجليد . استفسرنا من احد السكان القاطنين في تلك القرى عن اوضاع الطريق وعن آخر مكان نستطيع الوصول اليه بسيارتنا اجاب :

- انكم تستطيعون اجتياز المرتفعات بهذه السلاسل الحديدية التي وضعتوها على عجلات سيارتكم . على كل حال عليكم ان تجربوا الطريق بانفسكم فالثلج قليل نسبياً في هذا العام وربما وفقكم الحظ في اجتياز الكيلومترات الاخيرة ذات الصعوبة الكبيرة .

كان الطقس بارداً جداً مما منع نشوء الضباب وشجعنا ذلك على الاستمرار في الصعود على تلك الطرقات الثلجية المعوجة . كانت السيارة تنزلق كعقرب الساعة . وكأنها تقوم برقصة ايقاعية في بعض اماكن الطريق التي لم تكن قد تخلصت من الجليد والثلج المتراكم عليها . كان علينا في بعض الاماكن ان نترجل لنجر العربة ولنجر بعض الكتل الثلجية التي عادت وتجمدت وسط الطريق . تزودنا في القرية الاخيرة قبل المصح بكمية من الرمل لرشه على الطريق خوفاً من الانزلاق اثناء هبوطنا تلك المنعطفات الخطرة . اخذ الظلام يلفنا وكانت ترتفع امامنا جدران الجبال الشاهقة البيضاء وبدا خلالها ذلك الوادي السحيق الضيق . هكذا بدأنا نهبط تلك المنعطفات الخطرة متجهين الى ذلك العش الصغير المتلألئ باضوائه ، القابع في اسفل ذلك الجبل .

اخذ كارل يزجر وهو يمر امام واجهات تلك المتاجر الزاهية في منتصف القرية مما حمل بعض المشاة المذعورين على القفز والرجوع الى الرصيف . صعد كارل مرعداً وتوقف على شكل فجائي امام بوابة المصح . قفزت مسرعاً الى المصعد غير عابيء بنظرات الفضوليين التي راحت تتعقبني . عبرت الدهليز الابيض بسرعة وفتحت باب غرفة بات بقوة فإذا بها تقف امامي بلحمها ودمها كما رأيتها مئات المرات في احلامي وفي حالات الرغبة الشديدة التي كانت تصيبني . رأيتها تتقدم مني . احتضنتها بشدة بين ذراعي كمن يحتضن الحياة كلها وربما اكثر من الحياة ايضاً .
- حمداً لله .

قلت بعدما افقت من دهشتي .

- ظننت انك ترقدين في الفراش .

هزت رأسها المستلقي على كتفي ثم رفعته واخذت تنظر الي . امسكت رأسها بيدها وتمتمت :

- اكاد لا اصدق مجيئك ، لا اصدق انك الآن الى جانبي .

قبلتني بحذر وبجدية ورفق وكأنها تقبل شيئاً تخاف عليه من الكسر . بدأت ارتجف حين احسست بشفاها تلامس شفاهي . . . هل انا في حلم ؟

لم أعد أعي شيئاً فلقد تلاحقت الامور والاحداث ، وبسرعة خلال الساعات الاخيرة . لم اكن معها بكل حواسي فما زلت مثقلاً بصوت المحرك وما زالت الطريق الطويلة فاغرة الفم امام احداقي مستاثرة بمخيلتي . شعرت كما يشعر اي انسان جاء من الليل والبرد ليدخل غرفة دافئة لامس دفؤها بشرته وعينييه ، ولكنه لم يتسرب بعد الى داخله ليشعر بها حقيقة لا تقبل الشك .

- لقد وصلنا اليك بسرعة لم تتوقعيها اليس كذلك ؟

لم تجب بل استمرت تنظر الي بصمت وقد امتلأ وجهها بتعبير مؤثر واخذت عيناها القريبتان جداً مني تفتش عن شيء هام جداً تفتش عنه بجدية لتعود وتجده ، اربكتني نظراتها ، أرحت يدي على كتفيها واطرقت نظري .

- هل ستبقى هنا ؟

هزرت برأسي موافقاً .

- قل لي الحقيقة الآن . اذا كنت ستعود لتركني ام انك ستبقى الى جانبي . دعني اعرف الحقيقة من الآن .

اردت ان اجيبها على سؤالها بأنني لا اعرف حتى الآن ما سأفعله وبأنني في الغالب سأرحل بعد بضعة ايام لعدم وجود المال الكافي ولكنني لم استطع قول ذلك لها ، لم استطع خذل نظراتها .

- نعم سأبقى الى جانبك حتى شفائك ، ثم نعود سوية . لم تتغير قسامات وجهها . هذا الوجه التمع فجأة بنور داخلي طغى عليه .

- آه لولم يكن الأمر كذلك لما استطعت تحمل كل هذا المرض وكل هذا الحزن في قسامته . حاولت النظر الى الطبلية المعلقة على حافة السرير ، ولكنها تنبعت الى ذلك فسحبت الورقة بعصية ورمتها تحت اسرير :
- هذه الورقة لم تعد تعني شيئاً .

لاحظت مكان تلك الورقة المجددة وصممت على اخذها فيما بعد . سألتها :
- هل كنت مريضة جداً ؟

- بعض الشيء أما الآن فقد زال عني المرض .
- ما رأي الطبيب ؟

ضحكت :

- لا تسأل الآن عن الطبيب لا تسأل شيئاً . انك الآن موجود هنا ، وهذا يكفي .

لقد تغيرت بات كثيراً . لم استطع معرفة سبب هذا التغير ، هل هو نتيجة تلك الفترة الطويلة على فراقنا ام انها تبدلت حقيقة لاسباب اخرى . اضافت على صفاتها صفات اخرى لم اشعر بها في السابق . لم تعد بات فتاة جميلة فتية تبحث عن الحنان والعطف فقط ، بل اصبحت حركاتها اكثر اناقة وجسدها اكثر دفتاً واقتربها مني اصبحت اكثر عفوية عنه في السابق . كنت اتساءل في الماضي ان كانت تحبني حقيقة كما احبها ، اما اليوم فشعرت بأن هذا السؤال لم يعد ضرورياً . لقد احسست بحبها

فعالاً ، فهي لم تعد تخفي احساسها واصبحت اكثر حيوية وجمالاً وقرباً ، نعم اكثر حيوية واكثر قرباً واثارة ، ولكن بالرغم من ذلك فقد اخذ هذا التغير يشير قلقي ومخاوفي .

- بات يا عزيزتي علي ان اعود الى القاعة فكوستر ينتظرني هناك علينا ان نفتش عن مكان للمبيت .

- كوستر؟ ولكن اين لينس؟

- لينس . . . لينس بقي في البيت .

لم تلاحظ شيئاً من توترى .

- هل يسمح لك بمغادرة الغرفة ام نصعد نحن اليك؟

- لي مطلق الحرية . سوف انزل الى البهو ونشرب شيئاً ، وعندها سأمتع ناظري برويتكم تشربون كما في السابق .

- حسناً ، سنتظرك في البهو .

اتجهت الى دولاب الملابس لتخرج ثوباً . اغتنمت تلك الفرصة وتناولت الورقة من تحت السرير واخفيتها بسرعة في جيبي .

- الى اللقاء القريب يا بات .

- روبي .

تبعنتي واحاطت عنقي بذراعها :

- كنت اود ان اقول لك اشياء كثيرة .

- وانا ايضا يا بات . ولكن امامنا الوقت الكافي لذلك . غدا وكل الايام القادمة

سنتحدث بكل الامور . حنت رأسها .

- سنتحدث بكل الامور وسيحدث الواحد منا الآخر بكل ما مر به في هذه

الفترة . وعندها سيتلاشى ذلك الجمود من جراء وحدة كل منا . عندها سيعرف

الواحد منا كل شيء عن الآخر . وكأننا لم نفترق يوماً .

- اننا لم نفترق بأحاسيسنا .

ابتسمت :

- لقد كان ذلك الوقت بالنسبة لي صعباً جداً ولم اكن امتلك الطاقة والقوة على

اقناع نفسي بالصبر على هذا الفراق . كنت سأشعر بالوحدة ، نعم الوحدة ولا شيء

غير ذلك . من السهل اجتياز الوحدة عندما لا يكون هناك احساس كبير بالحب .

كانت ما تزال تبتسم ولكنها ابتسامة مغمور يستطيع الانسان ان يستشف منها كل

احاسيسها .

- بات يا حبيبي . ايها الصبي الشجاع .

- لم اسمع هذا منذ زمن بعيد .

قالت ذلك وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

هبطت الى كوستر فوجدته قد تدبر أمر منامتنا وحصل على غرفتين منفصلتين في

الملحق التابع للمصحح .

- انظر الى هذه .

وارينه تقييم ورقة الحرارة .

- انظر الى الخط البياني فهو مستمر في الهبوط والارتفاع .

- عليك ان تقابل الطبيب في الغد وتسأله عن رأيه فأنت لا تستطيع الاستدلال عن

حالتها من خلال هذا الخط البياني .

- انني استطيع رؤية الكثير من خلاله .

قلت ذلك واعدت الورقة الى جيبي .

اغتسلنا وجاءني كوستر الى غرفتي مشرقاً كمن استيقظ من نوم مريح .

- عليك ان ترتدي ثيابك يا روبي .

- نعم .

وبدأت تدريجياً اصحو من غلياني ثم فتحت حقيبتي وشرعت في تهيئة نفسي .

رجعنا من الملحق الى المصحح وكان كارل لا يزال واقفاً أمام البوابة وقد غطى كوستر

محركه باحدى البطانيات .

- متى ستعود يا كوستر ؟

تسمر في مكانه .

- اظن انني سأغادر مساء الغد أو في صبيحة بعد الغد اما انت فستبقى هنا .

أجبهته بيأس :

- كيف لي ان ابقى هنا - ؟ نقودي لا تكفي للبقاء هنا لعشرة أيام كما انه علي تسديد

تكاليف المصحح . علي ان اعود لاكسب بعض المال فهم ليسوا بحاجة لعازف سيء

مثلي هنا .

انحنى كوستر على غطاء المحرك ورفعته .

- سوف أقوم بتدبير المال لك كي تستطيع البقاء هنا .

- اوتواني اعلم الناس بما تملك من نقود . لم يبق لك من ثمن الورشة سوى

ثلاثية مارك .

- اني لا اعني هذا المال . سوف احصل على بعض المال . لا تهتم بالأمر
ستصلك النقود بعد ثمانية ايام .

سألته بسخرية حزينة :

- هل سترث أحدهم ؟

- شيء من هذا القبيل . عليك ان لا تترك بات وهي في هذه الحالة .

- كما انني لم اجد بعد الاسلوب الملائم لمصارحتها بهذا الامر .

أعاد كوستر غطاء المحرك الى مكانه ثم اخذ يتلمس سطحه . دخلنا البهو وجلسنا

بقرب الموقد . سألته :

- كم هي الساعة الآن ؟

نظر كوستر الى ساعته .

- غريب ظننت بأن الوقت تأخر اكثر من ذلك بكثير .

هبطت بات السلم مرتدية سترة من الفراء واخذت تقطع البهو مسرعة لتصافح

كوستر . عندها فقط تنهت الى لون بشرتها البرونزي الاحمر . بدت وكأنها فتاة هندية

شابة ، وبدا وجهها اكثر نحولاً بينما ازدادت عيناها تألقاً ولمعاناً . سألتها :

- هل تشكين من ارتفاع في الحرارة ؟

- بعض الشيء .

اجابت بسرعة وهروب .

- في المساء ترتفع حرارة اغلب قاطني هذا المصح .

- أما أنا فقد ارتفعت حرارتي بسبب قدمكم ، هل انتم متعبون ؟

- ولكن من اين لنا ان نتعب ؟

- اذن دعونا نذهب الى البار فهذه هي المرة الاولى التي يعودني بها احد وانا في هذا

المصح .

- هل يوجد هنا بار ؟

- نعم بار صغير او على الاصح زاوية صغيرة وهي ضمن وسائل التطيب هنا .

انهم يتحاشون كل الامور التي يمكنها ان تذكر المرضى بالمشافي لا خوفاً علينا ، فهم

لا يقدمون المشروب لمن لا يتوجب عليه شربه .

كان البار يصخب بالزائرين . حيث بات عدداً من الحاضرين وقد استرعى

انتباهي شاب ايطالي كان من بين من رد التحية . جلسنا الى منضدة كانت قد فرغت

لتوها .

- ماذا ستشربين ؟

- كوكتيل الروم ، كالذي كنا نتناوله في حانة فريدي ، هل ما زلت تذكر الوصفة ؟

انها مسألة بسيطة .

ثم اخذت اوضح للفتاة التي تقوم بخدمتنا :

- نصف الكمية من الروم والنصف الآخر من النبيذ الاحمر .

- كأسين منه وكأساً خاصة .

احضرت الفتاة كأسين من مزيج البورتو - رونكو وكأساً مملوءة بعصير احمر .

- هذا لي .

قالت بات وقدمت لنا الكأسين :

- بصحتكم .

ولكنها ابقت كأسها على المنضدة دون ان تمسه ثم تلفت يمناً ويسرة ومدت يدها

بسرعة الى كأسي ورشفت منه :

- آه كم هو لذيذ هذا الكوكتيل .

- ولكن ما هذا الذي طلبته لنفسك ؟

سألته وتذوقت ذلك المشروب بلونه الاحمر المخادع ، طعمه مزيج من عصير

التوت والليمون . لم يكن فيه ولا قطرة كحول .

- شراب عظيم .

- بالطبع فهو يطفىء العطش .

ضحكت

- اطلب كأساً أخرى لك من هذا الكوكتيل ، فأنا لا يمكنني الحصول عليه .

اشرت الى الفتاة :

- كأس كوكتيل ، واخرى خاصة .

نظرت الى الطاوات المجاورة فتبينت ان غالبيتهم يرتشفون هذا العصير

الخاص .

- اسمح لي يا روبي اليوم ، اليوم فقط كما كنا نفعل في الايام السابقة . الا توافقني

الرأي يا كوستر ؟

- الشراب الخاص هذا لذيذ المذاق ، ولقد شربت منه حتى الآن كأسين .

- انتي أمقته ، مسكين يا روبي . تقطع كل هذه المسافة لتجرع شراباً كهذا .
- اذا اسرعنا في الشرب ، وطلبنا المزيد فلا بد وان اصل الى حقي من الكوكتيل .

ضحكت بات :

- هل تسمح لي بتناول كأس نبيذ للعشاء ؟

طلبنا كأسين آخرين من الكوكتيل ثم تركنا البار واتجهنا الى المطعم بدت لي بات جميلة جداً ، فقد توردد وجهها . جلسنا الى احدى المناضد الصغيرة باغظيتها البيضاء الناصعة الى جانب النافذة ، كان الجو دافئاً بيننا اخذت انوار القرية تغمز لنا من خلال الثلج ، امتلأت الموائد بالزائرين الذين اخذوا يتحادثون باصوات منخفضة .

سألت بات :

- اين هيلجا جوتمان ؟

- رحلت .

اجابت بعد فترة صمت .

- رحلت بهذه السرعة ؟

- نعم .

همست بات عندها فقط فهمت ما كانت تعني كلمة الرحيل هذه .

احضرت لنا الفتاة زجاجة النبيذ الاحمر القاني . ملاً كوستر الكؤوس شعرت بيد

بات ترتاح بين راحتي .

- ايها الحبيب .

قالت بصوت خافت رقيق .

- لم استطع التحمل اكثر من ذلك .

خرجت من غرفة رئيس الاطباء واتجهت الى البهو حيث كان كوستر في انتظاري . نهض من مقعده حين رأني . خرجنا وتمشينا قليلاً ثم جلسنا على احد المقاعد امام مبنى المصح .

- ان وضعها سيء يا اوتو ، اسوأ مما كنت اخافه .

مرت امامنا مجموعة من المتزلجين بينهم بعض النساء اللواتي اغرقن وجوههن بالزيت فبدت بشرتهن محترقة من اشعة الشمس واخذن يصحن لبعضهن بأنهن جائعات كالذئاب . صمت فترة لحين ابتعادهن عنا :

- مثل هؤلاء لا يمرضون بالطبع وتسري الصحة في عظامهم . كم هو امر مرف .

سألني كوستر .

- هل تكلمت بنفسك مع رئيس الاطباء ؟

- نعم ، لقد اوضح لي حالتها باقتضاب ، والمحصلة هي ان حالتها ساءت كثيراً عن ذي قبل . بالرغم من ذلك فلقد زعم بأنها ربما تحسنت .

- لا افهم .

- رأيه انها لو بقيت في المدينة لضاع الأمل في شفائها ، أما هنا فعاد الأمل تدريجياً في امكانية توقف حالتها على ما هي عليه . هذا ما يدعوه بتحسين حالتها .

أخذ كوستر يحفر بكعب حذائه خطوطاً عميقة في الثلج ثم رفع رأسه فجأة :

- لقد قال لك ان هناك أمل ؟

- الاطباء دائماً يأملون . وهذا جزء من مهنتهم . اما انا فليس لدي بريق منه . لقد سألته اذا كان قد اجري لها استرواحاً صدرياً ، فأجاب انه لم يعد مجدياً . وكان من المفروض القيام بذلك منذ عدة سنوات ، اما الآن فقد فات الأوان واصيبت في الرئة . اللعنة على كل هذا يا اوتو .

توقفت امامنا امرأة عجوز متعلة حذاء ممزقاً ، ولها وجه ازرق مترهل وعينان هاذيتان وكأنها عمياء . وقد لفت حول عنقها شالاً قديماً . اخرجت من جيبيها زجاجة خمر صغيرة تأملتتها ثم رشفت منها وقد بان عليها الاستمتاع والعزة .

- شبح مقرف .

سألني كوستر :

- ماذا قال لك الطبيب ايضاً ؟

- اوضح لي سبب هذا المرض وقال لي انه عالج الكثيرين من المرضى بذات المرض وفي مثل سنها ، انها احدى نتائج الحرب ، الجوع في سنوات النمو الاولى عند الانسان . ولكن ماذا يهمني من كل ذلك ، الالهة بالنسبة لي هو ان تتعافى .

ثم نظرت اليه ملياً وتابعت :

- بالطبع اخبرني بأنه شاهد بعض الاعاجيب ، خاصة في حالات مرضية مشابهة . وان المرض قد توقف عند مرحلة معينة ولم يستمر ، وهذا ما قاله لي يوماً البروفيسور جافه ، ولكنني لا أومن بالعجائب .

لم يجب كوستر وبقينا جالسين هكذا جنباً الى جنب وقد لفنا الصمت. ماذا كان بوسع الواحد ان يقول للآخر وقد رأينا الكثير من احوال هذه الحياة ولم تعد الكلمة المواسية قادرة ان تعطينا شيئاً من الأمل .

اخيراً تكلم كوستر :

- لا تدعها تلاحظ عليك شيئاً من ياسك .

- بالطبع لا .

بقينا جالسين هكذا الى ان جاءت بات . لم افكر بشيء . وحتى لم أعد يائساً بل اصبحت مقتضباً رمادياً ، ميتاً .

- ها هي قادمة .

- انها قادمة فعلاً .

ثم نهضت :

- مرحباً .

صاحت بات ولوحت بيديها ، ترنحت قليلاً في مشيتها ثم ضحكت .
- انني سكرى قليلاً ، سكرى من الشمس ، عندما استلقي تحت اشعة الشمس لفترة طويلة اترنح وكأنني بحار عجوز . نظرت اليها وشعرت فجأة بأن كل ذلك الانقباض قد زال . لم اعد اصدق ما قاله الطبيب ووجدت نفسي مصراً على الايمان بالعجائب . انها موجودة امامي تنبض بالحياة ، ها هي تقف امامي وتضحك ويضحكتها هذه تتلاشى كل مخاوفي .

سألت .

- ما بالكم عابسون هكذا ؟
- انها وجوه اهل المدينة التي لا يمكنها ان تناسب هذا المكان الجميل .
- لم نعتد بعد على اشعة الشمس . ضحكت :
- انه يوم جميل بالنسبة لي ، لا ارتفاع في الحرارة . لذا سمح لي بمغادرة الغرفة .
- هل نذهب للقرية لتناول كأس ؟

- بالطبع .

- اذن هيا بنا .

سألها كوستر :

- اليس من الافضل ان نستأجر زحافة ؟

- استطيع المشي الى هناك .

أجابها كوستر :

- اعرف ذلك ولكنني متشوق جداً لركوبها ، فأنا لم اركب زحافة في حياتي .
 اشرنا الى سائس وركبنا زحافة وانطلقنا نهبط فيها تلك المنعطفات الثلجية . توقفنا امام مقهى صغير ذي شرفة كبيرة مشمسة جلس فيها الكثير من الناس . وتعرفت من بينهم على عدة وجوه من المصحح . الايطالي الذي قابلناه بالامس كان موجوداً ايضاً . اسمه انطونيو ، اقترب من طاولتنا ليحيي بات ثم اخذ يحدثنا عن بعض المهزارين الذين نقلوا احد المرضى في الليلة الفائتة بسريره وادخلوه الى غرفة معلمة عجوز .

سألته :

- لماذا قاموا بذلك ؟

- لقد شفي وسيغادر المصحح الى بيته في الايام القليلة القادمة انها العادة المتبعة هنا ، فهم يقومون بمثل هذه الدعابات تجاه من يشفون .

سألت بات :

- هذا بالذات ما يطلق عليه دعابة المقصلة . هذه الدعابة المرة التي تسيطر على الباقين في هذا المصحح يا عزيزي .

- هذه الدعابة المرة التي تسيطر على من يبقى في هذا المصحح . هنا يصبح تصرف المرء صبيانياً .

اكمل انطونيو الحديث معتذراً :

- ها قد شفي احدهم وسيعود الى بيته قريباً .

سألتها :

- ماذا تشرين ؟

- مارتيني .

من الراديو انبعثت موسيقى الفالس وانسابت في ذلك الجو الدافئ المشمس وكأنها اعلام مرفرفة . اتانا النادل بالمارتيني الذي اخذ يتوهج بكأسه تحت تأثير اشعة الشمس .

قالت بات :

- كم هو جميل الطقس هنا .

- نعم انه رائع .

- ولكن رغم ذلك فاني في بعض الاحيان لا احتمل الجلوس هنا .

مكثنا في القرية لتناول طعام الغداء تلبية لرغبة بات ، فهي لم تغادر المصح منذ زمن طويل . كما انها تشعر بالصحة ، عندما تكون في القرية ، شاركنا انطونيو المائدة . بعدها صعدنا الى المصح . وذهبت بات لتستلقي في غرفتها لمدة ساعتين حسب تعليمات الطبيب .

ذهبت مع كوستر واخرجنا كارل من المرآب وتفحصناه ، كان علينا ان نجري عليه بعض الاصلاحات الطفيفة . باشرنا العمل وبعد الانتهاء منه اخرجنا كارل واوقفناه على الثلج امام المصح فبدأ ككلب قذر متهدل الاذنين .

- هل نفسله الآن ؟

- لا ، فكارل يكره الاغتسال اثناء السفر .

انضمت الينا بات التي بدت دافئة ، ومرتاحة بينا راح كلبها يقفز من حولها .

- بيللي .

ناديته ، فقفز الي ، ولكنه لم يكن لطيفاً . لم يتعرف علي ، ثم وقف حائراً عندما رأى بات تشير الي .

- هذا هو الواقع . حمدا لله بان البشر يتمتعون بذاكرة افضل من الكلاب ،

ولكن اين كان البارحة ؟

ضحكت بات :

- بقي قابعاً في السرير ، انه يصبح غيوراً جداً عندما يقوم احد بزيارتي ويعبر عن

غيرته بانسحابه وتقوقعه على نفسه .

- انك تبدين رائعة .

نظرت الي وقد اشرق وجهها بالسعادة ثم اقتربت من كارل .

- كم أود الجلوس به مرة ثانية .

- ولم لا ، ما رأيك يا اوتو ؟

- الأمر ممكن خاصة وانك ترتدين معطفاً سميكاً . كما انه لدينا بضع بطانيات .

جلست بات في المقعد الامامي الى جانب كوستر ثم نبج كارل واخذ ينفث دخانه الابيض المشوب بالزرقة في الهواء البارد بيظه ، بدأت السلاسل الثلجية تحدث ضجيجاً وترسم خطوطاً في الثلج ، واخذ كارل يزحف في المنعطفات في اتجاه القرية وكأنه ثعلب منحني بين قطع الخيول والزحافات الثلجية التي ملأت المكان برنين اجراسها .

غادرنا القرية قبل الغروب . كانت حقول الثلج تسبح بأشعة الشمس الحمراء في حين بدا آخر المتزلجين وكأنهم فواصل مترنحة تهبط الجبل الى ذلك الوادي السحيق .

- هل مررتم من هذا الطريق بالأمس ؟

- نعم .

اوقف كوستر كارل بعد ان اجتاز المنعطف الاول ، كان المنظر من ذلك المكان ساحراً ولم تنتبه اليه بالأمس عندما صعدا هذه المنعطفات بل كان جل اهتمامنا يتركز على الطريق للوصول الى المصح باقصى سرعة. تابعنا السير واخذ الوادي بمنحدراته يفتح ذراعيه لاستقبالنا في حين انتصبت قمم الجبال الحادة وكأنها تحاذي السماء بلونها الاخضر الشاحب ، واخذت المنحدرات تزداد تلالؤاً تحت تأثير اشعة الغروب الحمراء . وقفت الشمس في مضيق بين قمتي جبلين متلائين في حين بدا ذلك الوادي السحيق بمنحدراته وكأنه عرض عسكري ضخيم امام حلكم . شريط الشارع الليلكي تلوى حول الهضبة ، اختفى وعاد للظهور اسود في المنعطفات ماراً بالقرى ثم عاد واستقام على سرج النفق متجهاً للملاسة الافق .

قالت بات :

- لم ابتعد عن القرية هذه المسافة طيلة هذه المدة . هل هذا الطريق يؤدي الى بيتنا ؟

- نعم .

صمتت واخذت تنظر اليه ثم ترجلت مغلقة عينها من اشعة الغروب ملاحقة الطريق بنظراتها . اخذت تململق الى الشمال وكأنها تبحث عن قباب مدينتنا .

- ما هي المسافة التي تفصلنا عن بيتنا ؟

- حوالي الالف كيلو متر . سنعبير هذا الطريق في آذار عندما سيأتي لاصطحابنا .

- في آذار ، يا الهي .

غابت الشمس تدريجياً وبدأت الحركة تدب في ذلك الوادي ، وتحولت تلك الظلال القابعة فيه الى اشيء متحركة تتسلق الجبال وكأنها عنكبوت ضخم ازرق .

بدأ الجو يبرد . فقلت :

- علينا ان نعود يا بات .

رفعت نظرها وفجأة بدا وجهها متداعياً من الالم . عندها ايقنت انها تعرف الحقيقة الكاملة عن حالتها . كانت تعلم علم اليقين بأنها لن تعبر سلسلة الجبال تلك ثانية ، تلك الجبال العديمة الرحمة ، كانت تعلم كل هذه الامور وتحاول اخفائها . كنا نحاول نحن بدورنا اخفاء الحقيقة عنها . فقدت وللحظات رباطة جأشها وتفجر في عينيها كل شقاء هذا العالم .

- دعنا نسير مسافة قصيرة ايضا . مسافة قصيرة في اتجاه الشمال .

- ليكن .

قلت ذلك بعد ان تبادلت النظرات مع كوستر .

صعدت الى المقعد الخلفي وجلست الى جانبي . اوسدتها ذراعي ولففت حولها البطانية . بدأت السيارة تهبط الطريق ببطء . . . تهبط الى الوادي والى الظلال .

همست بات بفمها الملصق بكتفي .

- روبي يا عزيزي اشعر وكأننا نسير باتجاه بيتنا الى احلامنا وحياتنا .

- نعم .

ثم رفعت البطانية حتى غطت شعرها .

ازداد الظلام بازدياد اقترابنا من الوادي . كانت بات متدثرة بالبطانية . تسللت يدها من تحت قميصي واستراحت على صدري . شعرت بيدها على صدري وبانفاسها وشفاهها ثم بدموعها .

استدار كوستر بهدوء كي لا تشعر بات بذلك وانطلقنا عائدين . كانت الشمس قد اختفت عندما وصلنا ذلك المرتفع الذي وقفنا به قبل قليل . ظهر القمر في الجهة الشرقية من السماء شاحبا بين الغيوم المرتفعة تابعنا سفرنا الى المرتفع في حين اخذت السلاسل الثلجية تحدث في الجليد صوتاً رتيباً . اصبح كل شيء صامتاً من حولنا . جلست هكذا بلا حراك . وشعرت وكان جرحاً عميقاً ينزف في صدري في ذلك المكان حيث كانت تذرف دموع بات .

بعد وصولنا الى المصح صعدت بات الى غرفتها وجلست انا بمفردي في البهو .
فقد ذهب كوستر الى مركز الارصاد الجوية للاستفسار عن احوال الطقس والطريق .
فالجو اصبح في الخارج ضبابياً وبدا الليل خلف النافذة رامادياً كالمخمل .

اقترب انطونيو مني وشاركني الجلوس . على مقربة منا جلس رجل كقذيفة مدفع
مرتدياً بنظالاً من الجلد يصل الى ركبتيه ، له وجه طفل ، رضيع ، شفتاه متدلّيتان
وعيونه بارزة تصدران رأساً احمر اصلع مستديراً ككرة البليارد . جلست الى جانبه
امرأة نحيلة ذات عينين غائرتين تتوسطان وجهاً مليشاً بالحزن والتوسل . بدا من
الواضح ان قذيفة المدفع رجل حيوي ، فرأسه دائم الحركة ويده العريضتين
مستمرتان في رسم المنعطفات في الهواء .

- انه مكان رائع . ما أجمل هذه المناظر وهذا الهواء وهذه الخدمة الممتازة . انني
احسدك على كل هذا .
- برنار .

قالت المرأة بصوت خافت ولكنه تابع حديثه :
- هكذا اريد ان احيا انا ايضاً حيث يقوم الجميع على خدمتي .
- آه يا برنار .

قالت المرأة بيبأس :
- ماذا اذن ؟

ضح قذيفة المدفع فرحاً .

- لا يمكن لاي انسان ان يتمنى حياة افضل من التي تحيينها . فانت تعيشين في
الفردوس . هل سألت نفسك مرة ماذا يوجد هناك في المدن الآن ؟ هل سألت نفسك
عما ينتظرني في ذلك العالم عندما اغادر هذا المكان غداً ؟ لتحمدي الله على كونك
بعيدة عن كل هذه الامور . انني سعيد لكونك بعيدة عن كل هذه الامور ، ولأنك
تتعين بكل هذه المكاسب . كما ان حالتك الصحية جيدة .

اجابت المرأة بيبأس :

- ولكن يا برنار ، فانت تعلم بأن حالتي سيئة جداً .
- بل على العكس يا صغيرتي ، لا تكوني هكذا . ما عساي ان اقول انا العائد
غداً الى حيث العمل ، والافلاس ، والضرائب . صمتت المرأة . التفت الى
انطونيو وقلت له :

- ان حبي متحمس .

- هذه هي الحقيقة . فهذا الرجل يجلس منذ ثلاثة ايام الى جانب زوجته ويحاول

تخبطها بجمله المتكررة ، كم انت محظوظة ببقائك هنا وهكذا . . . انه يرفض رؤية الاشياء كما هي . يرفض رؤية خوفها ، مرضها ، ووحدها . انه يعيش على ما اعتقد بصحبة امرأة ثانية في برلين ويأتي في السنة مرتين لزيارتها من قبيل الواجب ، يمضيها بالكلمات الرنانة والثناء على هذا المكان . ولكنه يرفض سماع صوتها . ان مثل هذه الحالة كثيرة هنا .

- كم مضى على وجود المرأة هنا ؟

- ستان تقريباً .

دخلت البهو مجموعة ضاحكة من الشباب ، وضحك انطونيو ايضاً .

- انهم قادمون لتوهم من مركز البريد . لقد ارسلوا برقية لروت .

- من هو روت ؟

- انه ذلك الشخص الذي تعافى والذي ستركنا في القريب . ابرقوا له يدعونه

لعدم العودة الى بيته ، فهناك حمى تجتاح المدينة التي سيعود اليها . انهم بهذه الطرائف

يحاولون ان يسخروا من قدرهم ليتخطوا اليأس في بقائهم هنا .

نظرت من النافذة الى ذلك المخمل الرمادي الذي يغطي سفوح الجبال ، لا يمكن

ان يكون كل هذا حقيقة ، انها ليست الحقيقة بل على العكس فهي مسرحية بطلها

الحقيقي هو الموت . كم وددت في تلك الساعة للحاق بهؤلاء الشباب ، لاربت على

اكتافهم ولاصيح بهم كفى سخرية . انكم لا تعيشون في الواقع ولا تعرفون

الحقيقة . ان هذا الموت الذي تنتظرون ، هو موت صالونات وانتم لستم سوى هواة

موت ظرفاء . انكم تموتون على مسرح ، ثم تنهضون بعدها لتحية الجمهور . - ان

طريقتكم هذه ليست الطريقة المثلى للموت . ارتفاع بسيط في الحرارة وحسرة في

التنفس ليس سبباً كافياً للموت . انه يحتاج الى اكثر من ذلك ، يحتاج الى طلاقات

وجروح هكذا عرفت الموت .

سألت انطونيو :

- هل انت مريض حقاً ؟

اجاب ضاحكاً :

- بالطبع .

- انها قهوة فاخرة .

دوى صوت قذيفة المدفع ، ثم تابع :

- ان هذا المكان هو عالم العجائب ، لا يوجد له مثيل في هذا العالم .

عاد كوستر من محطة الارصاد الجوية وقال :

- علي ان اغادر الليلة يا روبي ، ميزان الحرارة انخفض ، ويتوقع سقوط الثلج في هذه الليلة . عندها لا استطيع مغادرة المكان هنا قبل ايام . علي ان انطلق الليلة .
- ليكن ذلك ولكن دعنا نتناول طعام العشاء معاً .
- فكرة جيدة ، سأذهب في الحال لتوضيب حقيبتي .

ساعدت كوستر في توضيب حقيبته ، ثم حملناها الى المرآب واودعناها كارل وبعدها عدنا الى البهولاصطحاب بات .
- اذا اختلطت الامور عليك فكلمني يا روبي .

حنيت رأسي موافقاً .

- سوف ارسل لك النقود في غضون ثمانية ايام وستكفيك لفترة من الزمن ، حاول ان تؤمن لها كل ما تحتاجه .
- سيكون ذلك يا اوتو ، ولكن لي طلب آخر . انني ما زلت احتفظ ببعض حقن المورفين هل تستطيع ارسالها ؟

فتأملني متفحصاً :

- لماذا تريدها ؟

- لا اعرف كيف تسير الامور هنا ، ربما لن تحتاجها ، فانا ما زلت احتفظ ببعض الامل رغم سوء حالتها . عندما اراها يزداد ذلك الامل ، ولكنني سرعان ما افقده عندما اكون وحيداً . لا اريدها ان تعذب يا اوتو ولا استطيع رؤيتها مستلقية هكذا مع الالم ، انهم بالتأكيد سيعطونها ما يلزم لها من الدواء ، ولكنني سأكون مطمئناً اكثر اذا شعرت بأنني استطيع مساعدتها .

- الهذا السبب فقط تريد الحقن يا روبي ؟

- فقط لهذا السبب والا لما اخفيت ذلك الأمر عنك .

حنى رأسه وقال بيظه :

- لم يبق منا الا نحن الاثنين يا روبي .

- نعم .

- والان دعنا نتابع عملنا .

دخلنا البهو ثم صعدت لاحضار بات ، بعدها تناولنا طعام العشاء سوية ثم اخرج كوستر كارل من المرآب واقفه امام باب المصح .

- اتمنى لك التوفيق يا كوستر .

- وهذا ما اتمناه لك ايضاً يا روبي .

- الوداع يا كوستر .

قالت بات وقد امسكت بيده .

- كم انا سعيدة لتمكيني من مشاهدتك ثانية ، بلغ سلامي للعزيز لينس .
- سأفعل ذلك .

كانت ما زالت ممسكة بيده عندما اخذت شفتاها ترتجفان . فجأة تقدمت خطوة الى الامام وقبلته .
- الوداع .

قالتها بصوت خافت مخنق .

في تلك اللحظة تحول وجه كوستر الى شعلة حمراء متقدة ، هم ان يقول شيئاً ولكنه استدار ، ركب السيارة وانطلق بها هابطاً تلك المنحدرات دون ان يلتفت مرة واحدة الى الخلف . تابعناه بانظارنا كانت السيارة ترعد في سيرها وتضيء بأنوارها حقول الثلج امامها وكأنها صرصور صغير فضي وسط تلك الحقول . وقف عند المرتفع فجأة ولوح لنا بيده فبدا من بعيد وكأنه شبح اسود بعيد ، ولكنه لم يلبث ان اختفى ولم نعد نسمع الا صوت السيارة المبتعدة . وقفت بات منحنية الى الامام ومصغية الى ذلك الصوت البعيد ثم التفتت الي وقالت :

- ها هي قد ابحرت آخر سفينة .

- انها السفينة قبل الاخيرة . فالسفينة الاخيرة هي انا ، هل تعرفين ما انوي عمله ؟ انني سأفتش عن مرسى جديد . فغرفتي في الملحق لا تروفتني كما انني لا ارى مبرراً لسكننا مفترقين هكذا . سأذهب في الحال ، لأحاول العثور على غرفة بالقرب من غرفتك .

ابتسمت .

- هذا مستحيل . لن تحصل على طلبك .

- هل يسعدك ان انجح في مسعاي ؟

- يا له من سؤال . بالطبع سيكون ذلك رائعاً تماماً كما كان الحال عند الام

تساليفسكي .

- حسناً ، دعيني الآن وسأنجز عملي في غضون ساعة .

- ليكن لك ذلك أما أنا فساشارك انطونيو لعبة الشطرنج . لقد تعلمه هنا .

اتجهت الى المكتب واعلمتهم عن عزمي في المكوث هنا لمدة طويلة وبأنني اريد غرفة في الطابق الذي تقطنه بات . كانت هناك سيدة متقدمة في العمر بلا صدر . نظرت

الى شذراً ورفضت طلبي لتعارضه مع قانون المصح . سألتها :
- من هو المسؤول عن القوانين هذه ؟
- الادارة .

اجبتني السيدة بامتعاض وراحت تصلح من وضع ياقتها .

بعد اخذ ورد علمت ان باستطاعة رئيس الاطباء تعديل هذه القوانين او التغاضي عنها في حالات طارئة . ولكن تلك العجوز عادت لتقول لي بأن رئيس الاطباء ليس موجود الآن في المصح وانه لا يسمح لاحد بازعاجه الا في حالات مرضية مستعصية .

اجبتها بنزق .

- ليكن ما قلت سأكلمه الآن بأمر طارىء يتعلق بالقوانين الداخلية لهذا المصح .

كان رئيس الاطباء يقطن في منزل قريب من المصح .

استقبلني على الفور ولبي طلبي . قلت له :

- لم اكن اتوقع ان انجز مهمتي بهذه السرعة . ضحك :

- لا شك وانك وقعت فريسة العجوز ريكسروك . لا عليك فسأكلمها في

الحال .

رجعت الى المكتب وما ان رأيتني ريكسروك حتى انصرفت بوقار متحاشية نظراتي المعادية . اتهمت المعاملات مع السكرتيرة وطلبت من الخادم نقل امتعتي وعدة زجاجات من الخمرة الى غرفتي الجديدة ، ثم عدت الى بات التي كانت ما زالت تجلس في البهو . ما ان رأيتني حتى بادرتني السؤال .

- هل نجحت ؟

- الأمر ليس بتلك السهولة ولكنني آمل ان انجح في مساعي خلال الايام

القادمة .

- يا للاسف .

ورمت بحجارة الشطرنج من يدها ثم نهضت .

- اين سنمضي الليلة ؟ في البار ؟

أجاب انطونيو :

- اتنا نلعب الورق في الغالب خاصة في مثل هذا الطقس .

سألتها في تعجب :

- تلعبين الورق . انت يا بات ولكن اية لعبة تلعبين ؟

- بوكر يا عزيزي . بوكر فقط .

ضحكت ثم قال انطونيو :

- انها ماهرة في هذه اللعبة ولكنها جريئة جداً ، مخادعة من الطراز الأول .

- وانا لست اقل مهارة منها ، دعونا نحاول ان نلعبها سوياً . جلسنا في احدى

زوايا البهو وباشرنا اللعب .

لعبت بات بمهارة ولكنها كانت كما قال انطونيو مخادعة جداً بعد مضي ساعة تقريباً

اشار انطونيو الى النافذة لينبها الى ازدياد سقوط الثلج ، والى قذائفه الكبيرة التي

اخذت تتساقط ببطء وكأنها فترة قبل هبوط مخيف .

قال انطونيو :

- ان الريح هادئة وهذا يعني سقوط ثلج كثير .

قالت بات :

- اين سيكون كوستر الآن ؟

اجبت

- لا بد وانه اجتاز النفق الاكبر .

للحظة رأيت كارل امامي وهو يعبر مع كوستر تلك الليلة البيضاء وقد بدا كل

شيء حولي وكأنه لا يمكن ان يكون حقيقة ، وجودي انا وبات هنا وكوستر يقطع

المسافات في هذا الليل . ابتسمت لي سعيدة وقد امسكت بالاوراق بين اصابعها .

- اكمل يا روبي .

- دخل قذيفة المدفع البهو ووقف خلف منضدتنا واخذ يتدخل مازحاً في طريقة

لعبنا . لا شك ان زوجته قد آوت الى فراشها وهو الآن يفتش عن جماعة ليقضي

المساء معها . وضعت الاوراق على المنضدة واخذت انظر اليه وكأنني افعى تنفث

سمها الى ان انصرف . نظرت الي بات وقالت بمرح :

- انك لا تبدو لطيفاً على ما اعتقد .

- لا ، ولن اريد ان اكون لطيفاً .

ذهبنا بعد ذلك الى البار وشربنا بعض كؤوس الشراب الخاص وبعدها ذهبت

بات الى غرفتها وودعتها في البهو ولاحتقتها بنظري وهي تصعد السلم ببطء . توقفت

واستدارت تنظر الي قبل ان تغيب في الدهليز . انتظرت فترة ثم ذهبت الى المكتب

لأخذ المفتاح . نظرت الى السكرتيرة وابتسمت قائلة :

- غرفة رقم ٧٨ .

كانت هذه هي الغرفة المجاورة لبات .

- هل هذه هي تعليقات السيدة ريكسروك ؟

- لا ، فالسيدة ريكسروك متواجدة الآن في بيت الارسالية .

- انها المرة الاولى التي اتطلع فيها الى هذه الارساليات كنعمة حقيقية .

صعدت مسرعاً الى غرفتي حيث وجدت ثيابي قد وضبت . مكثت فترة ، وبعد

حوالى نصف ساعة طرقت الباب الموصل بين غرفتي وغرفة بات . سألت :

- من الطارق ؟

- شرطة الاخلاق .

علا صرير المفتاح ثم فتح الباب بقوة . ووقفت بات مشدوهة ، ثم قالت

متلعثمة :

- اهذا انت يا روبي ؟

- نعم ، المنتصر على العانس ريكسروك ، الممتلك لكميات من الكونياك

والبورتنو رنكو ثم اخرجت الزجاجات من جيوب معطف الحمام .

- والآن اصدقيني القول وبسرعة . كم هو عدد الرجال الذين زاروا الغرفة في

غيابي ؟

أجابت ضاحكة :

- لا احد سوى فريق كرة القدم وفرقة موسيقية كاملة .

- آه يا عزيزتي ها هي قد عادت ايامنا الحلوة .

غفت متكئة الرأس على كتفي اما أنا فبقيت يقظاً . وقد علق ضوء خفيف في

احدى زوايا الغرفة . اخذت نداءات الثلج تطرق زجاج النافذة وبدا لي وكأن الوقت

قد توقف في تلك الساعة من ذلك الغروب الذهبي الدافئ . وكانت حرارة الغرفة

مرتفعة واخذت انابيب التدفئة تصدر اصواتاً عالية بين الحين والآخر . تململت في

نومها . وبيطه اخذ الغطاء ينزلق عن جسدها ثم هوى على الارض . آه ايها الجسد

البرونزي المشع ، ايها الكاحل الغريب في نحولك ، ايها الصدر الحبيب الناعم

شعرت بشعرها يدغدغ كتفي وتحسست نبضات يدها بشفتي . هل صحيح ان موتك

اصبح حقيقة ؟

لا ، لا يجوز ذلك فأنت الحظ ، انت السعادة بالنسبة لي . تناولت الغطاء المنزلق

بحذر واعدته ليغطي ذلك الجسد . تمتمت بات ببعض كلمات غير مفهومة في نومها

واحاطت عنقي بذراعها .

ازداد تساقط الثلج في الايام التالية ، واصيبت بالحمى والتزمت الفراش . لم تكن الوحيدة التي اصيبت بالحمى بل اصيب معظم قاطني المصح بالعوارض ذاتها . قال لي انطونيو :

- انهم يسمون هذا الطقس اللعين بطقس الحمى ، فرياح الالب الدافئة نذير سوء لنا .

سألته بات :

- لماذا لا تخرج قليلاً يا عزيزي ، هل تستطيع التزلج ؟

- لا وكيف لي ذلك وهذه المرة الاولى التي ازور بها الجبال .

- ان انطونيو يحبك وهو يستطيع تلقينك المبادئ الاولى في التزلج . جلست في سريريها وانحسر رداء النوم عن كتفها فبان عنقها نحيلاً جداً . التفتت الي قائلة :

- اذا كنت تحبني حقاً فعليك ان تغادر الغرفة وتترك هذا السرير المليء بالمرض . يكفيك جلوساً الى جانبه طيلة هذه الايام .

- ولكنني اجلس هنا بجملاء ارادتي ولا أشعر برغبة في الخروج ومشاهدة الثلج .

تنفست عالياً وسمعت حشرجة تنفسها اللامتظم .

- صدقني فانا اكثر خبرة منك في هذا المضمار . ان خروجك يعني الراحة لنا نحن

الاثنين ، انك بلا شك ستوافقني عندما تعود . ابتسمت بصعوبة وتابعت :

- سوف تجلس الى جانبي طيلة بعد الظهر والمساء ، اما في الصباح فجلوسك الى جانبي يرهقني . الحمى الصباحية تغير معالم الوجه وانا لا اريدك ان تراني على هذا الشكل . ربما كنت سطحية وغيبية ولكنني ارفض ان ابدو قبيحة عندما تنظر الي . نهضت .

- حسناً ، سأخرج بصحبة انطونيو وسأعود اليك عند الظهر . أمل ان لا تتكسر عظامي في هذه الاثناء من ادوات التزلج هذه . في الحال اخذت من وجهها تلك النظرة القلقة الخائفة .

- ستتعلم التزلج بسرعة يا عزيزي وستصبح متزلجاً بارعاً .

- وانتِ تريدين طردي من هذه الغرفة باي ثمن وباسرع ما يمكن . ثم انحنيت وقبلتها . كانت يداها دافئتين ومبتلتين وشفاتها جافتين ومشققتين . اما انطونيو فكان يقطن الطابق الثاني . اعارني حذاء التزلج والادوات اللازمة . لم اجد صعوبة في ارتدائه فنحن الاثنان كنا متساويين في الحجم . خرجنا الى حقل التدريب الذي كان يقع خلف القرية . نظر الي انطونيو اثناء الطريق متفحصاً وقال :

ان الحمى تجعل صاحبها عصبي المزاج . لقد وقعت حوادث غريبة من جراء ذلك في الايام الماضية . ثم وضع امامه عصي التزلج واخذ يربطها .
- ان اقسى الامور هو الانتظار وعدم القدرة على عمل اي شيء ازاءها . ان هذه الحالة تؤدي الى الجنون وتحطيم النفس .

- وكذلك شأن الاصحاء ايضاً . فهم ينظرون الى هؤلاء المرضى ، بأسى لانهم لا يستطيعون مساعدتهم .

حتى رأسه موافقاً ثم اردف .

- ان بعضنا يعمل والبعض يقرأ مكاتب كاملة ولكن الاغلبية تنضم الى بعضها البعض لتكون صفاً مدرسياً ، محاولة بذلك الهروب من الاستلقاء الالزامي تحت اشعة الشمس تماماً كما كنا نفعل ايام المدرسة ونحاول الهروب من درس الرياضة ، نعم الغالبية تحاول الهروب ساخرة وتحتبىء في المحلات التجارية والمقاهي - اذا صادفوا في طريقهم احد الاطباء . انهم يدخنون في السر ويجرعون الخمره ويقومون بالعاب سحرية داخل غرفهم . يدخلون في حلقات النيمية أو يشرعون في تحضير المقالب لبعضهم البعض ليقتلوا الوقت وليتغلبوا على الفراغ الذي يعيشونه هنا . ان عملهم هذا هو الهروب من الحقيقة المرة . التجاهل اللعوب الاحمق التجاهل البطولي للموت ، ماذا عساهم يفعلون غير ذلك . نعم قلت في نفسي ، ماذا بقي لنا جميعاً غير هذه الحماقات .

سألني انطونيو بعد فترة وقد اتكأ على عصي التزلج المغروسة في الثلج .

- هل لديك الاستعداد للقيام بالمحاولة الاولى ؟

- نعم .

شرع يشرح لي كيفية تثبيت الزحافتين للمحافظة على التوازن ، لم يكن الامر بتلك الصعوبة التي خلتها . سقطت في البدء عدة مرات ولكن رويداً رويداً اخذت اعتاد عليها . بقينا هكذا لمدة ساعة تقريباً ثم اشار علي انطونيو بالتوقف قائلاً :

- يكفي ما انجزناه . انك ستشعر اليوم ببعض الآلام في عضلاتك .

حررت نفسي من الزحافتين وشعرت بقوة تدفق الدم في جسدي . قلت :

- كانت فكرة خروجنا من المصح فكرة رائعة .
- نستطيع القيام بهذه التدريبات صباح كل يوم ، فهي تبعد الانسان عن الافكار السيئة .

سألته :

- هل نتناول كأساً في مكان ما ؟
- نستطيع ذلك بلا شك ربما في مقهى فوستر .

شربنا كأساً ثم عدنا ادراجنا الى المصح . في المكتب اعلمتني السكرتيرة بان ساعي البريد ترك لها خبيراً بان اذهب الى مركز البريد لاستلام حوالة مالية مرسله الي ، نظرت الى الساعة فوجدت انه ما زال امامي متسع من الوقت قبل موعد اغلاقه ، لذا توجهت اليه في الحال تسلمت في مركز البريد الفني مارك ورسالة من كوستر يقول فيها بانه علي ان لا اقلق بشأن تأمين النفقات وان هناك المزيد من النقود ، اذا دعت الحاجة لذلك ، علي فقط في مثل هذه الحالة ان اكتب اليه لطلب المزيد ، كما انه ارسل طرداً صغيراً ، حملت في الورقات . من اين له ذلك ؟ فانا اعلم الناس بامكانياته المادية ، فجأة عرفت المصدر . عاودتني الذكرى الى تلك الليلة التي خسر بها بوليفيتز تاجر الملابس ، الرهان مع كوستر ، لاح لي وجهه بوضوح ناظراً الى كارل انها الامكانية الوحيدة التي بقيت لكوستر للحصول على مثل هذا المبلغ نعم لقد باع كوستر تلك السيارة التي قال عنها يوماً انه على استعداد لبيع يده قبل ان يبيعها . لم يعد كارل ملكاً لنا بل اصبح مطية بين تلك اليدين البدينتين . ولم يبق لكوستر سوى التعرف على صوت كارل العالي ، عندما ينبح وسط المدينة وكأنه كلب تائه .

وضعت النقود والعلبة الصغيرة المحتوية على حقن المورفين في جيبي وقفت ولفترة حائراً امام شباك موظف البريد ، وقفت حائراً وكلي رغبة في اعادة تلك النقود الى كوستر ، لأقول له : اعد كارل اليك . ولكن لم يكن امامي خيار ، فانا بامس الحاجة اليها ، ومددت يدي الى جيبي واخذت اتلمس القطع النقدية ، ثم خرجت ، يا لللعنة . من الآن فصاعداً علي أن ابتعد عن كل سيارة اراها . السيارات اصبحت بالنسبة لنا اصدقاء ، اما كارل فكان اكثر من ذلك ، انه رفيق ، نعم انه رفيق ، كارل شبح الطريق . بالامس كنا جميعاً كتلة واحدة : كارل وكوستر ، كارل ولينس كارل وبات . أخذت اضرب الثلج بعصية بكعب حذائي ، لقد مات لينس وذهب كارل ولكن بات وبعيون ملتبهة نظرت الى السماء ، الى تلك الرمادية بالاها المحموم الذي أوجد الحياة والموت ليتسلى بها .

نشطت الريح بعد ظهر ذلك اليوم فأصبح الجو أكثر صفاء وازداد برودة ، وفي المساء تحسن وضع بات . نهضت في صبيحة اليوم التالي من فراشها واستطاعت بعد عدة ايام مشاركة موكب المودعين الذي رافق المتعافي روت الى محطة القطار . اصطحب قطيع من المرضى روت الى المحطة كانت هذه هي العادة المتبعة لدى مغادرة أحدهم . روت نفسه لم يكن فرحاً ، فهو يعلم ما ينتظره بعد الخروج من المصح . قبل سنتين اكد لي احد الاطباء المختصين بكل بساطة بأن حياته ستكون قصيرة ولن تستمر اكثر من سنتين لذلك عليه ان يعتني بنفسه .

قصد طبيباً آخر زيادة في الحرص وسأله عن الوقت المتبقى له ، فكانت اجابته ستكون اقصر من سنتين . ازاء ذلك قام روت ببيع جميع ممتلكاته ووزعها بدقة على مدار عامين واخذ يبعثها بلا هوادة غير عابىء بصحته ولا بتحذير الاطباء . ولكنه في احد الايام ، ادخل المصح في حالة اسعاف نرف قوي في رثته وبعد علاج طويل تحسنت صحته وزال عنه شبح الموت المتوقع . كان وزنه حين ادخل المصح خمسة واربعين كيلو غراماً اما الآن فاصبح وزنه خمسة وسبعين كيلو غراماً مما حدا بالاطباء لنصحها بترك المصح وانهاء المعالجة والعودة الى الحياة الطبيعية مع قليل من الاحتراس .

مشكلته الحالية هي أنه انفق جميع امواله ولم يبق له شيء يعتاش به . سألني وراح يحك شعره الاحمر الكثيف :

- ماذا عساي أن أفعل هناك ؟ انك قادم لتوك من المدينة أخبرني عن امكانيات العمل .

- لقد ازداد الوضع الاقتصادي سوءاً في الآونة الاخيرة . اجبته بينما رحبت أتأمل وجهه المستدير الممتلئ ، ورموشه الشاحبة اللون . لقد تعافى بالرغم من النهاية السريعة التي تنبأوا له بها .

- علي ان أباشر في البحث عن عمل . ما رأيك ؟

هزرت منكبي ولم أجبه . فأجابني لن تفيده انه سيرى الامور بأم عينه وسيتلقى الاجابة هناك على سؤاله وبأسرع مما يتوقع .

سألته :

- هل يستطيع احد المعارف او الاصدقاء مساعدتك ؟

ضحك بسخرية .

- أصدقاء ؟ انك ادري مني بأمور الحياة . عندما يقف الانسان فجأة بلا مال يبدأ الاصدقاء بالهروب منه كالبراغيث الهاربة من جيفة كلب .
- هذا يعني بأن وضعك سيكون صعباً .

رفع حاجبيه حائراً فامتلاء جبينه بالتجاعيد .

- لا اعرف كيف ستسير الامور . ولم يبق لدي الا بضع مئات من الماركات . لم اتعلم خلال حياتي شيئاً سوى بعثرة النقود . لقد كان البروفسور محقاً حين تنبأ لي بأن حياتي ستنتهي بعد عامين . . . لقد صدق قوله وها انا قد انتهيت ، ولكن بغير الاتجاه الذي رُمى اليه .

فجأة شعرت بالغضب الاعمى يحتاجني على ذلك الثرثار الغبي . . الم تعلمه هذه السنوات قيمة الحياة ؟ نظرت الى بات التي كانت تسير الى جانب انطونيو وقد نحل عنقها من تأثير المرض تحولاً شديداً . كنت اعلم ما قيمة الحياة بالنسبة لها ومدى تعلقها بها . عندها اجتاحني شعور غريب القدرة على قتل روت لو كان قتله سيعيد الصحة اليها .

اقلع القطار وأخذ روت يلوح بقبعته في حين اخذ المودعون يلاحقونه بشتى الكلمات الطريفة . ركعت فتاة وراء القطار واخذت تصيح بصوت متكسر الى اللقاء الى اللقاء ثم عادت وقد غطت الدموع وجهها . أما الآخرون فبدت عليهم الحيرة فيما هم فاعلون . . .

صاح بهم انطونيو :

أمل ان لا تكونوا قد نسيتم قوانيننا . من يذرف الدمع على المحطة يدفع غرامة وهذه الغرامة تدفع للصندوق المشترك لتمويل الحفل القادم .

ثم مد يده المفتوحة الى الفتاة وقد علت ضحكات الجميع . أخذت الفتاة تبتسم رغم دموعها المنهمرة على وجهها البائس واخرجت محفظة نقودها من جيب معطفها . شعرت بالألم يعتصر في وأنا أرى كل تلك الوجوه التي لم يكن ضحكها سوى حركة مصطنعة مؤلمة وملئية بالعذاب .

لقد كان هذا الضحك تقلصات عضلية محضة .

- تعالي :

قلت لبات واحتويتها بشدة بين ذراعي . قطعنا صامتين طريق القرية وعند اول دكان للحلويات دخلت واحضرت لها لوزاً محمصاً .

- انك تحببته اليس كذلك ؟

- روبي .

قالت بات بشفاه مرتجفة .

- لحظة فقط .

ثم هرعنا الى متجر الزهور وخرجت منه بباقة ورد كبيرة .
هدأت قليلاً ثم صاحت :
- روبي .

ابتسمت ببؤس :

- انك ترين بأنني تحولت في هذه الايام الى فارس يا بات لست ادري ما حل بنا في تلك الدقيقة . . ربما كان تأثير ذلك القطار الملعون والذي اقلع دون اصطحابنا .
لقد أصبح القطار كالشبح الفولاذي وكالرياح الرمادية العاتية تقتلع بلا رحمة كل ما تصادفه . لقد أصبح التمسك بالامل أمراً غاية في الصعوبة . شعرت بأننا أصبحنا نحن الاثنان كطفلين تائهين لا يعرفان من اين اتيا والى اين هما سائران . بالرغم من ذلك فهما يحاولان التمسك بشجاعة الامل .
- دعينا نشرب كأساً على عجل .

دخلنا المقهى الاول الذي صادفناه وجلسنا الى احدى الطاولات الفارغة بمحاذاة النافذة .

- ماذا تشرين يا بات ؟

- روم .

قالت ونظرت الي .

- روم .

أجبتها ومددت يدي من تحت الطاولة وامسكت يدها بشدة ، جاءنا النادل واحضر كأسين من الباكاردي بالليمون .

رفعت بات كأسها وقالت :

- يا حبيبي الابدبي .

أحبتها :

- يا رفيقي الابدبي .

جلسنا هكذا لفترة ثم قالت :

- أليس غريباً حقاً ان تصادفنا كل هذه الامور ؟

- نعم لكنها تأتي لتزول .

هزت رأسها ثم خرجنا ومشيئنا متلاصقين . مر بنا فريق من المتزلجين بضحكاتهم العالية بلباسهم الابيض والاحمر . حياة صافية .

- كيف تشعرين الان يا بات ؟

- لا بأس يا روبي .

- فلترميني الاقدار بما تشاء . فلن نضعف امامها ، اليس كذلك ؟

- نعم يا عزيزي .

وشدت على ذراعي الملتفة حولها .

بدأ الطريق يخف برداً وبدا الشفق الاحمر وكأنه غطاء وردي يلف تلك الجبال

الثلجية . قلت لها :

- بات .. انك لا تعلمين بعد بأن كوستر أرسل لنا كمية كافية من النقود. توقفت

لحظة ثم فالت :

- رائع ! اننا نستطيع الآن ان نخرج مساء كما كنا نفعل في السابق .

- سوف نخرج مرات كثيرة وكما يحلو لنا .

- اذن دعنا نشارك في الاحتفال الكبير الذي سيقام في قاعة الاحتفالات مساء

السبت القادم . انه سيكون آخر احتفال سيقام في هذا العام .

- ولكن هل يسمح لك بالخروج في المساء ؟

- الغالبية تخرج مساء بالرغم من تحذير الاطباء لنا .

ارتسمت الحيرة على وجهي فقالت بات :

- روبي لقد أمضيت فترة اقامتي هنا متعلقة ومتمشية مع النظام وكنت اقوم بكل

ماكان يطلب مني ولكن كما ترى لم يجديني ذلك نفعاً ...

لا تحاول أن تقاطعني فأنا اعرف مسبقاً ماذا ستقول واعرف الدافع وراء ذلك .

ولكنني ارجوك ان تدعني اتصرف بالوقت القليل الباقي كما اريد . كان وجهها احمر

من تأثير اشعة الغروب الساقطة عليه ، وجه صامت جدي ، وممتليء بالرقه .

عما نتحدث ؟

جف لساني لدى تفكيري بذلك . لا من المستحيل الوقوف هكذا والتحدث في

امور لا يمكنها ان تحدث .

انها بات التي تنفوه بكل هذه الكلمات بكل بساطة وبدون حزن . تتكلم بصلاية

يصعب على مجابتها . ولا ينطوي كلامها على اية بارقة امل باهتة ... انها بات التي

مازالت طفلة وبحاجة لان احميها . بات التي اصبحت فجأة بعيدة جداً عني بعد ان

الفت ذلك العالم بلا سماء ... تلك الحياة الثانية .

- لا تتكلمي هكذا لقد فكرت بأن علينا أن نسترشد برأي الطبيب قبل الذهاب الى

الاحتفال .

- لن نسأل احداً بعد . . . لا أحد .

هزت بقوة ذلك الرأس النحيل الجميل ونظرت الي بعينها الحبيبتين .
- انتي لا اريد معرفة رأي احد . اريد فقط ان اكون سعيدة .

خيمت في المساء على دهاليز المصح حركة غير عادية . جاءنا انطونيو محضراً معه بطاقة دعوة لاجتماع سيقام في غرفة مريض روسي . سألته :
- هل استطيع الحضور هكذا بلا دعوة خاصة .
- هنا ؟

سألته بات بتعجب :

- هنا يستطيع المرء القيام بأعمال كثيرة لا يمكن عملها في مكان آخر .

أجاب انطونيو رداً على سؤالي .

كان الروسي رجلاً متقدماً في السن ، داكن البشرة يقطن غرفتين مزدحمتين بالسجاد وقد اصطفت على صندوق قديم مجموعة كبيرة من الزجاجات .

كان الضوء خافتاً ، فقد أضيئت الغرفتان بالشموع فقط . جلست بين المدعويين امرأة شابة حسناء اسبانية الجنسية وقد أقام الروسي هذا الاحتفال بمناسبة عيد ميلادها .

كان الجو العام في هاتين الغرفتين غريباً بأضوائه الخافتة ، وذلك التعاطف بين المدعويين . . . هذه الرابطة بين مجموعة من البشر يواجهون قدراً واحداً .

سألني الروسي بصوته الدافئ العميق :

- ماذا تشرب ؟

- المشروب المتواجد عندك .

اخرج زجاجة كونياك ويطحة فودكا ثم سألني :

- هل انت صحيح الجسم ؟

- اجبته بخجل :

- نعم .

قدم لي سجائر فاخرة . شربنا ثم اردف قائلاً :

- انك بلا شك لتعجب من هذا الجو الخاص ؟

ليس بالضرورة ، فأنا لم اعتد الحياة العادية .

- نعم .

ثم نظر نظرة غامضة الى تلك الاسبانية الحسنة واكمل حديثه :
- ان الحياة هنا ذات طابع خاص جداً ، انها تغير كثيراً من طبائع البشر .

هزرت رأسي موافقاً ، تابع الروسي حديثه مفكراً :

- مرض تجيب : يزيد من حيوية اصحابه وفي بعض الاحيان يزيد من
انسانيتهم ، انه مرض صوفي يزيل الاورام .

ثم نهض وانحنى قليلاً مستأذناً واتجه الى حيث كانت تجلس الاسبانية التي
استقبلته بابتسامة .

سأل احدهم وكان يجلس خلفي :

- ان فيري مؤثر .. أليس كذلك ؟

- استدرت اليه . وجهه بلا ذقن ، جبهته متدرنة ، عصبى بعيون متعبة من
الحمى . أجبت :
- انني ضيف هنا وانت ؟

قال وكأنه لم يسمع كلامي :

- انه بهذا يجتذب النساء فقط يجتذبهم لصحبته ، انظروا اليه كيف سحر تلك
الصبية الصغيرة .

لم أجبه لكنني سألت بات عندما ابتعد عنا :

- من يكون هذا ؟

- انه موسيقي ، عازف كمان .. مغرم بالاسبانية لدرجة الجنون . انه كغيره من
المرضى هنا يجب بجنون .. مشكلته هي ان الاسبانية لا تعره اي اهتمام فهي مغرمة
بالروسي .

- لا شك بأنها مصيبة باحساسها . لو كنت مكانها لما تصرفت عكس ذلك .

ضحكت بات ثم قالت :

- انه رجل يصعب على امرأة عدم الوقوع في حبه ، ما رأيك انت فيه ؟

أجبت :

- أما انا فلا .

- الم تقعي في حب أحد هنا ؟

- ليس كثيراً .

- لو وجدت مثل هذا فالامر سيان عندي .

- رفعت بات رأسها بعصبية .
- اعترافات جميلة ولكن بأي حق يكون الامر سيان بالنسبة لك .
- انني لا اعني ما فهمته ولكنني عاجز عن ايضاح ما أريد . الاله هو أنني لغاية هذا اليوم لا افهم سبب تعلقك بي .
- لا تتعب نفسك بالتفكير به ودع الامر لي .
- هل تعرفين السبب ؟

أجابت ضاحكة :

- ليس بالتحديد ولكنني لو عرفت السبب لما امكنتني تسميته بالحب .
- كان الروسي قد أبقى أمامي الزجاجات . فصبيت عدة كؤوس وشربتها جميعها فالجو العام في تلك الغرفة اثار حزني . كنت اكراه رؤية بات بين جميع هؤلاء المرضى .

سألتي :

- الا يعجبك المكان هنا ؟
- ليس كثيراً ، علي أن اعتاد عليه .

أمسكت بيدي :

- يا عزيزي المسكين.
- لا يمكن ان اكون مسكيناً وانت الى جانبي .
- الا تجد بأن ريتا رائعة الجمال ؟
- لا ، انك اجمل منها .

كانت الاسبانية الحسنة تحتضن قيثاراً وما لبثت أن بدأت في الغناء فانطلق صوتها وكأنه طير أسود اخذ يملؤ، في فضاء الغرفة . . اخذت تغني اغاني اسبانية بصوت نصف عال ، صوت جاف متكسر ، صوت مريض. فجأة شعرت بأن هذا الغناء لم يكن سوى احتجاج باك . قسم صامت للقدر الذي كان متربصاً خلف تلك النوافذ ، رجاء توسل ، صرخة خوف ، خوف من الوحدة ومن العدم .

لا أعرف السبب الذي دفعني للتفكير بكل هذه الامور ، هل السبب في ذلك هي الاالحان الغريبة الحزينة ؟ أم هو الصوت المؤثر ، صوت تلك الفتاة الاتي من المغرب ام تلك الاشباح المتكدرة على المقاعد وعلى الارض ، ام هو وجه ذلك الروسي الداكن والمنحني الى الامام ؟

في صبيحة اليوم التالي بدت فرحة ، مرتاحة ، وقد باشرت في تهيئة ثيابها للمشاركة في الاحتفال الكبير .

- لقد اصبحت ثيابي فضفاضة جداً .

تمت ، بينما اخذت تنظر في المرأة متفحصه جسدها . استدارت الي وسألتنني :

- هل أحضرت معك تلك البزة السوداء ؟

- لا ، فلم اكن اعلم بأن هذا المكان بحاجة الى بزات انيقة ايضاً .

- اذن اذهب الى انطونيو واستعمر منه بزة ، ان مقاسكها واحد .

- ولكنه بحاجة اليها .

- لديه بزات انيقة كما انه أن الاوان لخروجك للتزلج فأنا منهمكة كما ترى في تهيئة

ثيابي ولا استطيع عمل ذلك خلال وجودك الى جانبي .

- مسكين هذا الانطونيو .. انني اشعر بأنني اسرق جميع حاجياته ...

ماذا كنا نفعل بدونه ؟

- انه شاب لطيف ... اليس هذا رأيك ايضاً ؟

- نعم انه التعبير الصحيح شاب لطيف .

- لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونه عندما كنت وحيدة هنا .

- علينا ان لا نعيد ذكرى تلك الايام : لقد اصبحت بعيدة جداً .

- نعم .

قبلتنني واستطردت قائلة :

- والآن عليك ان تخرج للتزلج .

وجدت انطونيو ينتظرني كعادته في الخارج .

- كنت متأكداً بأنك لم تحضر بزتك الرسمية ، لذا خذ وجرب هذه السترة ، ثم

اخذ يصفر فرحاً بينما راح يخرج البزة من الدولاب .

- سيكون حفل هذا المساء جميلاً ، ولحسن حظنا ستكون السكرتيرة في المكتب .

وليست العانس ريكسروك . فهي لن تسمح لنا بالخروج ، سنخرج على اي حال

بطريقة غير قانونية ولا تنسى اننا لم نعد اطفالاً .

ذهبنا للتزلج تعلمته بسرعة ولم أعد أر ضرورة للذهاب الى حقل التدريب ،

قابلنا اثناء طريقنا رجلاً يلبس خاتماً ماسياً ، بنظالا ذا قماش مكعب وربطة عنق

فنية . قلت :

- هنا يجد المرء أغرب الشخصيات .

ضحك انطونيو :

- ان هذا الرجل غاية في الاهمية : انه مرافق خاص للجنث .

- ماذا ؟

سألته متعجباً .

- انه مرافق الموتى . لا تنسى ان في هذا المصح مرضى من جميع انحاء العالم وخاصة من امريكا الجنوبية . في الغالب يطلب اهل الموتى جثث ذويهم ليواروها التراب في وطنهم ، عندها يرافق هذا الرجل النعش المصنوع من الزنك الى بلده مقابل تعويض كبير . بهذه الطريقة يصبح مثل هؤلاء الاشخاص اثرياء ويطوفون العالم . هذا الرجل الذي رأيت جعل منه الموت عيوقاً متأنقاً كما رأيت .

ارتقينا هضبة عالية وبعد ان ثبتنا الزحافات انطلقنا نهبط التلة . أخذت المرتفعات الثلجية تمر بنا متأرجحة بينا اخذ بيبي يعدو خلفنا لاهناً وكأنه كرة بنية .

كان بيبي قد استعاد ثقته بي بالرغم من انه في كثير من الاحيان يتركني في منتصف الطريق . منتصب الاذنين ويجري عائداً الى المصح . كنت في كل مرة اهم بهبوط التلة اوهم نفسي بأن بات تتعافى لو استطعت هبوطها دون ان اسقط . كانت الريح في ذلك الصباح شديدة والثلج صلباً وقاسياً . حاولت التحدي وانطلقت اهبط الهضبة بكل اصرار محاولاً العثور على ممرات سالكة . نجحت في هبوطها انها ستتعافى قلت في نفسي بالرغم من غباء هذه الفرضية ولكنني شعرت بالسعادة الحقيقية ، سعادة غمرتني لفترة طويلة .

كان الهروب مساء السبت جماعياً فقد اوصى انطونيو على زحافات وقفت بعيدة بعض الشيء عن مبنى المصح ، اما هو فلم يركب احداها بل اخذ يهبط الهضبة فرحاً بمعطفه المفتوح وحذائه الاسود اللامع .
- انه مجنون .

اجابت بات :

- انه دائماً هكذا ، تصرفاته تدل على استهتار ، ولكنه لو لم يكن هكذا لما استطاع البقاء هنا كل هذه الفترة مع الاحتفاظ بمزاجه اللطيف .
- لذا علي ان ادفئك اكثر فاكتر .

لففتها بالशल والاعطية الموجودة في الزحافة التي بدأت في الهبوط ضمن قافلة طويلة من الزحافات . فلقد هرب في تلك الليلة كل من استطاع مغادرة الفراش . بدت القافلة وكأنها قافلة عرس مرحة ، علت فيها الصيحات والضحكات في حين اخذت اسرجة الخيول الملونة تلتمع تحت ضوء القمر . اما قاعة الاحتفال فكانت قد زينت بسخاء مفرط ، وجدنا الساهرين وقد باشروا في الرقص . لدى وصولنا اتجهنا الى زاوية حجزت خصيصاً لساكني المصح ، زاوية بعيدة عن أي مجرى هوائي - اما الجو في الداخل فكان دافئاً وقد عبقت رائحة الورد والعطر والنبيد .

جلس الى طاولتنا عدة اشخاص : الروسي ، ريتا الاسبانية ، عازف الكمان ،
امرأة متقدمة في السن ، رأس ميت حزين بصحبة عيوق ، انطونيو وآخرون .
- دعنا نحاول ان نرقص سوية ولولمة واحدة يا روبي .

كانت حلبة الرقص مصنوعة على شكل قرص كبير دائم الدوران يبسطه محاطاً
باصوات الكمان والتشيللو ، في حين اخذت اقدام الراقصين تلامس الارض
بنعومة .

قالت بات مندهشة :

- انك تمجد الرقص بشكل رائع .

- لا انك تبالغين .

- بلى ، ولكن قل لي اين تعلمت الرقص ؟

- لقد علمني اياه جوتفريد .

- في الورشة ؟

- نعم وفي مقهى الانترنتاسيونال ايضاً . كنا نحتاج اثناء الدروس لسيدات من
اجل التمرين . وهنا يجب ان اذكر فضل روزا وفالي وماريوس . لذا اخشى بان
تكون طريقة رقصي ليست بالشكل الانيق .

- بلى يا عزيزي .

لمعت عيناها ببريق السعادة .

- انها المرة الاولى التي نرقص فيها سوية اليس هذا رائعاً يا روبي ؟

كان الروسي الي جانبنا يراقص الاسبانية - ابتسم لنا ، اما الاسبانية فبدت في تلك
الليلة شديدة الشحوب وقد احاط شعرها الاسود الحالك بجبينها الشاحب ، فبدت
كطير جارح . كانت ترقص بوجه جاد ، ساكن الحركات ، عمرها يقارب الثامنة
عشر وقد زينت معصمها بسوار عليه اربعة احجار كبيرة من الزمرد . بينما راح عازف
الكمان الجالس الى الطاولة يلاحقها بنظراته .

عدنا الى اماكننا بعد انتهاء الرقصة ، سألتني بات :

- هل تسمح لي بسيجارة ؟

- من الافضل لا .

- اسمح لي بنفخة واحدة فقط .

تناولت السيجارة ولم تلبث ان اعادتها قائلة :

- لم اعد استسيغها .

ضحكت :

- هكذا الحال دائماً تجاه الأشياء التي يجبر الانسان على التنازل عنها ، ولفترة

طويلة . سألتني :

- هل افتقدتني طويلاً ؟

- انني اعطي الأشياء السامة فقط ، كالتبغ والخمرة .

- لا تنس بان البشر يصبحون في بعض الاحيان اكثر السموم حدة . اكثر من
الخمرة والتبغ يا عزيزي .

ضحكت :

- انك طفلة ذكية يا بات .

ارتكزت بذراعها على المنضدة ونظرت الي :

- انك لم تنظر الي بجدية طوال هذه الفترة يا روبي اليس هذا صحيحاً ؟

- انني لم انظر يوماً الي نفسي بجدية .

- وبالتالي لم تنظر الي بجدية . قل الحقيقة .

- لست ادري ، ولكن نظرت الي علاقتنا بجدية مخيفة هذا كل ما اعرفه .

ابتسمت . طلبها انطونيو للرقص ، وذهب الاثنان الي الحلبة .

اخذت انظر اليها وهي ترقص . حذائها الفضي لم يلامس الارض فحركاتها

اشبه بظبية . عاد الروسي ليراقص الاسبانية مرة ثانية . وقد ظللت وجهه العريض

الداكن مسحاً من الرقة . طلبها عازف الكمان للرقص ، ولكنها هزت رأسها رافضة

ثم تابطت ذراع الروسي واتجهت الي حلبة الرقص . اخذ عازف الكمان يفتت

سيجارة باصابعه الطويلة المتعظمة شعرت بالشفقة نحوه فقدمت له سيجارة ثانية

لكنه رفضها قائلاً بصوت متقطع :

- علي ان احمي نفسي .

هززت رأسي موافقاً ، اما هو فتابع حديثه مقهقهاً بسخرية وناظراً الي الروسي .

- ذلك الرجل يدخن خمسين سيجارة في اليوم .

- لكل شخص طريقته الخاصة في الحياة .

- انها رفضت ان تراقصني ولكن المسألة مسألة صبر ، فسوف يأتي اليوم الذي

استطيع فيه ان أظفر بها .

- من ؟

- ريتا .

ثم اقترب مني .

- كانت علاقتي بها جيدة وكنا نعزف سوية ثم جاء ذلك الروسي وخطفها مني بكلماته الرنانة ، ولكن لا بأس ، سيأتي اليوم الذي استردها فيه منه .
- اذا كان الامر هكذا فعليك ان تجهد نفسك لاسترجاعها .

قاطعتني بضحكة متأففة :

- اجهد نفسي ؟ انك بلا شك ملاك طاهر . كل ما يعوزني هو الانتظار .
- اذن انتظر .

همس :

- خمسون سيجارة في اليوم . رأيت في الامس صورة شعاعية لصدرة ، الكهف السلي الى جانب الكهف . لقد انتهى .

عاد للضحك ثم تابع حديثه :

- كانت صورنا الشعاعية في السابق متساوية . اما الآن فعليك ان ترى الفرق الكبير بينهما ، لقد ازداد وزني كيلو غرامين . لا يا عزيزي فانا لست بحاجة الا للانتظار فقط والمحافظة على صحتي - انني انتظر الصورة الشعاعية القادمة لذلك الروسي بفارغ الصبر . ستريني اياها المريضة .
- انها طريقة مجدية ايضاً .

اجاب ساخراً :

- انها الطريقة الوحيدة اياها الساذج . لقد حاولت التعرض اليه اما الان فسأوفر امكانية كسب محبتها .

لا اياها المحب الجديد ، اللطف ، الهدوء والانتظار . اصبح هواء القاعة ثقيلًا . سعلت بات ولاحظت انها اخذت تنظر الي بخوف ، لذا تصرفت وكأنني لم اسمع شيئاً كانت السيدة المتقدمة بالسن والعاجزة يعقود اللؤلؤ تجلس صامتة مستغرقة مع افكارها ، تصدر منها بين الحين والآخر ضحكة حادة ثم تعود لسكونها وهدوئها مرة ثانية . اما وجه الميت الحزين فقد اخذ يتشاجر مع العيوق الى جانبه . اما الروسي فتابع تدخينه للسيجارة تلو الاخرى بينما راح عازف الكمان يقدم له النار مع كل سيجارة .

فجأة ابتلعت احدى الفتيات ريقها بصعوبة ووضعت منديلها على فمها ثم نظرت اليه وامتقع لون وجهها . لفت نظري في تلك القاعة المزدحمة طاولات جلس اليها عدد كبير من الرياضيين ، وآخريات جلس اليها مواطنون من اجناس عدة : فرنسيون ، انكليز وهم لندنيون تكمن في كلماتهم المرفهة رنات الحقول والبحر وبينهم تقبع قافلة المرضى والموت محمومة ، جميلة وتائهة ، حقول وبحر . نظرت الى بات ، حقول وبحر ، امواج ورمل وسباحة . أه قلت في نفسي ، أيها الجيبين

النحيل الحبيب ، ايتها اليدان الحبيبتان ، ايتها الحياة الحبيبة كم احبك .

احبك اكثر من اي شخص احبك من قبل ، ولكن بالرغم من ذلك اجسد نفسي عاجزاً عن انقاذك . نهضت وخرجت . شعرت بالحرارة تجتاحني بتأثير ذلك الازدحام وذلك الاحساس بالعجز . مشيت الطريق ببطء ، اخترقني البرد وادت بي تلك الريح القادمة من وراء البيوت الى الارتجاف . ضربت قبضة يدي بالآخرى . ونظرت الى تلك الجبال البيضاء القاسية وقد اجتاحني شعور بالضعف والغضب والالم .

عدت الى القاعة فاستقبلتني بات قائلة :

- اين كنت ؟

- في الخارج .

هل هذا يعني انك سيء المزاج ؟

- لا ابدأ .

- يا عزيزي حاول ان تكون فرحاً وسعيداً هذه الليلة فقط . . من اجلي فانا غير متأكدة من خروجي الى حفل كهذا مرة ثانية .

- ولم لا ، فنحن سنحاول في المستقبل المشاركة في مثل هذه الاحتفالات.أراحت

رأسها على كتفي :

- اذا كان هذا رأيك فلا بد وأن يكون حقيقة . اما الان دعنا نرقص ، وكان

الضوء الخافت عطوفاً غطى كل الظلال التي رسمتها تلك الليلة المتأخرة على وجوه

ساهريها . سألتها :

- كيف تشعرين الآن ؟

- انني في حالة جيدة يا روبي .

- كم انت جميلة يا بات .

برقت عيناها .

- كم يسعدني سماع هذا الشئ منك .

احسست بشفاهاها الدافئة الجافة تلامس وجنتي . كان الوقت متأخراً لدى عودتنا

الى المصح . واخذ عازف الكمان يقهقه ساخراً مشيراً الى الروسي :

- انظروا اليه كيف يبدو متعباً .

اجبته بغضب :

- انك تبدو مثله تماماً .

نظر الي مندهشاً ثم اجابني كمن ينفث سماً :

- آه انك محق ايها المترع بالصحة .

صافحني الروسي مودعاً وقد استدار بدوره وامسك بيد الاسبانية بكل رقة وحذر ليساعدها في ارتقاء السلم . بدا ظهره العريض المنحني الى جانب اكتاف الفتاة النحيلة ، وهما يرتقيان السلم تحت تأثير النور الخافت وكان ثقل العالم باسره يرزح عليهما ، تبعهما رأس الميت وهو يجرح خلفه ذلك العيوق . اما انطونيو فصافحنا متمنياً لنا ليلة سعيدة . خيل الي هذا الوداع وكأنه وداع الاشباح .

شق فستان بات عندما كانت تحاول خلعه منحنية الظهر ، تأملته .
- انه اصبح رثاً على اية حال .

أجابت :

- لا ضير في ذلك فلن احتاجه مرة ثانية .

طوت الفستان بتأن ولم تضعه في الدولاب بل اودعته الحقيبة وفجأة بدا التعب الشديد على وجهها .
- أنظري ماذا في حوزتي .

قلت واخرجت من جيب معظفي زجاجة شمبانيا .
- والآن جاء احتفالنا الخاص .

احضرت الكؤوس وصبت لها ، ابتسمت لي وشربت .
- نخبنا نحن الاثنين يا بات .
- نعم يا حبيبي ، نخب حياتنا الجميلة .

أليس غريباً؟ هذه الغرفة ، السكون وحزننا وتلك الحياة القابعة خلف الباب ، الحياة اللامنتهية بغاباتها وانهارها وانفاسها القوية مزهرة ومتحركة ، الا يقف آذار خلف تلك الجبال يضرب الارض المفتوحة بعصبية ؟
- هل ستقضي الليلة عندي يا روبي ؟

- نعم ، دعينا نأوى الى الفراش ونقترب من بعضنا ، لنكون اكثر البشر قرباً ، نضع كؤوسنا على غطاء السرير ونشرب نخبنا . خمرة ، بشرة ذهبية داكنة ، انتظار ، بقطة سكون وحشرجة خافتة ، حشرجة ذلك الصدر الحبيب .

اجتاحت رياح الالب الدافئة الرطبة ، ذلك السوادي وبدأ الثلج في الذوبان وارتفعت مؤشرات طبلديات الحرارة على اسرة المرضى . لزمت بات الفراش واخذ الطبيب يعودها كل بضع ساعات وقد بدا الاهتمام البالغ على وجهه . جاءني انطونيو ظهر احد الايام بينما كنت اجلس الى مائدة الطعام وجلس الى جانبي وقال :

- لقد ماتت ريتا .

- ريتا ؟ انك تعني الروسي بلا شك .

- لا بل ريتا الاسبانية .

- غير معقول .

قلت وشعرت بالدم يتجمد في عروقي فلقد كانت ريتا اقل مرضاً من بات . اجاب انطونيو بحزن :

- كل شيء جائز ، توفيت صبيحة هذا اليوم نتيجة التهاب رئوي حاد .

سألته محاولاً السيطرة على اعصابي :

- التهاب رئوي ، انه شيء آخر .

- ثمانية عشر عاماً فقط ، امر مروع ، لقد عانت موتاً اليماً .

- والروسي ؟

- آه ، لا تسألني عنه انه لا يصدق ما حدث ويقول بأنها تبدو ميتة فقط . . . لا

يرح فراشها ولا يستطيع أحد اخراجه من غرفتها .

ذهب انطونيو . . . حملقت في البعيد من خلال زجاج النافذة . ماتت ريتا وها انا

اجلس هنا واقول : حمداً لله بأنها ليست بات . . انها ليست بات . استدرت لاجد

عازف الكمان قادماً عبر الدهليز وقبل ان استطيع النهوض كان قد اصبح قريباً

مني . . . مظهره مربع .

- ماذا ؟ هل تدخن ؟

سألته فقط لاجد مادة للحديث ضحك ضحكة عالية .

- بالطبع لا ادخن ، اصبحت كل امور هذا العالم لا تعنيني .

هزرت منكبي

سألني بسخرية :

- انك بلا شك معتبط بهذا النبأ ايها المحتال الطاهر ؟

- انك مجنون بلا شك .

- مجنون ؟ لا بل مخدوع .

ثم اتكأ بيديه على الطاولة ونفخ انفاسه العابقة برائحة الكونياك .

- لقد خدعت ... خدعوني جميعهم ... هؤلاء الخنازير .. جميعهم خنازير ،

وانت ايضاً يا خنزير الفضيلة .

- لولم تكن مريضاً لرميت بك من هذه النافذة .

- مريض ... مريض .

تذمر كالقرد .

- انني تعافيت .. لقد تعافيت بسرعة وتكلمت الكهوف السلية في رثتي انسي

قادم لتروي من المعاناة .. انها لطرافة حقاً ، هذا الذي حدث .

- عليك ان تفرح بذلك ، عليك ان تسعد لمغادرتك هذا المكان ، وعندما تصبح

بعيداً عنه ستنسى كل ما حصل .

- هكذا ؟ هل هذا رأيك حقاً ايها الدماغ العملي .. انت ؟

ليحملك الله وليحمي نفسك ايضاً .

ابتعد قليلاً مترشحاً ، ثم عاد :

- تعال شاركني الشرب وسأقوم بدفع الحساب ، لا تتركني وحيداً فأنا لا أستطيع

اليوم البقاء بمفردي .

- ليس لدى الوقت فتش عن شخص آخر .

هرعت لعند بات ... كانت مستلقية وقد وضعت عدة وسائد خلف ظهرها

كانت تتنفس بصعوبة .

- ألا تريد ان تخرج للتلجج اليوم ؟

هزرت رأسي بالنفي .

- لا ، فالثلج بدأ بالذوبان .

- آه يا روبي المسكين ... احضر لنفسك بعض الخمرة .

- هل استطيع ذلك حقاً ؟

ذهبت الى غرفتي واحضرت زجاجة كونياك وكأساً .

- هل تشربين بعض الشيء . . . لقد سمحوا لك به .

امسكت الكأس ورشفت منها قليلاً ثم اعادته لي فملاته من جديد وجرعته .

- عليك ان لا تشرب من ذات الكأس التي لامست فمي .

- ان ما تقولينه لكلام جميل حقاً .

ثم ملأت الكأس للمرة الثانية وشربتها .

هزت برأسها .

- عليك ان لا تفعل ذلك يا روبي وعليك ان تمتنع عن تقبيلي من الآن فصاعداً .

كما عليك ان لا تمكث في غرفتي لفترة طويلة . . . لا اريدك ان تمرض .

- سوف أبقى اقبلك حتى يصطحبني الشيطان اليه .

- لا ، عليك ان لا تفعل ذلك وان تكف عن النوم في سريري .

- حسناً ، علي اذن ان اصطحبك لتنامي انت في فراشي . ادارت فمها رافضة .

- دعك من هذا يا روبي يجب ان تحيا سليماً وتعيش طويلاً . . . اريدك ان تبقى

سليماً ، تتزوج وتنجب اولاداً .

- ولكنني لا اريد اطفالاً ولا زوجة غيرك انك طفلي وزوجتي .

استراحت فترة من الكلام ثم اسندت رأسها على ذراعي وتابعت :

- كم تمنيت ان يكون لي طفل من روبي ، كنت في السابق اعارض فكرة انجاب

الاطفال . . لم استطع تخيل ذلك ، اما الآن فأنا افكر كثيراً في هذا الامر . يكون

القدر كريمة لو انجبت طفلاً ، لو نظر الطفل المرتجى اليك لاجبرك على تذكري ،

وعندها ستشعر بأنني عدت الى جانبك .

- عندما تتعافين ، عندها سننجب طفلاً . . . انني اتوق ان يكون لي طفل منك

ولكنني اريدها ابنة تشبهك وادعوها بات ايضاً .

تناولت الكأس من يدي ورشفت منه :

- ربما كان من الافضل ان لا ننجب طفلاً يا عزيزي عليك ان تنساني . . . واذا

تذكرتني فعليك ان تذكر الايام الحلوة التي عشناها معاً . . لا يجب ان تحزن .

- انني احزن عندما اسمعك تتكلمين هكذا .

أخذت تنظر إليّ ، عندما يقضي الانسان فترة طويلة مستلقياً ، يفكر في كثير من

الامور ، في امور لم يكن يوماً يوليه اية اهمية ، هل تعرف ما هو الشيء الوحيد

الذي لا استطيع حتى الآن فهمه ؟ وهو ان اثنين مثلنا يجبان بعضهما هذا الحب

بالرغم من ذلك يتوجب موت احدهما .

- لا تتكلمي هكذا . على احدنا ان يموت قبل الآخر ولكننا ما زلنا بعيدين جداً عن كل هذا .
- على الانسان ان يموت عندما يشعر بالوحدة الحقيقية او عندما يشرع في كره ذاته ولكن ليس عندما يجب .

اجبرت نفسي على ابتسامة . . . اخذت يديها الدافئتين بين راحتي :
- نعم يا عزيزي ، فعندها لن نسمح بحدوث مثل هذه الامور . . لو استطع معرفة ما سيحدث بعد الموت . . هل تظن بأن الحياة ستستمر فيها بعد ؟
- بلا شك . . . فالحياة سيئة جداً والسوء لا يعرف نهاية . ابتسمت :
- انه سبب مقنع لاستمراريتها ، ولكن قل لي ، هل تظن بأن تلك سيئة الطالع ايضاً ؟ وأشار الى باقة ورد اصفر الى جانب سريرها .
- ان هذا بالذات هو ما أعنيه . . جزئيات الحياة جميلة جداً . . ولكنها ككل لا هدف لها . . لقد ضجت الحياة من خالق لم يبرز جمال جزئياتها الا بهدف تحطيمها .
- وليعيد بناءها من جديد .

- في هذه النقطة بالذات لا استطع فهمه كأنه لم يستطع من خلال هذه العملية ان يعطيها هدفاً حتى هذا اليوم .
- بلى يا عزيزي انظر الينا . . لقد أحسن صنعاً ، ولكنه اختصر الوقت .

بعد عدة ايام شعرت بوخزات في صدري وبدأت اسعل . سمع رئيس الاطباء السعال اثناء قيامه بجولته التفقدية فطلبني الى غرفة المعاينة .
- لا أظن بأن هناك سبباً يدعو للقلق .
- لا يهم . . ولكن عليك عدم الاقتراب من الأنسة هولمان ، تعال معي لنرى ما السبب .

انتابني احساس بالزهو وانا اخلع قميصي للمعاينة ، فلقد بدأت اخجل من صمتي وسط كل هؤلاء المرضى .
نظر الي الطبيب باستغراب :
- غريب امرك . .

انني فرح خفية . عاينني بدقة . نظرت الى الصور الشعاعية البيضاء على الحائط واخذت اتنفس ببطء وبسرعة حسب طلبه وعندما بدأت اشعر بالوخز يعاودني . .
عندها فقط شعرت بالارتياح لاستطاعتي تحمل بعض ما تعانيه بات من الم .
- انك مصاب بالرشح وعليك ان تلتزم سريرك لمدة يومين على الاقل . عليك ان

لا تدخل غرفة الانسة هولمان ، ليس بسبيك ، بل لتجنبها عدوى الرشح .
- هل استطيع محادثتها من خلال الباب او من الشرفة ؟
- ليكن من الشرفة ولكن لدقائق فقط ومن خلال شق الباب ولكن لفترة اقصر .
انك تعاني الى جانب الرشح من التهاب في الغشاء المخاطي في القصبات نتيجة التدخين .
- والرئة ؟

سألته وكلي أمل ان يكون هناك عطب بسيط لاكون راضياً مستريح البال مع بات .

أجابني :

- انك اصح انسان رأيت منذ سنين ، ولكن كبك يدعو قليلاً للتساؤل . لا بد وانك تتناول كميات كبيرة من الخمرة .

كتب لي وصفة بالدواء وعدت خائباً الى الغرفة . نادتنني بات من غرفتها .
- ماذا قال لك الطبيب ؟

- منعني من الاقتراب منك لفترة وجيزة فقط . منعني منعاً باتاً خوفاً من العدوى .

اجابت مذعورة :

- هل رأيت . . ؟ لقد حذرتك طوال هذه المدة .

- لقد حذرتني خوفاً من تسرب العدوى اليك وليس بالعكس .

- دعك من هذا المزاح واخبرني الحقيقة .

- الحقيقة هي كما اخبرتك .

ثم اشرت الى الممرضة التي جاءتني بالدواء .

- ارجوك ان توضح لي للآنسة هولمان من هو الاشد خطراً بيننا نحن الاثنين اجابت

الممرضة :

- السيد لوكامب . عليه ان لا يدخل غرفتك خوفاً من تسرب العدوى اليك .

اخذت تنقل نظرها بين الممرضة وبينني غير مصدقة ما تسمع ، عندها اقتنعت واخذت تضحك واستمرت تضحك بشدة حتى سالت دموعها ثم اخذت تسعل سعلاً شديداً مما اجبر الممرضة على الاسراع اليها .

- يا الهي كم بدا مظهرك مضحكاً يا عزيزي وانت تزهو مختالاً بمرضك .

بقيت فرحة ضاحكة المساء بكامله . بالطبع لم اتركها بمفردها بل تدرت بمعظفي وربطت شالاً حول عنقي وجلست على الشرفة ممسكاً الكأس بيد والسيجارة باليد

الآخري بينا وضعت زجاجة الكونياك الى جانبي واخذت اسرد عليها قصصاً من حياتي ، اصمت في بعض الاحيان لاسمع صوت ضحكاتها الهزيلة مستمداً منها الطاقة للاسترسال في مزيد من الحكايات . اخذت اكذب واسترسل في الكذب للحفاظ على تلك المعالم الضاحكة التي عادت الى وجهها . كنت سعيداً بسعالي الذي شابه نباح كلب وجرعت الزجاجة بكاملها ونهضت في صبيحة اليوم التالي صحيح الجسم .

هبّت ريح الالب الدافئة من جديد واخذت تعصف بالنوافذ ولاحت الغيوم منخفضة واخذ الثلج في الذوبان . اما المرضى فجلسوا في اسرتهم متوخزين يعانون من الحمى الشديدة . ازهرت براعم الزعفران على المنحدرات وظهرت على الطرقات اول السيارات بدواليبها العالية . اخذت بات تضعف اكثر واكثر ولم تعد تقوى على النهوض . كانت تتعرض خلال الليل الى نوبات من الاختناق فيتحول لون وجهها الى لون رمادي يعتره الخوف . كنت امسك بيديها المبتلتين آملاً مساعدتها في التغلب على هذه الساعات الحرجة وما ان تنتهي من مثل هذه النوبات حتى تقول :
- روبي ان هذا يعني الحياة ليوم آخر حيث يموت غالبية المرضى بعد ذلك خلال ساعات .

نعم لقد كانت تخشى الساعات الآخيرة بين الليل وبزوغ الشمس ، وتعتقد بأن شلال الحياة يتوقف بانتهاء الليل . لذلك كانت تخشى هذه الساعات فقط وترفض البقاء بمفردها . اما بقية الوقت فكانت تتحلى بكل الشجاعة الامر الذي حيرني .

طلبت نقل سريري الى غرفتها واخذت اجلس الى جانبها حينما تستيقظ وحين يبدأ ذلك الخوف والاستعطاف يملاً تلك العينين الحبيبتين . فكرت مراراً بحقن المورفين الموضوعة في حقيبي ولكنني لم اجرؤ على حقنها اياها لعلمي الاكيد بانها ستكون شاكراً لكل نهار جديد يطالعها . كنت اجلس الى جوارها على السرير واسرد الكثير عن طفولتي وبكل ما تجوده به ذاكرتي . كانت تحب سماع قصص المدرسة وخاصة بعد النوبات التي اخذت تزداد وتتابع . كانت تستمع بشغف لكل الحوادث التي صادفتني في الصف وتطلب مني ان اقوم بتقليد الطلاب الاشقياء والاساتذة ، وخاصة بعد زوال نوبات الترفع الحراري التي كانت ترميها شاحبة بلا حراك في سريرها . كنت امشي في الغرفة منحنيّاً وبوقار وقد وضعت على ذقني لحية من القطن الاحمر ناطقاً بالكلمات الموعظية الراشدة عن الاخلاق وآداب السلوك ، مقلداً بذلك ناظر المدرسة . كنت اخترع لها يوماً قصصاً جديدة من وحي الخيال بعد ان نفذت جمعيتي من الذكريات .

اصبحت بات تعرف بالتفصيل كل قصص المشاغبين في صفنا . في احدى الليالي هرعت ممرضة الليل الى غرفة بات بعد سماعها صوتي الأجش مقلداً بذلك صوت المدير وكم كانت دهشتها كبيرة حين رأنتي بقبعة نسائية متهدلة ملتفاً بغطاء السرير الابيض . أقفز هنا وهناك محذراً بأصبعي ، مهدداً بالعقاب للتلاميذ الكسالى وبلغة فصحي . واستغرقت مدة طويلة في اقناع الممرضة بأنني لست مجنوناً وانما اقوم بتمثيل دور المدير والتلاميذ المشاغبين . بدأت اشعة الصباح تتسلل رويداً رويداً عبر النافذة وبدت السماء من وراء تلك الجبال العالية كاشباح سوداء شاحبة باردة .

القت بات بوجهها المبتل على راحتي :

- لقد مضى ذلك الكابوس وها انا اكسب يوماً جديداً .

جاءني انطونيو في ذلك المساء بجهاز راديو لنستمع اليه سوية . ادرت المفتاح وبعد حشجة بسيطة صدح من خلاله صوت موسيقي . سألتني بات :

- ما هذا يا عزيزي ؟

- انه جهاز راديو اتانا به انطونيو وهذه محطة روما على ما اعتقد . في تلك الدقيقة علا صوت معدني عميق (راديو روما - نابولي) ادرت المفتاح الى محطة ثانية ، بيانو كونسيرت . .

- انها سوناتا الغابة لبيتهوفن . كنت اعزفها عندما كان يملؤني الامل بأن اصبح في يوم من الايام مدرساً للموسيقى أم مؤلفاً موسيقياً . نسيتهما الآن . دعينا منها . انها تحمل في طياتها ذكريات مؤلمة . غيرت الموجة فاذا بصوت دافئ مداعب ينشد :

(اقترب مني ايها الحبيب)

- انها باريس يا بات .

ثم انتقلت الى براغ ومن هناك علت مقطوعة اخرى لبيتهوفن . تابعت البحث واذا بصوت كمان عذب ينساب .

- لا بد وانها بودابست . هل تسمعين موسيقى العنجر ؟

عدلت مكان الموجة وراحت تلك الموسيقى تسبح في سماء الغرفة من عزف منفرد للكميان وناي الرعاة .

- اليست موسيقى رائعة ؟

صمتت استدرت اليها . كانت تبكي بعيون مفتوحة . اسرعت الى المذياع واسكته .

- ماذا بك يا بات ؟

واحطت عنقها النحيل بذراعي .

- لا شيء يا روبي . انه غباء مني ولكن حين اسمع كل هذه الاسماء : باريس روما ، بودابست ، يا الهي . وانا لا ازال طريحة الفراش واقصى املي هو زيارة القرية المجاورة ولولمة واحدة . أخذت احداثها بشتى الامور لابعدها عن كل هذا الحزن ولكنها هزت رأسها قائلة :

- لا ، لست حزينة يا عزيزي . انالست حزينة عندما ابكي . انها سحابة عابرة لن تستمر طويلاً . التفكير يمنعي من البكاء وبما انني افكر كثيراً فلن اعود للبكاء ثانية .

- بماذا تفكرين ؟

سألتها و قبلت شعرها :

- انني افكر بالأمر الوحيد الذي يشغلني ، بالحياة والموت . عندما يجزني التفكير جداً ولا اعرف جواباً لتساؤلاتي اقول لنفسي ان من الافضل لي أن اموت ، حالتي هذه كحالة اي امرئ يريد في الحياة اكثر من الموت ولكنه بالرغم من ذلك يتمنى الموت فما رأيك يا روبي ؟

- لست ادري .

- بلى .

ثم حنت رأسها على كتفي

- عندما يرغب الانسان في الحياة فلا بد من وجود ما يشده اليها . انها مسألة صعبة وسهلة في الوقت ذاته . . . انظر الي ، فأنا اعلم بأنني سأموت قريباً ، ولكني رغم ذلك سعيدة وشكورة لوجودك بقربي . كم سأكون بائسة ويلفني الحزن العميق لو استقبلت الموت وحيدة . صحيح ان قربك سيجعل الوداع صعباً ولكن الحب الذي ملأ كل كياني كما يملأ النحل خلاياه بالعسل حين يرجع الى منحلته مساء سيجعل العذاب مستحباً . ثق تماماً يا حبيبي بأنني لو خيرت بين الموت وحيدة وبسرعة دون عذاب أو الموت بقربك وبصعوبة لفضلت الاخير .

- ان هناك خيار ثالث يا بات ، فحين تنتهي رياح الالب الدافئة ستتحسن صحتك وتتعافين . حينها سنغادر هذا المكان سوية بلا عودة . تابعت نظراتها الفاحصة الي وقالت :

- انني اخاف عليك يا روبي ، فانت الذي ستقاسي الالم اكثر مني .

- دعينا من هذا الكلام يا بات .

أجابت :

- قلت ذلك حتى لا تعتقد بأنني حزينة .

ووضعت يدها على ذراعي وتابعت قولها :

- دع موسيقى العجر تشف آذاننا ثانية .

- هل تريدن سماعها حقاً ؟

- نعم يا عزيزي

ادرت مفتاح المذياع فانساب اصوات الكمان في ارجاء الغرفة ثم تصاعدت
بشاركها الناي واصوات التشيلو الخافتة في لحن عجري فرح .

- لحن جميل .

قالت بات :

- انه كالريح يملكك ليظير بك بعيدا بعيدا .

كانت الموسيقى منقولة عبر الاثير لكونستو مسائي اقيم في احدى حدائق
بودابست ، وكنا نسمع من خلال الفواصل الموسيقية اصوات الجمهور وصيحات
المعجبين . لقد ارغمني هذا اللحن على التفكير باشجار الكستناء وقد اورقت في
جزيرة المرغيت (بودابست) وبدت اوراقها تهتز امامي شاحبة تحت ضوء القمر
يدغدغها من حين الى حين ، النسيم المنبعث من الكمان . تخيلت ان المساء هناك
دافئ والناس تجلس في العراء وتنعم بهذا الدفء وامامهم كزوس من النيذ الهنغاري
الايض . والندل يركضون هنا وهناك بستراتهم البيضاء على انغام فرقة العجر .
تخيلتهم ذاهبين الى بيوتهم بعد انتهاء الامسية الموسيقية مع ضباب الصباح الربيعي
متعبين مترعين من تأثير النيذ والموسيقى . بينما ترقد بات هنا تنتظر مصيرها ضاحكة
رغم علمها الاكيد بأنها لن تخرج من غرفتها ولن تبرح سريرها ابدا .

تردت صحة بات من سيء الى اسوأ وبسرعة عجيبة ، وذاب اللحم عن وجهها
فبرزت تحت الجلد الرقيق عظام الوجنتين والجبين وعظام القفص الصدري ونحل
ذراعها واصبحا كذراعي طفل ، واصبح جسدها النحيل مهيشاً لاجتياح الترفع
الحروري .

جلبت الممرضة لها ولترات عدة اسطوانة الاكسجين لضيق تنفسها وبدأ الطبيب
يعاودها كل ساعة . بعد ايام زالت الحمى فجأة وبدون ان تجسد تبريراً لزاوها
فأفاقت بات من غيبوبتها ونظرت الى لفترة طويلة وقالت وبعناء :

- اعطني المرأة .

اجبتها .

- لماذا تريدن المرأة ؟ استريحى يا بات ، فلقد تجاوزت المرحلة الخطيرة كما

اعتقد . الحمد لله لقد زالت الحرارة .

- لا .

همست بصوت اجش محترق :
- اعطني المرأة .

مشيت حول السرير وتناولت المرأة عن المنضدة وتركتها تقع من يدي لتتناثر على الارض آلافا من القطع الصغيرة .
- في حقيتي توجد مرآة اخرى يا روبي .

كانت مرآة حقيتها صغيرة مصنوعة من الرصاص المطلي بالكروم .ناولتها بات بعد ان تركت بصمات اصابعي عليها كي لا تكون الرؤيا واضحة لكنها مسحت بصماتي بالمنديل وظلت تمسحها حتى اصبح بريقها يلتمع من جديد ثم راحت تنظر من خلالها الى وجهها بثقة وقالت هامة .

- يجب ان ترحل يا حبيبي .
- لماذا ؟ الم تعودني تحييني ؟
- بلى ، ولكن يجب ان لا تراني على هذا الشكل . لقد تغيرت كلياً ولم اعد اتعرف على وجهي .

انزعت المرأة من يدها وقلت :
- ان المرأة المعدنية سيئة ولا يمكن ان تكون الرؤيا من خلالها مطابقة للواقع .
انظري الي مثلا كيف ابدو في هذه المرأة ، نحيلاً وشاحباً بينما انا في الحقيقة اسمر اللون قوي البنية . الظاهر ان سطح المرأة متجدد لا يعكس الصورة الحقيقية .

اجابتنى بات هامة :
- يجب ان تحمل ذكرى صورتي الاخيرة على غير هذا الشكل . ارحل من هنا يا حبيبي . انني اصبحت في وضع استطيع فيه تحمل هذا الشقاء بمفردي .

استطعت تهدئتها بعد فترة . وما ان عادت الامور الى مجاريها حتى طلبت مني احضار المرأة ثانية وعلبة المساحيق من حقيتها . وشرعت تحفي معالم المرض من تشقق الشفتين والدائرتين المزرقتين حول عينيها الغائرتين تحت طبقة من المساحيق وتمتمت قائلة :

- شيء اخير عليك ان تتعلمه .

وحاولت الابتسام ثم تابعت :
- هو اني لا اريدك ان تراني قبيحة ابدا - اجبت :
- يمكنك ان تفعل ما شئت فلن تكوني قبيحة في نظري . فانت بالنسبة لي اجمل مخلوق في هذا العالم .

انتزعت المرأة وعلبة المساحيق من يدها واحطت برفق رأسها بين ذراعي بدأ
الاضطراب يظهر عليها بعد فترة ، فبادرتها بالسؤال :

- ما الذي يقلقك يا بات ؟

- انها تدق بقوة .

- ماهي ؟ ساعة يدي ؟

- فهزت رأسها بالموافقة .

- انها ترعد .

انتزعت الساعة من معصمي ، فنظرت بات بخوف الى عقرب الثواني .

- ابعدا عني .

امسكت الساعة ورميتها على الجدار بقوة ، وقلت :

- لن تدق مرة ثانية . توقف الزمن ، فنحن قد مزقناه اشلاء في منتصف دورته
وبقينا لوحدا انت وانا ولا آخر سوانا .

نظرت الي ، كانت عيناها واسعتين جداً ، وهمست :

- حبيبي .

لم استطع تحمل نظراتها فلقد كانت نظرة آتية من بعيد اخترقتني لتذهب الى مكان
لست اعرفه .

- ايها الرفيق القديم .

- يا حبيبي ، أيتها الشجاعة - ايها الفتى العتيد .

توفيت في آخر ساعات الليل وقبل ان يأتي الصباح . تعذبت كثيراً قبل موتها ولم
يستطع احد مساعدتها ، أمسكت يدي بقوة ولم تعد تشعر بوجودي في آخر
لحظاتها . لست اعرف بالضبط متى قيل لي انها ماتت.صرخت بوجه القائل :

- لا ، انها لم تمت فهي لا تزال تمسك بيدي بقوة . ضوء - ضوء - ضوء اصفر

يعمي العيون . اناس - اناس حوي - الطيب . . . فتحت ببطء يدي وتركت يد بات

تهبط الى الاسفل . . . دم . . . وجه نحيل . مختنق . . . عينان جامدتان من شدة

العذاب . . . شعر حريري بني . صرخت باعلى صوتي :

- بات ، يا بات .

ولأول مرة لم تجب ندائي . طلبت من الحاضرين الانصراف .

- اريد ان ابقى وحيداً معها .

أجابني احدهم :

- الا يجب عمل -

لم ادعه يتابع جملته وصرخت كالمصعوق :
- اخرجوا ولا تمسوها .

مسحت الدم عن فمها بكل هدوء ، وكأنني خلقت من خشب ، ومن ثم سرحت شعرها . لقد كانت باردة . ثم حملتها ووضعتها في سريري وغطيتها بدثار صوفي وجلست الى جانبها ناظراً اليها مشغول التفكير . أتى الكلب وجلس الى جانبي هادئاً . لقد تحول وجهها الى وجه آخر ولم اعد استطيع أن أعمل شيئاً آخر سوى الجلوس والنظر اليها .

وبعدها اتى الصباح ولم تعد بات موجودة .

انتهت

ثلاثة رفاق

● ولد إريش مازيا ريمارك عام ١٨٩٨ في مدينة اوزنابروك في ألمانيا .
تطوع عام ١٩١٦ في الجيش حيث شارك في الحرب العالمية الأولى . نشر عام
١٩٢٩ روايته الأولى « لا جديد في الجبهة الغربية » ، التي كرسه كواحد
من أكثر كتاب ألمانيا شهرة . وفي عام ١٩٣٣ احرق النازيون كتبه بتهمة أنها
تمثل خيانة ادبية بحق الجندي الألماني .

بالإضافة الى « ثلاث رفاق » ، و« لا جديد في الجبهة الغربية » نشر
ريمارك « طريق العودة » عام ١٩٣٩ ، و« قوس النصر » ١٩٤٦ ،
و« شرارة الحياة » ١٩٥٢ ، و« وقت للحياة ووقت للموت » ١٩٥٢ و« ليلة
لشبونة » ١٩٦٢ .

● تحكي « ثلاثة رفاق » عن مصائر ثلاثة رفاق عايشوا الحرب على الجبهة
معاً ، ثم التقوا بعد الحرب فامتلكوا ورشة لتصليح السيارات في خضم
الازمة الاقتصادية التي مهدت لصعود النازية . وبأسلوبه السري والممتع
يستعرض ريمارك حياة هؤلاء الرفاق في حياتهم اليومية وسكنهم وعملهم
ولقاءاتهم الصاخبة واقتصاداتهم وهزائمهم . فيضعنا في اجواء صعود النازية
دون اي تعليق تفسيري .